

كتاب
تسهيلا للنظر وتجيلا للظفر
في أخلاق الملك وسياسة الملك

تأليف
أقضى القضاء أبو الحسن علي بن محمد الماوردي

مراجعة وتقديم
الدكتور حسين السكاكيني
رئيس قسم الاجتماع
كلية الآداب - جامعة بيروت العربية

تحقيق
محيي الدين إبراهيم السكاكيني
المدرسة الفلسفية
كلية الآداب - جامعة بغداد

١٩٨١

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت - ص.ب. ٧١٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[مقدمة]

الحمد لله الذي جعل الحق مُعْزَراً لمن اعتقده وتَوَحَّاه، ومُعِيناً لمن اعتمده وابتغاه، وجعل الباطل مُذِلًّا لمن أثره وارتضاه، ومُذِيلاً^(١) لمن أظهره واقتضاه، حمداً يوازن جميل نعيمه، ويضاهي جزيل قسيمه، وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله وصحابه^(٢).

أما بعد: فإن الله جلَّ اسمه [ب] بليغ^(٣) حكمته وعدل قضاياه جعل الناس أصنافاً مختلفين، وأطواراً متباينين، ليكونوا بالاختلاف مؤتلفين، وبالتباين متفقين، فيتعاطفوا^(٤) بالإيثار^(٥) تابعاً ومتبوعاً، ويتساعدوا على التعاونِ آمراً ومأموراً [كما قال الشاعر]^(٦): [من الطويل].

وَبِالنَّاسِ عَاشَ النَّاسُ قَدْماً وَلَمْ يَزَلْ
مِنَ النَّاسِ مَرْغُوبٌ إِلَيْهِ وَرَاجِبٌ^(٧)

(١) مذيلاً، (كذا): اسم فاعل من (أذال)، بمعنى: (مهيئاً)، قال الفيروز أبادي: «وأذلت: أهنت» (القاموس، مادة ذيل) ٣ / ٣٩١.

(٢) سقطت كل هذه المقدمة من (ط)، وجاء فيها بعد البسملة: قال أفضى القضاة أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، في أثناء خطبته، في كتابه الملقب بتسهيل النظر وتعميل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك: أما بعد...

(٣) غ: بليغ، ط: فإن الله عز وجل لتبلغ حكمته...

(٤) غ: ويتعاطفوا، وما أثبتاه عن ط.

(٥) ط: بالامتنياز.

(٦) الزيادة من ط. والشاعر هو أبو نواس الحسن بن هاني الشاعر المعروف.

(٧) غ: فبالناس... إلخ وما أثبتاه عن ط، وعن مصادر التخريج، وقد استشهد المؤلف بهذا البيت على أنه من الأمثال والحكم في كتابه (الأمثال والحكم مخطوط-الورقة ٨ب) دون أن =

فَوَجَبَ التَّفْوِضُ إِلَى إِمْرَةِ سُلْطَانٍ مُسْتَرْعَى، يَتَقَادُ النَّاسَ لَطَاعَتِهِ، وَيَتَدَبَّرُونَ بِسِيَاسَتِهِ، لِيَكُونَ بِالطَّاعَةِ قَاهِرًا، وَبِالسِّيَاسَةِ مُدَبِّرًا. وَكَانَ أَوَّلَى النَّاسِ بِالْعَنَاءِ مَا سَيَسَتْ بِهِ الْمَمَالِكُ، وَدُبِّرَتْ بِهِ الرِّعَايَا وَالْمَصَالِحُ، لِأَنَّهُ زِمَامٌ يَقُودُ إِلَى الْحَقِّ، وَيَسْتَقِيمُ بِهِ أَوْدُ الْخَلْقِ.

وَقَدْ أَوْجِزْتُ بِهَذَا الْكِتَابِ مِنْ سِيَاسَةِ الْمُلْكِ مَا أَحْكَمَ الْمُتَقَدِّمُونَ قَوَاعِدَهُ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ مَلَةٍ سِرَّةً، وَلِكُلِّ زَمَانٍ سِرِيرَةً، فَلَمْ يُغْنِ مَا سَلَفَ عَنْ مُؤْتَلَفٍ مِنَ الشَّرِيعَةِ عَهْدَهَا، وَمِنَ السِّيَاسَةِ مَعْهَدَهَا؛ لِيَكُونَ لِلدِّينِ مُوَافِقًا، وَلِلدُّنْيَا مُطَابِقًا.

وَجَعَلْتُ مَا تَضَمَّنَتْهُ بَابَيْنِ:

فَالْبَابُ الْأَوَّلُ: فِي أَخْلَاقِ الْمُلْكِ.

وَالْبَابُ الثَّانِي: فِي سِيَاسَةِ الْمُلْكِ.

لِيَكُونَ مُشْتَمِلًا عَلَى مُعْتَقَدٍ وَمَفْعُولٍ، وَمُصْلِحًا لِعَامِلٍ وَمَعْمُولٍ، وَتَرْجُمَتُهُ بـ: تَسْهِيلِ النَّظَرِ وَتَعْجِيلِ الظُّفْرِ، إِذْ كَانَ مَا تَضَمَّنَتْهُ دَاعِيًا إِلَيْهِ وَبَاعِثًا (٢٧ آ) عَلَيْهِ.

وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ حُسْنَ الْمَعُونَةِ وَالتَّوْفِيقِ، وَأَرْغَبُ إِلَيْهِ فِي إِمْدَادِي بِالرُّشْدِ وَالتَّسْدِيدِ، وَهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.



= ينسبه لقائل، وباللهفظ نفسه. والبيت لأبي نواس، انظر ديوان بتحقيق إيفالد فاغز ١٧٤/٢، وبتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي ٦١٦، وديوانه الذي نشرته مكتبة النهضة ببغداد ٨٢/١ وهو فيها كلها بلفظ (... كان الناس قداماً...) ولم أجد البيت في ديوانه باعتناء الزهار المطبوع بمطبعة جمعية الفنون سنة ١٣٠١م / ١٨٨٤م في ٥٢ صفحة. وهو في زهريات أبي نواس ص ٩٦، القطعة رقم ٥٣ وهو فيها بلفظ «... كان الناس...» مرغوب اليدين...».

الباب الأول في أخلاق الملك

[تمهيد]:

الأخلاق غرائزٌ كامنةٌ، تظهرُ بالاختيار، وتُفهرُ بالاضطرار.
وللنفس أخلاقٌ تحدثُ عنها بالطَّبعِ، ولها أفعالٌ تصدرُ عنها بالإرادة،
فهما ضربانِ، لا تنفكُ النفسُ منهما:
أخلاقُ الذاتِ.
وأفعالُ الإرادة.

[الفصل الأول]

[أَخْلَاقُ الذَّاتِ]

فَأَمَّا أَخْلَاقُ الذَّاتِ فَهِيَ مِنْ نَفَائِجِ ^(١) الْفِطْرَةِ، وَسُمِّيَتْ أَخْلَاقًا لِأَنَّهَا تَصِيرُ كَالْخَلْقَةِ.

وَالْإِنْسَانُ مَطْبُوعٌ ^(٢) عَلَى أَخْلَاقٍ قَلَّ مَا حَمِدَ جَمِيعُهَا، أَوْ ذَمَّ سَائِرُهَا، وَإِنَّمَا الْغَالِبُ أَنَّ بَعْضَهَا مَحْمُودٌ، وَبَعْضُهَا مَذْمُومٌ، لِاخْتِلَافِ مَا امْتَزَجَ مِنْ غَرَائِزِهِ، وَمُضَادَّةِ مَا تَنَافَرَ مِنْ نَحَائِزِهِ ^(٣)؛ فَتَعَذَّرَ لِهَذَا التَّعْلِيلِ أَنْ يَسْتَكْمَلَ فُضَائِلُ الْأَخْلَاقِ طَبْعًا وَغَرِيزَةً، وَلَزِمَ لِأَجْلِهِ أَنْ تَتَخَلَّلَهَا رِذَائِلُ الْأَخْلَاقِ طَبْعًا وَغَرِيزَةً، فَصَارَتْ الْأَخْلَاقُ غَيْرَ مُنْفَكَّةٍ فِي جِبِلَّةِ الطَّبْعِ، وَغَرِيزَةِ الْفِطْرَةِ، مِنْ فُضَائِلٍ مَحْمُودَةٍ، وَرِذَائِلٍ مَذْمُومَةٍ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ: [مِنْ الطَّوِيلِ]

وَمَا هَذِهِ الْأَخْلَاقُ إِلَّا طِبَائِعُ
فَمِنْهُنَّ مَحْمُودٌ وَمِنْهَا مُذَمَّمٌ

قال بعض الحكماء:

(١) النفايج جمع نفيجة، وهي كل شيء يصدر بقوة وبحدة، مأخوذة من نفج الأرنب أي ثار، أو الشيء إذا ارتفع، أو الريح إذا جاءت بغتة (نهاية ابن الأثير ٨٨ / ٥ مادة نفج) أو إذا جاءت بقوة (قاموس ٢١٧ / ١ والمصباح المنير ٢ / ٩٥١) أو نفج الثدي القميص إذا رفعه (أ) البلاغة ٢ / ٩٧٦ وقد يطلق على القوس (المعجم الوسيط ٢ / ٩٣٨).

(٢) قوله: «والإنسان مطبوع على أخلاق قل ما حمد جميعها أو ذم سائرها...» ذكر المؤلف معنى ذلك في كتاب أدب الدنيا والدين إذ قال:

«اعلم أن النفس مجبولة على شيم مهمة، وأخلاق مرسلّة، لا يستغني محمودها عن التاديب، ولا يكفي بالمرضي منها عن التهذيب، لأن لمحمودها أصداداً مقابلة، يسعد لها هوى مطاع، وشهوة غالبة...» (أدب الدنيا والدين ص ٢١٠).

(٣) النحائر جمع نحيزة: الطبيعة (قاموس ٢ / ٢٠٠) وانظر (ختار الصحاح ٥١٥) قال ابن دريد: «الغريزة: الطبيعة والجمع الغرائز. فلان كريم الغريزة، والطبيعة، والنحيزة، والنحيتة، والخلقية، والسليقة، كل ذلك واحد» (الجمهرة مادة غرز ٢ / ٣٢٢).

لكلّ خلقي من الفضلِ رقيبٌ من الدّناءةِ، لا يمتنعُ منه إلّا مؤثّرٌ للفضلِ
على ما سواه.

[من هو الفاضل؟]:

وإذا استقرّت هذه الأخلاقُ على هذه القاعدةِ، فالفاضلُ من غلبَتْ
فضائلُهُ رذائلُهُ؛ فقدَر بوفورِ الفضائلِ على قهرِ الرذائلِ، فسَلِمَ من شينِ
النقصِ، وسَعِدَ بفضيلةِ التخصيصِ، ولذلك قالَ عليٌّ عليه السلامُ:
«أَوَّلُ مَا تَبْتَدِثُونَ بِهِ مِنْ جِهَادِكُمْ جِهَادُ أَنْفُسِكُمْ»^(١).

وهذا واضحٌ؛ لأنَّ صلاحَ النفسِ يُصلحُ ما عداها، فكانت أخصَّ
بالتقديمِ (٢ب) وأوّلَى بالتقويمِ.

[إلى أيّ شيءٍ تعود الأخلاقُ؟]:

واختلَفَ في الأخلاقِ، هل هي عائدةٌ إلى الفضائلِ والرذائلِ؟ أو إلى
النفسِ التي تصدر عنها الفضائلُ والرذائلُ لظهور الأخلاقِ بهما؟.

وذهب بعضهم [إلى] أنّها عائدةٌ إلى [الذاتِ] التي حدوثُ النفسِ
عنها.

(١) غ: (أو) بسقوط اللام.

وقول الإمام علي: أول ما تبتدثون... ورد معناه بالفاظ مختلفة منسوبة إليه منها: «أول ما
تنكرون من الجهاد جهاد أنفسكم، وآخر ما تفقدون مجاهدة أهوائكم وطاعة أولي الأمر
منكم» عرر الحكم ٩٨. ويلفظ: «إنَّ أول ما تغلبون عليه من الجهاد جهاد بأيديكم...»
ص ١١١ منه. ويلفظ: «أفضل الجهاد مجاهدة المرء نفسه» ص ١٠٣ و ٨٨ منه. ويلفظ: «أفضل
الجهاد جهاد النفس عن الهوى، وفطامها عن لذات الدنيا» ص ٩٥ منه. ويلفظ: «جهاد
النفس أفضل جهاد» ص ١٦٤. ويلفظ: «خير الجهاد جهاد النفس» ص ١٧١ منه. وفي مختار
الحكم بلفظ: «أشد الجهاد مجاهدة الإنسان غيظه» غير منسوب ص ٣٤٠، ومن أقواله في نهج
البلاغة: «جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم» شرح نهج البلاغة ٤ / ٥٥٣، وهذه
المعاني وردت أقوال له بالفاظ أخرى شرح نهج البلاغة: ٢ / ١٣٧، ٢ / ٥٤٥.

[لأَيِّ شَيْءٍ تُرَادُّ فَضَائِلُ الذَّاتِ؟]:

واختلفوا في فضائل الذات، هل تُرَادُّ لذواتِها؟ أو للسعادةِ الحادثةِ عنها؟.

فذهب بعضُ الحكماءِ إلى أَنَّ المرادَ بالفضائلِ ذواتُها؛ لأنها المكسبةُ للسعادةِ.

وذهب بعضهم إلى أَنَّ المرادَ بها السعادةُ الحادثةُ عنها؛ لأنها الغايةُ المقصودةُ [ة] بها.

[إِلَى أَيِّ شَيْءٍ تَتَوَجَّهُ السَّعَادَةُ؟]:

واختلفوا في السعادةِ، هل تتوجَّه إلى الفضائلِ المحمودَةِ؟ أو إلى ما يحدثُ عن الفضائلِ من الحمدِ؟.

فذهب بعضُ الحكماءِ إلى توجَّه السعادةِ إلى الفضائلِ المحمودَةِ؛ لأنها نتيجةُ أفعاله.

وذهب بعضهم إلى توجَّه السعادةِ إلى ما يحدثُ عن الفضائلِ من الحمدِ؛ لأنها ثمرةُ فضائله.

[وَجُوبُ اهْتِمَامِ ذِي الْأَمْرِ بِمِرَاعَاةِ أَخْلَاقِهِ]:

فحقُّ على ذِي الْأَمْرِ وَالسُّلْطَانِ أَنْ يَهْتَمَّ بِمِرَاعَاةِ أَخْلَاقِهِ، وَإِصْلَاحِ شَيْئِهِ؛ لِأَنَّهَا آلَةُ سُلْطَانِهِ، وَأَسُّ إِمْرَتِهِ، وَلَيْسَ يُمْكِنُ صَلَاحُ جَمِيعِهَا بِالتَّسْلِيمِ إِلَى الطَّبِيعَةِ، وَالتَّفْوِضِ إِلَى النَحِيْزَةِ، إِلَّا أَنْ يَرْتَضِيَ لَهَا بِالتَّقْوِيمِ وَالتَّهْذِيبِ، رِيَاضَةً تَهْذِيبَ، وَتَدْرِيجَ، وَتَأْدِيبَ، فَيَسْتَقِيمُ لَهُ الْجَمِيعُ [بَعْضُهَا] خَلْقٌ مَطْبُوعٌ، وَبَعْضُهَا خَلْقٌ مَصْنُوعٌ؛ لِأَنَّ الْخَلْقَ طَبْعٌ وَغَرِيزَةٌ، وَالتَّخْلُقُ تَطْبِيعٌ وَتَكْلُفٌ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

يَا أَيُّهَا الْمُتَحَلِّي غَيْرِ شَيْئِهِ وَمِنْ سَجِيَّتِهِ الْإِكْثَارُ وَالْمَلَقُ

عليك بالقصد فيما أنت فاعله إن التخلق يأتي دونه الخلق^(١)
 قال بعض الحكماء: ليس شيء عولج إلا نفع وإن كان ضاراً،
 ولا شيء أهمل إلا ضر وإن كان نافعاً.
 [أنواع الأخلاق]:

فتصير الأخلاق نوعين^(٢):

(١) البيتان قد نسباً إلى أكثر من شاعر:

فهما مرة لسالم بن وابصة (انظر ديوان ص ٣٣) والبيان والتبيين ١ / ٢٣٣ بلفظ (اعمد إلى
 القصد فيما أنت راكمه) مع أربعة أبيات أخرى، وانظر حاشية ص ١٦٦ من الجزء الأول منه.
 وانظر الحماسة للمرزوقي ١ / ٢٩٥ ، ونوادر أبي زيد ١٩١ ، والمؤتلف ١٩٧ ، والتذكرة
 السعدية ١ / ١٣٥ وفيها إحالات، والمستطرف ١ / ١٣٣ ، وهما مرة ثانية للمرجي (انظر
 ديوانه) والحيوان ٣ / ١٢٧ ، والعقد الفريد ٢ / ٢٤ ، ٣ / وهما فيه بلفظ (ارجع إلى خيمك
 المعروف ديدنه...) وزهر الأدب ١ / ٧٧ والشعراء (تحقيق السقا) ص ٢٢٤.
 وهما مرة ثالثة لذي الإصبع العدواني (انظر ديوانه ص ٦٨ القطعة رقم ١٣) بلفظ: (اعمد إلى
 الحق فيما أنت فاعله)، وحماسة البحري (ص ٣٥٨) بلفظ (اعمد إلى الحق فيما كنت فاعله)،
 ومجموعة المعاني ١٦٠. وهما مرة رابعة غير منسوين، فقد ورد الثاني في الإمتاع والمؤانسة
 بلفظ (١٥٩ / ١)

ارجع إلى خيمك المعروف ديدنه إن التخلق يأتي دونه الخلق
 وفي عيون الأخبار (ط / ٦) بلفظ (ارجع إلى خلقك المعروف ديدنه)، وقد أورد ابن رشيق
 شرطاً من كل بيت بهذه الصورة:

يا أيها المتخلي غير شيمته إن التخلق يأتي دونه الخلق
 ولا يواتيك فيما ناب من حدث إلا أخو ثقة فانظر بمن تشق
 انظر العمدة (١ / ٢٥٠) وكذلك وردا في الكامل للمبرد (١ / ١٦).

(٢) لخصت نسخة طهران ما سبق وما لحق بعبارة فيها زيادة، إذ جاء فيها ما نصه: «وقال
 في أثناء كلامه في وصفه لأخلاق الملك: وشريف الأحوال لا يتصرف فيه إلا بشريف
 الأخلاق سواء كان طبعاً أو تطبعاً؛ لأن الأفعال نتائج الأخلاق، ونوازع الهمم. وقد نبه الله
 تعالى في كتابه على ذلك بقوله لنيه صلى الله عليه وسلم «وانك لعل خلق عظيم»، لأن
 النبوة لما كانت أشرف منازل الخلق لاشتمالها على شرائع الدين ومصالح الدنيا نذب الله لها
 من قد أكمل فضائل الأخلاق وحاز أشرف الأعراق، ولذلك قال النبي صلى الله عليه
 وسلم: «بعثت بكمكارم الأخلاق» قال: كذلك سياسة الملك لما كانت تالية لحالها، وجب أن
 تكون مشاكلة لخصالها، فصارت فضائل الأخلاق نوعين: غريزية طبع عليها، ومكتسبة
 تطبع لها، فالملوك بالفضائل الغريزية أخص من العامة، فهي فيهم أوفر، وعليهم أظهر،
 لكرم منشهم، وعلو همهم قال الشاعر:

غريزية^(١) طَبِعَ عليها.

ومكتسبة^(٢) تَطَبَّعَ لها.

والملوك (٣) بالفضائل الغريزية أَخَصَّ بها من العامة؛ لأنها فيهم أَوْفَرُ، وعليهم أَظْهَرُ، لِمَا خُصُّوا بِهِ مِنْ كَرَمِ الْمُنْشَأِ وَعِلْوِ الْهَمَّةِ. والعامة بالفضائل المكتسبة أَخَصَّ من الملوك؛ لأنَّهم إلى التماسيها أَسْرَعُ، ولكلالها أَطْوَعُ، لكثرة فراغهم لَهَا، وتوفرهم عليها، إمَّا لرغبة في جَذْوَاهَا، وإمَّا لرهية من عَذْوَاهَا. وهذان المعنيان في الملوك معدومان^(٣)، إِلَّا مَنْ شَرَفَتْ نَفْسُهُ فَمَالَ إِلَيْهَا لَعَلَّوْ هَمَّتِهِ، وتوفَّرَ عليها لكرم طَبِيعِهِ، لأنَّه^(٤) لَا يَغْرَى مِنْ فَضْلِ مَكْتَسَبٍ، وَلَا يَخْلُو مِنْ فِعْلٍ مُسْتَصَوَّبٍ، لِيَتَفَرَّدَ بِفَضَائِلِ النَّفْسِ، كَمَا تَفَرَّدَ بَعَزُ السُّلْطَانِ وَالْأَمْرِ، فيصير بتدبير سلطانه أَخْبَرَ، وعلى سياسة رعيته^(٥) أَقْدَرُ، والحمدُ يستحقُّ على الفضائل المكتسبة؛ لأنها مُسْتَفَادَةٌ بِفِعْلِهِ، وَلَا يَسْتَحِقُّ عَلَى الْفَضَائِلِ الْمَطْبُوعَةِ فِيهِ، وَإِنْ حُمِدَتْ لِحُجُودِهَا بِغَيْرِ فِعْلِهِ.

[تفاضل الأخلاق]:

واختلَفَ فِي أَفْضَلِيَّتِهِمَا ذَاتَا:

فَفُضِّلَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ أَخْلَاقَ الطَّبِيعِ الْغَرِيْزِيِّ عَلَى أَخْلَاقِ التَّطَبُّعِ^(٦) الْمَكْتَسَبِ، لِقُوَّةِ الْغَرِيْزِيِّ، وَضَعْفِ الْمَكْتَسَبِ.

= و وما هذه الأخلاق إلَّا طَبَائِعُ فَمِنْهُمْ عَمُودٌ وَمِنْهَا مِنْهُمْ [وقال آخر]:

بِأَيِّهَا الْمُتَحَلِّي غَيْرِ شِمَّتِهِ
عَلَيْكَ بِالْقَصْدِ فِيمَا أَنْتَ فَاعِلُهُ
وَمِنْ سَجِيَّتِهِ الْإِكْثَارُ وَالْمَلَقُ
إِنْ التَّخَلَّقَ بِأَيِّ دُونِهِ الْخَلْقُ

(١) غ: غريزة) وما أثبتناه عن ط.

(٢) غ: (مكتسب) وما أثبتناه عن ط.

(٣) غ: (معدوم).

(٤) غ: (لأن).

(٥) غ: (برعايته).

(٦) غ: (تطبع).

وفضّل آخرون أخلاق التطبّع المكتسب على أخلاق الطّبع الغريزي؛ لأنها قاهرة لأصداها بالانتقال إلى ما ضاهاها.

وقال آخرون: كل واحد منهما محتاج إلى الآخر؛ لأن الأخلاق لا تنفكّ منهما بمنزلة الروح والجسد. وكما لا يظهر أعمال الروح إلاّ الجسد، ولا ينهض الجسد إلاّ بحركة الروح، كذلك الغريزة والاكتساب متقابلان في الفعل ومشاركان في الفضل؛ فتساويا في الطبع والغريزة، كما قال البحرّي^(١):

[من المنسرح]:

وَلَسْتُ أَعْتَدُ لِفَتَى حَسَبًا
حَتَّى يُرَى فِي فِعَالِهِ حَسْبُهُ^(٢)

وفرق بعض أهل اللغة بينهما في الاسم فقال:

الطّبع هو الختم^(٣)، والتطبّع هو الخلق^(٤). (٣ب).



(١) البحرّي: أبو عبادة الوليد بن عبيد الشاعر المشهور المتوفى سنة ١٩٩هـ والبحرّي نسبة إلى بحر، وهو أحد أجداده، وديوانه مطبوع عدة طبعات في استانبول وبيروت وغيرهما، وقد اختار أبو بكر عبد القاهر الجرجاني من ديوانه ووضع له عنواناً باسم المختار من دواوين المتنبي والبحرّي وأبي تمام وقد حققه عبد العزيز الميمني وطبع ضمن الطرائف الأدبية بمطبعة لجنة التأليف في القاهرة ١٩٣٧.

(٢) البيت في ديوان البحرّي (طبعة صادر ص ٢٢٧) ضمن قصيدة يمدح بها أبا العباس بن بسطام، ولم أجده في كتاب المختار من دواوين المتنبي والبحرّي وأبي تمام لعدم القاهرة الجرجاني (ضمن الطرائف الأدبية).

(٣) الختم بالناء كذا وردت في الأصل غ قال الجوهري: والطبع الختم وهو التأثير في الطين ونحوه (الصحاح مادة طبع ٣/ ١٢٥٢).

(٤) قوله: وفرّق بعض أهل اللغة بينهما في الاسم... إلخ انظر بشأن هذين الاصطلاحين جمهرة اللغة مادة طبع ١/ ٣٠٦، والصحاح مادة طبع ٣/ ١٢٥٢ وتهذيب اللغة مادة طبع ١٨٦/ ٢.

[الفصل الثاني]

[أوائل الفضائل وأواخرها]

[مبادئ الفضائل]:

وللفضائل مبادئ^(١) هي أوائل وأواخر.

وأول الفضائل العقل.

وآخرها^(٢) العدل.لأن العقل أصل^(٣) الفضائل؛ بحدوثها عنه، وتدبيرها به؛ فلذلك كان أولها.والعدل نتيجة الفضائل؛ لأنها مقدره به؛ فلذلك صار آخرها^(٤).

وهما قرينان مؤتلفان، وما أثتلف أمران إلا كان أحدهما محتاجاً إلى الآخر اضطراراً، وما سواهما من الفضائل واسطة بين العقل والعدل، يختص العقل بتدبيرها، والعدل بتقديرها؛ فيكون العقل مدبراً، والعدل مقدرراً، وليس تنفك الفضائل بواحد منهما، وإنما تنفك بالنفس المطبقة لهما، فإن كانت النفس زكية صافية تهيأت للفضائل^(٥)؛ فعملت بها. وإن كانت خبيثة تهيأت

(١) غ: مباد بالتثوين.

(٢) غ: وأخره.

(٣) غ: أول الفضائل. وما أثبتناه عن ط التي حذفنا كلامه المبتدئ بقوله «والعامة بالفضائل المكتسبة أخص من الملوك...» إلى بداية هذا الفصل فجاء فيها ما نصه: «قال أفضى القضاء أول الفضائل العقل، وآخرها العدل، لأن العقل أصل الفضائل فكان أولها، والعدل نتيجة الفضائل فكان آخرها. وهما قرينان مؤتلفان، ولم يأتلف أمران إلا كان أحدهما محتاجاً إلى الآخر اضطراراً، وما سواهما من الفضائل واسطة بين العقل والعدل. يختص العقل بتدبيرها، والعدل بتقديرها، فيكون العقل مدبراً، والعدل مقدرراً. وقد قال بعض الحكماء المتقدمين... إلخ».

(٤) غ: آخرها.

(٥) غ: للفضل.

لِلرذائل، فَعَدَلْتُ إِلَيْهَا، وَصَارَ مَا وَافَقَهَا^(١) مِنْهَا سَهْلًا عَلَيْهَا فِي سُرْعَةِ انْفِعَالِهِ بِحُكْمِ الْمُنَاسِبَةِ، وَمَا خَالَفَهَا^(٢) صَعَبًا عَلَيْهَا فِي تَأَخُّرِ انْفِعَالِهِ بِحُكْمِ الْمُنَافَرَةِ. لِأَنَّ مُوَافَقَةَ الْأَشْكَالِ مُرَكَّزَةٌ فِي الطَّبَاعِ كَمَا قِيلَ:

المَوَدَّةُ مُشَاكَلَةٌ طَبِيعِيَّةٌ فِي أَنْوَاعِ شَخْصِيَّةٍ يُمَازِلُ بَعْضُهَا بَعْضًا مِنْ حَيْثُ يَعْلَمُ وَمِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ.

قال بعض الحكماء [المتقدمين]:

إن^(٣) قواعد الأخلاق الفاضلة أربع، يتفرع عنها ما عداها من الفضائل، وهي التمييز^(٤)، والنجدة، والعفة، والعدل، ويتفرع عن أضدادها [الكثير] من الرذائل^(٥).

[أوائل الرذائل وأواخرها]:

وللرذائل^(٦) مبادئ هي أوائل، وغايات هي أواخر.

- (١) غ: وافقها.
- (٢) غ: خالفها.
- (٣) الزيادة من ط.
- (٤) غ: التمييز، ط: التمييز بالهمز.
- (٥) قوله: قال بعض الحكماء المتقدمين قواعد الأخلاق الفاضلة أربع... إلخ. ذكر ابن مسكويه أن الحكماء أجمعوا على «أن أجناس الفضائل أربع وهي: الحكمة، والعفة، والشجاعة، والعدالة» (تهذيب الأخلاق ص ٢٠). وذكر ابن حزم أن «أصول الأخلاق أربعة عنها تتركب كل فضيلة وهي: العدل، والفهم، والنجدة، والجلود» (رسالة الأخلاق ٥٣). وقال أوشهنج: «جماع أمر العباد في أربع خصال: العلم والحلم والعفاف والعدالة» (الحكمة الخالدة ٦). وقد ذكر ابن المقفع جماع الفضائل وفرع عليها ما عداها وهي «الحكمة، والعفة، والعقل، والعدل» (كلیلة ودمثة ٢٤). وفي كلام الإمام علي «ثلاث هن جماع الدين: العفة، والورع، والحياء» (غرر الحكم ١٦١) و(كتاب ٢٠٠٠ كلمة للإمام علي ص ٤٢ رقم ٩٣٨) وكان يقال «من أراد السيادة فعليه بأربع: العلم والأدب والعفة والأمانة» (معجم الأدياء ١ / ٧٤). وقد جاء هنا في (ط) قوله: قال بعض الحكماء: من بدأ بسياسة نفسه... إلخ مما سيأتي.

- (٦) الرذائل: قال أبو الحسن محمد بن أبي ذر يوسف العامري النيسابوري: «الرذيلة حال لازمة إلى زيادة على الوسط المضاف إلينا أو نقصان، قال أرسطوطاليس: الرذائل كلها إما تثبت بالريادة والنقصان. قال: وأما التوسط من الأفعال كلها ومن الأحوال فإنه محمود...» (السعادة والإسعاد في السيرة الإنسانية ص ٧٤).

فأَوَّلُ الرذائل الحمقُ.

وآخرُها الجهلُ.

وفي الفرقِ بينهما وجهان:

أحدهما: أن الأحمق هو الذي يتصوّر الممتنع بصورة الممكن، والجاهل هو الذي لا يعرف الممتنع من الممكن.

والوجه الثاني: أن الأحمق هو الذي يعرف الصواب ولا يعملُ به، والجاهل هو الذي (آ) لا يعرف الصواب، ولو عَرَفَهُ لَعَمِلَ به.

وقد رُوِيَ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الأحمق أبغضُ خلقِ الله إليه، إذ حَرَمَهُ أعزُّ الأشياءِ إليه، [وهو العقل]»^(١)...

والعَرَبُ تقول: الأحمق مأخوذٌ من حَقَقَةِ السوقِ إذا نقصت^(٢)، وكأنه إشارةٌ إلى ذهابِ عقله.

وللجاهل حالتان^(٣):

قال الحسن: «أصول الشرِّ وفروعه ستة. فالأصول الثلاثة الحسد، والحرص، وحب الدنيا. والفروع كذلك، حب الرياسة وحب الثناء، وحب الفخر» (العقد الفريد - تحقيق العريان ٢- ١٥٤).

وذكر ابن حزم أن «أصول الرذائل كلها أربعة، عنها تتركب كل رذيلة، وهي أضداد لما ذكر في الفصائل، وهي الجور، والجهل، والجبن، والشح...» (رسالة الأخلاق ٥٣-٥٤).

(١) الزيادة من المستطرف ١ / ١٦، وقد أورد الماوردي هذا الحديث في أدب الدنيا والدين ١٤، والأمثال والحكم الورقة ٤٩ آ وليس فيها هذه الزيادة.

(٢) قوله: والعرب تقول: الأحمق مأخوذٌ من حَقَقَةِ السوق... إلخ، قال الليث: «... والأحمق مأخوذٌ من انحماق السوق إذا كسدت، فكأنه فد عقله حتى كسد...» وعن ابن الأعرابي: «الحمق أصله الكساد، ويقال للأحمق الكاسد العقل، قال: والحمق أيضاً الغرور...» ومنه أخذ اسم الأحمق... (تهذيب اللغة مادة حق ٤ / ٨٥) وانظر أيضاً (جمهرة اللغة مادة ح م ق ٢ / ١٨١-١٨٢) (والصحيح مادة حق ٤ / ١٤٦٤-١٤٦٥) (المستطرف ١ / ١٦) وفيه أن هذا القول لابن الأعرابي.

(٣) قوله: وللجاهل حالتان... قال الخليل بن أحمد القراهيدي: «الناس أربعة: رجل يدري =

[الحال الأولى: أَنْ] يجهل، ويعلم أنه يجهل.

وهذا يجوز أَنْ يسترشد، فيعلم ما جهل، إِنَّ أَمْدَّ بحمية باعثة، وأعين
بنفس قابلة، كما قيل:

لولا الخطأ ما أشرق نور الصواب.

قال الشاعر: [من الطويل]

إذا صَحَّ حَسُّ المرءِ صَحَّ قِيَّاسُهُ
وليس يصحَّ العقلُ من فاسدِ الحسِّ

والحال الثانية: أَنْ يجهل، ويجهل أنه يجهل. فهو أسوأهما حالاً،
وأقبحهما خصالاً، لأنه إذا جهل جهله، صار جهلين متشاكِلين في الصور،
مختلفين في الأثر:

أحدهما: سالبٌ لهدايته.

والآخر جالبٌ لغوايته.

فطاح - بالأول - في سكراته.

ومَرَحَ - بالآخر - في هَفَوَاتِهِ.

فلم يَخْتَرْ له إفاقة.

ولم تَرْجَ له إفاقة.

وقد قال جالينوس^(١):

الجهلُ بالجهلِ جهلٌ مركَّبٌ.

= ويدري أنه يدري، فذلك عالم فاسد. ورجل يدري ولا يدري أنه يدري فذلك ناس
فذكروه. ورجل لا يدري، ويدري أنه لا يدري، فذلك مسترشد فارشدوه. ورجل لا
يدري، ولا يدري أنه لا يدري، فذلك جاهل فاحذروه (برد الأكباد في الأعداد ١٣١)،
وانظره باختلاف يسير في (عيون الأخبار ١ / ١٢٦) و(أدب الدنيا والدين ص ٦٨) و(العقد
الفريد - طبعة العريان - ٢ / ١٣٢).

(١) حاليوس الحكيم: أحد الأطباء الثمانية المقدمين المرجوع إليهم في صناعة الطب، والذين
هم رؤوس الفرق ومعلمو المعلمين... خاتم الأطباء الكبار، ولم يجيء بعده من الأطباء إلا
من هو دون منزلته. ولد سنة ١٣١م بفرغاس من آسيا وسافر إلى أثينة ورومية ومصر وبلاد
الشام، فمرض في طريقه ومات بالفرما على البحر الأحمر صُفِّ عددٌ من الكتب بلغت =

لأنَّ أَجْهَلَ وَأَعْلَمَ أَنِّي أَجْهَلُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَجْهَلَ وَأَجْهَلَ أَنِّي أَجْهَلُ.

قال سليمان بن داود عليه السلام:

النَّائِحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ سَبْعَةُ أَيَّامٍ، وَعَلَى الْجَاهِلِ كُلُّ أَيَّامِ حَيَاتِهِ، وَالْمَوْتُ خَيْرٌ مِنَ الْحَيَاةِ الرَّدِيَّةِ^(١).

وقيل في منشور الحكم:

الْجَاهِلُ وَإِنْ تَوَفَّرَتْ عَلَيْهِ الْأَيَّامُ فَكَأَنَّهُ أَبْنُ يَوْمِهِ وَنَلَادُ سَاعَتِهِ.

وقال بعض العرب:

لَوْ صُوِّرَ الْعَقْلُ لَاطْلَمَّتْ مَعَهُ الشَّمْسُ، وَلَوْ صُوِّرَ الْجَهْلُ لَأَضَاءَ مَعَهُ اللَّيْلُ^(٢).

قال الشاعر: [من البسيط]

لِلْعَقْلِ مَا خُلِقَ الْإِنْسَانُ فَالْتَمَسْنِ
بِالْعَقْلِ حَقِّكَ لَا بِالْجَهْلِ وَالرُّتْبِ

= أربعمائة كتاب. انظر أخباره وحكمته في الفهرست ٤١٦، عيون الأنباء في طبقات الأطباء (دار الفكر) ١/ ١٠٨-١٥٥، مختار الحكم ومحاسن الكلم ٢٨٨-٢٩٦، التمثيل والمحاضرة ١٨٠، تاريخ الفلسفة في الإسلام ١٧، ٢٦، ٨٤، ٨٧، ٨٩، ٩١، ١٥٩، ١٦١، ١٨٧، محاضرة الأوائل ٧٢.

(١) قول سليمان عليه السلام النائحة... ورد في هذا المعنى قول منسوب للإمام علي رضي الله عنه بلفظ «الجاهل ميت وإن كان حياً» (غرر الحكم ودرر الكلم ص ٢٥ وص ٥٦) وقد استعمل الشاعر هذا المعنى فقال:

مَا وَهَبَ اللَّهُ لَأَمْرٍ هَبَةً أَحْسَنَ مِنْ عَقْلِهِ وَمَنْ أَدَبَهُ
مَسَامِلُ الْفَقْرِ فَلَيْنَ فَقْدًا فَفَقْدُهُ لِسُلْحَةِ أَجَلٍ بِهِ

(نظر معجم الأدباء - طبعة رفاعي - ١/ ٧١).

(٢) قوله: «لو صور العقل... إلخ» أورد ابن مسكويه هذا القول ضمن حكم العرب، ولم يسبه لقائل، بلفظ «وقيل: لو صور العقل لأظلمت عنده الشمس، ولو صور الجهل لأضاءت عنده الظلمة» (الحكمة الخالدة ١٥١). وقد أورده الثعالبي بلفظ «لو صور العقل =

(٤ب) لا يلبث الجهل أن يجني لصاحبه
 ذمًا ويذهب عنه بهجة الحسب
 [ما هي الفضائل؟]:

والفضائل توسط محمود بين رذيلتين مذمومتين^(١)، من نقصان يكون
 تقصيراً، أو زيادة تكون سرفاً، فيكون فساد كل فضيلة من طرفيها:
 فالعقل واسطة بين الذهاء والغباء.
 والحكمة واسطة بين الشر والجهالة^(٢).
 والسخاء واسطة بين التقير والتبذير^(٣).
 والشجاعة واسطة بين الجبن والتهور^(٤).

لأضواء معه الليل، ولو صور الجهل لأظلمت معه الشمس» (التنثيل والمحاضرة ٤٠٧).
 وأورد النويري بلفظ «لو صور العقل لأضاء معه الليل، ولو صور الجهل لأظلم معه النهار»
 (نهاية الأربع ٢٣٥/٣). وأورده ابن قتيبة منسوباً إلى أعرابي بلفظ: «ولو صور الحق لأضاء
 معه الليل» (عيون الأخبار ١/٢٨٠).

(١) قوله: «والفضائل توسط محمود بين رذيلتين مذمومتين» قال ابن حزم «الفضيلة وسيطة بين
 الإفراط والتفريط، فكلا الطرفين مذموم...» (رسالة الأخلاق ص ٧٩). وقد قال
 الطرطوشي: «إن الفضائل هبات متوسطة بين فضيلتين ناقصتين، فما جاوز التوسط خرج
 عن حد الفضيلة كالكرم الذي هو متوسط بين البخل والتبذير، والشجاعة وسط بين التهور
 والجبن... إلخ» (سراج الملوك ٦٩). وقال السيد محمد الميائي العاملي: «وكل فضيلة فهي
 وسط بين رذيلتين هما طرفا الإفراط والتفريط، والوسط هو الصراط المستقيم، صراط أولياء
 الله وخلفائه المنعم عليهم...» (آداب النفس ٨) وفي أدب الدنيا والدين: «لأن الفضائل
 هيئات متوسطة بين فضيلتين ناقصتين...» ص ١١ وقال ابن مسكويه: «إن كل فضيلة فهي
 وسط بين رذائل...» (تهذيب الأخلاق ٢٩) ولعل الحكماء قد تابعوا أرسطوطاليس الذي
 نقل أبو الحسن محمد بن أبي ذر يوسف العامري النيسابوري قوله قائلاً: «قال أرسطوطاليس
 يمكن أن يقال في الفضيلة أنها توسط بين رذيلتين» (السعادة والإسعاد في السيرة
 الإنسانية ٧٠).

(٢) في تهذيب الأخلاق: أما الحكمة فهي وسط بين السفه والبله (ص ٣١).
 (٣) في تهذيب الأخلاق: وأما السخاء فهو وسط بين رذيلتين: إحداهما السرف والتبذير والأخرى
 البخل والتقير. (ص ٣٣).
 (٤) في تهذيب الأخلاق: وأما الشجاعة فهي وسط بين رذيلتين: إحداهما الجبن والأخرى التهور
 (ص ٣٣) وفي أدب الدنيا والدين ١٢٧: والشجاعة واسطة بين التعمم والجبن.

- والحياء واسطة بين الفحة والحصر^(١).
 والوقار واسطة بين الهزء والسخافة.
 والسكينة واسطة بين السخط وضعف الغضب.
 والحلم واسطة بين إفراط الغضب ومهانة النفس^(٢).
 والعفة واسطة بين الشره وضعف الشهوة^(٣).
 والغيرة واسطة بين الحسد وسوء العادة.
 والظرف واسطة بين الخلاعة والفدامة^(٤).
 والمودة واسطة بين الخلاية وحسن الخلق^(٥).
 والتواضع واسطة بين الكبر ودناءة النفس^(٦).
 [تركيب الفضائل مع غيرها]:

وقد يحدث من تركيب فضائل مع غيرها من الفضائل فضائل أخرى.
 فيحدث من تركيب العقل مع الشجاعة، الصبر في الملمات، والوفاء
 بالإيعاد.

(١) قال أرسطوطاليس: «التوسط في الحياء محمود والطرفان مذمومان وطرف الزيادة يسمى الخجل، وطرف النقصان يسمى الفحة، أعني الخلاعة» (السعادة والإسعاد ١٠٣) وقال ابن مسكويه: «الحياء وسط بين رذيلتين إحداهما الوقاحة والأخرى الخرق» (تهذيب الأخلاق ٣٣).

(٢) قال أرسطوطاليس: «الحلم هو ترك الانتقام مع قدرة عليه، الإفراط فيه مذموم وكذلك انتقصير...» (السعادة والإسعاد ١٢٦).

(٣) قال أرسطوطاليس: «العفة هي التوسط في شهوات البطن والفرج» (السعادة والإسعاد ٧٨) وقال ابن مسكويه: «وأما العفة فهي وسط بين رذيلتين وهما الشر وهنود الشهوة» (تهذيب الأخلاق ٣٣).

(٤) الفدامة - بالفاء - يقال رجل قدم أي عمي ثقيل (الصحيح مادة قدم).

(٥) غ: وحساً الخلق والتصحيح من أدب الدنيا والدين ١٢٨، والخلاية: الخديعة باللسان.

(٦) حول هذه المقارنات انظر أقوال أرسطو وغيره في كتاب السعادة والإسعاد ص ٤٩-١٧٢، وكتاب تهذيب الأخلاق ص ٣١-٣٤ ورسالة الأخلاق ص ٧٩ وأدب الدنيا والدين ١١-١٢ و١٢٧ وإحياء علوم الدين ٣/ ٥٢ ٥٥.

وعن تركيب العقل مع السخاء إنجاز المواعيد والإسعاف بالجاه.
 وعن تركيب العقل مع العفة النزاهة، والرغبة عن المسألة.
 وعن تركيب الشجاعة مع السخاء الإملاق والأخلاق.
 وعن تركيب الشجاعة مع القوة إنكار الفواحش والغيرة على الحرم.
 وعن تركيب السخاء مع العفة الإسعاف بالقوت والإيثار على النفس^(١).

[نتائج كثير من الأخلاق تؤول إلى رذائل]:

ولكثير من الأخلاق نتائج تؤول إلى رذائل^(٢).
 حُكِيَ عن عليٍّ عليه السلام أنه قال:
 أعجب ما في الإنسان نفسه، وما فيها من التضاد ما أذكره:
 إن سَنَحَ لها الرجاء أذلَّها الطمع.
 وإن أهاجها الطمع أهلكها الحرص.
 وإن ملكها اليأس قتلها الأسف.
 وإن عَرَضَ لها الغضب اشتدَّ بها الغيظ.

(١) ذكر ابن حزم فضائل أخرى متولدة عن تركيب فضائل مع غيرها غير التي ذكرت هنا فقال:
 «في النفس فضيلة تركيب من النجدة وكذلك الصبر، والحلم نوع مفرد من أنواع
 النجدة، والقناعة فضيلة مركبة من الجود والعدل... والمداواة فضيلة مركبة من الحلم
 والصبر، الصدق مركب من العدل والنجدة...» (رسالة الأخلاق ٥٤-٥٥).

(٢) قوله: «نتائج تؤول إلى رذائل...» ذكر ابن حزم شيئاً من ذلك فقال:
 «الشهوة متولدة عن الطمع، والطمع متولدة عن الحسد، والحسد متولدة عن الرغبة،
 والرغبة متولدة عن الجور والشح والجهل. الحرص، ويتولد من الحرص رذائل عظيمة منها
 الذل، والسرقة، والغضب، والزنا، والقتل، والعشق، والهم بالفقر، والمسألة لما بأيدي
 الناس. وإما فرقنا بين الحرص والطمع لأن الحرص هو إظهار ما استكن في النفس من
 الطمع... الكذب يتولد من الجور والجبن والجهل، لأن الجبن يولد مهانة النفس...»
 (رسالة الأخلاق ص ٥٥).

وإنَّ أَسْعَدَهَا الرِّضَا أَنْسَيْتَ التَّحْفَظَ.

وإنَّ نَالَهَا خَوْفٌ شَغَلَهَا الْحَذَرُ.

وإنَّ اتَّسَعَ لَهَا الْأَمْنُ اسْتَلَبَتْهَا الْعِزَّةُ.

وإنَّ جُدَّدَتْ لَهَا نِعْمَةٌ أَحْدَثَتْ لَهَا مَرَحًا.

وإنَّ أَصَابَتْهَا مَصِيبَةٌ فَضَحَّهَا الْجَزَعُ.

وإنَّ نَالَ مَالًا أَطْغَاهَا الْغِيُّ.

وإنَّ أَفْرَطَ عَلَيْهَا الشَّيْخُ كَفَّظَتْهَا الْبِطْنَةُ.

فَكُلُّ تَقْصِيرٍ بِهَا مُضِرٌّ.

وَكُلُّ إِفْرَاطٍ لَهَا مُفْسِدَةٌ^(١).

وَقَالَ غَيْرُهُ:

(١) قوله: «حكى عن علي عليه السلام...» أورد الشريف الرضي هذه الحكاية عن الإمام علي بلفظ: «لقد علق بنيات هذا الإنسان بضعة هي أعجب ما فيه، وهو القلب، وذلك أن له مواد من الحكمة وأضداد من خلافها؛ فإن منح له الرجاء، أذله الطمع.

وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص

وإن ملكه اليأس قتله الأسف.

وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ.

وإن أسعده الرضى نسي التحفظ.

وإن غاله الخوف شغله الحذر.

وإن اتسع له الأمر استلبته العزة.

وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع.

وإن أفاد مالا أطغاه الغي.

وإن عضته الفاقة شغله البلاء.

وإن جهده الجوع قعدت به الضعة.

وإن أفرط به الشيخ كظته البطنة.

فكل تقصير به مضر

وكل إفراط له مفسد.

(انظر نهج البلاغة بشرح ابن أبي الحديد ٤ / ٢٨٨)

الإفراط في التواضع مذلة.
 والإفراط في التكبر يستحق البغضة.
 والإفراط في الحذر يدعو إلى إيهام الخلق.
 والإفراط في الأنس يكسب قرناء السوء.
 والإفراط في الإنفاص يوحش ذوي النصيحة.
 قال ابن المعتز^(١):

لو ميّزت الأشياء لكان الكذب مع الجبن، والصدق مع الشجاعة،
 والراحة مع اليأس، والذل مع الطمع، والحرمان مع الحرص^(٢).

[أقسام الخلق الذاتي]:

وقد ينقسم قسمين:

أحدهما: ما أوجب ثناء المخلوقين..

(١) ابن المعتز: أبو العباس عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم الخليفة العباسي الشاعر المشهور والأديب الكبير ولد سنة ٢٤٧ هـ وقيل ٢٤٦ هـ. وتوفي سنة ٣١٥ هـ. انظر ترجمته في وفيات الأعيان ٢ / ٢٦٣-٢٦٨ رقم الترجمة ٣١٤ ومقدمة كتاب الآداب بتحقيق الأستاذ صبيح رديف وفي نهايته مراجع ترجمته وأخباره. وبعض أقواله وأمثاله في التمثيل والمحاضرة ١٠١-١٠٣.

(٢) قوله: «قال ابن المعتز: لو ميّزت الأشياء...» انظر هذا القول بلفظة في كتاب الآداب لابن المعتز بتحقيق الأستاذ صبيح رديف ص ١٢٤ القول رقم ١٥٨ وفي ص ١٣٤ منه نجد مضافاً ورود هذا القول، وقد ورد فيه هذا القول بلفظ: «... والصدق مع الشجاعة، والتعب مع الطمع، والراحة مع اليأس، والحرمان مع الحرص، والذل مع الدين». وما يسبب إلى الإمام على قوله: «لو تميّزت الأشياء لكان الصدق مع الشجاعة، وكان الجبن مع الكذب» (غرر الحكم ص ٢٦٢) وقد نسب مثل هذا القول لفورفوروس، قال النويري: «قال فورفوروس. لو تميّزت الأشياء بأشكالها لكان الكذب مع الجبن، والصدق مع الشجاعة، والراحة مع اليأس، والتعب مع الطمع، والحرمان مع الحرص، والعز مع القناعة، والأمن مع العفاف، والسلامة مع الوحدة» (نهاية الأرب ٨/ ١٨٣).

وهو ما عدا نفعه عليهم.

والثاني: ما اقتضى ثناء الخالق.

وهو ما قصد به وجه الله تعالى.

روى جعفر بن محمد^(١) قال:

ناجى الله بعض أنبيائه فقال: يا رب أي خلقك أحب إليك؟

قال: أكثرهم لي ذكراً.

قال: يا رب، فأني خلقك أصبر؟

قال: أكظمهم للغيظ.

قال: يا رب، فأني خلقك أعدل؟

قال: من أدان^(٢) نفسه.

قال: يا رب، فأني خلقك أغنى؟

قال: أقنعهم برزقه.

قال: يا رب فأني خلقك أسعد؟

قال: من أثر أمري على هواه.

قال: يا رب، فأني خلقك أشقى؟

قال: من لم تنفعه الموعظة^(٣) (ب).

فهذا ما تعلق بأخلاق الذات.



(١) جعفر بن محمد: هو جعفر الصادق بن محمد الباقر الإمام المشهور. ولقب بالصادق لصدقه في مقاله، وفضله أشهر من أن يذكر. وله كلام في الكيمياء، وكان تلميذه حابر بن حيان قد ألف كتاباً يشتمل على ألف ورقة تتضمن رسائل جعفر الصادق وهي خمسمائة رسالة. ولد الصادق سنة ٨٠هـ وتوفي ١٤٨هـ. وأمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين. انظر بعضاً من أخباره في وفيات الأعيان ١ / ٢٩١ ٢٩٢ رقم الترجمة ١٢٨. طبقات ابن سعد ٥ / ١٣٩.

(٢) غ: أدال، باللام.

(٣) نسب الأبشيهي ما يشبه هذه المناجاة إلى موسى عليه السلام (انظر المستطرف ١ / ١٩).

[الفصل الثالث]

[أفعال الإرادة]

[أسبابها] :

وأما أفعالُ الإرادة فتصدُّرُ عن أسبابٍ باعثةٍ عليها، داعيةٍ إليها، وهي :

العقلُ.

والرأي.

والهوى.

فأما الإرادة [فليست] ^(١) حادثَةً إِلَّا عن أحدها.
وأما العقلُ والرأيُ فمؤتلِفانِ، وهما علَّةُ الفضائلِ.

[الفرق بين العقل والرأي] :

وفي الفرقِ بينهما وجهان :

أحدهما : أن العقلَ ما يُقَيَّنُ به الصواب من الخطأ، والرأي غلبة ^(٢) الظنِّ في ترجيحِ الصوابِ على الخطأ.

والوجه الثاني : أن العقلَ هو الموجبُ لأمرٍ لا يجوزُ خلافةُ، والرأي هو سكُونُ النفسِ إلى ترجيحِ أمرٍ يجوزُ خلافةُ.

ثم يتَّفَقانِ ^(٣) في النعتِ والصفةِ، ويختلفانِ في العلَّةِ والنتيجةِ :

فالعقلُ لازمٌ لمحلهِ، ومستقلٌّ بحكمه، والرأيُ معترضٌ يستمدُّ العقلَ، ويستضيءُ بنوره، ولذلك قيل :

(١) غ : فأما الإرادة فحادثَةٌ إِلَّا ...

(٢) غ : والرأي علةُ الظنِّ ...

(٣) غ : هم يفترقان في النعت والصفة ...

ظَنَّ العاقل أصدق من يقين الجاهل^(١).

وقال علماء العرب:

سمي العقل عقلاً، لأنه يعقل صاحبه عن القبائح^(٢).

وكان المأمون يُشيد كثيراً قول الشاعر: [من الطويل]

يَعَدُّ عَظِيمُ النَّاسِ مَنْ كَانَ عَاقِلًا
وإن لم يكن في قومه بحسب
وإن حل أرضاً عاش فيها بعقله
وما عاقل في بلدة بغريب^(٣)

(١) قوله: «ولذلك قيل: ظن العاقل أصدق من يقين الجاهل» أورد عبد الوهاب الأمدي هذا القول من أقوال الإمام علي رضي الله عنه بلفظ «... أصبح من يقين...» (غرر الحكم ودرر الكلم ٢١٠) وقد ورد منسوباً إليه أيضاً في كتاب (٢٠٠٠ كلمة للإمام علي ص ٧٢ رقم القول ١٦٧٤) وقد ورد غير منسوب لقائل في (التمثيل والمحاضرة ٤٢٧) بلفظ «جهل العاقل أعقل من عقل الجاهل» وفي (أحاسن المحاسن ١٦٤) بلفظ «... أصبح من يقين...» وقد أوردته الميداني بلفظ «... خير من يقين...» في (مجمع الأمثال ١ / ٤٤٥ رقم لمثل ٢٣٦٧) وورد بلفظه في (المستطرف ١ / ٢٦).

(٢) قوله: «وقال علماء العرب: سمي العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن القبائح». قال في أدب الدنيا والدين «وسمي بذلك تشبيهاً بعقل الباقية، لأن العقل يمنع الإنسان من الإقدام على شهواته إذا قبحت، كما يمنع العقول الباقية من الشرود إذا بقرت، ولذلك قال عامر بن عبد القيس: إذا عقلك عقلك عما لا ينبغي فأنت عاقل...» ثم سمي هذا النوع من العقل بالعقل الغريزي (ص ٥-٦).

وقيل: «العقل عقل النفس» (التمثيل والمحاضرة ٤٠٧) وقالوا: «العاقل من عقل لسانه» (المصدر نفسه ٤٠٨) و(غرر الحكم ٣٢، ٣٧، ٤٠) وأبي العقول تمسك أعضه النفس عن الهوى» (التمثيل والمحاضرة ٤٠٨). وقال بطليموس: «العاقل من عقل لسانه لا عن ذكر الله، والجاهل من جهل قدر نفسه» (لباب الآداب ٢٣٦) وفي صفحة ٤٦٢ منه منسوباً إلى الحكمين أرسطوطاليس.

(٣) قول الشاعر: يعد عظيم الناس... هذان البيتان وردا بلفظهما في العقد الفريد (تحقيق العريان ٢ / ١٠٥) ولم ينسبها لقائل، وهما فيه بلفظ «يعد رفيع القوم...». ونسبها ابن عد البر النمرى لبعض الأدباء وأوردتهما بلفظ «يعد رفيع القوم من كان علماً... عاش فيها يعلمه...» (جامع بيان العلم وفضله ١ / ٥٧).

ولئن كانَ العقلُ مستقلاً ببصيرته، فقد يزدادُ بالتجاربِ تيقظاً^(١)،
وبممارسةِ الأمورِ تحفظاً، فلا يلتبسُ عليه حزمٌ، ولا يتقصُّ عليه عزمٌ.

وقيل:

[كلُّ شيءٍ] يحتاجُ إلى العقلِ، والعقلُ يحتاجُ إلى التجاربِ^(٢).

وقد قيل:

استرْ عورةَ الحداثةِ بدرايةِ كتبِ المتقدمينِ
واستعنْ على إدراكِ الأحوطِ بحفظِ آثَارِ الماضينِ^(٣)

قال بعضُ الحكماء:

من لم تلقَ رأيه التجاربُ عَقمتْ همتهُ^(٤).

فنظمه بعضُ الشعراءِ: [من الكامل]

(١) قوله: «فقد يزداد بالتجارب تيقظاً...» وقد سماه المؤلف في أدب الدنيا والدين بالعقل المكتسب (ص ٦) قال ابن المعتز: «العقل غريزة تربيها التجارب» (الأدب ص ٥٦) والتمثيل والمحاضرة (٤٠٨) وقال الإمام علي: العقل غريزة يزيد بالعلم والتجارب» (غرر الحكم ودرر الكلم ص ٤٠) وأورد ابن الأثير من أمثال المولدين: «طول التجارب زيادة في العقل» (مجمع الأمثال ١ / ٤٤٢) وقالوا: «كفى بالتجارب نادياً وبتقلب الأيام عظة» (سراج الملوك ٧٢، ٦٧) و(العقد الفريد - تحقيق العربا - ٢ / ٢٦٥) وقد أنشد الحارث بن حلزة: إن السعيد له في غيره عظة وفي التجارب تحكيم ومعتبر (البيان والتبيين ٢ / ١٠٦) وانظر حول أقسام العقل (إحياء علوم الدين ١ / ٨٥).

(٢) قوله: «وقد قيل: كل شيء يحتاج إلى العقل والعقل يحتاج إلى التجارب» أوردته المؤلف في كتاب أدب الدنيا والدين في باب المشورة ص ٢٧٤ والزيادة منه وليست في الأصل. وقد عقد المؤلف هناك فصلاً لسمو العقل المكتسب بالتجارب فانظره (ص ٦-٧، ١١-١٥) وقد أورد الأملني هذا القول ضمن أقوال الإمام علي بلفظ وكل شيء يحتاج إلى العقل والعقل يحتاج إلى الأدب» (عمر الحكم ٢٣٩) وهو بلا عزو إلى أحد في عيون الأخبار ١ / ١٣٤ و ٢٨١ وبللفظ (محتاج) بدلاً من (يحتاج) في الموضعين.

(٣) قوله: «وقد قيل: استر عورة الحداثة... إلخ» في هذا المعنى قال ابن المقفع: «وللعقول سجيئات وغرائز بها تقبل الأدب، وبالأدب تنمي العقول وتزكو...» (الأدب الصغير - ضمن كتاب وسائل السلفاء - ص ٤).

(٤) قوله: «من لم تلق رأيه التجارب عَقمتْ همته...» أورد ابن مسكويه من حكم العرب وأمثالهم السائرة في هذا المعنى قولهم: «لا خير في من لم تعظه التجارب» (الحكمة الخالدة ٢٠٧)

مَنْ لَمْ تَسْلِقْهُ نَوَائِبُ دَهْرِهِ
وَحَوَادِثُ الْأَيَّامِ فَهُوَ عَقِيمٌ

[الهوى^(١)]:

(٦ آ)

وَلِيَجْهَدَنَّ أَنْ لَا يَجْعَلَ لِنَفْسِهِ فِي الْهَوَى نَصِيْبًا. وَقَدْ قِيلَ:
مَنْ أَذَلُّ هَوَاهُ عَزَّ^(٢).

وقال بعض الحكماء: [من الطويل]

لِنَعْمَ أَخُو التَّقْوَى فَتَى طَاهِرُ الْحَجَى
خَمِيصٌ مِنَ الْفَحْشَاءِ عَفُ الْمَسَالِكِ
فَتَى مَلِكُ اللَّذَاتِ أَنْ يَعْتَبِدَنَّهُ
وَمَا كُلُّ ذِي لَبٍّ لَهُنَّ بِمَالِكِ^(٣)

وقال [آخر من الطويل]

- (١) فُزَّحَ الْمُؤَلَّفُ فِي آدَبِ الدُّنْيَا وَالِدِينِ بَيْنَ الْهَوَى وَالشَّهْوَةِ، فَقَالَ: «فَمَا فَرْقُ مَا بَيْنَ الْهَوَى وَالشَّهْوَةِ مَعَ اجْتِمَاعِهِمَا فِي الْعِلَّةِ وَالْمَعْلُوكِ، وَاتِّفَاقِهِمَا فِي الدَّلَالَةِ وَالْمَذْلُولِ، فَهُوَ أَنَّ الْهَوَى مَخْتَصٌ بِالْأَرَاءِ وَالْمَعْتَقَدَاتِ، وَالشَّهْوَةُ مَخْتَصَةٌ بِنِيلِ الْمُسْتَلْذَّاتِ فَصَارَتِ الشَّهْوَةُ مِنْ نَتَائِجِ الْهَوَى، وَهِيَ أَخَصُّ، وَالْهَوَى أَصْلٌ، هُوَ أَعَمُّ...» (ص ٢٣).
- (٢) قَوْلُهُ: «مَنْ أَذَلُّ هَوَاهُ عَزَّ» أَوْرَدَ الْمُؤَلَّفُ مَعْنَاهُ عَنْ بَعْضِ الْحُكَمَاءِ فِي (آدَبِ الدُّنْيَا وَالِدِينِ ص ٢٠) بِلَفْظِ «أَعَزَّ الْعِزَّ الْإِمْتِنَاعُ مِنْ تَمَلُّكِ الْهَوَى» وَ«قِيلَ فِي مَثَوْرِ الْحُكْمِ: مَنْ أَطَاعَ هَوَاهُ أَعْطَى عَدُوَّهُ مَنَاهُ» (ص ١٨) وَ«قَالَ بَعْضُ الْبُلْغَاءِ: أَفْضَلُ النَّاسِ مَنْ عَصَى هَوَاهُ» (ص ١٨) وَنَجَّدَهُ عِنْدَ الثَّعَالِبِيِّ بِلَفْظِ «أَشْجَعُ النَّاسِ أَقْهَرُهُمْ لَهَوَاهُ» (التَّمَثِيلُ وَالْمَحَاصِرُ ٤٥٣) وَلِلْإِمَامِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ هَانَتْ عَلَيْهِ شَهْوَتُهُ» (مَجْمَعُ الْأَمْثَلِ ٤٥٣ / ٢).

- (٣) قَوْلُهُ «وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: لِنَعْمَ أَخُو التَّقْوَى... إلخ الْبَيْتَانِ لِأَبِي الْعَتَاهِيَةِ (انْظُرْ دِيَوَانَهُ ص ٣١٤) وَقَدْ وَرَدَا فِيهِ بِلَفْظِ

لِنَعْمَ فَتَى التَّقْوَى فَتَى ضَامِرُ الْحَشَا خَمِيصٌ مِنَ الدُّنْيَا نَقِي الْمَسَالِكِ
فَتَى مَلِكُ اللَّذَاتِ أَنْ يَعْتَبِدَنَّهُ وَمَا كُلُّ ذِي لَبٍّ لَهُنَّ بِمَالِكِ

وَأَلْتَذَّ مَا أَهْوَاهُ وَالْمَوْتُ دُونَهُ
 كَشَارِبِ سَمٍّ فِي إِنَاءٍ مُقَضَّضٍ
 فَتَوَشَّكَ أَمْرَاضِي تَزُوبُ بِمَرْضَةٍ
 تَفَرِّقُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ مُرَضِّي^(١)

* * *

(١) غ: (موشك) بالياء. وقد أصبح البيت الأول من الأمثال البديعة السائرة، فقد ورد غير مسوب في (زهر الربيع في المثل البديع ص ٩٣).

[الفصل الرابع]

[الكرم والمروءة]^(١)

[بين الكرم والمروءة:]

فأما الكرمُ والمروءةُ فهما قرينان في الفضل، ومتشاكلان في العقل.

والفرقُ بينهما مع التشاكل من وجهين:

أحدهما: أن الكرمَ مراعاةُ الأحوال، أن يكونَ على أنفعها وأفضلها. والمروءةُ مراعاةُ الأحوال أن يكونَ على أحسنها وأجملها.

والوجهُ الثاني: أن الكرمَ ما تعدى نفعه إلى غيرِ فاعله، والمروءةُ قد تقفُ على فاعلها، ولا تتعدى إلى غيره. فإن استعملها في غيره ما زجث الكرمُ، ولم ينفرد بالمروءة، وصارَ بالاجتماعِ أفضل، وإن افترقا كان الكرمُ أفضل؛ لتعدي نفعه، وتعدي النفعِ أفضل.

وليس واحدٌ من الكرمِ والمروءةِ خلقاً مفرداً، ولكنه يشتملُ على أخلاقي يصيرُ مجموعها كرمًا ومروءةً [المروءة]:

روي عن النبي عليه السلام أنه قال:

«مَنْ عَامَلَ النَّاسَ فَلَمْ يَظْلِمْهُمْ، وَحَدَّثَهُمْ فَلَمْ يَكْذِبْهُمْ وَوَعَدَهُمْ فَلَمْ يُخْلِفْهُمْ، فَهُوَ مِنْ كَمَلَتْ مَرْوَعَتُهُ، وَظَهَرَتْ عَدَالَتُهُ، وَوَجِبَتْ أَخَوَتُهُ»^(٢)

قال بعضُ البلغاء: (٦ ب)

(١) حول الكرم والمروءة عقد المؤلف فصلاً في أدب الدنيا والدين عنهما، فليُنظر (ص ٢٩٠-٣١٨) كما عقد ابن مسكويه عن الفضائل التي تحت السقاء فصلاً في (تهذيب الأخلاق ٢٦) وللغزالي في (إحياء علوم الدين ٣ / ٢٣١ ٢٧٤) وللابشيهي في (المستطرف ١ / ١٥٥-١٧١) وجعل المؤلف الباب الثامن من أبواب كتابه نصيحة الملوك حصاً بموضوع التدبير في الأموال في الورقات (٦٩-٧٦ آ) فليُنظر.

(٢) حديث «من عامل الناس فلم يظلمهم... الحديث» أخرجه الخطيب البغدادي عن الحسين بن علي (انظر الكفاية ٧٨) وأورد المؤلف في (أدب الدنيا والدين ٢٩٠) و(لامثال والحكم الورقة ٥٧ب)

مِنْ شَرَايِطِ الْمَرْوَةِ أَنْ تَعْفَ عَنِ الْحَرَامِ ، وَتَتَصَلَّفَ عَنِ الْأَثَامِ ،
وَتُنْصِفَ فِي الْحُكْمِ ، وَتَكْفَ عَنِ الظُّلْمِ ، وَلَا تَطْمَعَ فِي مَا لَا تَسْتَحِقُّ ،
وَلَا تَسْتَطِيلَ عَلَى مَنْ لَا تَسْرِقُ ، وَلَا تَعِينَ قَوِيًّا عَلَى ضَعِيفٍ ، وَلَا تُؤْثِرَ دُنْيَا
عَلَى شَرِيفٍ ، وَلَا تُسِرَّ مَا يَعْقُبُ الْوِزَرَ وَالْإِثْمَ ، وَلَا تَفْعَلَ مَا يُقْبَحُ الذِّكْرُ
وَالْإِسْمُ^(١).

قال سليمان بن عبد الملك^(٢) لأبي حازم^(٣):

أي عباد الله أكرمُ؟

قال: أولو المروءة والنهي، الذين نهوا النفس عن الهوى، ولم يقولوا
لعل وعسى.

قال أنوشروان^(٤) لابنه:

(١) قوله: «قال بعض البلغاء: من شرائط المروءة أن تعف عن الحرام... إلى آخر القول» أورد المؤلف هذا القول منسوباً لبعض البلغاء بنفس ألفاظه إلا أن فيه «أن يتعفف... ويتصلف... وينصف... إلخ» بصيغة الغائب لكل الأفعال (ص ٢٩٠).

وأورد الأمدى قسماً منه ضمن أقوال الإمام علي رضي الله عنه بلفظ «من شرائط المروءة التنزه عن الحرام، ومن لوازم الورع التنزه عن الأثام، ومن أحسن العقل التحلي بالعلم، ومن لوازم العدل التناهي عن الظلم، ومن تمام المروءة أن تستحي من نفسك... إلخ» وفيها كثير من شرائط المروءة (غرر الحكم ٣٠٤).

وقد أورد أبو الحسن بن الحسين الرخجي بلفظ: «فمن شرائط المروءة أن يتعفف عن الحرام، ويتنزه عن استعمال الأثام، وينصف في الحكم ويكف عن الظلم، ولا تطمع -كذا بناء الخطاب فيما لا تستحق، ولا تستخف بمن لا تسرق، ولا تمز قوياً على ضعيف، ولا تؤثر دنياً على شريف، ولا تشر بما يعقب الوزر والإثم، ولا تفعل ما يقبح الذكر والاسم» (أحسن المحاسن ١٦٠).

(٢) سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموي المعروف.

(٣) أبو حازم: هو أبو حازم الأعرج سلمة بن دينار الأفزر التمار المدني القاص، مولى الأسود بن سفيان المخزومي، كان ثقة في الحديث، توفي بعد سنة ١٤٠هـ في خلافة المنصور. اطر صفة الصفوة ٨٨/٢، إسعاف المبطا برجال الموطأ ص ١٢، طبقات ابن خياط ص ٢٦٤ وفيه أنه توفي ١٣٥هـ، وانظر بعضاً من أقواله في العقد الفريد ١/ ١٤، ٣٧، ٢٨٢ والبيان والتبيين ١/ ٣٦٤، ٣/ ١٢٦، ١٢٧، ١٣٩، ١٤٢، ١٥٢، ١٦٠، ١٦٤، ١٩١، ٢٧٣، عيون الأخبار ٢/ ٣٧٠، المصباح المضيء في خلافة المستضيء ٢/ ٨٠٦، ٨٦١.

(٤) أنوشروان: كلمة فارسية معناها ذو النفس الخالدة، وهو كسرى أنوشروان بن قباد أحد ملوك الفرس (٥٣١ ٥٧٩) كانت له حروب مع الروم إذ افتتح بلاد حلب وقسرين وحمص

من الكامل المروءة؟

قال: مَنْ حَصَّنَ دِينَهُ، وَوَصَّلَ رَحِمَهُ، وَأَكْرَمَ إِخْوَانَهُ^(١).
وفي اشتقاق اسم المروءة من كلام العرب^(٢) ما يدلُّ على فضيلتها
عندهم، وعَظُمَ خطَرُها في نفوسهم، ففيه وجهان:

أحدهما: مشتقة من المروءة والإنسان، فكأنها مأخوذة من الإنسانية.
والوجه الثاني: أنها مشتقة من المريء، وهو ما استمرَّاه الإنسان من
الطعام؛ لما فيه من صلاح الجسد، فأخِذَتْ منه المروءة؛ لما فيها من
صلاح النفس.

[انقسام الفضائل مع الكرم والمروءة]:

فكل كرمٍ ومروءة فضيلة، وليس كلُّ فضيلةٍ كرمًا^(٣) ومروءة، بل
تنقسم الفضائل مع الكرم والمروءة [إلى أربعة أقسام]:

وإنطاكية وغير ذلك انظر أخباره وأقواله في: مروج الذهب ١/ ١٦٤-١٦٨، نصيحة الملوك
للغزالي ٤٦-٤٧ العقد الفريد ١/ ١١٧، التمثيل والمحاضرة ١٣٣، ١٣٧-١٣٨، ٤٢١ الإيجاز
والإعجاز ١٤، السعادة والإسعاد ٩٥، المغرب ٦٨، دائرة المعارف الإسلامية المترجمة
(٣/ ٨٤) نسخة مصورة، الطبري ١/ ٨٦٢ (طبعة أوروبا)، غرر أخبار ملوك الفرس
٦٠٣-٦٣٧، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء لحمزة بن الحسن الأصفهاني
٥١-٥٣، التاج والآيين لمحمد محمدي ٣٤-٤٢.

(١) قوله: «قال أنوشروان لابنه: من الكامل المروءة؟...» أورد المؤلف هذا القول بلفظه
منسوباً إليه في (أدب الدنيا والدين ٢٩٤) ونقل هناك أنه قال ذلك لابنه هرمز. كما نقل
تعاريف أخرى منها قوله: «حكى أن معاوية سأل عمرو بن العاص عن المروءة فقال: تقوى
الله تعالى وصلة الرحم، وسأل المفيرة فقال: هي العفة عما حرم الله تعالى، والحرفة فيما
أحل الله تعالى، وسأل يزيد فقال: هي الصبر على البلوى والشكر على النعمى والعفو عند
المقدرة. فقال معاوية أنت مني حقاً» (أدب الدنيا والدين ٢٩٤) ووسَّطَ محمد بن عبي
المروءة فقال: ألا تعمل في السر عملاً تستحي منه في العلانية (ص ٢٩٩).

(٢) قوله: «وفي اشتقاق اسم المروءة من كلام العرب...» انظر بشأن ذلك في مادة (مرأ) في كل
من الصحاح (١/ ٧٢) لسان العرب (صادر ١/ ١٥٤-١٥٧) تاج العروس
(١/ ١١٧-١١٨) الجهمرة (٣/ ٢٥٢-٢٥٣).

كل ذلك حول اشتقاقها من كلام العرب، وأما عن معناها عند الأعاجم، فمن معانيها:
قال بهرام بن هرمز: المروءة اسم جامع للمحاسن كلها (الإيجاز والإعجاز ص ١٣).
(٣) غ: كرم.

القسم الأول: ما يدخلُ من الفضائلِ في الكرمِ والمروءةِ^(١)،
كالعفو، والعفة، والأمانة.

والقسم الثاني: ما يدخلُ في الكرمِ، ولا يدخلُ في المروءةِ،
كالحمْد، والرحمة، والحمية، والبذل، والمساعدة.

والقسم الثالث: ما يدخلُ في المروءةِ، ولا يدخلُ في الكرمِ، كعلو
الهمة، وحسنِ المعاشرة، ومراعاةِ المنازلِ والملابسِ (٧ آ).

والقسم الرابع: ما لا يدخلُ في الكرمِ، ولا المروءةِ، كالشجاعة،
والصبرِ على الشدة.

فاجتمعَ الكرمُ والمروءةُ في بعضِ الفضائلِ، واختلفا^(٢) في بعضها؛
فصارَ الكرمُ أعمُّ من المروءةِ في بعضِ الفضائلِ، والمروءةُ أعمُّ من الكرمِ
في بعضِ الفضائلِ، فلم يتعيَّنْ عمومُ أحدهما [و] خصوصُ الآخرِ، وإنْ
تناسبَ ما ميَّزَ به أحدهما.

* * *

(١) الزيادة يقتضيها السياق وقد سقطت من الأصل.

(٢) غ: واختلفا.

[الفصل الخامس]

[السجاياء والأخلاق]

هذا ما استقرت عليه قواعد الأخلاق.

[الفرق بين السجاياء والأخلاق]:

أما السجاياء: فقد اختلفت في الفرق بينها وبين الأخلاق على وجهين:

أحدهما: أن السجاياء [ما]^(١) لم يُظهر الطابع، والأخلاق ما أظهرتها، فكانت قبل ظهورها سجاياء، وصارت بعد ظهورها أخلاقاً.

والوجه الثاني: أن السجاياء ما لم يتغير لطبع ولا تطبع، والأخلاق ما يجوز أن يتغير بطبع وتطبع.

وزعم بعض علماء الطب أن السجاياء والأخلاق تابعة لمزاج البدن في أحوال الطباة، بالزيادة والنقصان، تزيد بزيادتها، وتنقص بنقصانها. فزعموا أن الغضب يسرع بكثرة المرة الصفراء، ويضعف بقلتها، وتكثر الحرارة والقحة والشجاعة مع وفور الدم، وتقل لقلته، ويكثر الخبث والدهاء والمكر لغلبة المرة، ويقل إن قلت، ويكثر الحلم والناة لغلبة البلغم، ويقل إن قل.

فاذا اعتدلت فيه هذه الأمزجة اعتدلت أخلاقه؛ فكانت فضائل، وإن تجاوزت الاعتدال إلى زيادة أو نقصان خرجت عن الفضائل إلى الرذائل في الزيادة والنقصان.

والذي عليه المتدينون: أن الله تعالى ركبها في النفوس وطبعها في الفطر (٧ ب) بحسب إرادته على ما قدره من أحوال عبادته، وجعل اختلاف الأخلاق كاختلاف الخلق والصور التي لها علة غير إرادية.

(١) الزيادة يقتضيها السياق.

وأما الشيمُ فكالسجايَا في قولِ الأكثرين، وكالأخلاقِ في قولِ الأقلين.
والفرقُ بين الغرائزِ والنحائزِ، أن الغرائزَ ما امتزجَ بالطبعِ، والنحائزُ
ما ظهرَ بالقوةِ.

[أحوالُ الإنسانِ في أخلاقِهِ]:

فإذا وضَحَ ما ذكرناه من أحوالِ الأخلاقِ، من صلاحٍ وفسادٍ، وحمدٍ
وذمٍّ، فليسَ يخلو الإنسانُ من إحدى ست^(١) أحوالٍ:

إحداهن: أن تكونَ أخلاقُهُ كُلُّها سالحةً في الأحوالِ كُلِّها، فهي
النفسُ الزاكيةُ، وصلاحُها هو الخيرُ التامُّ، وصاحبُها هو السيدُ بالاستحقاقِ،
فيحفظُ صلاحَ أخلاقِهِ كما يحفظُ صلاحَ جسديهِ، ولا يغفلُ عن مراعاتِها، ثقةً
بصلاحِها، فإنَّ الهوىَ مراصدٌ، والمهمَلُ معرضٌ للفسادِ.

قال بعضُ الحكماءِ:

النفسُ عروْفٌ عزوفٌ، ونَفُورٌ ألوفٌ، متى رددتها ارتدعتُ، ومتى
حَمَلْتُها حَمَلْتُ، وإنَّ أهملتها فسدتُ^(٢).

قالَ عليُّ بن عبيدةَ الريحاني^(٣):

إنَّ من شأنِ النفسِ أنَّها كلما أعطيتُ رخصةً في الغفلةِ والنسيانِ
ازدادتْ أكثرَ ممَّا أعطيتُ، وردَّها قبلَ العادةِ أهونٌ من ردِّها بعدَ الحاجةِ.

(١) غ: ستة.

(٢) قوله: «قال بعض الحكماء: النفس عرووف عزوف...» ورد هذا القول في (التمثيل والمحاضرة ٣٠٧) غير منسوب لأحد وقد جاء فيه بلفظ «النفس عُيُوفٌ عزوف...» وأورد المدياري قولهم: النفس عرووف أي صبور إذا أصابها ما تكره فيشت من حير اعتبرت فصرت والمعارف الصابرة (مجمع الأمثال ٢/ ٣٣٣ رقم المثل ٤١٩٨) وأورده مرة أخرى بلفظ «النفس عزوف ألوف» يقال عزفت نفسي عن الشيء تعزفت وتعزفت عزوفاً، أي رهدت فيه وانصرفت عنه ومعنى المثل: أن النفس تعتاد ما عودت، إن زهدتها في شيء رهدت وإن رغبها رغبته (مج الأمثال ٢/ ٣٤٢ رقم المثل ٤٢٥٢).

(٣) غ: علي بن عبيد والصواب ما أثبتناه. وعلي بن عبيدة الريحاني من كتّاب العصر العباسي الأول وأحد البلغاء الفصحاء، ومن الناس من يفضلُه على الجاحظ في البلاغة وحسن التصنيف، وكان له اختصاص بالأمون. ويسلك في تأليفاته وتصنيفاته طريقة الحكمة، وكان -

ولذلك قالت العربُ في أمثالها:
لو نُهيت الأولى لانتَهت الأخرى^(١).
قال عمرُ بنُ عبدِ العزيز لمولاه مزاحم:
إن الولاةَ جعلوا العيونَ على العوامِ، وأنا أجعلُك عيناً على نفسي،
فإن سمعتَ كلمةً ويُخني عليها، وفعلاً لا تحبُه مني فعطني عنده.
والاستظهارُ بمثل (٨ آ) هذه الاحتياطُ.
قال بعضُ الحكماءِ:

إن للناسِ أفهاماً يحفظون عليك أفهامك، فربما ذكرك ما قد أنسيت،
وأناك عنهم ما قد سَقَطَ عن علمك، فعلى حسبِ ذلك فليكن حذرُك من
ذمهم، وقهرُك لهم بصيانةِ نفسك عندهم.

والحال الثانية:

أن تكونَ أخلاقُه كلها فاسدةً في الأحوالِ كلها، فهي النفسُ الخبيثةُ،
وفسادُها هو الشرُّ التامُّ، وصاحبُها هو الشقيُّ بالاستحقاقِ، فيعالجُ فسادَ نفسه
كعلاجِه مرضَ جسده، وهو أصعبُ أحوالِها علاجاً، وأبطؤها صلاحاً، لأنها
تنتقلُ إلى ضدٍّ بغيرِ ضدٍّ، وتردُّ عن طبعٍ بغيرِ طبعٍ.

قال بعضُ الحكماءِ:

لا مرضٌ أوجعُ من قلةِ العقل^(٢).

= يرمي بالزندقة، وله كتب حسان في الحكم والأمثال. عُدَّ له ياقوت (٥٢) كتاباً وذكر ابن
النديم أسماء (٥٥) كتاباً توفي سنة ٢١٩هـ. انظر أخباره وترجمته وأقواله في: تاريخ بغداد
١٢/ ١٨، النجوم الزاهرة ٢/ ٢٣١ معجم الأدباء ١٤/ ٥١-٥٦ رقم الترجمة ١٢،
الفهرست ١٧٩-١٨٠، التمثيل والمحاضرة ٤٠٣، ٤٣٩، شمار القلوب ٤٧٩، ٤٨٠.

(١) قوهم: «لو نهيت الأولى لانتَهت الثانية» مثل من أمثالهم أورد أبو عبيدة القاسم بن سلام
بلفظ «لو نهيت الأولى لم تعدم الأخرى» (أمثال أبي عبيد ١٣) وأورده أبو الوفا محمد بن أحمد
السك بلفظ «لو نهيت الأولى لانتَهت الثانية» ويقول: إن معناه: «لو عاقبتك على أول جناية
لم تجر ثانياً، قاله أنس بن الجهم الأيادي لما لطمه الخارث بن أبي شمر لطمه بعد أخرى»
(٩٢ ٩٣) وانظر (معجم الأمثال ٢/ ١٧٤ رقم المثل ٣٢٣٠)

(٢) قول الحكماء: لا مرضٌ أوجعُ من قلةِ العقل» أوردته عبد الواحد الأمدي ضمن أقوال الإمام =

ولأنّ يداوي المرء عقله من الجهل أحرى به أن يداوي بدنه من المرض؛ فتلين بشماسها^(١)، وتدرج في مراسها، لينقلها بالتدرج عن أحوالٍ متقاربة إلى غايةٍ متاهية. فرائض الفيل الوحشي يقوده بالتدرج إلى ضدّ طباعه، قال الشاعر: [من الكامل]

والنفسُ راغبةٌ إذا رَغِبَتْهَا
وإذا تُرِدُّ إلى قليلٍ تقنعُ^(٢)

فيُحكّم العقلُ عليها، فكفى به مُدبِّراً ناصحاً، وسفيراً مصلحاً، كما قيل:

القلوبُ خواطرٌ بالهوى،
والعقولُ تزجرُ وتنهى،

= علي رضي الله عنه بلفظ «لا مرض أضنى من قلة العقل» (غرر الحكم ٣٤٩) وهو غير منسوب عند ابن منقذ بلفظ «الأدب حياة القلوب، ولا مصيبة أعظم من الجهل» (لباب الأدب ٢٣٤).

(١) يقال رجل شמוש: أي صعب الخلق. (مختار الصحاح مادة شمس ص ٢٧٤).

(٢) قوله: «قال الشاعر: والنفس راغبة... هذا البيت لأبي ذؤيب الهذلي واسمه خويلد بن خالد، الشاعر الجاهلي الذي أدرك الإسلام وأسلم على عهد رسول الله (ص) قبل إنه مات بأرض الروم. والبيت هو أحد أبيات العينية في الرثاء لبنيه السبعة الذين ماتوا في يوم واحد والتي مطلعها

أمن المنون وريبه تتوجع والدهر ليس بمعشب من يجرع
وقد قال عنه ياقوت: شعره كله غمط في الجودة وحسن السبك وذكر إنه توفي في غزوة أفريقية مع ابن الزبير، انظر عن الشاعر معجم الأدباء ١١ / ٨٣-٨٩ رقم الترجمة ٢٠، جمهرة أشعار العرب ٢٤١-٢٤٨ المفضليات ٢ / ٢١٩-٢٢٩ رقم القصيدة ١٢٦، الاستيعاب ٤ / ٦٥ (على هامش الإصابة، الإصابة ٤ / ٦٦ وديوانه مطبوع ضمن ديوان الهذليين القسم الأول من ١-١٦٥).

وعن البيت فإننا نجده في ديوان الهذليين القسم الأول ص ٣، والعقد الفريد ٣ / ٢٥٤ ضمن القصيدة، و٦ / ١٢٣ (طبعة العربيان)، وشرح نهج البلاغة ٢ / ٤٨٩ والإيجاز والإعجاز ٤٠ وخاص الخاص ١٠٤ والمفضليات ٢ / ٢٢٢، وجمهرة أشعار العرب ٢٤٢، ونهاية الأرب ٣ / ٢٤٧، وهو من الأبيات التي لا مثيل لها في عيون الأخبار ٢ / ١٩١، ٣ / ١٨٥، والبيان والتبيين ١ / ١٥٤ على أن نصفه الثاني أحكم نصف بيت وأوحر، و١ / ١٥٥ أيضاً، والشعر والشعراء ٩ والاستيعاب ٤ / ٦٧ وفيها أن الأصمعي قال عنه أبرع بيت قالته العرب، الإصابة ٤ / ٦٦، ولباب الأدب ٤٢٥ بلفظ (والنفس =

وفي التجارب علمٌ مستفاد^(١)،
والاعتبارُ يفيدُك الرشادُ،
وكفأك أدباً ما تكره من غيرك،
فعظ نفسك بالعبرة.

وقيل لبعض الحكماء:

متى بدأت بطلب الشرف والفضل؟
فقال: منذ الوقت الذي بدأت فيه بمعاناة نفسي على ما أنا فيه من
القبائح^(٢).

والحال الثالثة^(٣):

أن تكون أخلاقه صالحةً في كل الأحوال، فتتقلب كلها إلى الفساد (أ)
(ب) في كل الأحوال، فهو المستعاضُ به من الحور بعد الكور.
وليس تكون إلا عن أسباب ناقلية [لا تنفك]^(٤) فيها من أحد ثلاثة
أمور:
إما من سوء منشأ.

= طامعة...)، معجم الأدباء ١١ / ٨٨٨، وقد استشهد المؤلف بهذا البيت في هذا الكتاب
مرة أخرى، كما استشهد به على أنه من الأمثال السائدة (انظر كتاب الأمثال والحكم
الورقة ٣١ب).

(١) قولهم: «وفي التجارب علم مستفاد» ورد هذا القول في رسالة كلمات مختارة ص ٢٤ دون
عزو وفي مجمع الأمثال ٢ / ٧٩ رقم ٢٧٧٨. وورد في التمثيل والمحاضرة ٤٢٤، والامتناع
والمؤانسة ٢ / ١٥٠ بلفظ «في التجارب علم مستأنف» وفي لباب الآداب ٣٢٦ بلفظ «إن
التجارب عقل مستفاد» وفي غرر الحكم ص ٢٣ بلفظ «التجارب علم مستفاد».

(٢) قوله: «وقيل لبعض الحكماء: متى بدأت...» أورد هذا القول المبشرين
فانت منسوباً إلى سقراط، بلفظ «وقيل له: مذ كم بدأت تكسب الفضائل؟ قال: مذ بدأت
توبخ نفسي» (عاشم الكلم ١١٥) ونسب قولاً مشابهاً لهذا القول لمتندرس بلفظ: «متى
أثرت فيك الحكمة؟ فقال: مذ بدأت أحقر نفسي» (ص ٣١٦). وقد أورد أبو الحسن
محمد بن أبي خر يوسف العامري النيسابوري هذا القول بلفظ: «قيل منذ كم أثرت الحكمة
فيك؟ فقال مذ بدأت أحقر نفسي» (السعادة والإسعاد ١٠٢).

(٣) غ: الثانية.

(٤) الزيادة من حاشية الأصل.



وإما من غلبة شهوة.
وإما من إهمال وقلة تحفظ.

فيعالجُه بالضدَّ من سببه، فإنَّ في صلاح الطبع عوناً على فسادِ
الاكتساب، ولنَّ يُستصعب انقيادُ طبعٍ طرأ عليه عارضٌ.

قال الشاعر: [من الطويل]

وما النفسُ إلَّا حيثُ يجعلُها الفتى
فإنَّ أعطيتُ تاقثٌ وإلَّا تسَلَّتْ^(١)

ولئنْ تغيَّرَ الطبعُ بالإهمالِ فهو إلى أصله أبرعُ، وإذا أنقصته الحميَّةُ،
كان إلى الاستقامة أسرع.

قال بزرجمهر^(٢):

من طباعِ النفسِ استدامةُ المعاذيرِ لصاحبها فيما مضى، والوجالةُ فيما
بقي^(٣).

(١) البيت: «وما النفس إلَّا حيث يجعلها الفتى...» استشهد به المؤلف في أدب الدنيا والدين (ص ١٠) وفيه (فإن أطمعت) وقد جاء به بعد بيت آخر هو قوله:

صبرت عمل الأيام حتى تولت والزمته نفسي صبرها فاستمرت
ولم ينسبها لقائل. ونجد البيت في شرح نهج البلاغة غير منسوب وهو فيه بلفظ (فإن
أطمعت تاقث... (٢ / ٤٨٩).

(٢) بزرجمهر: وهو نزرجمهر بن البختكان رأس أطباء فارس وهو الذي تولى انتساخ كتاب كليله
ودمنة وترجمه من كتب الهند وكان وزيراً مقدماً لديهم، انظر قصته في مقدمة كتاب كليله
ودمنة ٣٠ وبعض أقواله في التمثيل والمحاضرة ١٤٢، ١٦٠، ٤٠٢. والعقد الفريد ١ / ٢٦٥،
والبيان والنبير ١ / ٤٠٢٢١، ٦٣ وحول ضبط حروفه انظر تحقيق اللسان لابن مكي
الصقلي ١٤١ وله قصص مع أنوشروان في غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم
٦١٩-٦٢٤، ٦٣٣-٦٣٦.

(٣) قول بزرجمهر: «من طباع النفس استدامة المعاذير...» أورده ابن المقفع بلفظ «إن من طواع
النفس الأمانة بالسوء أن تدعي المعاذير فيما مضى، والأمان فيما بقي» غير أنه لم يذكر قائله
(الأدب الصغير ٤٢) و(ص ١١ ضمن رسائل البلغاء). وأورد الثعالبي قولاً يشبه هذا المعنى
وسببه إلى دقيلطاس الرومي بلفظ: «من دلائل العجز كثرة الإحالة على المقادير» (الإيجاز
والإعجاز ص ١١).

فَلْيَعْلَمْ الْعَاقِلُ أَنَّهَا إِنْ سَهَّلَتْ لَهُ الْعِذْرَ فِي قَبِيحٍ أَتَاهُ أَنَّهُ قَدْ اكْتَسَبَ فِي قَبُولِهِ فِيهَا مِثْلَهُ.

قال الشاعر: [من الطويل]

وإِنْ أُمَرَأَ لَا يَنْتَهِي عَنْ غَوَايَةٍ
إِذَا مَا أَشْتَهَتْهَا نَفْسُهُ لَجْهُوْلُ
والحال الرابعة:

أَنْ تَكُونَ كُلُّ أَخْلَاقِهِ فَاسِدَةً فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ، فَتَنْقَلِبُ إِلَى الصَّلَاحِ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ، فَمَا ذَاكَ إِلَّا لِدَاعِ غَلَبِ عَلَى الطَّبْعِ، فَاجْتَذَبَهُ، وَقَوِيَ عَلَيْهِ حَتَّى قَلَبَهُ، فِيرَاعِي حِفْظَ أَسْبَابِهِ، وَتَقْوِيَةَ مَوَادِّهِ، وَلَا يَغْفُلُهُ؛ فَيَجْذِبُهُ الطَّبْعُ كَمَا اجْتَذَبَهُ، فَإِنْ نَوَازَعَ الطَّبَاعُ أَجْذَبَ، وَهِيَ إِلَى مَا نَاسَبَهَا أَقْرَبُ، وَقَلِيلٌ لِفَسَادِ صَلَاحٍ أَنْ يَكُونَ مُحْفُوظَ الصَّلَاحِ.

قال بعض الحكماء:

كُلُّ مُتَأَدِّبٍ مِنْ غَيْرِهِ مَتَى لَمْ يَدْمُ عَلَيْهِ الْأَدَبُ، اخْتَلَّ مَا يَسْتَفِيدُ مِنْهُ، وَرَجَعَ (٩ آ) إِلَى طَبْعِهِ.

وملاك صلاحها أَنْ تَكَثَّرَ مِنْ وَافَقِهِ فِي الصَّلَاحِ، وَتَجَانَبَ مِنْ خَالَفَهُ فِيهِ، فَإِنَّ لِلصَّحْبَةِ تَأْثِيرًا فِي اكْتِسَابِ الْأَخْلَاقِ، وَاجْتِنَابِ الْوَفَاقِ، لِقُصُورِ الطَّرَفِ عَلَيْهَا، وَسُكُونِ النَّفْسِ إِلَيْهَا، وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يَخَالِلُ»^(١).

(١) حديث: «المرء على دين خليله...» أخرجه أبو داود (سنن أبي داود ٤ / ٢٥٩ رقم الحديث ٤٨٣٣) والترمذي (سنن الترمذي ٤ / ١٧ رقم الحديث ٢٤٨٤) وكلاهما من حديث أبي هريرة عن طريق محمد بن بشار وبلقظ «الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» وهو حديث حسن. وقد روي باللفظ الذي جاء به الماوردي ويطرق أخرى فانظر (الجامع الصغير ٢ / ٢٦) و(المقاصد الحسنة ٣٧٨ رقم الحديث ١٠٠٩) و(كشف الحفاء ومريل الإلباس ١ / ٢٨١ رقم الحديث ٢٢٨١) وقد استشهد المؤلف به في (أدب الدنيا والدين ص ٩٦) وسأيت أيضاً في هذا الكتاب وقد أصبح هذا الحديث مثلاً من أمثاله صل الله عليه وسلم (انظر التمثيل والمحاضرة ٢٨) وقد أورده أبو عبيد بلقظ «المرء بخليله فلينظر المرء من يخالل» (أمثال أبي عبيد ص ٣) و(جمع الأمثال ٢ / ٢٧٥ رقم المثل ٣٨٣٣).

وقال عبد الله بن طاهر^(١):

إن لكل شيء حياة وموتاً؛ فمما يحيي اللبّ محادثة الألباء، ويحيي الودّ محادثة الأوداء، ويحيي العزّ مضافرة الأعزاء، ويحيي الذلّ مظاهرة الأذلاء، ويحيي الشجاعة مصاحبة الشجعاء، ويحيي الكرم مواصلة الكرماء، ويحيي الحياء مكاتبة أهل الحياء، ويحيي اللؤم معاشرة اللئام.

قال بعضُ البلغاء:

صلاحُ الشيم بمعاشرة الكرام، وفسادُها بمخالطة اللئام^(٢).

والحال الخامسة:

أن تكونَ بعضُ أخلاقه سالحةً في كلّ الأحوال، وبعضُها فاسدة؛ فقد أعطته نفسه من صلاحها شطراً، ومنحته [من] فسادها^(٣) شطراً، وهما فيه متنافران. وفيما أعطت عوناً^(٤) على ما مُنعت إن روعيت، وفيما منعت فساداً لما أعطت إن أهملت.

وقد قال عليُّ بنُ عبيدة: من كانت فيه خصلة حسنة فليواظب عليها؛ فإنَّ لها دولةً تعودُ إليها، ما أدبر عنها، فليستمن بشطر صلاحها على شطر

(١) عبد الله بن طاهر: هو عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق بن ماهان الخزاعي (أبو العباس) كان سيداً نبيلاً عالي الهمة شهياً، وكان المأمون كثير الاعتماد عليه، وكان أديباً ظريفاً، جيد الغناء، نسب إليه صاحب الأغاني أصواتاً كثيرة، وأحسن فيها، ونقلها أهل الصنعة عنه، وله شعر مليح، ورسائل ظريفة، توفي سنة ٢٣٠هـ. انظر بعضاً من أقواله وأحواله في: وفيات الأعيان ٢ / ٢٧١-٢٧٥ رقم الترجمة ٣١٦، العبر في خبر من غبر ١ / ٤٠٦، المستطرف ١ / ٢٢٦، الفهرست ١٧٦ وفيه أنه كان له مجموع رسائل.

(٢) قول بعض البلغاء: «صلاح الشيم بمعاشرة الكرام...» أورده ابن مسكويه دون نسه لأحد بلفظ «رأيت صلاح الأخلاق بمعاشرة الكرام وفسادها بمخالطة اللئام» (الحكمة الخالدة ٨٤) وفي هذا المعنى قال لقمان: «من خير حظ المرء، قرين صالح، فقلان أهل الخير تكثر منهم، وباين أهل الشر تبين عنهم» (مختار الحكم ٢٧٨) وقول أوميروس: «قارن أهل الخير تكن منهم وباين أهل الشر تبين عنهم» (مختار الحكم ٣١) وقول ابن المقفع: «إن الخصال الصالحة من البر لا تحيا ولا تنمي إلا بالموافقين والمهذبين والمؤيدين» (الأدب الصغير ٤٥).

(٣) غ: ومنحته بفسادها.

(٤) غ: عوناً.

فسادها؛ فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُجْذُوبٌ، والقُوَّةُ لِمَا أَحَدٌ وَأَعْيَنَ؛ فامْذُودُ صَرَحَهَا بِإِرْشَادِكَ، وَأَعْنَتْهُ بِاجْتِهَادِكَ؛ فَلَنْ يَبْقَى ^(١) لِفْسَادِهَا مَعَ التَّظَاهِرِ عَلَيْهِ لِبَسٍّ، وَهُوَ بِالضَّدِّ إِنْ اِنْعَكَسَ.

حُكِّيَ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ:

إِذَا رَأَيْتُمْ فِي الْإِنْسَانِ خَلَّةً مِنَ الشَّرِّ رَابِعَةً فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِنْ (٩ ب) كَانَتْ عِنْدَ النَّاسِ خَيْرًا ^(٢)، فَلَهَا أَخَوَاتٌ وَنَظَائِرُ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ فِي الْإِنْسَانِ خَلَّةً مِنَ الْخَيْرِ رَابِعَةً فَلَا تَجْتَنِبُوهُ، وَإِنْ كَانَ عِنْدَ النَّاسِ رَجُلٌ سَوْءًا؛ فَلَهَا عِنْدَهُ نَظَائِرُ وَأَخَوَاتٌ ^(٣).

والحال السادسة:

أَنْ تَكُونَ كُلُّ أَخْلَاقِهِ صَالِحَةً فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ، وَبَعْضُهَا فَاسِدَةً فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ، فَقَدْ تَرَدَّدَتِ النَّفْسُ بَيْنَهُمَا، وَتَوَطَّاتِ لِهَمَّا، وَالْفَسَادُ دَاخِلٌ عَلَيْهَا، وَلَيْسَ مِنْهَا، وَالْعَقْلُ مُسَاعِدٌ، وَالْهَوَى مُعْتَدٍ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا جَاذِبٌ لِلنَّفْسِ، وَهِيَ تَتَقَادُّ إِلَى مَا وَافَقَهَا، فَإِنْ تَوَقَّرَتْ فَضَائِلُهَا انْقَادَتْ لِلْعَقْلِ فِي صِلَاحِ الْأَخْلَاقِ، وَإِنْ تَوَقَّرَتْ رذَائِلُهَا مَائِلَتْ الْهَوَى فِي فِسَادِ الْأَخْلَاقِ، لِأَنَّ الْعَقْلَ عَلِمَ رُوحَانِيٍّ يَقُودُ إِلَى الْخَيْرِ، وَالشَّهْوَةَ خَلْقِيٍّ يَهْمِي بِقُودٍ إِلَى الشَّرِّ، فَأُطْلِقَ عَنَانَ النَّفْسِ إِذَا انْقَادَتْ لِلْعَقْلِ وَاقْبَضَهُ إِذَا مَائِلَتْ الْهَوَى، تَجَذُّهَا عَلَى الصِّلَاحِ مُسَاعِدَةً، وَلِلْفِسَادِ مُعَانِدَةً، فَحَبَّبْتُ بِهَا لِلْعَقْلِ عَوْنًا وَظَهِيرًا.

قَالَ الرَّشِيدُ:

قَبِّحَ اللَّهُ الْمَرْءَ لَا وَاعِظَ لَهُ مِنْ عَقْلِهِ، وَلَا مَطِيعَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ ^(٤).

(١) يَبْقَى.

(٢) غ: خَيْرٍ.

(٣) غ: (٤) قوله: «حكي عن علي رضي الله عنه أنه قال: إذا رأيتم في الإنسان خلة من الشر...» ورد هذا القول ضمن حكم الإمام علي بلفظ «إذا كان في الرجل خلة راتعة -كذا بالهمزة- فانظر منه أخواتها» (غرر الحكم ١٤٣) ووردت مثلاً من الأمثال (مجمع الأمثال ٢ / ٤٥٤).

(٤) قوله: «قال الرشيد: قبح الله المرء لا واعظ له من عقله...» في هذا المعنى أورد أبو=

مرّ أبو نواس^(١) بأبي العتاهية^(٢) فوعظه، فقال أبو نواس:
[من السريع]

لن تُقْلَعِ الأنفُسُ عن غيِّها
ما لم يكن منها لها واعظ^(٣)
فقال أبو العتاهية: وددت أني قلتها بجميع شعري.

وقيل: بل النفسُ خليةُ الذاتِ من الفضائلِ والردائلِ، وإنما هي آلهُ
لهما يتجادبها العقلُ والهوى، فإن غلبها العقلُ استعملها في الفضائلِ، وإن
غلبها الهوى استعملها في الردائلِ^(٤).

= الحسن بن الحسين الرخجي قولاً غير منسوب بلفظ «من لم يكن له من نفسه زاجر لم يتفعه وعظ واعظ» (أحاسن المحاسن ١٥٠) ومن أقوال الإمام علي ما يتصل بهذا المعنى قوله: «واعلموا أنه من لم يمن على نفسه حتى يكون له منها واعظ وزاجر لم يكن له من غيرها لا واعظ ولا زاجر» (شرح نهج البلاغة ٢/ ١٣٧)، وسيأتي استشهاد المؤلف بقوله: «من لم يكن له من نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ».

(١) غ: أبو النواس، وأبو النواس الحسن بن هاني الشاعر المشهور المتوفى ١٩٥هـ وقيل ١٩٨هـ وديوانه مشهور ومطبوع طبعات كثيرة انظر بعضاً من أخباره في وفيات الأعيان ١/ ٣٧٣-٣٧٧ رقم الترجمة ١٦٢.

(٢) أبو العتاهية: هو الشاعر المشهور المعروف، وهو أبو إسحق إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان العنزي بالولاء، العيني المتوفى ٢١١هـ أو ٢١٣هـ ببغداد وأبو العتاهية ككراهية قال الفيروز آبادي لقب أبي إسحق لا كنيته، ووهم الجوهري والعتاهية أيضاً ضلال الناس (قاموس مادة عته ٤ / ٢٨٩) انظر أخباره وترجمته في (وفيات الأعيان ١ / ١٩٨-٢٠٤ رقم الترجمة ٩١).

(٣) قوله: «مرّ أبو نواس بأبي العتاهية فوعظه...»
أورد ذلك أبو الوليد الطرطوشي بلفظ: «يروى أن أبا العتاهية مرّ بدكان الوراق، وإذا كتاب فيه بيت من الشعر [هو]:

لن ترجع الأنفس عن غيِّها ما لم يكن منها لها زاجر
فقال: لحن هذا؟ فقيل لأبي نواس. قال: وددت أنه لي بنصف شعري» (سراج الملوك ص ١٠) ولم أجد هذا البيت في ديوانه بتحقيق فاغنز ولا ديوانه بتحقيق أحمد عبد المجيد العزالي ولا في ديوانه باعتناء الزهار فليلاحظ ذلك.

(٤) قوله: «وقيل بل النفس خلية الذات من الفضائل والردائل...» لقد بحث الحكماء في كون النفس خلية الذات من الفضائل والردائل أو غير خلية منها، وقد ذكر ابن مسكويه بعضاً من آرائهم ويترّ بمقابل ذلك آراء الرواقين كما بيّن رأي جالينوس في ذلك بالتفصيل في كتابه (تهذيب الأخلاق ٣٦ وما بعدها) فلتراجع.

وقال عليُّ بنُ عبيدة:

العقلُ والهوى ضدَّانِ، فمؤيِّدُ العقلِ التوفيقُ، وقرينُ الهوى الخذلانُ،
والنفسُ بينهما، فأيهما ظفرَ كانت في حيزِهِ^(١).

وقال وهبُ بنُ مُتَّبه^(٢):

إنَّ العقلَ والهوى يصطرعانِ في القلبِ، فأيهما صرَّعَ صاحِبَه (١٠ آ)
كانت الغلبةُ له^(٣).

وقد نظم ابنُ الروميَّ^(٤) في النفسِ شعراً خالف فيه الوجهين؛ فقال:

[من الكامل]

كُنْ مثْلَ نَفْسِكَ فِي السَّمَوِّ إِلَى الْعُلَى

لَا مِثْلَ طِينَةِ جَسْمِكَ^(٥) الْغَدَارِ

(١) غ: حيرة-بالراء. وقول علي بن عبيدة «العقل والهوى ضدان...» نجد له ما يشابهه عند الحكماء: ففي الحكمة الخالدة: «العقل والهوى مختلفان» غير منسوب (ص ٦٢) وقد ابن المقفع: «إن الرأي والهوى متعاديان» (الأدب الصغير ٤٨) ومن حكم الإمام علي رضي الله عنه: «العقل والشهوة ضدان، مؤيد العقل العلم، وقرين الشهوة الهوى، والنفس متنازعة بينهما، فأيهما قهر كانت في جانبِهِ» (غرر الحكم ٥٥).

(٢) وهب بن مُتَّبه: هو أبو عبد الله وهب بن منبه الأنباري الصنعاني المؤرخ المشهور والأخباري المكثُر، كان كثير القراءة لكتب أهل الديانات السابقة، والنقل منها، وهو معدود في التابعين، توفي سنة ١١٠هـ وقيل ١١٤هـ. انظر أخباره وسيرته في: المعارف ٢٠٢، تاريخ الإسلام للذهبي ٥ / ١٤ وفيت الأعيان ٨٨-٨٩ رقم ٧٤٣، شذرات الذهب ١ / ١٥٠، طبقات ابن سعد ٣ / ٣٩٥-٣٩٦، تهذيب التهذيب ١١ / ١٦٦.

(٣) قول وهب بن مُتَّبه: «إن العقل والهوى يصطرعان في القلب...» يقترب من قول رئيس لقوم أمام الملك بهم: «علامة العقل أن يرى العبد حارساً لنفسه من نفسه، ولأناته من بادرته، ويروض صمب الهوى حتى ينزله للعقل، فإن العقل والهوى مختلفان، اختلفاً عى هذه النفس في موافقتها ومخالفتها، فالعقل لها شجن، والهوى لها سكن، وذلك أن الهوى يهدي إليها الشهوات واللذات، والعقل يمنعها من ذلك، إلا فيما يحل ويجمل، ويجردها من العواقب، فالنفس إلى ما قارب الهوى أسرع، ومن كان ما يشغل عليها أجزع...» (الحكمة الخالدة ٦٢).

(٤) ابن الرومي: أبو الحسن علي بن العباس بن جريح الشاعر المشهور المتفنن في الشعر المتوفى سنة ٢٨٣هـ وقيل ٢٨٤هـ وقيل ٢٧٦هـ مسموماً، انظر وفيات الأعيان ٣ / ٤٢-٤٥ رقم الترجمة ٤٣٦، ومقدمة ديوانه للعقاد.

(٥) غ: طينة نفسك، والتصحيح من الديوان.

فالنفسُ تسمو نحو علو مليكِها
والجسمُ نحو السفلى هاوِها
فأعزَّ أحقَّهما بعونك واقتسِر^(١)
طبعُ السفلى بطبعك السَّوَّارِ
والنفسُ^(٢) خيرُك إنَّها علويةٌ
والجسمُ شركٌ ليسَ فيه تمارِ
فانفذْ لخيرِك لا لشركِ واتَّبِعْ
أولاهما بالقادرِ الغفارِ
فالأرضُ في أفعالها مُضْطَرَّةٌ
والحيُّ فيه فضيلةٌ^(٣) المختارِ
فإذا جَرَّيتَ على طباعِك مثلها
فكانَ طبَعُك^(٤) بَعْدَ مَنْ فَخَّارِ^(٥)



-
- (١) غ: واقتبس.
(٢) في الديوان: (النفس).
(٣) في الديوان: تصرف المختار.
(٤) في الديوان: فكان طرفك.
(٥) والأبيات في ديوان ابن الرومي (ص ١٦٧، ١٦٩) ضمن القصيدة ٢٠٢ التي وقعت في ٦٢ بيتاً
الآيات الثلاثة الأولى التي وردت هنا تحتل التسلسل ٥٨، ٥٩، ٦٠ من القصيدة في الديوان،
والبيتان الرابع والخامس والسلسل هنا ٢٧، ٢٨ منها.

[الفصل السادس]

[الأفعال الشريفة بالأخلاق الشريفة]

[شريف الأفعال وشريف الأخلاق]:

فإذا وضَح ما استقرَّت عليه قواعد الأخلاق من محمود الفضائل ومذموم الرذائل، فشريف الأفعال لا يتصرَّف فيه إلَّا بشريف الأخلاق، سواءً كان طبعاً أو تطبعاً؛ لأنَّ الأفعالَ نفائج^(١) الأخلاق ونوازعَ الهمم، وقد نَبَّه الله تعالى على ذلك في كتابه [العزير بقوله،^(٢) لنبيِّه عليه السلام:

وَأَنَّكَ لَعَلَى خُلُقِي عَظِيمٌ^(٣)

لأنَّ الثُّبُوتَ لما كانتْ أشرف منازل الخلق؛ لاشتغالها على مصالح الدين والدنيا نَدَبَ الله تعالى لها من قد أكمل فضائل الأخلاق، وحازَّ أشرف الأعراق؛ ولذلك قال النبيُّ عليه السلام:

«بُعِثْتُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ»^(٤)

كذلك الإمامة والإمامة^(٥)، لما كانت تاليةً لحالها، وجب أن تكونَ

(١) غ: نتائج، والنفائج جمع نفيجة، وهي كل شيء يصدر بقوة، وقد مرت.

(٢) الزيادة من حاشية غ.

(٣) سورة القلم آية ٥.

(٤) حديث «بعثت بمكارم الأخلاق» رواه الإمام مالك رضي الله عنه في الموطأ بلاغاً عن النبي صلى الله عليه وسلم بلفظ «بعثت لأتمم حسن الأخلاق» (الموطأ - في صلب تنوير الحوالك - ٢ / ٢١١) قال السيوطي: وصله قاسم بن أصبغ والحاكم عن أبي هريرة، قال ابن عبد البر: وهو حديث مدني صحيح (تنوير الحوالك ٢ / ٢١١) وقال الررقاني: رواه أحمد والخرائطي برجال الصحيح، وساق الحديث، وقال: وفي رواية «إنما بعثت» ثم قال وللطبراني عن جابر مرفوعاً: «إن الله بعثني بتمام مكارم الأخلاق» (شرح موطأ الإمام مالك ٥ / ٢٥١) وقد أخرجه جمع غفير منهم ابن سعد والبخاري في الأدب المفرد والحاكم في المستدرک والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة وهو حديث صحيح (الجامع الصغير ١ / ١٠٣) وعن ألقاظه انظر كشف الخفاء (١ / ٢٤٤-٢٤٥، ٣٤٠) والمقاصد الحسنة (ص ١٠٥ رقم الحديث ٢٠٤).

(٥) غ: الأمانة، وهو تصحيف.

مشاكلة لخصالها، فلزم أن يُتدب لها من قد أنهضته الفضائل، حتى تهذب، واستقل بحقوقها، حتى تدرب، ليسوس الرعايا بآلته، ويباشر التدبير بصناعته، فلذلك كان الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم أحق من تكاملت فيهم فضائل (١٠ ب) الأخلاق طبعاً وتطبعاً، وأولى من صدرت عنهم محاسن الأفعال سجيةً وتصنعاً؛ لأنهم رعاة مطاعون، ودعاة إلى الحق مجابون، ليكون الأفضل سائساً للمفضول، والإعدل مقوماً للجهول، فيجتذبهم بكمال فضائله إلى الاقتداء بأخلاقه وطرائقه؛ فأكثر الرعايا اتباعاً لأمرائهم وملوكهم في الخير، والشر، والجهل، والجذ، والهزل.

قال النبي صلى الله عليه وسلم:

«إِثْنَانِ مِنَ النَّاسِ إِذَا صَلَحَا صَلَحَ النَّاسُ، وَإِذَا فَسَدَا فَسَدَ النَّاسُ:

العلماء والأمراء» (١)

قال بعض الحكماء:

الملك كالبحر تستمد منه الأنهار، فإذا كان عذباً عذبَتْ، وإذا كان

مالحاً ملحت (٢).

(١) قوله: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِثْنَانِ مِنَ النَّاسِ إِذَا صَلَحَا صَلَحَ النَّاسُ... إلخ» أخرج هذا الحديث ابن عبد البر عن ابن عباس بلفظ «صنفان من أمي إذا صلحا صلح الناس: الأمراء والفقهاء» وإسناد آخر عنه أيضاً بلفظ «صنفان من أمي إذا صلحا صلحت الأمة، وإذا فسدا فسدت الأمة، السلطان والعلماء» (جامع بيان العلم وفضله ١/ ١٨٤) وبالصفة الأخيرة رواه أبو نعيم في الحلية وقد استشهد به الغزالي بلفظ «صنفان من أمي إذا صلحوا صلح الناس وإذا فسدوا فسدت الناس، الأمراء والفقهاء» (إحياء علوم الدين ١/ ٦) قال العراقي في تحريجه إن سنده ضعيف (المعني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار - مطبوع في هامش الإحياء - ١/ ٦)، وفي المقد الفريد: قال الأصمعي. «كان يقال صنفان إذا صلحا صلح الناس الأمراء والفقهاء» (١/ ٣٢)، وقد أخرج ابن الجوزي هذا الحديث موقوفاً على سفيان الثوري بلفظ: «صنفان إذا صلحا صلحت الأمة وإذا فسدت كذا فسدت الأمة: السلطان والعلماء» (المصباح المضيء في خلافة المستضيء ج ١ ورقة ٤٧٠).

(٢) قوله: «قال بعض الحكماء: الملك كالبحر تستمد منه الأنهار...» أورده الأمير أسامة بن منقذ بهذا اللفظ وعزاه إلى أفلاطون (لباب الآداب ٤٥٦) وأورده مرة أخرى ونسبه إلى الحكماء بزيادة هي قوله: «... تستمد منه الأنهار الصغار فإن... وإن كان ملحاً...» (لباب الآداب ٧٠) وأورده المبشر بن فاتك منسوباً إلى أفلاطون أيضاً بلفظ: «الملك هو كالنهر =

[أول ما يبدأ به الملك سياسة نفسه وتقويمها]: (١)

فلزم ذا (٢) الإمرة والسلطان أن يبدأ بسياسة نفسه، ليحوز (٣) من الأخلاق أفضلها، ويأتي من الأفعال أجملها، فيسوس الرعية بعد رياضته، ويقومهم بعد استقامته.

قال بعض العلماء:

ينبغي للملك أن يتبديء بتقويم نفسه (٤)، [قبل أن يتبديء بتقويم

= الأعظم تستمد منه الأنهار الصغار، فإن كان عذياً عذبت، وإن كان مالحاً ملحت، (محاسن الكلم ١٣٥)، وأورد قولاً آخر غير منسوب بلفظ: «الملك العادل كالنهر الصافي بجاري ينتفع به الأنهار والأشجار، ولا ضرر منه عليهم، قربه منفعة وفي مفارقتها ضرر» (ص ٣٤٤)، ومن أقوال العامة والمولدين مما يقرب من هذا المعنى: «إذا عذبت العين طابت الأنهار» (التمثيل والمحاضرة ٢٥٦) وقال ابن عبد ربه: «وقالوا: إنما السلطان بأصحابه كالبحر بأماجه...» (العقد الفريد ١ / ٣٣).

(١) بشأن أوصاف الراعي والسائس انظر أقوال الحكماء في صفة السائس في كتاب (السعادة والإسماع ١٨٩-٢٠٠).

(٢) غ: ذي.

(٣) غ: ليحوز - بالجيم المعجمة.

(٤) قوله: «قال بعض العلماء: ينبغي للملك أن يتبديء بتقويم نفسه...» أورده المبشر بن فائك ثلاث صيغ متقاربة ونسب كل صفة إلى قائل: فقد نسب مرة إلى أفلاطون وجاء به بلفظ: «ينبغي للملك أن يتبديء بتقويم نفسه قبل أن يشرع في تقويم رعاياه، وإلا كان بمنزلة من رام استقامة ظل معوج قبل تقويم عوده الذي هو ظل له» (مختار الحكم ومحاسن الكلم ١٤٠) وانظر نفس هذه الصيغة في (لباب الآداب ٤٤٩).

وأورده مرة ثانية منسوباً إلى الحكيم هرمس بلفظ «إذا لم يكن الملك يقدر على قهر حواسه وغلبة شهواته، فكيف يقدر على ضبط رعيته وما بعد ذلك عن مملكته؟ فسيب الملك أن يتبديء بسلطانه على نفسه ليستقيم له سلطان غيره» (مختار الحكم ومحاسن الكلم ص ٢٦).

وأورده بصيغة ثالثة مرتين ونسبه في الأولى إلى سولون الحكيم وفي الثانية إلى لقمان بلفظ «ينبغي للرئيس أن يتبديء بتقويم نفسه قبل أن يتبديء بتقويم رعاياه، وإلا كان بمنزلة من رام استقامة ظل معوج قبل تقويم عوده الذي هو ظل له» (مختار الحكم ص ٣٩ و ص ٢٧٩).

وعند ابن المقفع: «ومن نصب نفسه إماماً فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها في السيرة والطعمة والرأي واللفظ والأخذان، فيكون تعليمه يسيره أبلغ من تعليمه بلسانه، فإنه كما أن كلام الحكمة يوقق الأسماع فكذلك عمل الحكمة يروق العيون والقلوب، =

رعاياه^(١) [وَلَا كَانَ بِمَنْزِلَةٍ مَن أَرَادَ تَقْوِيمَ ظُلٍّ مَعُوجٍّ قَبْلَ تَقْوِيمِ عَوْدِهِ الَّذِي هُوَ ظُلٌّ لَهُ .

فإذا بدأ بسياسة نفسه كان على سياسة غيره أقدر، وإذا أهمل مراعاة نفسه كان باهمال غيره أجدر، فبعد أن يحدث الصلاح عمن ليس فيه صلاح، لأن ضرورة نفسه أمس، وهو بتهديتها أخص، فإذا غلب عليه عنادها واستصعب عليه قيادها كان عناد المباین له أغلب، وقيادته عليه أصعب.

قال بعض الحكماء: (١١ آ)

مَنْ بَدَأَ بِسِيَاسَةِ نَفْسِهِ أَدْرَكَ سِيَاسَةَ النَّاسِ^(٢).

قال بعض البلغاء:

لَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَطْلُبَ طَاعَةَ غَيْرِهِ وَطَاعَةَ نَفْسِهِ مَمْتَنَةً عَلَيْهِ^(٣).

وقيل:

إِذَا عَجَزْتَ عَنْ أَدَبِ نَفْسِكَ فَلَا تَلَمْ مَنْ لَا يُطِيعُكَ^(٤).

ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال والتفضيل من معلم الناس ومؤدبهم. (الأدب الصغير ٤٩).

(١) الزيادة من مختار الحكم ص ٣٩ وص ٢٧٩.

(٢) قول بعض الحكماء: «من بدأ بسياسة نفسه أدرك سياسة الناس» نسبة الرخمي إلى أفلاطون بلفظ «من بدأ بسياسة نفسه قدر على سياسة غيره» (أحسن المحاسن ١٤٦) ومن أقوال الإمام علي رضي الله عنه: «من ساس نفسه أدرك السياسة، ومن بذل ماله استحق الرياسة» (غرر الحكم ٢٧٠). ونسب الأمير أسامة بن منقذ إلى أفلاطون بلفظ: «من قام من الملوك بالعدل والحق ملك سائر رعاياه» (لباب الآداب ٤٤٩) واستشهد به ابن الجوزي بلفظ: «من بدأ بنفسه فساسها أدرك سياسة الناس» وعزاه إلى أفلاطون (المصباح المضيء في خلافة المستضيء ج ١ / الورقة ٤٧٠ وفيها تحريج).

(٣) قوله: «قال بعض البلغاء: لا ينبغي للعاقل أن يطلب طاعة غيره وطاعة نفسه ممتنة عليه» استشهد به الماوردي في كتابه (أدب الدنيا والدين ١٣٢) بنفس لفظه إلا أن فيه «ونفسه ممتنة عليه» وعزاه إلى بعض الحكماء. وقد ورد هذا القول غير منسوب لأحد في التمثيل والمحاضرة بلفظة (ص ٤٠٨) وفي أقوال الإمام علي رضي الله عنه: «لا تطلب طاعة غيرك وطاعة نفسك عليك ممتنة» (غرر الحكم ٣٣٧).

(٤) قوله «وقيل إذا عجزت عن أدب نفسك فلا تلم من لا يطيعك» نشر الماوردي هذا القول فقال: «فلأها أي النفس- إذا أطاعته ملكها وإذا عصته ملكته ولم يملكها، ومن لم يملك =

قال الشاعر: [من الوافر]

أَتَطْمَعُ أَنْ يُطِيعَكَ قَلْبٌ سُعْدَى

وتزعمُ أَنَّ قَلْبَكَ قَدْ عَصَاكَ^(١)

[إساءة الظنِّ بالنفس]:

وربما حَسَنَ ظَنُّ الإنسانِ بنفسِهِ، فأغفلَ مراعاةَ أخلاقِهِ، فدعاهُ حُسْنُ الظَّنِّ بها إلى الرِّضا عنها، فكان^(٢) الرضا عنها^(٣) داعياً إلى الانقيادِ لها، فَفَسَدَ منها ما كان صالحاً، ولم يصلحْ منها ما كان فاسداً؛ لأنَّ الهوى أغلبُ من الرأي، والنفسُ أجورُ^(٤) من الاعداء؛ لأنَّها بالسوءِ أمرَةٌ وإلى الشهواتِ مائلةٌ، كما قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

«إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ»^(٥)

ولذلك^(٦) قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ:

«الشَّدِيدُ^(٧) مَنْ مَلَكَ نَفْسَهُ»^(٨)

= نفسه فهو بأن لا يملك غيرها أولى، ومن عصته نفسه كان بمعصية غيرها أولى... (أدب الدنيا والدين ١٣٢) وفي هذا المعنى قال الإمام علي رضي الله عنه: «أعجز الناس من عجز عن إصلاح نفسه» (غرر الحكم ٩٣).

(١) قول الشاعر: «أطمع أن يطيعك...» استشهد المؤلف بهذا البيت في أدب الدنيا والدين ١٣٢ ولم ينسبه لقائل أيضاً.

(٢) ط: وكان.

(٣) غ: الرضا عليها.

(٤) ط: أجود، وهو تصحيف.

(٥) يوسف: ٥٣.

(٦) ط: وقال.

(٧) غ: الشديد - بالسين المهملة وهو تصحيف.

(٨) حديث: «الشديد من ملك نفسه» متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» (صحيح البخاري - كتاب الأدب - ٤/ ٤٧) و(صحيح مسلم - كتاب البر والصلة - مطبوع بصلب شرح النووي عليه ١٦ / ١٦٢) و(جامع الأصول من أحاديث الرسول ٩ / ٣٠٤ الحديث رقم ٦١٨٩) رياض الصالحين ٤٣ باب الصبر ورواه الإمام مالك أيضاً باللفظ المتفق عليه أيضاً (الموطأ - في صلب تنوير الخواص ٢ / ٢١٢) قال الزرقاني: وعند ابن حبان مرفوعاً: «ليس الشديد من غلب الناس إنما الشديد من غلب نفسه» (شرح موطأ الإمام مالك ٥ / ٢٥٧).

قال بعضُ الألباءِ:

من رضي عن نفسه، أسخط عليه الناس^(١).

[أسباب حسن الظن بالنفس]:

ولحسن الظن بها أسباب:

فمن أقوى أسبابه الكبر والإعجاب، وهو - بكل أحد - قبيح، وبالملوك أقبح، لأنه من دواعي صغر الهمة، وشواهد الاستكثار لعلو المنزلة، وهذا من ضعف المنة الذي يُجَلُّ الملوك عنه، لأن قدرتهم تظهر بالقدرة والسلطان، لا بالكبر والإعجاب، وكفى بالمرء ذمًا أن تكون همته دون رتبته، ومته أضعف من قدرته.

قال بعض الحكماء:

لا ينبغي للعاقل أن يرى شيئاً من الدنيا لنفسه خطراً فيكون به تائهاً^(٢).

وقال عبد الملك بن مروان:

(١) قوله: «قال بعض الألباء: من رضي عن نفسه أسخط عليه الناس» استشهد المؤلف بهذا القول في أدب الدنيا والدين (ص ٢١٤) غير منسوب إلى أحد بل نسبه إلى الحكماء بلفظه. وفي مختار الحكم (٣٣٥) بلفظ «من رضي عن نفسه كثر من يسخط عليه ومن تقصى على نفسه سلم من تقصى غيره عليه، ومن لم يعظ نفسه لم ينتفع بوعظ الواعظين» وأورده ابن مسكويه ضمن حكم العرب وأمثالهم السائرة بلفظ «من رضي عن نفسه كثر الساخطون عليه» (الحكمة الخالدة ١٩٨) وبهذا اللفظ في التمثيل والمحاضرة (٤٤٤) و(عيون الأخبار ٢٧٢ / ١) ومن كلام الإمام علي: «إياك أن ترضى عن نفسك فيكثر الساخط عليك» (غرر الحكم ٧٥) و«من رضي عن نفسه كثر الساخط عليه» (ص ٢٨٠) و(كتاب ٢٠٠٠ كلمة للإمام علي ص ٣) و(شرح نهج البلاغة ٤ / ٢٤٣) و(مجمع الأمثال ٢ / ٤٥٣) وعزاه ابن الخوزي إلى سقراط بلفظ «من رضي عن نفسه سخط الناس عليه» (المصباح المضيء في حلافة المستضيء ج ١ / الورقة ٤٧١) وبهذا اللفظ الأخير نفسه أورده الرعنجي منسوباً إلى سقراط وفيه زيادة هي «... ومن اتهم هواها أقبلت الوجوه إليه» (أحسن المحاسن ١٤٦).

(٢) قوله: «قال بعض الحكماء: لا ينبغي للعاقل أن يرى شيئاً من الدنيا لنفسه خطراً فيكون به تائهاً جاء في هذا المعنى كثير من الأقوال، فمنها ما نسب إلى أرسطوطاليس: «إياك والعجب فإنه يفسد كثير الفضل» (مختار الحكم ١٩٣) وقال بطليموس: «من تاه في ولايته دل في عزله» (مختار الحكم ٢٥٤).

أفضل الناس من تواضع عن رفعة، وزهد عن قدرة (١١ ب) وأنصف
عن قوة^(١).

وقيل:

التواضع في الشرف أشرف من الشرف^(٢).

[الكبر والإعجاب]:

والمملوك أعلى الناس همماً، وأبسطهم أملاً؛ فلذلك كان الكبر
والإعجاب بهم أقبح، ونقصه عليهم أفصح.

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما

(١) قول عبد الملك: «أفضل الناس من تواضع عن رفعة...» ورد بنفس اللفظ ومنسوباً إليه في
(العقد الفريد / ٤٢) و(عيون الأخبار / ٢٦٧) و(آداب النفس / ٢٩٠) و(التمثيل
والمحاضرة / ١٣٤) وهو فيه بلفظ... وعفا عن قدرة... وذكره صاحب التمثيل مرة أخرى
منسوباً إليه بلفظ «أفضل الناس من عفا عن قدرة وتواضع عن رفعة وأنصف عن قوة»
(الإيجاز والإعجاز / ١٧) و(برد الأكباد في الأعداد / ١١٦) وقد ورد منسوباً للإمام عبي في (غرر
الحكم / ٩٥) بلفظ «أعدل الناس من أنصف عن قوة، وأعظمهم من حلم عن قدرة» وفي
موضع آخر بلفظ «إن أفضل الناس من حلم عن قدرة وزهد عن عنية، وأنصف عن قوة»
(غرر الحكم / ١٠٤). وقد ورد هذا القول غير منسوب لقائل ولفظ: «أفضل الرجال...» في
(مختار الحكم / ٣٣٥) وهو غير منسوب أيضاً... وتزهد عن ثروة...» في (الحكمة
لخالدة / ١١٧).

(٢) قوله: «وقيل التواضع في الشرف أشرف من الشرف» أورده المؤلف منسوباً إلى ابن السماك
وقد قاله لعيسى بن موسى بلفظ «تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك» (أدب الدنيا
ولدين / ٢١٧) وقد جاء به دون عزو في (أدب الوزير / ٥٠) بلفظه. وقد أورد الثعالبي قولاً
لمصعب بن الزبير بلفظ «التواضع من مصائد الشرف» (التمثيل والمحاضرة / ٤١٠، ٣٣) وأورده
مرة أخرى بلفظ: «تواضعك في شرفك أحسن من شرفك» (ص / ٤١٠) وأورده ابن عبد ربه
بلفظ «تواضعك في شرفك أكبر من شرفك» (العقد الفريد / ٤٢) وهو فيه من أقوال ابن
السماك لعيسى بن موسى. ونسبه ابن قتيبة إليه أيضاً وأورده بلفظ «تواضعك في شرفك خير
لك من شرفك» (عيون الأخبار / ٢٦٧) وأورد القول الآخر: «التواضع من مصائد
الشرف» منسوباً إلى عروة بن الزبير (عيون الأخبار / ٢٦٦) وهذا القول الأخير في (الأرب
الدنيا والدين / ٢٢٠) وأورده النويري بلفظه دون أن يعزوه إلى قائل (نهاية الأرب / ٦ / ١٣٥
ومن أقوال ابن المعتز: «التواضع سلم الشرف» (الأدب / ١٥٢) وفي ص ١٦٣ منه تحريج
للقول الأخير).

سمعت أبا بكر رضي الله عنه يقول: [من البسيط]

إذا أردت شريف الناس كلهم
فانظر إلى ملك في زي مسكين
ذاك الذي حسنت في الناس رأفته
وذاك يصلح للدنيا وللدِين^(١)

لكن السكينة والوقار أولي به من الكبر والإعجاب.
ومن الناس من لا يفرق بين الكبر والوقار. وهذا جهل بمعناهما، لأن
الوقار اقتصار، والكبر استطالة.

فأما الكبر والإعجاب^(٢) فقد يجتمعان في الذم، ويفترقان في المعنى:
فالإعجاب يكون في النفس، وما يعتقده من فضائلها.
والكبر يكون بالمرتبة، وما يتصوره من علوها.
فكانت علة الإعجاب من ذاته؛ فصارت ألزم، وعلة الكبر طارئة الأمل
وهما رذيلتا ذي الفضل والمرتبة.
وقيل:

(١) قول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «سمعت أبا بكر رضي الله عنه يقول: إذا أردت
شريف الناس كلهم... البتين» أخرجه ابن الجوزي عن طريق عطاء عنه بلفظ «في الناس
سيرته» (المصباح المضيء في خلافة المستضيء ٥٣٩-٥٤٠) وقد اقتبسها أبو العتاهية ضمن
قصيدته التي مطلعها:

لَنَجْذَعَنَّ الْمَنَاسِيَا كُلَّ عَرْنَيْنٍ وَالْخَلْقَ يَغْنَى بِتَحْرِيكِكَ وَتَسْكِينِ
في سبعة أبيات، وقد جاء الثاني منها فيها بلفظ «عظمت في الناس حرمة» (ديوان أبي
العتاهية ٤٣٩) وفي الأنوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية ٢٧٤ وتجددما في العقد
المريد (١ / ٤٣ / ٢ - ١٨٥ - من طبعة العريان) منسوين فيها إلى أبي العتاهية بلفظ «ذاك
الذي عظمت في الله نعمته» و (عيون الأخبار ٢ / ٣٣٢) و (المحاسن والأضداد ١٧٩) وهي في
هذا الأخير بلفظ «عظمت حمة» منسوين إلى أبي العتاهية أيضاً والأول في المحاسن والمساويء
لديه ٢ / ٣٩٠ منسواً لأبي العتاهية. وقد ورد في أقوال يحيى بن خالد البرمكي: «أن
الكرم ملك في زي مسكين» (معجم الأدباء ج ٢٠ / ص ٦).

(٢) عن الكبر والإعجاب عقد المؤلف فصلاً في كتابه (أدب الدنيا والدين ٢١٥-٢٢٠).

عظمة الإنسان تواضعه^(١).

[من أسباب الكبر والإعجاب]:

وللكبر أسباب^(٢):

فمن أقوى أسبابه كثرة المتقربين، وإطراء المتملقين، الذين قد استبضعوا الكذب والنفاق، واستحبوا المكر والخداع؛ لدناءة أنفسهم وضعة أقدارهم، فإذا وجدوا لنفاقهم سوقاً، ولكذبهم تصديقاً، جعلوه في ذمم النوكى سُلماً تسلقوه^(٣)، ومغناً أحرزوه، فاعتاضوا به ديناً، وعوضوا منه شيئاً، وحكم الممدوح بكذب قولهم على صدق عليه بنفسه، وجعل لهم طريقاً إلى الاستهزاء به؛ لأنهم صدعوه؛ فانصدع، وخدعوه؛ فاندخدع.

ومن (١٢ آ) أجل ذلك قال النبي عليه السلام:

«أخثوا في وجوه المداحين التراب»^(٤)

(١) قوله: «وقيل عظمة الإنسان تواضعه» وردت في هذا المعنى أقوال كثيرة منها ما أورده المبشر بن فاتك بالفاظ مختلفة منها: «أفضل الرجال من تواضع عن رفعة...» وقد مر قبل قليل من كلام عبد الملك بن مروان ومنها قولهم «كل نعمة محسود عليها إلا التواضع» وقد استشهد به المؤلف في أدب الدنيا والدين (٢١٦) ونسبه إلى بزرجمهر بلفظ «النعمة التي لا يحسد صاحبها عليها التواضع» ومنها قولهم «من جهل قدر نفسه فهو لقدر غيره أجهل، ومن أنف من عمل نفسه اضطر إلى عمل غيره، ومن لم يتضع عند نفسه لم يرتفع عند غيره وثمرة التواضع المحبة وثمره القناعة الراحة» (مختار الحكم ٣٣٥) و«أعظم الشرف التواضع» (غرر الحكم ٨٧) منسوباً للإمام علي و«التواضع من مصائد الشرف» (التمثيل والمحاضرة ٤١٠) وهو من قول مصعب بن الزبير (أدب الدنيا والدين ٢٢٠) وقد مر قبل قليل و«تمام الشرف التواضع» (غرر الحكم ١٥٣)، و«من دام تواضعه كثر صديقه» (أدب الدنيا والدين ٢٢٠) وفيه أقوال أخرى.

(٢) حول أسباب الكبر والإعجاب انظر أدب الدنيا والدين (٢١٨-٢٢٠).

(٣) غ: أسلقوه.

(٤) حديث «أخثوا في وجوه المداحين التراب» رواه الإمام مسلم في صحيحه بطرق أن رجلاً جعل يمدح عثمان فعمد المقداد فجثا على ركبتيه وكان رجلاً ضخماً فجعل يمشو في وجهه الحصباء، فقال له عثمان: ما شأنك؟ فقال: إن رسول الله قال: «إذا رأيتم المداحين فآخثوا في وجوههم للتراب» (صحيح مسلم بشرح النووي ١٨ / ١٢٨) ورواه الترمذي عن المقداد أيضاً وقال: هو حديث حسن صحيح (سنن الترمذي ٤ / ٢٦ رقم الحديث ٢٥٠٤) ورواه =

وقال عليه السلام:

«إياكم والمدح؛ فإنه الذَّبْح»^(١)

وقيل لأنوشروان:

لَمْ تَهَانُونِ بِالْمَدْحِ إِذَا مُدِّحْتُمْ؟

[فَقَالَ:] لَأَنْتَا رَبَّمَا رَأَيْنَا مَمْدُوحًا هُوَ بِالذَّمِّ أَحَقُّ^(٢).

وقيل:

حُبُّ الْمَدْحِ وَاسْطَةُ بَيْنِ الْفَضَائِلِ وَالرِّذَائِلِ؛ فَهِيَ آخِرُ الرِّذَائِلِ، وَأَوَّلُ

الْفَضَائِلِ.

= مرة أخرى عن أبي هريرة بلفظ «قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نحثو في أفواه المداحين التراب» وقال: هذا حديث غريب (سنن / ٤ / ٢٦-٢٧ رقم الحديث ٢٥٠٥) ورواه أبو داود عن المقداد بلفظ «إذا لقيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب» (سنن أبي داود / ٤ / ٢٥٤ رقم الحديث ٤٨٠٤) ورواه ابن ماجه عن المقداد أيضاً (سنن ٢ / ١٢٣٣ رقم ٣٧٤٢) و(جامع الأصول من أحاديث الرسول ١١ / ٣٧٨-٣٧٩ رقم الحديث ٨٤٨٥ و٨٤٨٦) ورواه الإمام أحمد بروايات متعددة مرة عن ابن عمر (المستدرك / ٢ / ٩٤) ومرات عن المقداد (المستدرك / ٥ / ٥) واحدة منها باللفظ الذي استشهد به الماوردي أعلاه، وهناك روايات أخرى عن ابن عمر وعن أنس وغيرهما (الجامع الصغير / ٢٧) و(مشكاة المصابيح / ٢ / ٥٧٩ رقم الحديث ٤٨٢٦) و(المغني عن الأسفار في تحريج ما في الأحياء من الأخبار-مطبوع على هامش الأحياء ٣ / ١٦١).

(١) حديث «إياكم والمدح فإنه الذَّبْح» رواه ابن ماجه عن معاوية في الأدب من سنته (٢ / ١٢٣٣ رقم ٣٧٤٣) بلفظ «إياكم والتمادح فإنه الذَّبْح» وحديثه حسن. ورواه الإمام أحمد عن معاوية من طريق معبد الجهني بلفظ «إياكم والتمادح فإنه الذَّبْح» ثلاث مرات في حديث طويل (المستدرك / ٤ / ٩٢، ٩٣، ٩٩) والحديث في أدب الدنيا والدين (٢١٨) بلفظ «إياكم والتمادح فإنه الذَّبْح» ومن أقوال الإمام علي رضي الله عنه «من مدحك فقد ذبحك» (غرر الحكم ٢٦٦) ومن أمثالهم: «المدح الذَّبْح» (مجمع الأمثال ٢ / ٢٨٤ رقم ٣٨٨٦) ومن أقوال عمر بن الخطاب «المدح هو الذَّبْح» (إحياء علوم الدين ٣ / ١٦٠) و(عيون الأحبار ١ / ٢٧٥).

(٢) قوله. «وقيل لأنوشروان: لم تَهَانُونِ بِالْمَدْحِ... إلخ» أورد ابن مسكويه هذا القول فيما أورده من حكم أنوشروان بلفظ: «قيل: فما بالكم تطرحون من المدح ما لم يكن مطرَحاً عند غيركم من الملوك؟ قال: لكثرة من رأينا من الممدوحين الذين كانوا بالذم أولى منهم بالمدح» (الحكمة الخالدة ٥٢) و(الترجمة والنقل عن الفارسية ٩١ ٩٢) وفيه أن هذا القول قطعة من كتاب لأنوشروان اسمه كتاب المسائل (الترجمة والنقل عن الفارسية ٤٠).

وحملَ هذا على إطلاقه ذلك.

والصواب: أن يُعتبر: فإن أحبَّ المدحَ ليلتذَّ بسماع ما ليس فيه كان رذيلةً ونقصاً، وإن أحبَّه ليفعل ما يمدحُ به كان فضيلةً؛ لأنه يبعثُ على فعل الفضائل، وما بعثَ عليها كان منها.

وهذا أمرٌ ينبغي لكلِّ عاقل أن يراعيه من نفسه ويُفرِّق بين متملِّقةٍ احتيالاً لما لديه، وبين من يخلصُ له النصيحة من أهل الصدق والوفاء، الذين هم مرايا محاسنِهِ، وعيونُهُ، وأمناءُ مشهده ومغيبه.

قال سليمان بن داود عليه السلام:

شَفَقْنَا الصَّدِيقَ رَحِمَتَانِ، وَشَفَقْنَا الْعَدُوَّ تَنْطِقُ بِالْعَدَاوَةِ.

وقيل لبعض الحكماء:

من أولى بك منك وأصدق في نصيحتك من نفسك لك؟
قال:

من صدَّقني إن نزعْتُ، ونَبَّهني إن غفلْتُ.

فإن أغفل^(١) هذا الفرقَ والتمييزَ، واستسهل^(٢) الاغترارَ والتجويزَ، داهنَ نفسه، ونافقَ عقله، واستفسدَ أهلَ الوفاءِ والصدقِ، وصارَ مأكلةَ النفاقِ والمَلَقِ، فأعقبه أذىً ومضرةً، وتورطَ به في شبهةٍ وحيرةٍ، واكتسبَ به هجنةً ومعرةً.

وقد قيل:

المنافقُ نصفُ حسيده بلا عقلٍ

والسلطانُ أولى من حذرَ ذلك وتوقاه؛ لأنَّ حضرته - لكثرةِ الراغبين فيها - كالسوقِ التي^(٣) يُجلبُ إليها ما ينفقُ فيها، وكلُّ داخلٍ عليه إنما يريدُ التقربَ إليه بقوله وفعله، إما طالباً للمنزلة، وإما (ب) اجتذاباً للمنفعة، وإما حذراً من المخالفة. فإذا لم يزرهم عقلٌ، ولم يكفهم

(١) غ: أعقل.

(٢) غ: استسهل.

(٣) غ: إلى.

دين، مرحوا^(١) في نفاقهم؛ فخانوا، وشانوا. وقد روي عن النبي عليه السلام أنه قال:

«لا يمنع أحدكم رهبة السلطان أن يقول بحق إذا رآه؛ فإنه لا يقرب من أجل ولا يبعد من رزق^(٢)».

فإذا اتسق لهم النفاق، وراوه من أرقق الأرزاق، عدلوا عن زواجر العقل والمناصحة إلى مساعدة الملك على رأيه؛ لأنهم قد علموا منه إشار الموافقة على الهوى، وحب المدح والإطراء، فجعلوا ذلك أربح بضائعهم لديه، وألطف وسائلهم إليه، وهو سهل التكلف، لا يجد المتوسل المتقرب به مساً، فيتصور ذمه حمداً، وقد اكتسب به ذمماً، ويتوهم قبيحه حسناً، وقد أورثه قباحةً وشيناً، ثم لا يجد ناصحاً سليماً، ولا مراقباً رحيماً؛ لأن النصيح عنده بائس مردوئ، والخداع إليه نافق مقبول؛ فإن رقيب^(٣) هفواته بالإغضا^(٤)، وسعد عليها بالرضا، طاح في إغوائه، ومرح في غلوائه؛ فطمس بهجة محاسنه، وأوهى جلالة قدره، وقد قال العتابي الشاعر^(٥):

[من البسيط]

(١) غ: فمرحوا.

(٢) حديث «لا يمنع أحدكم رهبة السلطان... إلخ» رواه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري بلفظ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا لا يمنع أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهد، فإنه لا يقرب من أجل ولا يبعد من رزق، أن يقول بحق أو يذكر بعظيم» (مسند الإمام أحمد ٣ / ٥٠). وأورد قطعة من هذا الحديث مرة أخرى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أيضاً بلفظ قال صلى الله عليه وسلم «ألا لا يمنع أحدكم مخافة الناس أن يقول الحق إذا رآه» (المسند ٣ / ٨٧) ومن كلام الإمام علي رضي الله عنه «إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقربان من أجل، ولا ينقصان من رزق لكن يضاعفان الثواب ويعظمان الأجر، وأفضل منها كلمة عدل عند إمام جاتر» (غرر الحكم ١١٤) وقد أورد الماوردي هذا الحديث في الأمثال والحكم (الورقة ٤٩ ب).

(٣) غ: رقيب.

(٤) بالإغضا كذا بالقصر لتناسب الفاصلة المسجوعة.

(٥) العتابي: أبو عمرو كلثوم بن عمرو التغلبي ينتهي نسبه إلى عمرو بن كلثوم الشاعر، والعتابي من الشام وهو أديب من أدباء العصر العباسي الأول جمع بين بيان الشعر فكان شاعراً محمداً وبيان النثر فكان كاتباً حسن الترسل، مدح الرشيد بعد أن اختص بالبرامكة، وكان حس =

لَوْمْ يُعِيدُكَ مِنْ سُوءِ تَفَارُقِهِ^(١)

أَبْقَى لِعِرْضِكَ مِنْ قَوْلٍ يُدَاخِيكَ

لَقَدْ رَمَى بِكَ فِي تِهَاءِ مَهْلَكَةٍ

مَنْ كَانَ يَكْتُمُكَ الْعَيْبُ^(٢) الَّذِي فِيكَ^(٣)

وهذا مما يجب أن يتوقاه الملك، ويحذره ليكفي مخادعة^(٤) الهوى،
ويميزه عن مدهانة النفس.

قال النبي عليه السلام:

«إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعِيدَ خَيْرٍ جَعَلَ لَهُ وَاعِظًا مِنْ نَفْسِهِ»^(٥)

= الاعتذار في رسائله وشعره، ويشبه في المحدثين بالنابغة في الجاهلية مات في حدود ٢٢٠هـ.
والعتابي بفتح العين وتشديد التاء نسبة إلى عتاب بن سعد بن زهير بن جشم. انظر ترجمته
وأخباره في: تاريخ بغداد ١٢ / ٤٨٨، طبقات الشعراء ٢٦١، معجم الشعراء ٢٤٤، معجم
الأدباء ١٧ / ٢٦-٣١ رقم الترجمة ١٢ وذكر أنه استوفى أخباره في كتابه أخبار الشعراء، وفيات
الآعيان ٤ / ٢٣ ضمن ترجمة أبي منصور محمد بن علي بن إبراهيم بن زبرج النحوي المعروف
بالعتابي أيضاً، فوات الوفيات ٢ / ٢٨٤-٢٨٦ رقم الترجمة ٣٥٩، الحقد
الفريد ١٩ / ٨٨، ٨٦، ٨٨، فهرست ابن النديم ١٨١-١٨٢ وذكر له ستة كتب،
واللباب ١-٣١٩.

(١) غ: تفارقه.

(٢) غ: يكتنمك النصع، والتصحيح من معجم الأدباء.

(٣) قول العتابي: لوم يعيلك... إلخ البيتين أوردتهما ياقوت منسويين إليه في معجم الأدباء
١٧ / ٣٠.

(٤) غ: فيخادعه.

(٥) قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعِيدَ خَيْرٍ...» أخرجه الديلمي في مسند
الفردوس عن أم سلمة بحديث ضعيف (الجامع الصغير ١ / ١٧) وفيه زيادة (يأمره وينهاه)
وقد أوردته المؤلفة في أدب الوزير وفي الأمثال والحكم (الورقة ٩٩) عن أبي الوقاص العامري
عن أم سلمة.

قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ:

مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَاعِظْ لَمْ تَنْفَعِ الْمَوَاعِظُ^(١).



(١) قولهم: «من لم يكن له من نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ» مرّ قبل قليل قول الرشيد: «قبح الله المرء لا واعظ له من عقله ولا مطيع له من نفسه» وفي تخريجه ما يتصل بموضوعها وقد ورد قول مشابه غير منسوب لأحد ويلفظ «من كان من نفسه واعظ كان له من الله حافظ» في (كلمات مختارة ٤٠) ومن الأقوال المنسوبة للإمام علي: «من كان له من نفسه زاجر كان عليه من الله حافظ» (غرر الحكم ٢٩٣) و(كتاب ٢٠٠٠ كلمة للإمام علي ص ٩ رقم ١٣٣) وقوله «من لم يعنه الله على نفسه لم ينتفع بموعظة الواعظ» (غرر الحكم ٢٩٥). والقول بلفظه أورده الماوردي في كتاب أدب الوزير (ص ٤٩) ونقله عنه النويري (نهاية الأرب ٦ / ١٣٥) كما أورده ثانية بلفظ «من لم يكن له من نفسه زاجر لم تنفعه الزواجر» في (الأمثال والحكم الورقة ٥ ب).

[الفصل السابع]

[شواهد الفضل]

[الوقار]:

وإذا كان الوقار محموداً، وكان ذو القدر [به] مأموراً فهو أول شواهد الفضل، وأُس (١٣أ) قواعد، فوجب أن نوضح^(١) منه فصلاً تدل على نظائرها يتبع بعضها بعضاً.

[التثبت والصمت]:

فمن ذلك قلة السرعة إلى الشهوات، والتثبت عند الشبهات، والإعراض عن الهفوات، وضبط النفس عن سرعة الحركات، ثم إطرأ الطرف، ولزوم الصمت، إلا من ضرورة لا يجد فيها من الكلام بدءاً؛ ليسلم من هذر^(٢) الاسترسال، ويأمن من معرة الطيش؛ فإن الملك مرموق الالفاظ، محفوظ الألفاظ، تشيع زلاته، وتنشر هفواته، وبحسب ذلك تكون^(٣) بحاسنه أنشر، وفضائله أشهر؛ فهو بالسكوت ممدوح، ومن الكلام على خطر، وقد قيل:

الحصر خير من الهذر^(٤)؛ لأن الحصر يضعف الحجة، والهذر ي تلف المهجة^(٥).

(١) غ: يوضح.

(٢) غ: هذر.

(٣) غ: يكون.

(٤) غ: الهذر.

(٥) قوله: «وقد قيل: الحصر خير من الهذر... إلخ» أورده المؤلف منسوباً إلى بعض اللغاة في أدب الدنيا والدين ٢٥٢، وأورده غير منسوب إلى أحد في أدب الوزير ص ٥، وقد ورد القول غير منسوب في أحاسن المحاسن ١٥٤ وهو فيه بلفظه، وقد ورد منسوباً إلى الإمام علي بلفظ «الحصر خير من الهذر»، الهذر مقرب من الغير - كذا -، الحصر يضعف الحجة، الهذر يأتي على المهجة (غرر الحكم ودرر الكلم ٢٨) وقد أورد ابن مسكويه قولاً يمانسه =

قال بعض البلغاء:

إلزم الصمت؛ فإنه يكسبك صفو المحبة، ويؤمّنك سوء المغبة،
ويلبسك ثوب الوقار، ويكفيك مؤونة الاعتذار^(١).

وتكلم أربعة من حكماء الملوك بأربع كلمات، كأنها رمية عن قوس:

فقال ملك الروم:

أفضل علم العلماء السكوت.

وقال ملك الفرس:

إذا تكلمت بالكلمة ملكتني ولم أملكها.

وقال ملك الهند:

أنا على ردّ ما لم أقل أقدر منّي على ردّ ما قلت.

وقال ملك الصين:

ندمت على الكلام، ولم أندم على السكوت^(٢).

= وجعله من حكم العرب وأمثالها السائرة بلفظ: «عِي الصمت خير من الكلام» (الحكمة الخالدة ٢٠٣).

(١) قوله: «قال بعض البلغاء: إلزم الصمت... الخ» أورد الماوردي هذا القول بلفظه دون أن ينسبه لقائل في أدب الدنيا والدين (٢٤٩-٢٥٠).

(٢) قوله: «وتكلم أربعة من حكماء الملوك بأربع كلمات... الخ» وردت هذه الكلمات في مختار الحكم بلفظ: «اجتمع عند ملك من الملوك ثلاثة حكماء: يوناني وهندي وفارسي، فقال لهم الملك: ليتكلم كل واحد منكم بكلمة يبين فيها عقله وعلمه. فقال اليوناني: أنا على رد ما لم أقل أقدر منّي على رد ما قلت. وقال الهندي: عجبت لمن يتكلم الكلمة، إن حكيت عنه أصرت وإن لم تحك عنه لم تنفعه. وقال الفارسي: أنا إذا تكلمت بالكلمة فقد ركبتني، وإذا لم أتكلم بها فانا راكبها» (انتظر مختار الحكم ومحاسن الكلم ٢٩٩). وأورد قولاً لسقراط: «الكلام مملوك ما لم ينطق به صاحبه، فإذا نطق به خرج من ملكه» (ص ١٠٨). وأورد ابن المقفع قول هؤلاء الأربعة على الوجه التالي: «اجتمع في بعض الزمان ملوك الأقاليم من الصين والهند وفارس والروم، وقالوا: ينبغي أن يتكلم كل واحد منا بكلمة تدون على عابر الدهر. فقال ملك الصين: أنا على [رد] ما لم أقل أقدر منّي على رد ما قلت. وقال ملك

وليعلم أن الحاجة إلى الصمت أكثر من الحاجة إلى الكلام؛ لأن الحاجة إلى الصمت عامة، والحاجة إلى الكلام عارضة، فلذلك ما وجب أن يكون صمت العاقل في الأحوال أكثر من الكلام في كل حال. حكي عن بعض الحكماء أنه قال - وقد رأى رجلاً يُكثر من الكلام ويقلّ السكوت - فقال:

إن الله تعالى إنما جعل لك (١٣ب) أذنين ولساناً واحداً؛ ليكون ما تسمعه ضعف ما تتكلم به^(١).

الهند: عجبت لمن يتكلم بالكلمة فإن كانت له لم تنفعه، وإن كانت عليه أوبقته. وقال ملك فارس: أنا إذا تكلمت بالكلمة ملكتي، وإذا لم أتكلم بها ملكتها. وقال ملك الروم: ما ندمت على ما لم أتكلم به قط، ولقد ندمت على ما تكلمت به كثيراً (كتاب كليله ودمنة ٢٦) وقد أورد كلمات أخرى لأربعة علماء (انظر صفحة ٢٤ منه). وفي التمثيل والمحاضرة: «أربع كلمات صدرت عن أربعة ملوك كأنها رميت عن قوس واحدة: قال كسري: لم أندم على ما لم أقل، وقد ندمت على ما قلت مراراً. وقال قيصر: أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت. وقال ملك الصين: إذا تكلمت بالكلمة ملكتي وإذا لم أتكلم بها ملكتها. وقال ملك الهند: عجبت لمن يتكلم بالكلمة إن رفعت ضرته، وإن لم ترفع لم تنفعه» (ص ٤٢٦). وقوله: «أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلته» نسبة الأمدى إلى الإمام على (غرر الحكم ١٢٦) وذكر من أقواله: «وإذا تكلمت بالكلمة ملكتك وإذا أمسكتها ملكتها» (ص ١٤٠) ويلفظ آخر في شرح نهج البلاغة ٤ / ١٦: وقد أورد البيهقي كلمة لكسرى بلفظ: «أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت» (المحاسن والمساوي طبعة بيروت ١٩٦٠ ص ١٢١) وكتاب (الترجمة والنقل عن الفارسية ١١٨) وانظر (عيون الأخبار ٢ / ١٧٩) و(كليله ودمنة ١٥) ونسب الأبيشي كلام ملك الفرس إلى الشافعي مخاطباً الربيع تلميذه (المستطرف ١ / ٨٢) وحكى القصة كاملة في الصفحة نفسها، ونجد الأقوال باختلاف يسير في المحاسن والأضداد المنسوب للجاحظ (٢٥ - ٢٦).

(١) قوله: «حكي عن بعض الحكماء أنه قال وقد رأى رجلاً يكثر من الكلام. الخ» ورد في أدب الدنيا والدين (ص ٢٥٢) دون نسبة إلى أحد وقد أورده الأمير أسامة بن مقذ باختلاف لفظي يسير ونسبه إلى أفلاطون (لباب الآداب ٤٦٥-٤٦٦). وقد نسبة المشرس فاتك إلى سقراط مرة (مختار الحكم ومحاسن الكلم ١٠٧) وإلى أفلاطون مرة أخرى (ص ١٣١). وقد وردت العبارة مثلاً من الأمثال في التمثيل والمحاضرة (ص ٣١١) بلفظ: «إنما جعلت لك أذنان ولسان لتسمع أكثر مما تقول». ونسب ابن قتيبة هذا المعنى إلى أبي الدرداء لفظاً: «قال أهر الدرداء: أنصف أذنيك من فيك؛ فإنما جعل لك أذنان اثنتان وفم واحد؛ لتسمع أكثر مما تقول» (عيون الأخبار ٢ / ١٧٧).

فإذا دَعَتْهُ الحاجةُ إلى الكلامِ سَبَرَهُ قَبْلَ إطلاقِهِ، وَرَوَى فِيهِ قَبْلَ إرسالِهِ؛ لِيَكُونَ وَفْقَ غَرَضِهِ، وَفِي إِبَانِ حاجَتِهِ؛ فَإِنَّ كَلَامَهُ تَرْجَمَانُ عَقْلِهِ، وَبِرْهَانُ فَضْلِهِ، وَقَدْ قِيلَ:

كَلَامُ اثْمَرٍ وَافِدٌ أَذْبِهِ^(١).

وَقِيلَ:

اللِّسَانُ وَزِيرُ الْإِنْسَانِ^(٢).

فَلَا يَهْتِكُ بِالْإِسْتِرْسَالِ فِيهِ فُضَائِلَهُ، وَلَا يَمْحُو بِالتَّجْوِيزِ فِيهِ مُحَاسِنَهُ؛ فَظَهَرَ نَقْصُ الْكَلَامِ يَغْلِبُ عَلَى الْخَافِي مِنْ فَضْلِهِ؛ لِأَنَّ الظَّاهِرَ سَابِقٌ مُتَشَرٌّ، وَالْخَفِيُّ مُسَبِّقٌ مُسْتَرٌّ. وَقَدْ قِيلَ:

الصَّمْتُ مَنَامٌ وَالْكَلَامُ يَقْظَةٌ^(٣).

فإذا تَكَلَّمَ لَوَّحَ بِالْمَعْنَى، وَجَاوَزَ الْإِكْثَارَ، فَقُلْ مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ إِلَّا ظَهَرَ خَلْلُهُ، وَبَانَ زَلْلُهُ.

(١) قوله: «وقد قيل: كلام المرء وافد أذبه» أورد الماوردي معنى هذا القول في أدب الدنيا والدين دون نسبة إلى أحد في موضعين: مرة بلفظ «قال بعض البلغاء: كلام المرء بيان فضله وترجمان عقله» (ص ٢٥٢) وأخرى بلفظ: «يستدل على عقل الرجل بقوله وعلى أصله بفعله» (ص ٢٥٤) وفي معناه ما ذكره الثعالبي من قول زياد: «ما قرأت كتاب رجل إلا عرفت مقدار عقله» (التمثيل والمحاضرة ٣٢) وأورده الرخحي مرة بلفظ: «كلام الإنسان بيان فضله وترجمان عقله» (أحاسن المحاسن ١٥٣) وهو بهذا اللفظ في المستطرف (١ / ٢٥) ومرة أخرى بلفظ: «يستدل على عقل الرجل بقوله وعلى أصله بفعله وبقله كلامه. وعلى مروءته بكثرة إنعامه» (أحاسن المحاسن ١٥٤).

(٢) قوله: «وقيل: اللسان وزير الإنسان» أورد المؤلف بلفظه مصدراً بقوله: «وقال بعض الحكماء: « (أدب الدنيا والدين ٢٥٤)، وأورده الأملدي في أقوال الإمام علي بلفظ «يسبى عن عقل كل امرئ لسانه» (غرر الحكم ٣٦٣). ويلفظ «اللسان ترجمان الإنسان» (ص ١٥) ويلفظ: «اللسان ميزان الإنسان» (ص ٢٨).

(٣) قوله: «وقد قيل: الصمت منام والكلام يقظة» أورد الماوردي ونسبه إلى حكيم يوساني (الأمثال والحكم الورقة ٢٨) وأورده ابن قتيبة بلفظه ولم ينسبه لأحد (عيون الأخبار ٢ / ١٧٠) وهو عن الميثري بن فاتك بلفظ «الصمت منام العقل والنطق يقظته» غير منسوب لفتائل (عُتَار الحكم ٣٣٧) ونسبه ابن مسكويه إلى أكتثم بن صيفي بلفظ «الصمت منام =

وقد قيل:

الجاهل الصامت يعدُّ حكيمًا، والممسيك عمًا لا ينبغي يُعدُّ فهمًا^(١).

قال الشاعر: [من المتقارب]

قَدْ يَكْشِفُ الْقَوْلُ عَنِ اللِّسَانِ
فَيَبْدُو وَيُسْتَرُّ مَا سَكَّتْ
فَإِنْ كُنْتَ تَبْغِي لِبَانَ الْمَعَاشِ
فَلِنْ لِلْأُمُورِ إِذَا مَا أَلْتَوَتْ^(٢)

ولا ينبغي أن يعجب بجيد كلامه، ولا بصواب منطقهِ، فإنه بالصواب
أحقُّ. والعجب إنما يكون ببادرٍ مستظرفٍ وعلى أن سبب الإكثار منه. وفي
الإكثار عثار^(٣).

= العقل والنطق يقفته» (الحكمة الخالدة ١٦٠) وقد أورده المؤلف كلاماً يتصل بهذا المعنى
ونسبه إلى الأحنف بن قيس بلفظ «النطق مسفرة، والصمت مسترة» (أدب الوزير) وفي
العقد الفريد (طبعة العريان): «الصمت نوم والكلام يقظة» وفي المستظرف من كلام ابن
عينية: «الصمت منام العلم والنطق يقفته» (١ / ٤١).

(١) قوله: «وقد قيل: الجاهل الصامت يعد حكيمًا...» نقل الماوردي من كلام الحكماء: «الزم
الصمت تعد حكيمًا، جاهلاً كنت أو عالمًا» (أدب الدنيا والدين ٢٤٩) ومن أقوالهم «الزم
الصمت تعد في نفسك فاضلاً، وفي جهلك عاقلاً، وفي عجزك حليماً» (أحاسن المحاسن
١٥٣).

(٢) قول الشاعر: «قد يكشف القول عن اللسان... إلخ» البيتين. استشهد المؤلف بهما في
كتابه (الأمثال والحكم الورقة ١٣) ونسبهما إلى يحيى بن زياد ولكن البحري نسب البيت
الأول لعبد الله بن معاوية الجعفري بلفظ «لقد يكشف القول عن القى». (الحماسة
٣٦٥) وعنها نقل الدكتور عبد الجبار المطلبي جامع ديوان عبد الله بن معاوية المسمى
بالصناعة من شعر عبد الله بن معاوية وهو فيه بلفظ الحماسة غير أنه أسقط (اللام) من
(لقد) (انظر مجلة الكتاب التي يصدرها اتحاد المؤلفين والكتاب العراقيين ببغداد العدد: ٧
لسنة ١٩٧٥ ص ٩٤).

(٣) قوله: «وفي الإكثار عثار» نجد معناها في أدب الدنيا والدين بلفظ «ومن أعحب بكلامه
استرسل فيه والمسترسل في الكلام كثير الزلل دائم العثار» (ص ٢٥٣) وفي الأمثل: «من
كثر كلامه كثر سقطه» (أمثال أبي عبيد ١٥) وفي سراج الملوك من كلام الإمام علي: «من =

قال بعض الحكماء:

من أعجب ^(١) بكلامه أصيب بعقله ^(٢).

وقال الحسن البصري ^(٣):

مَنْ لَمْ يَكُنْ كَلَامُهُ حَكَمًا فَهُوَ لَغْوٌ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ سُكُوتُهُ تَفَكُّرًا ^(٤) فَهُوَ
سَهْوٌ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ فِكْرُهُ عِبَارَةً فَهُوَ لَهْوٌ ^(٥).

وكما أن الملك مندوب إلى قلة الكلام، فهكذا من أراد خطاب
الملك، يجب أن يجسّ لسانه عن كلامه، فإن دعت الحاجة إليه اختصر؛
ففي الإكثار مع الإغثار إضجار.

= كثر كلامه كثر خطؤه، ومن كثر خطؤه قلّ حياؤه، ومن قلّ حياؤه قلّ ورعه، ومن قلّ
ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النار (ص ٢٨).

(١) غ: عجب، والتصحيح من أدب الدنيا والدين (٢٥٣).

(٢) قول بعض الحكماء: «من أعجب بكلامه أصيب بعقله» انظره في أدب الدنيا والدين بلفظه
(ص ٢٥٣) ومن كلام علي رضي الله عنه: «من أعجبه قوله فقد غرب عقله» (غرر الحكم
٢٧٨) «عجب المرء بنفسه أحد حساد عقله» (كتاب ٢٠٠٠ كلمة للإمام علي ٢٣ رقم
٤٦٣).

(٣) الحسن البصري: وهو أبو سعيد الحسن بن يسار التابعي الجليل الذي تتلمذ عل الصحابة
وكبار التابعين وفتيه البصرة المعروف بالعلم والنسك والفصاحة توفي سنة ١١٠ هـ انظر ترجمته
وأخباره في أخبار القضاة ٢/ ٣-١٥، الحلية ٢/ ١٣١، أدب القاضي ١/ ١٢٢، ميزان
الاعتدال ١/ ٢٥٤، وفيات الأعيان ١/ ٣٥٤-٣٥٦ رقم الترجمة ١٤٨، تذكرة الحفاظ
١/ ٧١-٧٢ رقم الترجمة ٦٦ وذكر أنه أفرد له ترجمة في جزء سماء الزخرف القصري،
الأخبار الموقفات ١٠٤، تهذيب التهذيب ٢/ ٢٦٤.

(٤) غ: تفكر - بالضم - والتصحيح من ط ومن السياق ومن مصادر التخريج.

(٥) قول الحسن البصري: «من لم يكن كلامه حكماً... إلخ» ذكره الماوردي منسوباً إليه بلفظه
في كتابه (الأمثال والحكم الورقة ٤٥ ب) كما ذكر قولاً آخر ونسبه إلى عيسى عليه السلام
بلفظ: «البر ثلاثة: المتطق والنظر والصمت، فمن كان منطقاً في غير ذكر فقد لغا، ومن
كان نظره في غير اعتبار فقد سها، ومن كان صمته في غير فكر فقد لها» (أدب الدنيا والدين
ص ٩٠) وانظر الحكمة الخالدة ١٩٥ وقد يكون معنى ذلك مأخوذاً من حديث للنبي صلّ
الله عليه وسلّم الذي استشهد به المؤلف بلفظ «أوصاني ربي بسبع... تم ذكرها ومنها:
وأن يكون صمتي فكراً ونطقني ذكراً ونظري عبرة» (أدب الدنيا والدين ٣١٢) ومن كلام علي =

وقيل:

إن كان قومٌ تقتلهم^(١) الحرب كثيراً فإن الذي يقتلهم اللسان أكثر^(٢).

والموت (١٤) والحياء باللسان هو مما يتجافاه الملك، ولا يرخص فيه اليمين والحلف، مصرحاً أو معرضاً؛ فإن الحلف قبيح، وهو بالملوك أقبح. ومن قول النبي عليه السلام:

«اليمين حنث أو مندمة»^(٣).

قال بعض العلماء:

= رضي الله عنه: «العاقل إذا سكت فكر، وإذا نطق ذكر، وإذا نظر اعتبر» (غرر الحكم ٤٢) وبلغت آخر فيه اختلاف (ص ٥٤) ومن أمثاله: «كل صمت لا فكر فيه فهو سهو» (أمثال أبي عبيد ١٢) و (مجمع الأمثال ١٦٢ / ٢ رقم ٣١٥٥) و (لباب الآداب ٢٧٢) وهو فيه منسوب إلى عيسى عليه السلام، وذكر الأبيهي أن الحجاج نسب هذا القول إلى إبراهيم بن عبد الله بن الحسن في خطبة له (المستطرف ١ / ٦٠) ونسبه إلى بعض الحكماء مرة أخرى (٨٢ / ١).

(١) غ: يقتلهم.

(٢) قوله: «وقيل: إن كان قوم يقتلهم الحرب... إلخ» أورد ابن مسكويه معنى هذا القول ضمن إشارات الصوفية بلفظ: «غاية البطل الرامي أن يقتل بسهمه رجلاً واحداً، لكن كيد العاقل يقتل برمية واحدة الجيش بأسره» (الحكمة الخالدة ١٢١) وأورد النووي قولاً لجؤذر بن سابور قريباً من ذلك بلفظ: «السعايات أقتل من الأسياف ومن السم الذعاف» (الإيجاز للإعجاز ١٢) وأورد عبد الواحد الأمدي للإمام علي بلفظ «رب حرب جنيت من لفظة» (غرر الحكم ١٨٣-١٨٤) و «كم من حرب جنيت من لفظة» (ص ٢٣٩)، وفي أدب الوزير غير منسوب بلفظ «وقد قيل: رب صياغة غرست من لحظة وحرب جنيت من لفظة» (ص ٤٢).

(٣) حديث: «اليمين حنث أو مندمة» أخرجه ابن ماجه عن ابن عمر بلفظ «إن الحلف حنث أو ندم» (انظر سنن ابن ماجه الباب الخامس من كتاب الكفارات منه ج ١ ص ٦٨٠ رقم الحديث ٢١٠٣) قال السيوطي وهو حديث ضعيف (الجامع الصغير ١ / ١٠٢) والحديث من حكم الرسول صلى الله عليه وسلم وأمثاله السائرة (انظر التمثيل والمحاضرة ٢٨) و (الإيجاز والإعجاز ٧) وهو في مجمع الأمثال (٢ / ٤٢١ رقم المثل ٤٧٠٩) غير منسوب. وقال: «أي إن كانت صادقة ندم وإن كانت كاذبة حنث، يضرب للمكروه من وجهين». وقد روي الحديث بألفاظ أخرى منها قوله «الحلف حنث أو ندم» الذي رواه البحاري في التاريخ والحاكم في المستدرک وهو حديث صحيح (الجامع الصغير ١ / ١٥٢).

كثرة الإيمان من قلة الإيمان.

ولأن اليمين يقصد بها أحد ثلاثة أوجه يجعل الملك عنها: إما ليصدق خبره، والملك يجعل قدره عن الإكذاب، وإما ليتحقق وعده أو وعيده، وقدرته تمنع من الارتياح، وإما لاستراحة في كلامه؛ فهي عي قبيح، ولكن فاضح^(١).

وإن دعت الضرورة إليها لشرط في عقد وتوثيق في عهد، إلزم حكمها في السياسة، وإن لم يلزم حكمها في الديانة؛ لفساد عقدها، واختلال شرطها، ولا يتطلب لفسخها مع الصحة تأويلًا، وإن كان له في الفسخ تأويل، ولا يجعل لمخرجه منها تعليلًا، وإن كان له في الشرع تعليل، لتكون عقوده محروسة من فسخ، وعهوده محفوظة من نسخ، فلا يختلج فيه ظن، ولا يقدح فيه طعن، فإنه، وإن كان له في الدين مخرج منها، فما يقف عليه كل من سمع بالتزامها، ولا يعرفه إلا العلماء بأحكامها. ولأن يراقب في دنياه بعد مراقبة الله تعالى في دينه؛ فيجمع بين رضا الله تعالى وثناء خلقه أولى من تفرده بأحدهما واطراح الآخر.

وقيل:

دع ما يسبق إلى القلوب إنكاره، وإن كان عندك اعتذاره؛ فما كل من حكى عنك نكراً يطبق أن توسعه منك عذراً^(٢).

(١) قوله: «ولأن اليمين يقصد بها أحد ثلاثة أوجه...» قال ابن المقفع: «وليتق الملك أن يكون حلالاً، فأحق الناس باتقاء الإيمان الملوك، فإنما يحمل الرجل على الخلف إحدى هذه الخلال: إما مهانة يجدها في نفسه، وضرع وحاجة إلى تصديق الناس إياه، وإما عي بالكلام حتى يجعل الإيمان له حشواً ووصلاً، وإما تهمة قد عرفها من الناس لحديثه، فهو ينزل نفسه منزلة من لا يقبل منه قوله إلا بعد جهد اليمين، وإما عبث في القول، أو إرسال اللسان على غير روية ولا تقدير...» (الأدب الكبير ١١٤-١١٥).

(٢) قوله: «وقيل: دع ما يسبق إلى القلوب إنكاره...» أورده ابن مسكويه دون أن ينسبه لقائل بلفظ: «... وقال آخر: دع ما يسبق إلى القلوب إنكاره وإن كان عندك اعتذاره، فما كل من أنكّر نكراً تطبق أن توسعه منك عذراً» (الحكمة الخالدة ١٣٧)، وفي غرر الحكم من أقوال علي رضي الله عنه: «إياك وما قل إنكاره وإن كثر منك اعتذاره» (ص ٧٩) وأورد =

فإن لم يجد إلى استدامة التزامها سبيلاً أوضح من أسباب عذره،
وأشاع من وجوه مخرجه قبل شروعه في خلقه، ونقضه، ما يحفظ عليه
سلامة دينه وعرضه؛ فلا ينسب في (١٤ب) يمينه إلى حنث، وفي عهده
إلى نكث.

قال بعض الحكماء:

الكذب والغدر يشبهان أسنان الأسد، ويفسدان قلوب الناس.



= ابن مسكويه قولاً آخر من حكم الفرس بلفظ «وعلى العاقل إذا اشتبه عليه أمران فلم يدر
أيها الصواب أن ينظر إلى أقربها إلى هواه مخالفة فإن الهوى عدو العقل فيحدره» في كلام
طويل (الحكمة الخالدة ٧٣) واستشهد به ضمن أقوال ابن المقفع بلفظ «إذا دهلك أمران
متناقضان لا تدري أيها الصواب فانظر أقربها إلى هواك فخالفة فإن أكثر الصواب في خلاف
الهوى (الحكمة الخالدة ٣٢٣) وانظر (الأدب الكبير ١٧٧) و(الأدب الصغير ٤٩).

[الفصل الثامن]

[الصدق]

[اعتماد الصدق]:

وَمِمَّا هُوَ أَلْزَمُ فِي أَخْلَاقِ الْمَلِكِ وَالْيَقُ اعْتِمَادُ الصِّدْقِ واجْتِنَابُ الكَذِبِ^(١)؛ فَإِنَّهُ سَهْلُ الْبَادِرَةِ، خَبِيثُ الْعَاقِبَةِ؛ لِأَنَّهُ يَعْكُسُ الْأُمُورَ إِلَى أَضْدَادِهَا، وَيَسْتَبْدِلُ الْحَقَائِقَ بِأَغْيَارِهَا، فَيَضَعُ الْبَاطِلَ مَوْضِعَ الْحَقِّ، وَيَتَخَيَّلُ أَنَّ الْكَذِبَ يَتَشَبَّهُ بِالصِّدْقِ. كَلَّا^(٢)، فَإِنَّ الزَّمَانَ يَكْشِفُ عَنْ خُبَايَاهُ، وَيَنْمِ عَلَى خَفَايَاهُ، وَكَذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً أَصْلَحَ مِنْ لِسَانِهِ، وَأَقْصَرَ مِنْ عَنَانِهِ، وَأَلْزَمَ طَرِيقَ الْحَقِّ مَقُولَهُ وَلَمْ يَعُوْذَ الْخَطْلَ مِفْصَلُهُ»^(٣).

[الحذر من الكذب]:

فِيحْذَرُ الْكَذِبَ جَادًّا وَهَازِلًا، وَلَا يَرْخُصُ لِنَفْسِهِ مُحِقًّا وَلَا مَبْطَلًا، إِلَّا عَلَى وَجْهِ التَّوْرِيَةِ فِي خِدَاعِ الْحُرُوبِ، انْتِهَازًا لِلْفُرْصَةِ فِيهَا، وَاجْتِنَادًا لِمَكِيدَتِهَا، فَمَا لِلْحَرْبِ مَهْلَةٌ، وَلَا لِلظَّفَرِ عِلَّةٌ، فَأُبَيِّحُ فِي التَّوَسُّلِ إِلَيْهَا رُخْصَ

(١) عن اعتماد الصدق واجتناب الكذب عقد المؤلف في أدب الدنيا والدين فصلاً فليُنظر فيه (ص ١٣٢٧-٢٤٤). وقد قال ابن المقفع: «ليس للملك أن يغضب؛ لأن القدرة من وراء حاجته، وليس له أن يكذب، لأنه لا يقدر أحد على استكراهه على غير ما يريد» (الأدب الكبير ١١٣) ومن أقوال أردشير: «ليس للملك أن ييخل؛ لأن البخل لقاح الحرص، وليس له أن يكذب؛ لأنه لا يقدر أحد على استكراهه، وليس له أن يغضب، لأن الغضب والعداوة لقاح الشر والندامة، وليس له أن يلعب ولا يعبت؛ فإن اللعب والعبت من عمل الفراغ، وليس له أن يفرغ؛ لأن الفراغ من أمر السقوة، وليس له أن يحسد إلا ملوك الأمم على حسن التدبير؛ وليس له أن يخاف؛ لأن الخوف من أمر المعوز، وليس له أن يتسلط إن هو أعوز...» (عهد أردشير ٦٩) ونجد ما يماثل ذلك في (لباب الآداب، ٧٠-٧١).

(٢) غ: وكلا.

(٣) حديث: «رحم الله امرأةً أصلح من لسانه... إلخ» ذكره المؤلف في باب الصدق والكذب من كتاب أدب الدنيا والدين (ص ٢٣٧) ورواه ابن الأنباري في الوقف، والمرهبي في العلم، وابن عدي في الكامل، والخطيب البغدادي في الجامع عن عمر، وابن عساكر عن أنس، وهو حديث حسن (الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير ١ / ٢٣) وشطر من الحديث في المحاسن والأصداق للجاحظ (ص ٨)، بلفظ «رحم الله عبدا...».

الكلام، كما استعمل فيها رُخَصُ الأفعال، ولذلك جاءت السُّنَّةُ بإرخاصِ الكذبِ فيها على وجهِ التوريةِ دونَ التصريحِ :

قال النبيُّ عليه السلامُ :

«الحَرْبُ خُدْعَةٌ» (١).

وإذا أمكنَ أن يكونَ ذلكَ بمواضعةٍ غيره كانَ أولى [من] أن يكونَ ذلكَ بمباشرةٍ بنفسِهِ (٢)، فإن لم يجد من المباشرةِ بُدًّا ورَّى وعَرَضَ، ليكونَ التأويلُ لكلامِهِ محتملاً، والتصريحُ بالكذبِ عنه مشفياً، فيعذرُ إذا ظهرَ، ولا يتصورُ بالكذبِ إذا اشتهرَ، وليقللُ منه إلَّا عند ضيقِ الخناقِ، فإن أكثرَ منه افتضحَتْ معاريضُهُ، فصار صريحاً، ورَدَّ عليه فاسداً وصحيحاً.

وإن رُخِصَ لنفسِهِ في التصريحِ بالكذبِ على غيرِ ما قلناه في الحربِ

(١) حديث: «الحرب خدعة» متفق عليه من حديث جابر بن عبدالله (انظر البخاري - جهاد - ١١٤/٢) و(مسلم - في متن شرح النووي - جهاد ٤٥/١٢) ورواه أبو داود (سنن ٤٣/٣) حديث رقم ٢٦٣٦ والترمذي - (السنن - جهاد ١١٢/٣ رقم ١٧٢٦) وقال: «وفي الباب عن علي وزيد بن ثابت، وعائشة وابن عباس وأبي هريرة وأسما بنت يزيد وكعب بن مالك وأنس بن مالك وهذا حديث حسن صحيح» (الموضع نفسه)، والحميدي (المسند ٥١٩/٢ رقم ١٢٢٧)، و(سنن ابن ماجه ٩٤٥/٢ رقم ٢٨٣٣ و٢٨٣٤)، قال ابن الأثير: «أنخرجه الجماعة إلا الموطأ والنسائي»، وأورد له أسانيد (جامع الأصول ١٨٩/٣ رقم ١٠٥٤-١٠٥٦) ورواه أحمد المسند ٨١/١، ٩٠، ١١٣، ١٢٦، ١٣٤، ٣١٢/٢، ٣١٤، ٢٩٧/٣، ٣٠٨، ٣٨٧/٦، ٤٥٩) والبخاري في الكبير وابن عسار (الجامع الصغير ١٥١/١) وأبو يعلى والطبراني في الأوسط بأسانيد (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٣٢٠/٥). قال والحديث مثل من الأمثال السائرة (مجمع الأمثال ١٩٧/١ رقم ١٠٤٣)، وكتاب (الأمثال لأبي الوفاء محمد بن أحمد البساک ٣٩) و(أمثال أبي عبيد القاسم بن سلام ص ٢) و(التمثيل والمحاضرة ١٥٢) والإيجاز والإعجاز ص ٧) و(لباب الآداب ٣٣١) والمثل المقارن ص ٩٤). وقد استشهد به المؤلف في أدب الوزير (ص ١٩) قال ابن الأثير يروي بفتح الحاء وضمة مع سكون الذال، ويضمها مع فتح الذال، فالأول معناه: أن الحرب يتقضي أمرها بخدعة واحدة من الخداع: أي أن المقاتل إذا خدع مرة واحدة لم تكن لها إقالة، وهي أنصح الروايات وأصحها، ومعنى الثاني: هو الاسم من الخداع. ومعنى الثالث أن الحرب تخدع الرجال وتمنيهم ولا تقي لهم كما يقال فلان رجل لعبة وضحكة: أي كثير اللعب والضحك (النهاية في غريب الحديث ١٤/٢).

(٢) غ: لنفسه.

من التعريض المحتمل صارَ به موسوماً (١١٥) وإليه منسوباً؛ لأنَّ الإنسانَ بما يسبقُ إليه يُعرَفُ^(١)، وبما يظهرُ من شيمِهِ يوصَفُ، وبذلك جرتُ عادةُ الخلقِ: أنَّهم يعدِّلونَ العادلَ بالغالبِ من أفعاله، وربما أساء. ويفسِّقونَ الفاسقَ بالغالبِ من أفعاله، وربما أحسن. وقُلَّ ما يُمَحَّضُ أحدهما في الإنسانِ، وإنَّ تَمَحَّضَ نَدَرَ^(٢) قال الشاعرُ: [من الرجز]

مَنْ لَكَ بِالْمَحْضِ وَلَيْسَ مَحْضٌ
يَخْبُثُ بَعْضٌ وَيَطِيبُ بَعْضٌ^(٣)
وقال أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه:

(١) قوله: «لأنَّ الإنسانَ بما يسبقُ إليه يعرف...» أصله المثل «من أكثر من شيء عرف به» انظره في (الأمثال للبيضاك ١٠٦)، و(مجمع الأمثال، ٢ / ٣٢٨) وفيه أنه من أمثال المولدين و(غرر الحكم ٢٦٧) من أقوال علي رضي الله عنه بلفظه وفي (ص ٢٩١ منه). بلفظ «من عرض نفسه للتهمة فلا يلومنَّ من أساء الظنَّ به»، ومن أقوال عمر رضي الله عنه، (سيرة عمر ١٢٤).

(٢) قوله: «وبذلك جرت عادة الخلق أنهم يعدلون العادل بالغالب من أفعاله...» قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: «وليس أحد من الناس نعلمه إلا أن يكون قليلاً يحض الطاعة والمروءة حتى لا يخطئها بمعصية ولا يحض المصيبة وترك المروءة حتى لا يخطئها بشيء من الطاعة والمروءة، فإذا كان الأغلب على الرجل، والأظهر من أمره الطاعة والمروءة قبلت شهادته، وإذا كان الأغلب على الرجل والأظهر من أمره المصيبة وخلاف المروءة ردت شهادته»، (انظر الأم ٧ / ٤٨)، و(ختصر المزن من كلام الشافعي - على هامش الأم ٥ / ٢٥٦)، و(أدب القاضي للماوردي نسخة السليمانية - مخطوط - ج ٢ / الورقة ٩٨ ب والورقة ١٠٢ ب)، وقال الماوردي في شرح ذلك: «وهذا صحيح؛ لأن في غرائز الشيم دواعي الطاعات ودواعي المعاصي فلم يتمحض وجود أحدهما مع اجتماع سببهما»، (أدب القاضي، ٢ / الورقة ١٠٢ ب)، ثم قال: «فوجب أن يعتبر الغالب من أحوال الإنسان فإن كان الأغلب عليه الطاعة والمروءة حكم بعادته وقبول شهادته وإن عصى بعض الصغار، وإن كان الأغلب عليه المصيبة وترك المروءة حكم بفسقه ورد شهادته، وإن أطاع في بعض أحواله...» (أدب القاضي ج ٢ - الورقة ١٠٣ أ).

(٣) قول الشاعر: «من لك بالمحض... إلخ» البيت استشهد به الماوردي في أدب الدنيا والدين (ص ٢٩٠) وفي أدب القاضي من الخاوي الكبير (الجزء الثاني، الورقة ١٠٢ ب)، ولم ينسبه لقاتل في الموضعين، وهو من الأمثال البدعية السائرة انظر (زهر الربيع في المثل النديع ص ٩٢)، غير منسوب لشاعر. والبيت في ط بلفظ «يبحث بعضاً».

لأن يضرني الصدق وقل ما يفعل، أحب إلي من أن ينفعني الكذب،
وقل ما يفعل^(١).

ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم:
«أعظم الخطايا اللسان الكذب»^(٢).

قال بعض الحكماء:

كذب المليك وغدره من دلائل حادث يحدث في ملكه؛ لأنه يشبه
تخليط العليل في العلة يزيده مرضاً وفي بدنه زهكاً^(٣)

[الترغيب والترهيب]:

وإذا وسم بالصدق، وقصر كلامه على المهم، وكان تبشيره وتحذيره
على حسب خطر الأمور التي يجري^(٤) فيها وعده أو وعيده كانت ألفاظه
القاباً، وذمه عقاباً، فاستغنى عن كثير من الإرغاب والإرهاب.

وقد اختير للملوك في الترغيب عذوبة الكلام، ولين الصوت؛ لأنه
أرغب، وفي الجهارة بالترغيب تنجح^(٥)، وبالنعمة، وهي عنده أحقر^(٦).

(١) قول عمر رضي الله عنه: «لأن يضرني الصدق وقل ما يفعل.. إلخ» ورد هذا القول في كتاب أدب الدنيا والدين (ص ٢٣٩) بلفظ: «لأن يضرني الصدق وقل ما يفعل، أحب إلي من أن يرفعي الكذب وقل ما يفعل، وفي أدب الوزير (ص ٩) أيضاً، بلفظ «لأن يضمني لصدق وقل ما يفعل، أحب إلي من أن يرفعي الكذب.. إلخ»، وهو بهذا اللفظ الأخير في كتاب (ألف كلمة لأمر المؤمنين عمر بن الخطاب ص ٨٥، رقم القول ٨٥٧)، والقول في ط بلفظ «..الصدق وقل ما ضرك.. الكذب وقل ما تفعل».

(٢) حديث: «أعظم الخطايا اللسان الكذب» استشهد به المؤلف في أدب الوزير، (ص ١٩)، وأخرجه ابن لال عن ابن مسعود وابن عدي في الكامل عن ابن عباس، وهو حديث ضعيف، (الجامع الصغير ١ / ٤٧)، قال المناوي: أخرجه الحاكم (كنوز الحقائق في حديث خير الخلق، على هامش الجامع الصغير ١ / ٣٣) وأورده الغزالي على أنه أثر من أقوال عبي رضي الله عنه (إحياء علوم الدين ٣ / ١٣٦).

(٣) زهك الشيء وسهكه: سحقه.

(٤) غ: تجري.

(٥) غ: تنجح.

(٦) غ: وبالنعمة وهي عنده أحقر.

وفي الترهيب غلظة الكلام، وجهارة الصوت؛ لأنه أَرهَبُ، وفي لين الصوت بالترهيب ضعفٌ لَمَنه^(١) وقدرته.

ويجب أن يكون وعده ووعيدُه بقدر الاستحقاق من غير سرفٍ ولا تقصير، في ثوابٍ أو عقابٍ^(٢)؛ لتكون أقواله وفق أفعاله التي تقدّرت بشرعٍ أو سياسة، ولا تتجاوز محدودها، ولا تفارق معهودها.

حكى أن أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، كتب إلى (١٥ب) عكرمة بن أبي جهل^(٣)، وهو عامله على عُمان^(٤):

إياك أن توعّد على معصيةٍ بأكثَر من عقوبتها، فإنك إن فعلت أئمت، وإن تركت كذبت^(٥).



(١) غ: ضعف المنة.

(٢) قوله: «ويجب أن يكون وعده ووعيدُه بقدر الاستحقاق». قال ابن المقفع: على الملوك أن لا يتركوا محسناً بغير جزاء ولا يفرّوا مسيئاً ولا عاجزاً على الإساءة والعجز، فإنهم إن تركوا ذلك تهاون المحسن واجترأ المسيء، وفسد الأمر وضاع العمل، (الأدب الصغير، ٥٢-٥٣).

(٣) عكرمة بن أبي جهل (واسم أبي جهل عمرو) بن هشام بن المغيرة القرشي، كان كآبيه أشدّ الناس على رسول الله صل الله عليه وسلم ثم أسلم عام الفتح وخرج إلى المدينة ثم وجهه أبو بكر رضي الله عنه، إلى قتال أهل الردة وفي الفتوحات، فاستشهد وقيل توفي في سنة ١٥هـ من خلافة عمر رضي الله عنه، انظر بعضاً من أخباره في الإصابة ٢ / ٤٨٩-٤٩٠، رقم الترجمة ٥٦٤٠، الاستيعاب على هامش الإصابة - ٣ / ١٤٨-١٥١، أسد العاربة، طعة الشعب ٤ / ٧٠-٧٣، رقم الترجمة ٣٧٣٥.

(٤) عمان (بضم العين وفتح الميم المخففة)، وهي كورة عربية على ساحل بحر اليمن، والهند تحت البصرة، (انظر تاريخ الطبري ٢ / ٢٤٣، ٢٥٦)، (واللباب في تهذيب الأنساب ٢ / ٣٥٦).

(٥) كتاب أبي بكر رضي الله عنه، إلى عكرمة تجده بلفظه في (لباب الآداب ٣٣٦).

[الفصل التاسع]

[توقّي الغضب]

[الحذر من الغضب]:

ويحذرُ الغضبَ^(١)، ويتوقّاه، فإنَّ نفورَ فورته واشتطاطَ حدّته يسلبانِ صوابَ ذوي الألبابِ، ولا يتهذبُ لهم خطابٌ، ولا يتحصّل لهم جوابٌ، ولا يتقدّر لهم عقابٌ، وقلّ ما يسلمُ مع الغضبِ رأيٌ من^(٢) زللٍ، وكلامٌ من خطلٍ، وفعلٌ من عسفٍ، وحقٌّ من حرفٍ، ودينٌ من جرحٍ^(٣)، وعرضٌ من قذحٍ، وجدٌّ^(٤) من طيشٍ، وعددٌ من هيشٍ^(٥)، فهو شرٌّ باهرٌ^(٦) متسلطٌ، وأضرُّ معانِدٍ مورطٌ، لا تعصى بواذره إن غلبَ، ولا تحصى فواقره^(٧) إن وثبَ، وما اشتملت عليه هذه الأخطارُ، وتقابلت فيه هذه المضارُ، كانَ التحرُّزُ من خطره حَزْماً، والسلامةُ من ضرره غنْماً، وليس ذلك إلّا من كانَ العقلُ قائِدهُ، والتوفيقُ رائِدهُ، فملكَ زمامَ نفسه حتى أطاعته، وراضَ شماسها^(٨) حتى أجابته، فإنَّ منيَ به الملكُ قبضَ نفسه عن الانقيادِ له حتى يزولَ عنه اختلاطُ نفرتِه، واشتطاطُ قدرتِه. ثم يتصفحُ الذنبَ الذي أغضبَه بعد سكونِ جأشِه، ويقابلُ عليه بقدرِ استحقاقِه إن لم يرَ له في العفوِ مدخلاً، ولا في الصفحِ والتجاوزِ وجهاً، ليقفَ على الصوابِ في قضيتِه،

(١) غ: ويحذر الكذب، والتصحيح من السياق ومن ط. وحول الغضب عقد المؤلف في أدب الدنيا والدين فصلاً (انظر من ٢٢٨-٢٣٧)، وعقد الجاحظ فصلاً عنه في كتاب التاج في أخلاق الملوك (ص ٩١-٩٤) قال فيه: «ومن أخلاق الملك سرعة الغضب، وليس في أخلاقه سرعة الرضاء» (التاج ٩١).

(٢) غ: مع زلل.

(٣) غ: حرج.

(٤) غ: حسد.

(٥) هيش: الحركة والاضطراب، يقال هاش القوم: إذا تحركوا وهاجوا وباه باع.

(٦) باهر: غالب وباه قطع.

(٧) فواقر: جمع فاقرة وهي الداهية التي تكسر الفقار.

(٨) شماسها: يقال رجل شמוש: أي صعب الخلق.

وعلى العدل في مؤاخذته، فلا شيء أضر بالملك من أن تخفى عليه حقائق الذنوب، ولا يقف منها على مقادير الحدود.

قال النبي عليه السلام:
«إذا امتشاط السلطان تسلط الشيطان»^(١).

وقال سليمان بن داود عليه السلام:
غضب الملك كالأسد الذي يزأر.

وحكي أن بعض ملوك الفرس كتب كتاباً، ودفعه إلى وزيره، وقال:
إذا أنا غضبت، فناولني هذا، وكان فيه مكتوباً^(٢): (١٦) مالك والغضب؟
إنما أنت بشر، أرحم من في الأرض يرحمك من في السماء^(٣).

وكان يفعل هذا ليزول عنه الغضب، فيستين له الصواب حذراً من
قبح آثاره، وشدة إضراره. فإذا استطفأ نأثر الغضب، واستكف بادرة
الاشتطاط، ثم استعطفه الم غضب، واسترضاه، فمن كرم الشيمة، وحسن
العاطفة أن يلين له، ويرضى عنه.

(١) حديث «إذا امتشاط السلطان تسلط الشيطان» أخرجه الإمام أحمد عن عطية السعدي بهذا اللفظ (مسند أحمد ٤ / ٢٢٦) ورجاله ثقات (مجمع الزوائد ٨ / ٧١) ورواه الطبراني في الكبير عن عطية السعدي وهو حديث صحيح (الجامع الصغير ١ / ١٩).

(٢) غ: مكتوب، والتصحيح من ط.

(٣) قوله: «وحكي أن بعض ملوك الفرس كتب كتاباً... الخ» انظره في أدب الدنيا والدين (٢٣٥)، وفيه اختلاف فيما يأتي: «وزير له... فناولنيه... وكان فيه مالك والغضب...» (سراج الملوك ٨٨)، وقد أورده ابن قتيبة بلفظ: «دفع أردشير الملك إلى رجل كان يقوم على رأسه كتاباً، وقال له: إذا رأيتني قد اشتد غضبي فادفعه إلي. وفي الكتاب: أمسك فلست بآله، إنما أنت جسد يوشك أن يأكل بعضه بعضاً، ويصير عن قريب للدود والتراب» (عيون الأخبار ١ / ٢٧٣)، وانظره بهذا اللفظ في (أقوال متفرقة لأردشير ملحقة بكتاب عهد أردشير ص ٨٨) وانظره بلفظ آخر في سراج الملوك (٧١، ٨٥)، وفيه أيضاً أنه «قال شريح بن عبيد: لم يكن في بني إسرائيل ملك إلا ومعه رجل حكيم إذا رآه غضبان كتب له ثلاث صحائف في كل صحيفة: أرحم المسكين، واخش الموت، واذكر الآخرة، فكلما غضب الملك ناوله صحيفة حتى يسكن غضبه» (سراج الملوك ٧٠)، وأورده ابن الجوزي بلفظ آخر (المصباح المضيء في خلافة المستضيء ج ١، الورقة ٤٨٢، وفيها تحريجه).

قيل^(١): مِنْ أَعْجَبَ شَيْءٍ أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ يُلْتَمَسُ رِضَاهُ فَلَا يَرْضَى، وَأَعْجَبَ مِنْهُ أَنْ يُلْتَمَسَ رِضَاهُ فَيَغْضَبَ^(٢).

قال بعض الحكماء:

مَنْ لَمْ يَقْبَلِ التَّوْبَةَ عَظُمَتْ خَطِيئَتُهُ، وَمَنْ لَمْ يُحْسِنْ إِلَى التَّائِبِ قُبِحَتْ إِسَاءَتُهُ^(٣).

فإن أحب أن يتدرج إلى الرضا لئلا يصل بين ضدين، قدّم مباديّه، وسهّل دواعيّه، وكان في السرّ راضياً، وفي الظاهر مغاضياً^(٤)، ليظهر الرضا عن أحوال متقاربة، وتنتقل إليه بعد أمور متناسبة، فليس بمستبعد إذا كان بطيء الرضا، غير أن من أخلاق الملوك سرعة الغضب، وليس من أخلاقهم سرعة الرضا.

والعلة في ذلك لما قد استقرّ في القلوب من هيبته، وأذعنّت به النفوس من طاعتهم لا يلاقون ما يكرهون، ولا يرون إلا ما يؤثرون، فإذا بدّر^(٥) ما يغيضهم خرج عن عرفهم، فتعجّل^(٦) به غضبهم، وما يرضيهم داخل في عرفهم، فلم يتعجّل فيه رضاهم.

ومن عداهم في الأمرين بخلافهم، فلذلك وقّع الفرق بين الملوك

(١) ط: قيل في سالف الحكم...

(٢) قولهم: «من أعجب شيء...»، ذكر هذا القول ابن المقفع بلفظ: «وقد كان يقال: إنه من لعجب أن يطلب الرجل رضى صاحبه ولا يرضى، وأعجب من ذلك، أن يلتبس رضاه فيسخط» (كلىة ودمنة، طبعة دار العهد الجديد، ص ١٠١).

(٣) قول بعض الحكماء: «من لم يقبل التوبة... الخ»، أورده الريحاني غير منسوب وفيه «... ومن لم يحسن إلى التائب لؤمت طبيعته»، (أحسن المحاسن ١٥٧)، وأورده الأمدى من كلام عبي رضي الله عنه بلفظ «شر الناس من لا يقبل العذر ولا يقبل الذنب»، (عبر الحكم ١٩٦) وقال الشافعي: «من استغضب فلم يغضب فهو حمار، ومن استرضي فلم يرض هو جبار» (سراج الملوك ٨٦).

(٤) غ: مغاضياً.

(٥) غ: نذر.

(٦) غ: فيعجل.

وغيرهم في الرضا والغضب، فإن لم يظهر غضبهم فهو لسياسة وحزم هم فيه مع كونه فيهم بين أمرين:
إما أن يوطنوا أنفسهم للصفح عنه، وإما أن يؤخروا (١٦ب) الأمر إلى وقت الانتقام.

والأول كرم ورافة.

والثاني حمية وتقويم.

[الحذر من المحل واللجاج]:

ثم كذلك المحل واللجاج^(١)، يجب أن يحذره، فهو أليف الغضب، وحليف العطب؛ لأنه يركب من الأمور أصعبها، ويفارق من الآراء أصوبها، وقل ما^(٢) أجدى اللجاج إلا شراً، وأقل الأمرين خيراً، وكفى بلجاجه مضرة ومعة أنه إن أكذبه الظن تورك، وإن ساعده القضاء شورك، فيصير بالمتاركة معذوراً، وفي المشاركة مكوراً.

قال الشاعر: [من الكامل]

وإذا رأيت أخاك لجّ فلن له

حتى يعود إلى الطريق الأقصد

إن اللجوج يلج إن لاجئته

مثل الشهاب يلج للمستوقد

فإذا انقاد إلى الأمر الأرفق، وساعده الرأي الأوفق، لم يعد دركاً إن

انجح، وعاذراً إن ألدح.

قال الشاعر: [من الطويل]

ليبلغ عذراً أويصيب رغبة

ومبلغ نفس عذرها مثل منجح^(٣)

(١) المحل: المكر والكيد والجدال. واللجاج: التماذي في الخصومة.

(٢) غ: ولقل ما.

(٣) قول الشاعر: «ليبلغ عذراً... إلخ» البيت ساقه الماوردي مثلاً من الأمثال في كتابه (الأمثال والحكم، الورقة ١٤ب) ونسبه إلى عروة بن الورد وهو في ديوان عروة، (طبع المطبعة =

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

«إن الرفق لم يكن قط في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه»^(١).

وليكن مساهلاً للزمان في طلبته، مباشراً^(٢) للقدّر في إرادته،

= الأهلية، بيروت، ص ٨)، بلفظ «أو نصيب» وفي شرح ديوانه لابن السكيت، (مطبوع ضمن مجموع بالمطبعة الوهية، ص ٣٩)، وقد ورد منسوباً إليه بلفظه في شرح ديوان الحماسة (١/ ٤٦٥)، والتذكرة السعدية (١/ ٣٠٥) وفيها تحريج، والتمثيل والمحاضرة بلفظه مرة ومرة بلفظ «أو يصيب خصاصة» (ص ٥٧)، ونهاية الأرب (٣/ ٦٥) بلفظ «أو ينال»، وشعراء النصرانية (٩٠٣)، والأغاني (٣/ ٧٣)، بلفظ «أو يصيب غنيمة»، وشرح ديوان امرئ القيس (٥٢) بلفظ «أو ينال»، وذكره ابن قتيبة منسوباً إليه مرة بلفظ «لتبلغ عذراً أو تفيد غنيمة» (عيون الأخبار، ٢/ ١٩٤)، ونسبه مرة أخرى إلى أوس ابن رشيح منسوباً إلى أبي العيال (العمدة ١/ ٤٨) وربما كان ذلك متأثراً من ذكر ذي العيال في البيت الذي يروي قبله، وهو قوله:

ومن يك مثلي ذا عيال ومقتراً
من المال يطرح نفسه كل مطرح

وقد ورد الشطر الثاني من البيت غير منسوب في لباب الآداب (ص ٤٢٧).

(١) حديث: «إن الرفق لم يكن قط في شيء إلا زانه»، رواه الإمام مسلم عن عائشة مرفوعاً بلفظ «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»، (صحيح مسلم بشرح النووي ١٦/ ١٤٦) ورواه أبو داود عنها بلفظ «يا عائشة ارفقي»، فإن الرفق لم يكن في شيء قط إلا زانه، ولا نزع من شيء قط إلا شانه» (سنن أبي داود، ٣/ ٣، رقم الحديث ٢٤٧٨)، ورواه أحمد بأسانيد كثيرة (المسند ٦/ ٥٨، ١١٢، ١٢٥، ١٧١، ٢٠٦، ٢٢٢) عن عائشة، ورواه البزار من حديث أنس مرفوعاً وفيه زيادة بلفظ «ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا كان الخرق في شيء إلا شانه، وإن الله رفيق يحب الرفق» بسند فيه كثير بن حبيب، وثقه ابن أبي حاتم، وفيه لين وبقيّة رجاله ثقات (مجمع الزوائد، ٨/ ١٨) ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث أنس هذا، إلا أن فيه (الفحش) مكان (الخرق) وليس فيه الزيادة (الترغيب والترهيب، ٣/ ١٨٠)، وروي بأسانيد آخر (المقاصد الحسنة ١١٤، رقم ٢٢٥)، والعسكري عن أنس، والبيهقي عن ابن مسعود وغيرهم، (كشف الخفاء ١/ ٢٦٧-٢٦٨، رقم الحديث ٧٠٦)، ورواه عبد بن حيد والضياء عن أنس بلفظ «ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه» في حديث صحيح (الجامع الصغير ٢/ ١٤٧)، وقد أصبح معنى هذا الحديث مثلاً من الأمثال بلفظ «ما دخل الرفق في شيء إلا زانه»، (التمثيل والمحاضرة ٤٢٦)، والحديث في (ط) بلفظ، «... لم يكن في شيء قط... ولا نزع منه...»، ثم جاء فيه بعله «ومبلغ نفس علزها مثل منجج» وهو الشطر الثاني لبيت عروة الذي مرّ قبل قليل. ثم ورد بعده «قال بعض الحكماء: إذا لم يساعد الجند بالحركة خذلان»، ثم ورد قوله: «قال أفضى القضية: ليكن مساهلاً... الخ».

(٢) ط: مساعداً..

ولا يطلب من الأمور متعوراً^(١)، ولا متعذراً^(٢)، ولا يطلب منها مدبراً،
ولا مولياً، فإن خاشته^(٣) الدهر لأن، وإن عارضه الدهر استكان؛ فمطاول
الدهر مغلول، ومعانيد القدر مخدول.

قال بعض الحكماء^(٤):
من استعان بالرأي ملك، ومن كابر الأمور هلك^(٥).

(١) ط: متقوراً. غ: معوراً، والمتعور المتداول.

(٢) ط: معتذراً ولا يلتمس.

(٣) ط: حاشته.

(٤) ط: بعض البلغاء.

(٥) قولهم: «من استعان بالرأي ملك، ومن كابر الأمور هلك»، أورده الماوردي منسوباً إلى
بعض الحكماء أيضاً في كتابه (أدب الوزير ص ٧)، وفي أمثالهم: «خاطر من استغنى برأيه»
(التمثيل والمحاضرة ٤١٨). ومن أقوال علي رضي الله عنه: «الاستبداد برأيك يهلك
ويهلك في المهاوي»، (غرر الحكم ٣٥) و«من أطاع ربه ملك، ومن أطاع هواه هلك»
(٢٦٥)، و«من استغنى بعقله ضل، ومن استبد برأيه زل» (ص ٢٦٦)، و«من استبد برأيه
فقد خاطر وغرر» ص ٣٠٠، ولا تستبد برأيك فمن استبد برأيه هلك» (ص ٣٣٦). وانظر
كتاب (٢٠٠٠ كلمة للإمام علي ص ٨٤، رقم ١٩٧٧). و«من استبد برأيه هلك، ومن شاور
الرجال شاركها في عقوقها»، (نهج البلاغة بشرح ابن أبي الحديد ٤ / ٣٢٠). ومن أقوالهم:
«من استبد برأيه هان على أعدائه»، (أحاسن المحاسن ١٦٣). و«من استغنى برأيه فقد خاطر
بنفسه» (نهاية الأرب ٦ / ٧٠) و«إذا استبد الرجل برأيه عميت عليه المراشد» (نهاية الأرب
٦ / ٧٠).

وقد جاء في نسخة ط بعد هذا القول بيت شعر هو:

فأقبل من الدهر ما أتاك به من قر عيناً بعيشه نفعه

وهو بيت للأصطخ بن قريع بن عوف السعدي التميمي الشاعر الجاهلي من المميرين، ترجم
له في الأغاني ١٦ / ١٥٤، والشعر والشعراء (السقا) ١٤٣، الخزائن ٤ / ٥٩١، وله شعر في
حماسة ابن الشجري ١ / ٤٧٣، والحماسة البصرية ٢ / ٢، وعده السجستاني من المميرين
(ص ٨)، وقد ورد البيت في التمثيل والمحاضرة (٦٠) بلفظ «واقبل»، وحماسة الطرفاء
(١ / ١٥٤) وفيها تحريج، والحماسة البصرية (٢ / ٣) وفيها «اقنع من العيش...»، والشعر
والشعراء (السقا ص ١٤٤) وفيه «وخذ من الدهر...»، ونهاية الأرب (٣ / ٦٩)
و ٨ / ١٨٩)، والإيجاز والإعجاز (٣٩)، والحماسة الشجرية (١ / ٤٧٤) بلفظ «اقبل...»
بعينه نفعه» والمعمرين (ص ٨)، ومجالس ثعلب (٤٨٠)، والبيان والتبيين (٣ / ٣٤١) بلفظ
«وخذ...»، والأمثال (١ / ١٠٧) والأغاني (١٦ / ١٥٤)، والعقد القريدي، العريان،
(٢ / ١٤٧ و ٨ / ١٥٨) وفيه «ارض من الدهر...» والمحاسن والمساوي للبيهقي (٢٩٨)،
والمستطرف (١ / ٣٢) والأمثال والحكم (الورقة ١٣٢).

قال الشاعر^(١): [من الكامل]

ومكلف الأيام ضد طبايعها متطلب في الماء جذوة نار
(١٧)

وإذا رجوت المستحيل فإنما

تبني الرجاء على شفير هار^(٢)

(١) قوله: «قال الشاعر..» قلت هو أبو الحسن علي بن محمد بن فهد التهامي الشاعر المقتول سراً في سجنه، بالقاهرة، سنة ٤١٦هـ، والتهامي نسبة إلى تهامة وهي جبال مشهورة، وقد تطلق على مكة أيضاً، ولذا قيل للنبي صلى الله عليه وسلم (تهامي) لأنه منها، ولد التهامي ونشأ باليمن وسافر إلى الشام ثم العراق وإلى الجبل، ولقي الصاحب بن عباد، وانتحل مذهب الاعتزال، وأقام ببغداد وروى شيئاً من شعره ثم عاد إلى الشام وتنقل في بلادها، وكانت نفسه تحذره بمعاالي الأمور، وكان أديباً فاضلاً متورعاً، متديناً، متقشفاً. أنظر أخباره في مقدمة ديوانه المطبوع بالإسكندرية سنة ١٨٩٣، العبر ١٢٢/٣، تاريخ بغداد لابن النجار (محفوظ، الورقة ١٣، ١٥ب)، وفيات الأعيان ٦٠/٣، رقم الترجمة ٤٤٤.

(٢) قول الشاعر: «ومكلف الأيام ضد طبايعها.. إلى آخر البيتين» في ديوان أبي الحسن التهامي (ص ٢٧) من قصيدة يرثي بها ابناً صغيراً له وهي من أشهر شعره ومطلعها:
حكم المنية في البرية جبار ما هذه الدنيا بدار قرار
وقد نالت هذه القصيدة إعجاب الأدباء على مر العصور، فقد خُسمها عبد العزيز بن أحمد بن سعيد الدميمري الديريني الشيخ الزاهد المتوفى ٦٩٤هـ، إذ قال في تخميس مطلعها:

سلم أمورك للحكيم الباري تسلم من الأوصاب والأوزار
وانظر إلى الأخطار في الأقطار حكم المنية في البرية جبار
ما هذه الدنيا بدار قرار
في قصيدة طويلة ورد فيها تخميس البيتين اللذين استشهد بهما الماوردي على النحو التالي:

لا تغترر بسوميضها وخدايعها فوراء مسيها نيوب سباعها
اذ لم تعرف قترها من باعها ومكلف الأيام ضد طبايعها
متطلب في الماء جذوة نار
لا ترج من جذب المطالب مغنيًا فلربما جر التحيل مغرماً
وإذا رضيت الحكم عشت مكرماً وإذا رجوت المستحيل فلنما
تبني الرجاء على شفير هار

(انظر طبقات الشافعية الكبرى، طبعة الحسينية، ح ٧٥)، وقد ورد البيتان في وفيات الأعيان ٦١/٣، متسويين له مع أبيات أخرى وأوردها ابن النجار (تاريخ بغداد، نسخة مصورة في المجمع العلمي العراقي عن نسخة المكتبة الظاهرية، الورقة ١٣ب-١٤أ).

وليعلم أن الأمور التي تدبرها مما لا تمضي إلا بفرط الصرامة وشدة
الهيبة التي هي قاعدة الملك وأُس السلطنة، وذلك لا يكون إلا لمن خيف
غضبه وخشيته سطوته.

وليجعل بدل الغضب تغاضباً لا غضباً^(١)، لأن التغاضب فعله، يقدر
أن يقف منه على الحد المطلوب، ويعرف منه حقائق الذنوب، والغضب
انفعالي فيه اضطر إليه، لا يقدر أن يقف منه على قدر حاجته، ولا يقتصر منه
على قدر كفايته، حتى يتجاوز إلى الحد المضّر والطيش المعرّ.

ولقد أصاب من كانت عقوبته للأدب، وأخطأ من كانت عقوبته
للغضب، وهذا مما ذكرنا في معنى الطبع والتطبع.

قال الشاعر: [من الوافر]

فلم أرَ لسيادة كالعوالي

ولا لثأر كالقوم الغضاب^(٢)

وعلى هذا القياس لا ينبغي أن يستغزه السرور^(٣)؛ فتملاً البشائر قلبه،
وتخلّب الأفرأح لبّه، فيصير بها طائشاً مرحاً، لا يلين إن صال، ولا يستقيم
إن مال، فينسب العدو إلى ضعف العزيمة ولين الهمة، وإنه لحقيق بمناسبه
إليه، ووسمه به.

وإذا ضبط نفسه عن هذه الحال، وتنزه عن رذل المقال، وتصوّر أن
جميع البشائر - وإن جئت - محترقة، إذا قيس بعلو منزلته، وأضيفت إلى
عظيم همته، كفي استفزاز الفرح واهتزاز المرح، فكان أشبه بكماله وألق
باعتداله.

(١) قوله: «وليجعل بدل الغضب تغاضباً»، كرر الماوردي هذا المعنى في كتاب أدب الورير بلفظ .

«ولكن غضبك تغاضباً» (أدب الوزير، ص ٧).

(٢) قول الشاعر: فلم أرَ لسيادة كالعوالي . . لم أجده.

(٣) ط: يستغزه الطرب.

قال الشاعر^(١): [من الطويل]
ولست بمفراح إذا الأمر سرّني
ولا جازع من صرفه المتقلب^(٢)



- (١) قوله: «قال الشاعر...» قلت: هو هذبة بن خشرم العذري شاعر أموي، كان صاحب زيادة بن زيد العذري فتنازعا، واستفحل النزاع فاتهم كل واحد منهما صاحبه بأخته ثم شج زيادة هذبة وبقي هذبة يفتنم الفرص لقتل زيادة، فقتله ثم حبس هذبة في سجن سعيد بن العاص بالمدينة ثم قتل به، انظر نبذة من أخباره في الأغاني، بيروت، ٢١ / ٢٧٦، الخزائن ٤ / ٨٢، الشعر والشعراء: ٥٨١، أمالي القاضي ١ / ٧٢، وله شعر في التذكرة السعدية ١ / ٥٣٨، رقم ١٨٦ من النسيب، وحامسة ابن الشجري ١ / ٢٢٧، والماسية البصرية ١ / ٤٤، وانظر تخريج البيت، وقد دون المبرد قصة قتله من الكامل ٤ / ٨٧.
- (٢) قول الشاعر: «ولست بمفراح...» البيت استشهد به الماوردي في كتاب (الأمثال والحكم، والورقة ١١٣) منسوباً إلى هذبة، وهو في الحماسة البصرية منسوباً إليه أيضاً (١ / ١١٥) وفيها تخريج) والشعر والشعراء (تحقيق السقا) ٢٥١، وحامسة الظرفاء (١ / ٥٠) الحماسية، رقم ٦٦ منسوباً إليه وفي تاريخ الطبري ٦ / ١٨٥، والعقد الفريد (١ / ١١٦، ٢ / ٢٩، ٣ / ١٣، ١٠٨)، منسوباً إليه أيضاً، وحامسة البحتري (١٧٨) كذلك. وفي الحماسة الشجرية (١ / ٤٧٤ غير منسوب وفيها تخريج). ونسب في عيون الأخبار (١ / ٢٧٦) إلى البعث مرة، وإلى تأبط شراً مرة أخرى (١ / ٢٨١)، وهو في شعر تأبط شراً (١٥٣) و١٧٩)، والوساطة (٢١٣). ودون محمد بن شرف القيرواني في رسائل الانتقاد رضمن رسائل البلغاء ص ٣٣٣)، دون أن يعزوه إلى أحد، وقد دون المبرد قصة قول الشاعر للبيت في (الكامل ٤ / ٨٦)، وفي ط ورد اللفظ «جازعاً» بالنصب.

[الفصل العاشر]

[الصبر]^(١)

[الصبر والامتنان]:

وكذلك الحوادث إذا طرقت ، والنوازل إذا ألمت، كانت سهلة الوطأة (١٧ ب) في جنب صبره، وشهامته، قليلة الأثر؛ لسعة صدره، وبعد همته. فإن طرأ عليه منها طارئٌ بأن فضله على من سواه بالصبر والمسكة عند جزعهم، والأناة والوقار عند خذلهم، فيكون بصبره ممثلاً أمر الله تعالى فيما أراد، راجياً للمظفر فيما يقصده ويتوخاه، فإن تقلب الدنيا مألوف، وأمنها مخوف، ولقل ما تساعد أحداً إلا بعد شمس^(٢)، ولا تحسن إليه إلا بعد بوس، ولأن يروجو السعادة أولى من أن يخاف فواتها، ويختتم بها أولى من الخاتمة بضدها.

قال بعض الأدباء: بالصبر على مواقع الكره تدرك الحظوظ^(٣).

قال الشاعر: [من الطويل]

إذا المرء لم يأخذ من الصبر حظه

تقطع من أسبابه كل مُبرم

(١) حول الصبر عقد المؤلف فصلاً هو الفصل الثاني من آداب المراضعة والاصطلاح من كتابه أدب الدنيا والدين (٢٦٠-٢٦٢) قال أنوشروان: «الصبر له أربعة مواطن: ثبات، وكف، واحتمال، وإقدام. فالثبات على الكرائم، والكف عن المحارم والمآثم، والاحتمال للوازم فيما يوجب الفضل ويظهر المروءة، والإقدام على الجلائل التي فيها النجاة والفوز» (الحكمة الخالدة ٥١).

(٢) شمس: يقال شمس الفرس شمساً وشماساً منع ظهره، ومن المجاز رجل شمس أي صعب الخلق. وشمس هنا بمعنى المنع.

(٣) قوله: «قال بعض الأدباء: بالصبر على مواقع الكره تدرك الحظوظ» أورده الماوردي بلفظه في أدب الدنيا والدين (٢٦١) والطرطوشي في سراج الملوك (٩٨) وفي كلامه منسوب إلى بعض الحكماء، وهو عند الطرطوشي بلفظ «مواقع المكروه» وفي لباب الآداب بلفظ «عزيمة الصبر تطميء نار الشر فإن الصبر على ما تكرهه وتحتويه يؤديك إلى ما تحبه وتشهيه» (ص ٦٩ وانظر أيضاً ص ٦٠ منه) وأورده مرة أخرى بلفظه غير أن فيه «مواقع المكروه» (ص ٢٩٤)، وفي: ط «قال بعض الحكماء... يدرك».

[أقسام الصبر]:

وليعلم الملك أن الصبر ينقسم ثلاثة أقسام^(١)، وهو في كل قسم محمود.

فأول أقسامه: الصبر على ما فات إدراكه من نيل رغائب، أو تفضت أوقاته، من حلول مصائب، وبالصبر في هذا يستفاد راحة القلب، وهدوء الجسد.

وفقد الصبر فيه منسوب إلى شدة الأسى، وإفراط الحزن.

فإن صبر طائعاً مسلماً، ورضي بقضاء الله مستسماً، أعين على خطبه، ونفس عن كربه.

وإن ساعد جزعه^(٢) احتمل هماً لازماً، وصبر كارهاً آثماً^(٣).

(١) قوله: «إن الصبر ينقسم ثلاثة أقسام...» فصل المؤلف في أدب الدنيا والدين أقسام الصبر فجعلها ستة أقسام هي:-

أولها وأولها: الصبر على امتثال ما أمر الله به والانتهاز عما نهى الله عنه.
الثاني: الصبر على ما تقتضيه أوقاته من رزية قد أجهده الحزن عليها، أو حادثة قد أكله الهم بها.

الثالث: الصبر على ما فات إدراكه من رغبة مرجوة، وأعوذ نيله من مسرة مأمولة.

الرابع: الصبر فيما يخشى حلوله من رهبة يخافها أو يحذر حلوله من نكبة يحشاها.

الخامس: الصبر فيما يتوقعه من رغبة يرجوها ويتنظر من نعمة يأملها.

السادس: الصبر على ما نزل من مكروه أو حل من أمر مخوف.

(انظر تفصيل ذلك في صفحات ٢٦١-٢٦٤).

وقد قسمها الطرطوشي أربعة أقسام هي الأول والثالث والخامس والسادس مما ذكر في أدب الدنيا والدين (انظر سراج الملوك ٩٨-١٠٠).

(٢) ط: وإن ساعد همه.

(٣) ورد في ط بعد هذا قوله: «وفي المعنى من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: حالك صابراً حالك جازعاً. وحكم الصبر فيه...».

وحكمُ الصبر فيه: أن لا يرى أسفاً على رغبة، ولا جَزَعاً من ذنبيه،
فإن الزمانَ تحول^(١)، والهمومَ نزول^(٢).

قال الشاعر^(٣): [من الطويل]

وفي الصبرِ عندَ الضيقِ للمرءِ مخرجٌ
وفي طولِ تحكيمِ الأمورِ تجاربُ^(٤)
وثاني أقسامه: الصبرُ على ما نزلَ من مكروه، أو حلَّ من أمرٍ
مخوف (١٨)

وبالصبر في هذا تفتَحُ وجوهُ الآراءِ، وتُستدقَّ مكايِدُ الأعداءِ، وفي
مثله قال الله تعالى: «وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ»^(٥).

(١) تحول بفتح النون - فَعُول من نحله إذا أعطاه، فالزمان كثير العطاء.

(٢) جاء في (ط) بعد هذا قوله: «وأشدني بعض أهل الأدب:

هوَن عليك هموماً كنت تألفها والباب يفتح بين الشد والغلق

واذكر خروجك عرياناً بلا سبد ويده خلقتك من ماء ومن علق

ويظهر أن الناسخ قد زادها، والسد: يقال ماله سبد ولا ليد أي قليل ولا كثير، والسبد من
الشعر واللبد من الصوف.

(٣) قوله: «قال الشاعر» ذكر الماوردي في كتابه الأمثال والحكم أن القائل هو الحارث بن حلزة
(الورقة ٦ب) والحارث بن حلزة أحد أصحاب المعلقات، انظر بعضاً من أخباره في
الأغاني ١١ / ٣٧، الشعر والشعراء - تحقيق السقا - ٥٣ شروح المعلقات، تاريخ الأدب
لعربي لبروكلمان (الترجمة العربية) ١ / ١٠٣ الروائع للبستاني العدد ٢٦، مقدمة ديوانه بقلم
هشام الطعان.

(٤) غ: تحليم الأمور والتصحيح من الأمثال والحكم (الورقة ٦ب) إذ ذكره منسوباً إلى الحارث بن
حلزة، ولم يرد هذا البيت في (ط) كما أنني لم أجده في المصادر التي بين يدي، إلا أن
الجاحظ ذكر بيتاً ونسبه إلى الحارث بلفظ

إن السعيد له في غيره عظة وفي الشجارب تحكيم ومعتبر

(البيان والتبيين ٢ / ١٠٦) ووضعه جامع الديوان في ديوانه (ص ٢٤) وخلا الديوان أيضاً من
هذا البيت على الرغم من وجود سبعة أبيات بالوزن نفسه والقافية نفسها للحارث بن حلزة يخاطب بها
عمرو بن هند ومطلعها:

ألا بان بالرهن القداة الحباب كأنك معسوب عليه وعاتب

(انظر الديوان ص ٢١-٢٢ القصيدة رقم ٨ فيه).

(٥) سورة لقمان: آية ١٧.

قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ:

بِمِفْتَاحِ عَزِيمَةِ الصَّبْرِ تَعَالَجُ مَغَالِيقُ الْأُمُورِ^(١).

وَفَقَدْ الصَّبْرُ فِيهِ مَنْسُوبٌ إِلَى الْخَرَقِ وَالْخُورِ.

وَحَكْمُ الصَّبْرِ فِيهِ: أَنَّ لَا يَدْهَشُهُ مَا هَجَمَ، وَلَا يَذْهَلُهُ مَا أَلَمَ؛ فَلِلنَوَائِبِ قَدْرٌ مُعْتَرِضٌ، وَأَجَلٌ مُفْتَرَضٌ.

قَالَ الشَّاعِرُ^(٢): [مِن الطَّوِيلِ]

أَرَى كُلَّ رِيحٍ سَوْفَ تَسْكُنُ مَرَّةً

وَكُلُّ سَحَابٍ عَنْ قَلِيلٍ تَقْشَعُ^(٣)

(١) قوله: «قال بعض الحكماء: بمفتاح عزيمة الصبر تعالج مغاليق الأمور» تمثل به الماوردي في أدب الدنيا والدين (٢٦٤) ونسبه الطرطوشي بلفظه إلى الحكيم (سراج الملوك ص ١٠٠) وقد جاء في معناه من أقوال الحكيم أرسطوطاليس: «الصبر على ما تكرهه وتجنّبه يؤديك إلى ما تحبه وتشتبه» (لباب الآداب ٦٠) و«عزيمة الصبر تطفئ نار الشر؛ فإنّ الصبر على ما تكرهه وتجنّبه...» (ص ٦٩).

(٢) قوله: «قال الشاعر...» قلت: ذكر الماوردي في كتابه (الأمثال والحكم الورقة ٣٢ب) إنه معن بن أوس، وهو معن بن أوس المزني الشاعر المشهور شاعر مجيد من مخضرمي الجاهلية والإسلام، مدح جماعة من الصحابة وهو صاحب اللامية المشهورة:

لَمَمَرِي لَا أَدْرِي وَإِنِّي لِأَوْجَلٍ عَلَى أَيْمَانَا تَعْدُو الْمَسِيَةَ أَوَّلُ

وقد عمّر فادرك زمان ابن الزبير وكفّ بصره في أواخر عمره توفي سنة ٦٤ هـ انظر ترجمته في الأغاني ١٠/ ١٥٦، الإصابة ٣/ ٤٧٥ رقم الترجمة ٨٤٥٣، الخزائن ٣/ ٢٥٨، نكت الميمان ٢٩٤، جهرة الأنساب ١٩١، معجم الشعراء ٣٢٢ وانظر بعضاً من أشعاره في لبيان والتبيين ١/ ٣٧٢، ٢/ ٣٥٢، ٩/ ٢٣١، ٢٣٨، والتنثيل والمحاضرة ٦٥، والزهرة ٢/ ٩٩، ١٠٦، ٢٠٣، ٢٦٨، والتذكرة السعدية ١/ ٣٢٧ وديوانه مطبوع في أوروبا.

وقد نسب البيت أيضاً إلى مسكين الدرامي الشاعر المشهور واسمه ربيعة بن عامر من شعراء العصر الأموي توفي ٨٩ هـ ترجم له في الأغاني ١٨/ ٦٨، معجم الأدباء ١١/ ١٢٦، الخزائن ٣/ ٦٠، طبقات فحول الشعراء ٢٥٩، جهرة الأنساب ٢٣٢، الشعر والشعراء (تحقيق السقا ٢١٥) وقد طبع ديوانه في بغداد ١٩٧٠ وله شعره في الزهرة ٢/ ١٦٣، ٣٢٩، البيان والتبيين ١/ ٣٢٢، ٣٥١، ٣/ ٨١.

(٣) قول الشاعر: «أرى كل ريح...» البيت نسبه الماوردي كما مر إلى معن بن أوس (الأمثال والحكم ٣٢ب).

وفي نسخة ط: «وكل سماء»

وَسَأَلْتُ أَقْسَامَهُ: الصَّبْرُ فِي مَا يَنْتَظَرُ وَرُودَهُ؛ مِنْ رَغْبَةٍ يَرْجُوهَا،
أَوْ يَخَافُ حَدوثَهُ؛ مِنْ رَهْبَةٍ يَخْشَاهَا.

وَبِالصَّبْرِ وَالتَّلَطُّفِ يَدْفَعُ عَادِيَةً مَا يَخَافُهُ مِنَ الشَّرِّ، وَيَنَالُ نَفْعَ مَا يَرْجُوهُ
مِنَ الْخَيْرِ.

قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ:

مَنْ اسْتَعَانَ بِالصَّبْرِ نَالَ جَسِيمَاتِ الْأُمُورِ^(١).
وَقَدْ صَبَرَ فِيهِ مَنْسُوبٌ [إِلَى الطَّيْشِ وَالْهَلَعِ وَحُكْمِ الصَّبْرِ فِيهِ
مَنْسُوبٌ]^(٢) إِلَى سَكُونِ الْجَاشِ^(٣) فِي أَمَلِهِ، وَقَلَّةِ الْاسْتِيحَاشِ مِنْ وَجَلِهِ،
فَقَضَاءُ اللَّهِ مَقْدُورٌ، وَأَجَلُهُ مَسْطُورٌ.

قَالَ الشَّاعِرُ^(٤): [مِنَ الرَّمْلِ]

اصْبِرِي أَيُّهَا النَّفْسُ — نَ فَإِنَّ الصَّبْرَ أَحْبَبُ

= وقد ورد في ديوان مسكين الدارمي (ضمن القطعة ٤٢ ص ٥١) بلفظ «وكل سماء لا
محالة تقلع» ونجد مظان وجود القطعة في (ص ٧٦-٧٧) منه فلتنظر هناك. وانظر أيضاً في
الأشياء والنظائر للخالدين منسوباً إليه (١ / ٦٤)
وقد ورد البيت في البيان والتبيين (٢ / ٣٥٨) غير منسوب، وهو فيه بلفظ: «وكل سماء
ذات دو ستقلع».

ومثله ما كان يتمثل به ابن شبرمة إذا نزلت به نازلة وهو قوله:

فإن كابت الدنيا تحب فلانها — سحابة صيف عن قليل تقشع
انظر أدب الدنيا والدين ٢٤، آداب النفس ٩٣، ثمار القلوب ٦٥٣، التمثيل
والمحاضرة ٢٣٦، الكامل ٢ / ٤٢، ٤٠، متخبات سحر البلاغة ١٦٨، البيان
والتبيين ٣ / ١٤٦، العقد الفريد ٣ / ١٧٦، المستطرف ١ / ٨٧.

(١) قوهم: «من استعان بالصبر نال جسيمات الأمور» ورد في معناه قولهم: «من صبر نال المني،
ومن شكر حصن النعمى» (أدب الدنيا والدين ٢٦٣) وقد مرّ قبل قليل قول أرسطوطاليس.
«الصر على ما نكره ونجته يؤدبك إلى ما تحبه وتنتهي» (لباب الآداب ٦٠)، وقال أكثم
بن صفيي: «من صبر ظفر» (مراج الملوك ٩٨).

(٢) الزيادة من ط.

(٣) ط: سكون الحال.

(٤) قوله: «قال الشاعر» ذكر الماوردي أنه ابن الرومي الشاعر المعروف (انظر أدب الدنيا
والدين ٢٧١) ولكنها ليس لابن الرومي بل هما لأبي تمام الطائي.

رَبِّمَا خَابَ رَجَاءٌ وَأَتَى مَا لَيْسَ يُرْجَى^(١)

فإذا^(٢) اشتدَّ الجزعُ والأذى تذكر بقايا النعمة عليه، واعتبر بمن سلب ما هو فيه، فسيرى منها عزاءً^(٣) يخفف أشجانه ويقلل^(٤) أحرانه؛ فصفو الدنيا مشوب بالكدر.

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ:

مِنَ الدُّنْيَا عَلَى الدُّنْيَا دَلِيلٌ^(٥)

قَالَ الشَّاعِرُ^(٦): [مِنَ الطَّوِيلِ]

(١) قول الشاعر: «اصبري أينها النفس...» نقل الماوردي باليتين في الصبر على المصيبة وعدم الجزع وذلك في أدب الدنيا والدين (٢٧١) ونسبها إلى ابن الرومي وجاء بها بلفظها وقد قلبت ديوان ابن الرومي بعناية كامل كيلاني فلم أجدها ولم أياس من العثور عليها فقلبت كثيراً من الدواوين حتى وجدتُها في ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي (ح ٤ ص ٥٠٤) وتخلل بينها بيتان وهما:

نهى الحزن فإن الحزن إن لم ينه بجا
والبسي اليأس من الناس فإن اليأس ملجا

(٢) ط: فإذا زاد به الطمع واشتد به الجزع يذكر... .

(٣) ط: عوضاً ويخفف.

(٤) غ ط: يقل.

(٥) قولهم: «من الدنيا على الدنيا دليل» انظره في أدب الدنيا والدين بلفظه مصدر، بقوله: «قيل في مشور الحكم...» (ص ١٠٠).

(٦) قوله: «قال الشاعر» ذكر المؤلف أن الشاعر هو قيس بن الخطيم (الأمثال والحكم ١٦٦ آ) وهو قيس بن الخطيم بن عدي بن عمر الأوسي شاعر من أهل يثرب جملة ابن سلام من شعراء الطبقة الثانية، وسمي أبوه الخطيم لضربة خطمت أنفه، قتل أبوه وهو صغير وأدرك قيس الإسلام ولكنه لم يسلم وقتل قبل الهجرة وديوانه طبع في بغداد ١٩٦٢ انظر بعضاً من أخباره في الأغاني ٢ / ١٥٤، الخزائن ٣ / ١٦٨، الإصايات ٣ / ٢٦٦ رقم الترجمة ٧٣٥٠، طبقات ابن سلام ٨٩ و ١٧٦.

قلت وقد ينسب البيت إلى أبي تمام الشاعر المشهور (ديوان المعاني ٢ / ٢٠٢) وهو حبيب بن أوس الطائي صليبة وقد نشرنا عنه مقالات متسلسلة في مجلة المعرفة البغدادية ٩٦-١٩٦١ وانظر الكتاب الذي وصفه كوركيس عواد وميخائيل عواد بعنوان (أبو تمام حياته وشعره في المراجع العربية والأجنبية) بغداد (الإرشاد ١٩٧١).

ومن عادة الأيام أنْ خطونها
إذا سرَّ منها جانبٌ ساءَ جانبٌ^(٣)
وأشَدُّ المعري^(١) للمأمون:

(١) قول الشاعر: «ومن عادة الأيام...» تمثل به الماوردي في أدب الوزير (ص ٢٨) و(الأمثال والحكم ١٦٦) ونسبه إلى قيس بن الخطيم وذكره في أدب الدنيا والدين (١٣١) وذكر بعده بيتاً آخر هو قوله بعده:

وما أعرف الأيام إلا ذميمة ولا الدهر إلا وهو للشار طالب
ولم ينسبها لقائل، والبيت في نهاية الأرب (٦ / ١١٠) منسوب إليه غير أنني لم أجد هذا البيت في ديوان قيس بن الخطيم الذي جمعه الدكتور إبراهيم السامرائي وأحد المطلوب. وقد ذكره أبو هلال العسكري مع بيت آخر قبله هو:
على أنها الأيام قد صرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب
ثم أتى بالبيت بلفظ «... إن صروفها...» ونسبها إلى أبي تمام (ديوان المعاني ٢ / ٢٠٢).

ولم أجدهما في ديوانه بشرح الخطيب التبريزي.
وقد أخذ الشاعر أبو إبراهيم إسماعيل بن أحمد الشاشي الشطر الثاني فقال في الأخلاء:

بلى كلهم مثل الزمان تلونا إذا سر منهم جانب ساء جانب
(انظر خاص الخاص ١٩٦)، ومن شعر أحمد بن محمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد (المتوفى ٣٢٨) في هذا المعنى:
إنا الدنيا غصارة أيكاة إذا اخضر منها جانب ساء جانب
فلا تفرحن منها لشيء تفيله سيذهب يوماً مثل ما أنت ذاهب
وما هذه الأيام إلا فجائع وما العيش واللذات إلا مصائب
(أنظر معجم الأدباء - رفاعي - ٤ / ٢١٨) وأدب الدنيا والدين (٢٦٨) والعقد الفريد (٣ / ١٧٥) وشرح نهج البلاغة ٢ / ٢٤٠
وقال عمرو بن معدى كرب:

فرعت به كالليث يلحظ قائماً إذا ريع منه جانب بعد جانب
(انظر ديوان عمرو بن معدى كرب ص ٣٣) والشعر والشعراء تحقيق السقا (١٣٦).

(٢) قوله: «وأشد المعري» كذا في الأصل غ ولم يذكر ذلك في ط ولعل فيها تصحيحاً؛ لأن المعري لم يدرك المأمون فلم ينشد أمام المأمون أولاً، ولأنني قد راجعت من كتب أبي العلاء المعري رسالة الغفران بتحقيق بنت الشاطيء، رسائل أبي العلاء المعري بتحقيق مرغليوث (أكسمورد ١٨٩٨)، رسالة الهناء بتحقيق كامل كيلاني (بيروت بدون تاريخ)، رسالة في تعزية أبي علي بن أبي الرجال في ولده أبي الأزهر بتحقيق إحسان عباس (ط ١) مطبعة الاعتماد مصر بلا تاريخ) رسالة لللائكة، ورسائل أبي العلاء مع داعي الدعاة ورسائل أخرى (المكتب التجاري =

كَذَّبْتُكَ نَفْسُكَ أَيُّهَا الدَّهْرُ
 لَكَ أَنْ تَجُوزَ وَعِنْدِي الصَّبْرُ
 آيْتُ لَا أَنْهَاكَ عَنْ خَطْلٍ
 حَتَّى يَرُدَّكَ مَنْ لَهُ الْأَمْرُ

* * *

= بيروت بلا تاريخ)، لزوم ما لا يلزم تحقيق إبراهيم الأعرابي (مكتبة ومطبعة دار صادر بيروت بلا تاريخ)، سقط الزند (دار صادر بيروت ١٩٥٧)، زجر النابج تحقيق أمجد الطربلسي (المطبعة الهاشمية دمشق ١٩٦٥)، فانت شعر أبي العلاء جمع عبد العزيز الميمني (المطبعة السلفية بالقاهرة ١٩٤٥)، أبو العلاء وما إليه عبد العزيز الميمني (المطبعة السلفية بالقاهرة ١٩٤٤)، تعريف القلماء بأبي العلاء بإشراف طه حسين (الدار القومية ١٩٤٤)، الجامع في أخبار أبي العلاء وآثاره محمد سليم الجندى (ج ١ ٣ دمشق ١٩٦٢ ١٩٦٤)، أوح التحري عن حيشة أبي العلاء المعري ليوسف البديعي تحقيق إبراهيم الكيلاني (مطبعة الترقى دمشق ١٩٤٤ ح ١-٤).

كل ذلك راجعته فلم أجد هذين البيتين ذكراً.

[الفصل الحادي عشر]

[كتمان السر]^(١)

[الكتمان والإفشاء]:

وليس يصح الصبر في الأمور بترك التسرع إليها دون كتمان السر فيها؛
فهو أقوى أسباب الظفر بالمطالب، وأبلغ في كيد^(٢) العدو الموارب.

قال^(٣) النبي عليه السلام:

«استعينوا على الحاجات بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود»^(٤).

(١) حول كتمان السر عقد المؤلف فصلاً هو الفصل الرابع من آداب المواضع من كتاب أدب الدنيا والدين ص. ٢٧٩-٢٨٢، وعقد الجاحظ فصلاً في كتابه التاج في أخلاق الملوك ص. ٩٤-٩٩ ط: عند.

(٢) ط: وقيل روي عن النبي...

(٣) حديث: «استعينوا على الحاجات بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود» أخرجه المطبراني في

معاجمه الثلاثة عن معاذ بن جبل بلفظ «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود» وفي إسناده سعيد بن سلام، قال المعجلي لا بأس به، وكذبه أحمد وغيره وبقيّة رجاله ثقة، إلا أن خالد بن معدان لم يسمع من معاذ. وأخرجه في الأوسط عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن لأهل النعم حساداً فاحذروهم» وفي سننه إسماعيل بن عمرو البجلي وهو ضعيف وقد وثقه ابن حبان (مجمع الزوائد ١٩٥/٨) و(المقاصد الحسنة ٥٦/١ رقم ١٠٣) وأخرجه العقيلي في الضعفاء وابن عدي في الكامل وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان كلهم عن معاذ بن جبل وأخرجه الخرائطي في اعتلال القلوب عن عمر والخطيب البغدادي في التاريخ عن ابن عباس وأخرجه الخنعي عن عبي وهو حديث ضعيف (الجامع الصغير ٤٠/١) وأخرجه ابن أبي الدنيا والعسكري والقضاعي عن معاذ بسند فيه سعيد بن سلام، وأخرجه العسكري أيضاً من غير طريقة بسند ضعيف وفيه انقطاع بلفظ «استعينوا على طلب حوائجكم بكتمانها فإن لكل نعمة حسنة» (كشف الخفاء ١٣٥/١ رقم ٣٤٢) وقد أورد الماوردي الحديث بسند عن عطاء عن عمر بلفظ «استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها» في أدب الوزير (٥٣) وفي الامثال والحكم (الورقة ٣٤) وبصيحة الملوك (الورقة ١٨٤) وأورده بلفظه المثبت في المتن في كتابه أدب الدنيا والدين (٢٧٩) وانظره أيضاً في سراج الملوك ١٠٣ والمستطرف ٢٠٧/١ وقد أورده الثعالبي ضمن أمثال الرسول صلى الله عليه وسلم بلفظ «استعينوا على الحوائج بالكتمان» التمثيل والمحاضرة (ص ٢٨ و ٤١٩) وورد في ص. ٤٦٧ منه بلفظ «على حوائجكم...» وهو في لباب

وقال^(١) أمير المؤمنين عليّ كرم الله وجهه:
سِرُّكَ أَسِيرُكَ، فإذا تكلمت به صرت أسير^(٢).

قال أنوشروان:

مَنْ حَصَّنَ سِرَّهُ فَلَهُ بِتَحْصِينِهِ خَصْلَتَانِ: الظَّفَرُ بِحَاجَتِهِ، وَالسَّلَامَةُ مِنَ السُّطُورَاتِ^(٣).

وكتمان السر: ما صيئت به الأقوال^(٤) من الإذاعة، وسترت به الأفعال من الإشاعة؛ فلم تر آثاره، ولم تنم أخباره، فإن لم تعم لم تنم، ولقل ما أنجح من أفشى^(٥) السر فرام، أو خلا منه مرام، فإن لها عن قبض

= الآداب (٢٣٨) بلفظ "... فكل ذي..." وانظره في (ص. ٢٣٣ منه) وفي عيون الأخبار (٣٨/١) والمحاسن والمساوي (٤٠٣/٢)

(١) ط: وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

(٢) قول علي رضي الله عنه: «سرك أسيرك فإذا تكلمت به صرت أسيره» دونه الماوردي بلفظه إلا أنه وضيم (فإن بدل فإذا) وذلك في أدب الدنيا والدين (٢٧٩) وفي غرر الحكم ودرر الكلم نجد هذا القول بصيغ متعددة منها قوله: «الكلام في وثاقتك ما [لم] تتكلم به فإذا تكلمت به صرت في وثاقتك» (ص. ٥٣) وقوله «سرك سرورك - كذا - إن كتبت، وإن أذعته كان ثبورك» (ص. ١٩٢) وبهذا اللفظ ورد في كتاب ٢٠٠٠ كلمة للإمام علي (ص. ٦٧ رقم ١٥٤٥)، وقوله «سرك أسيرك، فإن أفشيت صرت أسيره» (غرر الحكم ١٩٣) وباللفظ الذي جاء في المتن نجده في لباب الآداب (ص. ٢٣٩) منسوبا إليه وفي سراج الملوك (١٠٣).

وقد نظم أحدهم هذا المعنى فقال:

صن السر عن كل مستخبر وحاذر لها الحزم إلا الحذر
أسيرك سرك إن صنته وأنت أسير لهُ إن ظهر
فانظرهما غير معزوين لأحد في نهاية الأرب (٨٣/٦).

(٣) قول أنوشروان: «من حصن سره...» نجده بنفس اللفظ منسوبا إليه في سراج الملوك (١٠٣) والمستطرف (٢٠٧/١) وأدب الدنيا والدين (٢٧٩) ونهاية الأرب (٨٢/٦) وهو فيه بلفظه... من تحصينه إياه خلتان: أما الظفر بما يريد وأما السلامة من العيب والضرر إن أخطاه الظفر، وفي لباب الآداب (ص. ٢٣٩) بزيادة هي: «وطهار الرجل سر غيره أقبج من إظهار سر نفسه لأنه يبوء بإحدى وصيتين: إما بالخيانة إن كان مؤثقا أو النسيئة إن كان متبرعا».

(٤) ط: أقواله عن الإذاعة وسترت به أفعاله عن الإشاعة.

(٥) ط: مع إقشاء السر مرام.

عنايه، وسها عن حفظ لسانه، بَدَرَ سرُّه فاستضرَّ وألَفَ إرساله فاستمرَّ، ولم يبقْ مصونٌ إلا انهتك، ولا مستورٌ إلا افتضح، فبودرَ قبل بداره، وعوجلَ قبل حذاره، وصارَ إفشاء سرِّه أنكى فيه من مكرِ عدوِّه؛ لأنَّه إنَّ اختصَّ بإفشاء سرِّه اختصَّ بما قدَّمناه من ضرِّه، وإنَّ كانَ مستودعا عنده لغيره صارَ مستودعه بعد المودَّة عدوًّا يطلبُ نازره، ويستقبلُ نفازه.

قال الشاعر: ^(١) [من الطويل]

فلا تأمِّنْ الدهرَ حرًّا ظلمته
فما ليلُ مظلومٍ كريمٍ بنائمه ^(٢)
ولهذا الحذرِ تواصى به الناسُ حزمًا وعزمًا، واتفقوا عليه قولاً وعملاً. (١٩آ)
حكى أنَّه تذاكرَ ناسٌ من أهل الفضلِ كتمانَ السرِّ في مجلسِ
عبدِ الله بن طاهر ^(٣)، فقال عبدُ الله بنُ طاهرٍ:
ومستودعي ^(٤)؛ سرًّا تضمَّنْتُ سرُّه ^(٥)
فأودعته في مستقرِّ الحشا قبرا

(١) قوله «قال الشاعر» قلت هو عمرو بن بركة الهمداني أو ابن براق، وهو أحد عدائي العرب وشعرائهم الشجعان الفاتكين، ذكره تَابُطُ شراً في قصيدته الأولى من المفضليات بقوله:

ليلة صاحوا وأغروا بي سراهم بالعيكيتين لدى معدي بن براق

وبراقة أمة، انظر بعضاً من أخباره وأشعاره في الأغاني ١١٣/٢١ والزهرة ٣٥٧/٢، والوحشيات ٣١، والسمط ٧٤٩، والبيان والتبيين ١٣٨/٢، وحماسة ابن الشجري ٢١٠/١.

(٢) قول الشاعر: «فلا تأمِّنْ الدهر...» ذكر الماوردي هذا البيت في الأمثال والحكم الورقة ٥٣ منسوباً إلى عمرو بن بركة الهمداني ولم ينسبه في أدب الوزير ص ١٦ إلى قائل.

(٣) عبد الله بن طاهر مرت ترجمته (ص ٣٩) وقد وردت العبارة في ط على الصورة التالية حكى أن بعض الناس تذاكر ذات يوم في مجلس عبد الله بن طاهر كتمان السر وحفظه من الإداعة والنشر فقال عبد الله... ط. فمستودعي.

(٤) غ. فمستودعي. (٥) غ. ستره والتصحيح من ط ومصادر التخريج.

فَقَالَ ابْنُهُ عبيدُ اللَّهِ^(١):

وما السرُّ في قلبي كشاًو بقبره
لأنني أرى المقبورَ ينتظرُ النُّشْرَا
ولكنني أخفيه حتى كأنني
من الدهر يوماً ما أحطتُ به خُبْرَا^(٢)

(١) عبيد الله بن عبد الله بن طاهر الخزاعي - أبو أحمد - صاحب شرطة بغداد زمن المأمون والأديب ذو التأليف الكثيرة منها الإشارة في أخبار الشعر ورسائله في السياسة الملوكية، وكتاب مراسلاته لعبد الله بن المعتز، وكتاب البراعة والفصاحة، وله ديوان شعر. ولد سنة ٢٢٣هـ وتوفي سنة ٣٠٠هـ ببغداد ودفن بمقابر قریش، وقد كان حسن الترسل لطيف الشعر حسن المقاصد جيد السبك انظر ترجمته في الأغاني ٤٢/٨ - ٤٦، الفهرست ١٧٦ وفيات الأعيان ٣٠٤/٢ - ٣٠٦ رقم الترجمة ٣٣١، علم التاريخ عند المسلمين (ترجمة الدكتور صالح العلي) ٢٩٣ وانظر بعض أقواله في التمثيل والمحاضرة ١٠٣، ١٤٨، ١٨٣، ٤٣٠، ثمار القلوب ٢٠٩، ٢٩٢، ٥٧٦، ٦١١، ٦٣٤، ٦٤٦، ٦٦٦، ٦٩٣، وسترد له أبيات أخرى في هذا الكتاب إن شاء الله.

(٢) الأبيات أوردها المؤلف في أدب الدنيا والدين (ص. ٢٨٢) باضطراب، إذ قدم الثالث على الثاني، وإنها كلها من قول ابنه أعني عبيد الله وفيها (... من مستقر... في قلبي كميت بحفرة لأنني أرى المدفون... أخفيه عني...) وبالنظر لحصول هذا الاضطراب في طباعت أدب الدنيا والدين فقد قال المرحوم الشيخ مصطفى السقا في حاشية ص. ٢٨٢ منه ما يلي: «في هامش [الطبعة] الأميرية عند هذا الموضع بقلم المرحوم العلامة الأستاذ الشيخ أحمد إبراهيم ما نصه: لا يخفى ما في هذه الأبيات من الاضطراب وعدم التماسك، والرواية الصحيحة ما ذكره الصفدي في شرح لامية المعجم نقلاً عن صاحب هذا الكتاب، قال ما نصه: وحكي الماوردي أن عبد الله بن طاهر تذاكر الناس في مجلسه حفظ السر، فقال: ومستودعي سرّاً تضمنت سرّه فأودعته من مستقر الحشا قبراً فقال ابنه وهو صبي:

وما السر في قلبي كشاًو بحفرة لأنني أرى المدفون ينتظر الحشرا
ولكنني أخفيه عني كأنني من الدهر يوماً ما أحطت به خبرا
(حاشية أدب الدنيا والدين ٢٨٢) والظاهر أن الصفدي نقلها من كتاب تسهيل النظر هذا أو من نسخة قديمة من كتاب أدب الدنيا والدين لم تتلاعب بها أوهام النساخ.
ولقد أورد الأمير أسامة بن منقذ البيتين الثاني والثالث ونسبها إلى عبد الله بن طاهر وفيه (... لأنني رأيت الميت ينتظر النشرا) و (... بما كان منه لم أحط ساعة خبراً) (لباب الأدب ٢٤١) وأورد الغزالي هذه الأبيات ونسب الأول لابن المعتز ولم ينسب البيتين إلى أحد بل رواهما بزيادة بيت ثالث (انظر إحياء علوم الدين ١٧٩/٢).

[من يستودع السرّ]:

واعلم أنّ من [الأسرار ما] ^(١) لا يستغنى فيها عن مطالعة خليط ^(٢) مساهم، واستشارة ناصح مسالم، فليختر لها أميناً، فإنّ الركون إلى حسن الظنّ ذريعة إلى إفشاء السرّ، وأكثر ما يؤتى العاقل في أسرارِهِ من حسن ظنّه واغتراره؛ فليس كلّ من كان على الأموال أميناً يجب أن يكون على الأسرار مؤتمناً، والعفة عن الأموال أيسر من العفة عن إذاعة الأسرار؛ لأنّ الإنسان قد يذيع سرّ نفسه بمبادرة لسانه، وسقط كلامه، ويشحّ باليسير ^(٣) من ماله ضئلاً به، وحفظاً له، ولا يرى ما أضاع من سرّه كبيراً ^(٤)، في جنب ما حفظه من يسير ماله، مع عظم ^(٥) الضرر الداخل عليه؛ فمن أجل ذلك كان أمناء الأسرار أشدّ تعذراً، وأقلّ وجوداً من أمناء الأموال.

ولذلك علتان:

أحدهما: أنّ الضرر في إضاعة الأموال عاجل، والضرر في إذاعة الأسرار آجل، ونفس الإنسان موكلة بالأذى، وإنّ حلّ ما مضى.

والثانية: أنّ السرّ سهل الخروج مع البروز لا يوجد لإذاعته مس، فهو ينطلق إن لم يحفظه حزم، ولا يقهره عزم، والمال صعب المنطلق ^(٦)، وثيق المجمع، لا يبدو إلاّ بسماحة نفس، يتقابل فيها الشحّ والسخاء، وترجّح فيها المنع والعطاء؛ وفرق بين ما هو مبذول إلاّ بمانع، وبين ما هو ممنوع إلاّ بياذل.

(١) الريادة من أدب الدنيا والدين ص. ٢٨٠ وفيه هذا الكلام بنصه.

(٢) في أدب الدنيا والدين ص. ٢٨٠: (مطالعة صديق).

(٣) غ: (ويشع على اليسير) والتصحيح من أدب الدنيا والدين ٢٨٠.

(٤) غ: (كثيراً) والتصحيح من أدب الدنيا والدين ٢٨٠.

(٥) غ: (عظيم) والتصحيح من أدب الدنيا والدين ٢٨٠.

(٦) غ: المطلق.

وإذا كَانَ أَمْناءَ الأسرارِ بهذا العوزِ تَلَوَّ (١) قَبْلَ الاختِبارِ (١٩ب) حتَّى يظفَرُ بمن تصفو ضمائرُهُ، وتسلمُ سرَّائِرُهُ؛ ليقَلَّ حَذَرُهُ، وإنَّ لم يَسلَمْ من الحذرِ؛ لأنَّهُ مستسلمٌ، والاستسلامُ غررٌ (٢)، وقد قال النبيُّ عليه السلامُ: «احذرْ ممنْ تَتَقَّى بهِ كأنَّكَ تحذرُ ممنْ لا تَتَقَّى بهِ» (٣).

[التحفظ في إيداع السر]:

فإذا ظفَرَ بهذا الأمينِ المعوزِ، أودعَهُ سرَّهُ إيداعَ متحرِّزٍ متحفِظٍ، فإنَّ وجدَهُ متطلِّعاً إليه ومؤثراً (٤) للوقوفِ عليه، حذرَهُ وتوقَّاهُ؛ فإنَّ طالبَ الوديعةِ خائنٌ، ومستدعي الأمانةِ ظنينٌ.

قالَ الشاعرُ (٥): [من الرمل]

لا تُذِغْ سراً إلى طالِبِهِ
إنَّما الطالبُ للسرِّ مُذِيعٌ (٦)

(١) غ: ملوم، والتلوم: الانتظار والتمكث.

(٢) من صفات أمين السر قال الماوردي: «أن يكون ذا عقل صاد، ودين حازم، ونصح مبدول، وود موفور، وكتوماً بالطبع، فإن هذه الأمور تمنع من الإذاعة، وتوجب حفظ الأمانة؛ فمن كملت فيه فهو عتقاء مغرب» أي لا وجود له (انظر أدب الدنيا والدين ص. ٢٨٠).

(٣) حديث «احذر من تتق به كأنك تحذر ممن لا تتق به» أورده الماوردي في الأمثال والحكم الورقة ٦٢ ب بلفظ «احذر من تتق به فإنك...» ولم يذكر راويه.

(٤) ع. ومونورا.

(٥) قوله: «قال الشاعر» قلت هو صالح بن عبد القدوس - أبو الفضل البصري، أحد شعراء اتهمه المهدي بالزندقة فأمر بقتله مع إعجابه بغزارة أدبه وعلمه وبراعته وحسن بيته وكثرة حكمته وذلك في سنة ١٦٧هـ وديوانه مطبوع مع الدراسة التي قدمها له عبد الله الخطيب بالبصرة ١٩٦٧ انظر أخباره في تاريخ بغداد ٣٠٣/٩، قوات الوفيات ٣٩١/١، معجم الأدباء ٦/١٢ نكت الهميان ١٧١، رسالة الغفران ٣١، طبقات الشعراء لأن المعتر ص. ٩٠. ميزان الاعتدال ٢/٢٩٧ رقم الترجمة ٣٨١٠.

(٦) البيت: «لا تذغ سراً...» أورده الماوردي في أدب الدنيا والدين (ص. ٢٨١) بلفظ «... منك فالطالب للسر مذيع» ونسبه إلى صالح بن عبد القدوس، وانظره في ديوان

ثم لا فسحة في إبداء الأسرار مع الاضطرار إلا لمستشير؛ ليأمن عثارها، ويتوقى أخطارها.

ويسرّها إلى المستشار بالكناية دون الصريح، ويشير إليها بالتعريض دون الفصيح؛ إذا كانت أحوال التعريض ممكنة، وشواهد الكناية فيها محتملة؛ ليأمن عواقب الإذاعة من ذوي الظنة، والاستطالة بالإدلال من ذوي^(١) العفة؛ فإن للزمان تغيراً، وللإخوان تنكراً.

قال بعض الحكماء:
من أفشى سرّه كثر عليه المتأمرون^(٢).

[وفي منشور الحكم]^(٣):
من ضاق صدره اتسع لسانه^(٤).

= صالح بن عبد القدوس (ص. ١١٩) بلفظ «... منك إن الطالب السر مذبح» ويعده بيت آخر هو قوله:

وأمت سرّك إنّ السر إن جاوز اثنين سينمى ويشيع
وهما بلفظ الديوان في لباب الآداب (٢٤٠) وحامسة البحر (٢٢٧) منسويين إليه فيهما وعنهما نقل جامع الديوان، وقد نثر الأبيه ونسبه إليه فجاء به بلفظ: «لا تودع سرّك إلى طالبه؛ فالطالب للسر مذبح ولا تودع مالك عند من يستدعيه؛ فالطالب للودعة خائن» (المستطرف ٢٠٨/١). وأورده الطرطوشي منسوباً إليه وهو فيه بلفظ «والطالب للسر مذبح» (سراج الملوك ١٠٥) والعرب تقول: «من ارتاد لسره موضعاً فقد أذاعه» (عيون الأخبار ٣٨/١).

- (١) غ: من ذي.
- (٢) قول بعض الحكماء: «من أفشى سرّه كثر عليه المتأمرون» تجده في أدب الدنيا والدين ٢٨١ بلفظه منسوباً لبعض الحكماء أيضاً، وسراج الملوك ١٠٤، وجميع الأمثال ٣٢٧/٢، وقد جعله من أمثال المولدين بلفظه «من أفشى سرّه كثر المتأمرون عليه».
- (٣) الزيادة من ط.
- (٤) قوله. «من ضاق صدره اتسع لسانه» أورده أبو حيان التوحيدي بلفظه ولم ينسبه لقائل (الإمتاع والمؤانسة ١٤٧/٢)، وأورده أبو أحمد الحسن بن سعيد العسكري بلفظ «من ضاق قلبه اتسع لسانه» ولم ينسبه لقائل (رسالته في التفضيل بين بلاغتي العرب والحكم ٢١٩) ومن أمثال العرب وحكمهم: «صدرك أوسع لسرك» (الحكمة الخالدة ١٩٨) و (التمثيل والمحاضرة ٣١٧) و (مجمع الأمثال ٣٩٦/١ رقم ٢٠٩٧) و (العقد الفريد ٨١/٣).

قال الشاعر^(١): [من الطويل]

إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه
فَصَدْرُ الَّذِي يُسْتَوْدَعُ السِّرَّ أَضْيَقُ^(٢)

[وقال بعض الشعراء^(٣) - من المقارب -

أَلَمْ تَرَ أَنَّ وِشَاءَ الرَّجَاءِ.....لِ لَا يَتْرَكُونَ أَدِيمًا صَحِيحًا

(١) قوله «قال الشاعر» قلت هو العتيبي: محمد بن عبيد الله من ولد عتبة بن أبي سفيان، كان هو وأبوه أدبيين فصيحين، وكان العتيبي شاعراً، أصيب بينين له فكان يرثيهم، وكان الأغلب عليه الأخبار، وأكثر أخباره في بني أمية وأيامهم توفي سنة ٢٢٨هـ له من الكتب: كتاب الحيل، كتاب الأعراب وأشعار النساء اللاتي أحبين ثم أبغضن، وكتاب الأخلاق. انظر ترجمته وشيئاً من أخباره في الفهرست ١٨٢، وفيات الأعيان ٥٢٢/١، المعارف (عكاشة) ٥٣٨، شذرات الذهب ٦٥/٢، المرزباني ٤٢٠، تاريخ بغداد ٣٢٤/٢، الأعلام ١٣٩/٧، وانظر مصادر التخريج.

(٢) البيت «إذا ضاق صدر المرء...» أتى به الماوردي بلفظه بعد بيت آخر هو:
إذا المرء أفشى سره بلسانه ولم عليه غيره فهو أحمق
دون أن ينسبها لقاتل، وذلك في كتابه أدب الدنيا والدين (٢٨٠)، وقد ورد البيت بلفظه مع خمسة أبيات أخرى منسوبة إلى العتيبي في المحاسن والأضداد للجاحظ (ص. ٣٣) والمحاسن والمساوي للبيهقي (٤٠٦/٢) والكامل للمبرد (٢١١/٢).

وربما كان الشاعر قد اقتبس من شاعر قبله بدليل قوله قبل هذا البيت:
وحسبك في ستر الأحاديث واصطفاً من القول ما قال الأريب الموفق
وقد ورد البيت «إذا ضاق...» غير منسوب في لباب الأرب (٢٤٠) ونهاية الأرب (٨١/٦) والمستطرف (٢٠٨/١) وسراج الملوك (١٠٤) والعقد الفريد (٧٧/١) وشرح نهج البلاغة (٣٧/٤).
ولعل البيت مأخوذ من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ما أفشيت سري إلى أحد قط فأفشاء فلمته إذ كان صدري به أضيق» أو من قول سقراط: «إذا ضاق صدرك بسرك فصدر غيرك أضيق» (نختار الحكم ١١٠) و (لباب الآداب ٢٤١) وقال عمرو بن العاص: «ما استودعت رجلاً سرّاً فأفشاء فلمته، لأنني كنت أضيق صدراً حين استودعته» وتتل:

إذا أنت لم تحفظ لنفسك سرها فسرك عند الناس أفشى وأضحى
(عيون الأخبار ٤٠/١) و (نهاية الأرب ٨١/٦، ٨٣) و (العقد الفريد ٧٦/١).

(٣) قوله. «قال بعض الشعراء» قلت هو النابغة الذبياني الشاعر المشهور وأحد أصحاب المعلقة، وصاحب الاعتذاريات انظر بعضاً من أخباره في الأغاني ١٥٤/٩ الشعر والشعراء ٣٨، شروح المعلقة، تاريخ الأدب العربي لبروكلمان - الترجمة العربية - ٨٨/١، الداب في تهذيب الأنساب ٥٢٨/١ وديوانه مطبوع في باريس وفي بيروت والقاهرة.

فلا تُفَشِّ سِرُّكَ إِلَّا إِلَيْكَ فَإِنَّ لِكُلِّ نَصِيحٍ نَصِيحًا^(١)
 قَالَ بَعْضُ الْبُلْغَاءِ^(٢):

إِذَا وَقَفْتَ الرِّعْيَةَ عَلَى أَسْرَارِ الْمُلُوكِ هَانَ عَلَيْهَا أَمْرُهَا.

وَلَا عُذْرَ لِمَنْ ظَفَرَ بِسِرٍّ لَمْ يُؤْمِنْ عَلَيْهِ أَنْ يَذِيعَهُ، كَمَا لَا عُذْرَ لِمَنْ ظَفَرَ
 بِمَالٍ لَمْ يُؤْتَمِنْ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَبِيحَهُ.

وَلِيَكُنْ فِي حِفْظِهِمَا عَلَى حَكْمِ الْمُؤْتَمَنِ، يَقْضِي عَلَى نَفْسِهِ (٢٠) فِي
 الْأَمَانَةِ بِالْوَفَاءِ وَفِي اللَّقْطِ وَالضُّوَالِ الشَّارِدَةِ بِالْأَدَاءِ.

وَمَا يَجِبُ عَلَى الْمَلِكِ أَنْ يَحْفَظَهُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ أَسْرَارِهَا أَنْ يَرُوضَهَا
 بِفَضْلِ حَزْمِهِ، وَيَأْخُذَهَا بِقُوَّةِ عَزْمِهِ، حَتَّى لَا يَظْهَرُ^(٣) فِي وَجْهِهِ إِمَارَةُ سَخَطِهِ
 وَلَا رِضَا، وَلَا يَعْرِفُ مِنْهُ آثَارُ حُزْنٍ وَلَا سُرُورٍ، فَيُظْهَرُ مَا فِي نَفْسِهِ
 وَهُوَ كَامِنٌ، وَيَنْمُ عَلَيْهِ وَهُوَ آمِنٌ، فَيُظَنُّ أَنَّهُ قَدْ كَتَمَ سِرَّهُ وَقَدْ ذَاعَ، وَطَوَى
 مَا فِي نَفْسِهِ وَقَدْ شَاعَ.

وَلِيَكُنْ مُتَشَاكِلَ الْأَحْوَالِ، مُتَمَاثِلَ الْأَوْصَافِ؛ لِيَكُونَ كَتُومَ النَّفْسِ، كَمَا
 كَانَ كَتُومَ اللِّسَانِ، وَلَا يَبْدُو مِنْ نَفْسِهِ مَا يَكْرَهُ أَنْ يَظْهَرَ عَلَى لِسَانِهِ، لِيَكْمَلَ
 كَتْمَانُ أَسْرَارِهِ فِي الْحَالِينِ.

وَأِنْ أَسْوَءَ الْعُيُوبِ حَالًا، وَأَظْهَرَهَا وَبَالًا، أَنْ يُعْرِفَ مَا فِي نَفْسِهِ مِنْ
 غَيْرِ اخْتِبَارِهِ؛ فَيَعْلَمَهُ الثِّقَةُ، وَالظَّنُّ، وَيَشْتَرِكُ فِيهِ الْخَائِنُ وَالْأَمِينُ،
 وَهُوَ لَوْ أَسْرَهُ إِلَى أَحَدٍ فَادَّاعَاهُ لَاسْتَكْبَرَهُ مِنْهُ، وَلَرَأَى فِي مُوجِبِ السِّيَاسَةِ

(١) قوله: «ألم تر أن وشاة الرجال... إلخ» البيهقي زيادة من (ط) وفيها (... لا يدعون) والنصحيح من مصادر التخريج وهما للتأبغة كما قلنا إلا أنها ليسا في ديوانه، وقد وردا منسوبين إليه في كتاب الزهرة ٢/٢٦٥ وقد رجح محققه الدكتور إبراهيم السامرائي والدكتور موري حمودي القيسي أنها ليسا له (انظر كتاب الزهرة لأبي بكر محمد بن داود الأصبهاني - القسم الثاني ص. ٢٦٥ وفي حاشيتها تخريج البيهقي ومطابق وجودهما فلتراجع هناك) وقد أوردهما الماوردي في أدب الدنيا والدين منسوبين إلى أنس بن أسيد، بتقديم الثاني على الأول بلفظ «ولا تفش» فلإني رأيت وشاة...»

(٢) ط: قال بعض الحكماء.

(٣) حتى لا يظهر بضم الراء على أن (حتى) عاطفة.

ومقتضى الحزم أن يؤاخذَهُ به، ويعاقبَهُ عليه. فكيف يرضى من نفسه ما يستكرهُ من غيره؟ ويتسامح [في] ما يعاقبُ عليه؟ كلا. ولئن كانَ مرأته صعباً، فهو سهلٌ على من ساعدَهُ الطبعُ، ثم على من تطبّع به عند نفور الطبع، فيصيرُ طبعاً وتطبعاً سهلٌ على ذي الحزم إذا صادفَ عزمًا؛ فإنَّ الكرهَ سهلٌ بالمروءِ عليه.

فإذا ضبطَ من نفسه ما ينكرُ آثاره، ويُنمُّ أسرارَهُ كانَ أفضلَ حزمًا، وأقوى عزمًا، ممن كتمَ سرَّهُ بلسانه، فإذا ساعدَهُ الأمرانِ لم ينمَّ له سرٌّ، ولم يعرفَ له غَوْرٌ.



[الفصل الثاني عشر]

[المشورة]

[فوائد المشورة]:

وينبغي للملك أن لا يمضي الأمور المستبهمة بهاجس رأيه، ولا ينفذ عزائمه المحتملة ببداهة فكره؛ تحرّزاً من إفشاء سرّه، وأنفة من الاستعانة بغيره، حتى يشاور ذوي الأحلام والنهى، ويستطلع برأي ذوي الأمانة والتقوى (٢٠ ب) ممّن حنكتهم التجارب، فارتاضوا بها، وعرفوا موارد الأمور [و] حقائق مصادرها؛ فإنه ربما كان استبداده برأيه أضّر عليه من إذاعة سرّه، وليس كل الأمور أسراراً^(١) مكتومة، ولا الأسرار المكتومة بمشاورة النصحاء فاشية معلومة.

قال النبي عليه السلام

«ما سعد أحد برأيه ولا شقى عن مشورة»^(٢)وقال لمعاذ بن جبل^(٣):

«استشر، فإنّ المستشار معان، والمستشار مؤتمن، واحذر الهوى،

فإنّه قائد الأشقياء»^(٤)

(١) غ: أسرار.

(٢) حديث «ما سعد أحد برأيه ولا شقى عن مشورة» أصبح معناه مثلاً من الأمثال وقد جاء في أمثال أبي عبيد «ما هلك أحد عن مشورة» (ص ١٤) وأدب الدنيا والدين ٢٧٥ ورواه البيهقي في شعب الإيمان عن سعيد بن المسيب رسلاً (الجامع الصغير ٢ / ٢١).

(٣) معاذ بن جبل الصحابي الجليل شهد المشاهد كلها مع الرسول صلى الله عليه وسلم وبعثه صلى الله عليه وسلم قاضياً إلى اليمن، توفي في طاعون عمواس بالأردن سنة ١٨ هـ وله خمس وثلاثون سنة تقريباً، انظر الإصابة ٣ / ٤٠٦ رقم ٨٠٣٩، الاستيعاب ٣ / ٣٣٥، أسد الغابة ٥ / ١٩٤ رقم ٤٩٥٣، تذكرة الحفاظ ١ / ١٩ رقم ٨، أدب القاضي للماوردي ١ / ١٣٢ هامش.

(٤) حديث «استشر فإنّ المستشار معان والمستشار مؤتمن» رواه أبو داود عن أبي هريرة (سنن ٤ / ٣٣٣ رقم ٥١٢٨) والدارمي عن أبي مسعود الأنصاري (سنن الدارمي ٢ / ٢١٩) والترمذي عن أم سلمة وابن مسعود وأبي هريرة وابن عمر (ح ٤ ص ٢٠٧-٢٠٨ رقم ٢٩٧٦، ٢٩٧٧) وقد رواه بقية الأربعة والطبراني في الأوسط وفي الكبير بحديث حسن.

وقد قيل:

الاستشارة عين الهداية، وقد خاطر من استغنى برأيه^(١).

قال بعض الحكماء:

حق على العاقل أن يضيف إلى رأيه آراء العلماء، ويجمع إلى عقله عقول الحكماء، فالرأي الفذ^(٢) ربما زل، والعقل الفرد ربما ضل^(٣).

ويعتمد على استشارة من صلاحه [يكون] موصولاً بصلاحه^(٤)، إذا كان عرياناً من الهوى؛ [فالهوى] مخدعة الألباب، ومضلة الصواب.

= (الجامع الصغير/ ٢/ ١٨٦) وأحمد (مسند أحمد/ ٢٧٤) وقد رواه الماوردي عن سهل بن يوسف عن أبيه عن عبيد بن صخر قال: قال رسول الله (ص) لمعاذ... في الأمثال والحكم الورقة ٥٥ وفي أدب الدنيا والدين عن محمد بن المنكدر عن عائشة (ص) (٢٧٨). وقوله: «المستشير معان والمستشار مؤمن» أحد الأمثال التي قالها النبي صلى الله عليه وسلم فانظره في التمثيل والمحاضرة ٢٨، والإيجاز والإعجاز ٧، ولباب الآداب ٣٣٣.

(١) قوله: وقد قيل: الاستشارة عين الهداية... انظره في أدب الدنيا والدين بلفظه مصدراً بقوله: «قال بعض الحكماء» وقد ورد من أقوال علي رضي الله عنه «قد خاطر من استغنى برأيه» (كتاب ٢٠٠٠ كلمة ص ٧٧ رقم ١٨١١) بينما جعله ابن الأثير من ضمن أمثال المولدين بلفظ «خاطر من استغنى برأيه» انظر مجمع الأمثال ١/ ٢٦٢ وفي أقوال الحكيم أرسطوطاليس: «إذا استبد الملك برأيه عميت عليه المرشدة» (لباب الآداب ٦٧) وبلغف «ومن استبد برأيه خضت وطاقته على أعدائه» (ص ٦٨) وقد مر قولهم «من استعان بالرأي ملك...» وسيرد قولهم «من استغنى برأيه ضل...».

(٢) غ: الفرد والتصحيح من ط ومن كتب التخريج والفذ: الفرد.

(٣) قول بعض الحكماء: «حق على العاقل أن يضيف...» أورده الأمير أسامة بن منقذ ضمن أقوال الحكيم أرسطوطاليس بلفظ: «الكسل يمنع من الطلب، والفشل يدفع إلى العطب، ومن حق العاقل أن يضيف إلى آرائه العلماء، ويجمع إلى عقله الحكماء، ويدعم الاسترشاد بترك الاستبداد فالرأي الفذ ربما زل والعقل الفذ ربما ضل» (لباب الآداب ٦١)، وتجد القول في أدب الدنيا والدين بلفظ «من حق العاقل...» ربما ينسب إلى علي رضي الله عنه قوله: «شاوَر ذوي العقول تأمن من الزلل والقدم» (غرر الحكم ١٩٩) وقوله: «قد يزل الرأي الفذ وقد يضل العقل الفذ» (غرر الحكم ٢٣١)، وقد ورد القول في ط بلفظ: «من حق العاقل...».

(٤) ذكر الماوردي في أدب الدنيا والدين أن هناك خصلاً للمشير عددها فقال: «فإذا عزم على المشاورة ارتاد لها من أهلها من قد استكملت فيه خمس خصال: إحداهن: عقل كامل، مع تجربة سالقة، فإنه بكثرة التجارب تصبح الروية... والثانية: أن يكون ذا دين وتقى، فإن =

والعداوة تصدُّ عن النصيح والإنصاف، وتبعثُ على الغش والإجحاف، ولا يصحُّ مع أحدٍ هذين رأيٍ لمشير، ولا يخلصُ فيهما.

قال النبي عليه السلام:

«حُبُّكَ الشَّيْءَ يعمي ويصمُّ»^(١)

أي يعمي عن الرشيد، ويصمُّ عن الموعظة^(٢).

وكذلك حالُّ البغض الذي هو ضده، لأنها خروجٌ من العدل إلى تفصيل

أو سرف.

= ذلك عماد كل صلاح وباب كل نجاح... والثالثة: أن يكون ناصحاً وودواً فإن النصيح والمودة يصدقان الفكرة ويحضنان الرأي... والرابعة: أن يكون سليم الفكر من هم قاطع، وغم شافل، فإن من عارضت فكره شوائب المموم لا يسلم له رأي ولا يستقيم له خاطر... والخامسة: ألا يكون له في الأمر المستشار غرض يتابعه، ولا هوى يساعده، فإن الأغراض جاذبة والهوى صاذ، والرأي إذا عارضه الهوى وجاذبته الأغراض فسد... (ص ٢٧٤-٢٧٥).

(١) في غ وط: حبك للشئ والتصحيح من الأمثال والحكم وأدب الدنيا والدين ومصادر التخريج.

وحدث «حبك الشئ يعمي ويصم» رواه أبو داود عن أبي الدرداء (سنن ٣٣٤ / ٤ رقم ٥١٣٠) ورواه أحمد مرفوعاً وموقوفاً (مسند الإمام أحمد ٥ / ١٦٤، ٦ / ٤٥٠) قال ابن حجر تعليقاً على رواية أحمد له: «والموقوف أشبه، قاله المنذري، وفي سننه أبو بكر بن أبي مريم وهو شامي صدوق طرقة لصوص ففرع فتغير عقله فعدوه في من اختلط (انظر أجوبة عن أحاديث وقعت في مصابيح السنة ووصفت بالوضع - ملحقة بآخر مشكاة المصابيح ٣ / ٣١١) وهو في مصابيح السنة (مشكاة المصابيح ٢ / ٥٩٥ رقم ٤٩٠٨) ورواه عنه البخاري في التاريخ، والخرائطي في اعتلال القلوب عن أبي برزة وابن عساكر عن عبد الله بن أنيس في حديث حسن (الجامع الصغير ١ / ١٤٦) ورواه العسكري وغيره وفي إسناده كلام (المقاصد الحسنة ١٨١ رقم ٣٨١) و(كشف الخفاء ١ / ٤١٠ رقم ١٠٩٥) وقد رواه الماوردي في الأمثال والحكم (الورقة ١١٥) وأدب الدنيا والدين (ص ٢١) وأدب الوزير (ص ٢٤) وأورده الغزالي في نصيحة الملوك (ص ٦٧) وهو مثل من الأمثال السائرة (مجمع الأمثال ١ / ١٩٦ رقم المثل ١٠٣٧) و(أمثال أبي عبيد ص ١٤) والفاضل (١٢٢) والأمثال لأبي محمد س أحمد البساک (ص ٥٧) والمثل للمقارن (٩٦) وآداب النفس (١٧) وهو من أمثال العشق والعشاق في التمثيل والمحاضرة (٢٠٩).

(٢) قوله «أي يعمي عن الرشيد ويصم عن الموعظة» هو اللفظ نفسه الذي فسر به الحديث في أدب الدنيا والدين (ص ٢١) وقال العسكري: «إن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن من الحب ما يعميك عن طريق الرشيد ويصمك عن استماع الحق، وإن كان إذا غلب الحب =

وإذا ظفر بالرأي ممن لا يراه للمشورة أهلاً أخفاه، حتى لا يتخطى عليه غير أهله، ولم يستكف من العمل به؛ فإن القرائح ليست على قدر الأخطار والرتب، وإنما هي ذخائر مستودعة فيمن منحها من نبيه وخامل؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم:

«الناس معادن كمعادن الذهب والفضة»^(١)

فلا يتصور قبح الحاجة إلى رأي من قل، فليس يراؤ للمباهاة والافتخار، فتلتبس فيه أعيان ذوي الأخطار، وإنما يراؤ للصواب والانتفاع كالضالة (٢١ آ) لا يمنعه من أخذها مهانة ملتقطها، وكاللؤلؤة لا يمنعه من لبسها ذلة غائصها، وكفى بالإنسان سعادة أن تسهل عليه المطالب، فيدرك مراده بأهون سعي، وأقل عناء.

وليس عليه إذا عمل بالرأي أن يعزیه^(٢) إلى قائله، وينسبه إلى صاحبه فيوتهن بمهانتة، ويعاب بذلتة، وإنما يتنبه به على صواب ما يأتي وسداد ما يريد.

= على قلبه ولم يكن له رادع من عقل أو دين أصمه حبه عن العذل وأعماه [عن] الرشد... وقال ثعلب: معناه أن العي تعمى عن النظر إلى مساويه، وتصم الأذن عن استماع العذل فيه... وقيل معناه: يعمي ويصم عن الآخرة (كشف الخفاء ١ / ٤١١)، (والمقاصد الحسنة ١٨١) وقال ابن حجر: «ومعنى هذا الحديث أنه خبر يراؤ به النبي عن اتباع الهوى؛ فإنه من يفعل ذلك لا يصير قبيح ما يفعله، ولا يسمع نصيح من يرشده، وإنما يقع ذلك لمن لم يفتقد أحوال نفسه والله أعلم» (أجوبة عن أحاديث وقعت في مصابيح السنة ووصفت بالوضع ملحقة بكتاب مشكاة المصابيح ٣ / ٣١١) وقال أبو الوفاء محمد بن أحمد البساک: «يعني يخفي عليك من مساوئه، ويصم أذنك عن سماع العذل فيه» (الأمثال ص ٥٧).

(١) حديث «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة» رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة بلفظه غير أنه قدم الفضة على الذهب، وفيه زيادة هي «خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، والأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف» (صحيح مسلم شرح النووي ١٦ / ١٨٥) ورواه أبو دواد (جامع الأصول ٧ / ٣٥٩ رقم ٤٧٨٧) والإمام أحمد (المسند ٢ / ٥٣٩) والعسكري (المقاصد الحسنة ٤٤١ رقم ١٢٣٨) وللديلمي عن ابن عباس (كشف الخفاء ٢ / ٤٣٢ رقم ٢٧٩٣) والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس (الجامع الصغير ٢ / ١٨٨) وقد رواه الماوردي في الأمثال والحكم (الورقة ١٠٦ب)، وهو مثل من الأمثال السائرة (التمثيل والمحاضرة ٢٣) و(مجمع الأمثال ٢ / ٤٤٩).

(٢) يعزیه: ينسبه من باب عدا ورمى.

وقد روي عن النبي عليه السلام أنه قال:
«كلمة الحكمة ضالة الحكيم حيث ما وجدها فهو أحقُّ بها»^(١)

قال بعضُ البلغاء:

من كمالِ عقلِكَ استظهارُكَ على عقلِكَ^(٢).

وقال بعضُ البلغاء: [٣]

إذا أشكلت^(٤) عليك الأمور، وتغيرَ لك^(٥) الجمهور، فارجعْ إلى رأي.

(١) حديث «كلمة الحكمة ضالة حيث ما وجدها فهو أحق بها» رواه ابن ماجه عن أبي هريرة بلفظ: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن حيث ما وجدها فهو أحق بها» (سنن ١٣٩٥ / ٢) رقم الحديث ٤١٦٩) وقوله: الكلمة الحكمة أي ذات الحكمة. ورواه الترمذي عن أبي هريرة أيضاً بلفظ: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، فحيث ما وجدها فهو أحق بها» قال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإبراهيم بن الفضل المخزومي ضعيف في الحديث» (سنن ١٥٥ / ٤) رقم الحديث ٢٨٢٨)، وقد رواه ابن عساكر عن علي في حديث حسن بلفظ «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها» (الجامع الصغير ٢ / ٩٨)، وقد رواه البيهقي في المدخل والمسكري من حديث إبراهيم بن الفضل عن سعيد المقبري عن أبي هريرة، ولفظ العسكري والقضاعي: «كلمة الحكمة ضالة كل حكيم، فإذا وجدها فهو أحق بها» وقد روي بالفاظ أخرى (انظر المقاصد الحسنة ١٩١ رقم ٤١٥) و(كشف الخفاء ٤٣٥ / ١) رقم ١١٥٩)، وقد ورد شطر الحديث في أمثال أبي عبيد (ص ٥) وجمع الأمثال (١ / ٢١٤ رقم ١١٥٢) والإيجاز والإعجاز (ص ٧) ولباب الأدب (ص ٤٢٢) وفي رسالة أبي أحمد الحسين بن عبد الله بن سعيد العسكري في التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم (ص ٢٢٠) والتمثيل والمحاضرة (ص ٢٥) وغرر الحكم (ص ٢٠٥، ١٧٤، ٤٣) وكتاب ٢٠٠٠ كلمة (ص ٥٥ رقم ١٢٢٦) وكتاب مشكاة لمصابيح (١ / ٧٥ رقم الحديث ٢١٦) والأمثال والحكم (الورقة ٨ب).

(٢) قول بعض البلغاء «من كمال عقلِكَ استظهارُكَ على عقلِكَ» أورده عبد الواحد الأمدي بلفظه ونسبه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه (غرر الحكم ٣٠٦) وأورد من أقواله قوله: «العاقلي من اتهم عقله، ولم يبق بكل ما تسول له نفسه» (ص ٤٤) وأورده أبو الحسن الرحجي دون نسبة إلى أحد بلفظ: «من كمال عقلِكَ استظهارُكَ على أملك» (أحاسن المحاسن ص ١٦٥).

(٣) الزيادة من ط ومن أدب الدنيا والدين.

(٤) غ: اشتكلت وما أثبتته عن ط وأدب الدنيا والدين.

(٥) غ: وتغير عليك وما أثبتته عن ط وأدب الدنيا والدين.

العقلاء، وافزع إلى استشارة العلماء، ولا تأتف من الاسترشاد، ولا تستكف من الاستمداد؛ فلأن تسأل وتسلم خير من أن تستبد وتندم^(١).

قال بعض العلماء:

من استغنى برأيه ضل، ومن اكتفى بعقله زل^(٢).

وإذا لم يأتِ الرأي عفواً، ولا وصل إليه من غيره تبرعاً، أكثر من استشارة ذوي الألباب، ولا سيما في الأمر الجليل، والخطب المستبهم، فإن لكل عقل ذخيرة من الصواب، وحظاً من التدبير، ولقل ما فضل عن الجماعة رأي لا يعرف صوابه، ويشكل عليهم أمر لا يفهم جوابه.

وليكن أهل المشورة متصافين في المحبة، براء من عداوة أو بغضة؛ ليعرف كل واحد منهم لصاحبه بالصواب إذا ظفر به، ولا يبعثه الحسد والعناد على رده؛ فإن تعاندوا شغلهم العناد عن الاجتهاد، فلن يحفظوا برأي، ولم يظفروا بصواب، لالتباس الرأي بنفور العناد.

وينبغي أن يجمعهم على المشورة في (٢١ ب) بديهية الرأي؛ ليجتهد

(١) قول بعض البلغاء «إذا أشكلت عليك الأمور...» أورده الأمير أسامة بن منقذ ضمن أقوال الحكيم أرسطوطاليس في كلام طويل وقد جاء هذا القول بلفظه وفيه «... إلى استشارة النصحاء...» (لباب الآداب ٦٩) والقول بلفظه في أدب الدنيا والدين ٢٧٦.

(٢) غ: بعقله ضل. والتصحيح من أدب الدنيا والدين والأمثال والحكم وكتب التحريج..
وقول بعض العلماء: «من استغنى برأيه ضل، ومن اكتفى بعقله زل» أورده المؤلف في أدب الدنيا والدين (ص ٢٧٦) مصدراً بقوله: «وقال بعض الأدباء» وغير منسوب في الأمثال والحكم (الورقة ٦٩) بلفظ: «من استغنى برأيه ذل ومن اكتفى بعقله زل»، وأورده ابن مسكويه ضمن حكم العرب وأمثالها بلفظ: «من استغنى بعقل نفسه اختل، ومن أعجب برأيه ضل» (الحكمة الخالدة ١٩٨) ومن أقوال علي: «من ملكه هواه ضل، ومن ملكه الطمع دل» (غرر الحكم ٢٦٤) و«من أطاع ربه ملك ومن أطاع هواه هلك» (٢٦٥) ومن استغنى بعقله ضل، ومن استبد برأيه زل» (ص ٢٦٩) وقد ورد هذا القول بلفظ «من أعجب برأيه ضل ومن استغنى بعقله زل، ومن تكبر على الناس ذل» (سراج الملوك ص ٢٨)، وأورده الميداني ضمن أمثال المولدين بلفظ «من أعجب برأيه ضل ومن استغنى بعلمه زل» (مجمع الأمثال ٢ / ٣٢٧ و ٤٥٨)، ومن أمثال العجم: «خاطر من استغنى برأيه» (خاص الخاص ١٧) والإمتاع والمؤانسة ٢ / ١٥٠.

كل واحد منهم رأيه، ويستكمل خاطره؛ ليتخصّص برتبة المجيب، ويجمع في حظوة المصيب.

فإن اجتمعوا في ابتداء الرأي كانوا فيه بين أمرين:

إما أن يقوّدهم أول رأي منهم إلى متابعتهم، فيصيروا مفوضين لرأي واحد قلّدوه، وهم أكفاء، وتابعوه وهم نظراء.

وإما أن يختلفوا؛ فيتنابدوا، ويتشاكل كل واحد منهم بنصرة رأيه، حقاً كان أو باطلاً؛ فيخرج بالمناظرة عن حكم المجتهد، والمناظرة عن حكم المتأيد.

وكما أن الأصوب إفرادهم في ابتداء الرأي، فكذلك الأصوب أن لا يطلع بعضهم على استشارة بعض؛ ليجتهد كل واحد منهم فكره، ويستنفذ^(١) وسعته، حتى إن حظي بدرك الصواب، تخصص برتبة التعويل، وتميّز بنهاية القبول.

وليكن - مع ذلك - غير وإن في الفكر، ولا مقصّر في الارتقاء، تعويلاً على رأي من شاوره؛ لئلا يصير في الرأي مفوضاً، وفي الأمر مقلداً.

[مباحثة ذوي الرأي]:

قال بعض الحكماء:

الاستسلام إلى رأي المشير هو العدل الخفي^(٢).

وإذا أظهروا كوامل آرائهم، عرضها على عقله، وسبّرها^(٣) بفكره، وتصفّح مبادئها وعواقبها، وسألهم عن أسبابها ونتائجها، وباحتهم عن أصولها وفروعها سؤال منصف لا متعنت، وطالب للصواب، لا للرد، ليستوضح الحق من الباطل، ويعلم الصحيح من الفاسد، ولا ييدي لهم رأيه إن خالفهم، ولا أنه يأخذ به ويعمل عليه إن وافقهم؛ ليجري الأمر على

(١) غ: ويستفد.

(٢) ط: الغزل الخفي.

(٣) غ: سبّرها.

استبهامه، حتى يعمل به، ليظهر بالفعل دون العزم، ليستفيد بذلك أربع خصال^(١):

إحداهن: صواب رأيه وصحة رويته.
والثانية: معرفة عقل المشير وصواب رأيه.
والثالثة: وضوح ما استعجم (٢٢ آ) من الرأي، وانفتاح ما استغلق من الصواب.

والرابعة: طي عزمه عن الإشاعة، والتحرز فيه من خطر الإشاعة.
فإذا تقرر له الرأي الذي لا يخالطه فيه ارتياب، ولا تعارضه فيه شبهة أمضاء، ولم يؤاخذهم بعواقب الإكداء ودرك الزلل، فإنما على الناصح الاجتهاد، وليس عليه ضمان النجح، لأن أقضية الله خافية، وأقداره غالبية لا يدفعها رأي مجتهد، ولا يصد عنها روية ناصح، فلم يتوجه إليه لوم إن أكدى، ولم يقدح فيه ذم إن أخطأ.

قال بعض الحكماء:
الحوائج تطلب بالعناء، وتترك بالقضاء^(٢).

قال الشاعر^(٣) [من الطويل]

(١) قوله: «أربع خصال» ذكر في أدب الدنيا والدين أنه «يستفيد بذلك-مع ارتياضه بالاجتهاد- ثلاث خصال:

إحداهن: معرفة عقله وصحة رويته.

والثانية: معرفة عقل صاحبه وصواب رأيه.

والثالثة: وضوح ما استعجم من الرأي، وانفتاح ما أغلق من الصواب» (أدب الدنيا والدين ٢٧٧).

(٢) قول بعض الحكماء: «الحوائج تطلب بالعناء، وتترك بالقضاء» أورده الماوردي بلفظه قائلاً: «قيل في منشور الحكم...» (أدب الوزير ص ١٦) وقد ورد هذا القول غير منسوب أيضاً في رساله (كلمات مخنرة ص ٤٠) بلفظ: «الحاجات تطلب بالرجاء وتترك بالقضاء» وفي التمثيل والمحاضرة بلفظ «الحوائج تطلب بالرجاء وتترك بالقضاء» (ص ٤٦٧).

(٣) قوله: «قال الشاعر» قلت هو ضرار بن الخطاب الفهري الفارس الذي لم يكن في قرش أشعر منه وبعده ابن الزبير، وكان من الفرسان، وقد قاتل المسلمين أشد القتال في الوقائع أحد والحدق وأسلم يوم الفتح، وقتل شهيداً باليمامة سنة ١٣هـ. انظر ترجمته في=

ألم تر أن الدهر يلعب بالفتى
ولا يملك الإنسان دفع المقادير^(١)

ومتى عُرف منه تعقب المشير بلوم أو ذم أُسلم إلى رأيه، وهو ملوم،
ووكّل إلى تدبيره وهو مذموم فبقي بالمشاركة فرداً لا يعاصد، ومهملاً
لا يساعد، وبه من الحاجة إلى مشورة ذوي الرأي ما لا يجذ منه بداً.

قال الشاعر^(٢): [من البسيط]

من كان ذا عضدٍ يدرك ظلامته
إنّ الذليل الذي ليس له عضد^(٣)

= لاستيعاب (على هامش الإصابة ٢٠١/٢-٢٠٢، الإصابة ٢٠١/٢-٢٠٢ أيضاً، أسد
الغابة ٥٣-٥٤ طبقات الشعراء لابن سلام ٦٨، المعارف (عكاشة) ٦٨، وله أبيات في
الحماسة لشجرية ١/٥٦، وابن أبي الحديد ٣/٣٠٩، الأغاني ١٠/٥، حماسة البحري ٢٧.
(١) قول الشاعر: «ألم تر أن الدهر...» أورده الماوردي في الأمثال والحكم (الورقة ٢٦٦) منسوباً
ليه.

(٢) قوله: «قال الشاعر» قلت هو الأجرد الثقفي من شعراء العصر الأموي وقد وفد على عبد
الملك بن مروان، واسمه مسلم بن عبد الله بن سفيان انظر نبذة من أخباره في الشعر
والشعراء (تحقيق السقا) ص ٢٨٣، القاب الشعراء ٣١١ معجم القاب الشعراء ١٦٢، وقد
ينسب البيت إلى المتلمس (جرير بن عبدالمسيح) الذي كان يتادم عمرو بن هند وقصته في صحيفته
مشهورة انظر الشعر والشعراء ٥٢، الأغاني ٢١/١٢٠، طبقات ابن سلام ٥٨، معجم القاب
الشعراء ٢١٢.

(٣) قول الشاعر: «من كان ذا عضد...» أورده المؤلف في الأمثال والحكم (الورقة ١٩٩) ونسبه
إلى الأجرد الثقفي. والبيت قد أورده الجاحظ مع بيت آخر هو قوله:
نسبو يدها إذا ما قلّ ناصره ويأنف الضيم إن أشرى له عدد
منسوبين إلى الأجرد أيضاً (البيان والبيان ١/٦٧ و ٣/٣٢٥) وهما في عيون الأخبار (ج ٢
ص ٢) والشعر والشعراء (٢٨٣) وفيه قصة، والعقد الفريد - العريان - (٢/ ٢٦٥) منسوبين
إليه في الجميع.

وقد ورد البيت منسوباً إلى المتلمس في ديوانه - بعناية ك. موفرز - (ص ٢٠٩) وفي التذكرة
السعدية (١/ ٣٦٥) مع بيتين هما:

ولا يقبم على ضيم يسام به إلا الأذلّان غير الحسي والسوسد
هذا على الخسف مربوط برمته وإذا يشج فلا يرشي له أحد
ونظر شأن البيتين الأخيرين كليات أبي البقاء - بولاق ١٢٨١ (ص ١٠٧) وشرح نبح البلاغة

فَضَعُفَتْ مَتْنُهُ بِالْمَتَارَكَةِ، وَقَلَّتْ مُسَاعَدَتُهُ بِالْإِهْمَالِ، فَتَمَوَّجَتْ^(١) بِهِ
الْخُطُوبُ، وَتَنَكَّرَتْ عَلَيْهِ الْقُلُوبُ.

قال بعض الحكماء:

لو كانت الملوك تعرف مقدار حاجتهم^(٢) إلى ذوي الرأي من الناس
مثل الذي يعرف أهل الرأي من حاجتهم^(٣) إلى الملوك، لم أرَ عجباً أن
ترى^(٤) مواكب الملوك على أبواب العلماء، كما ترى^(٥) مواكب العلماء على
أبواب الملوك^(٦). (٢٢ ب)



= وقد ورد البيت غير منسوب في خاص الخاص (ص ٢١) وفيه (يدفع ظلامته) وانظر حول
البيت الحيوان (٣ / ٤٥)، العمدة (١ / ٢٥٧)، نهاية الأرب (٢ / ١١٤)، التمثيل
والمحاضرة (٣١٥)، وقد أصبح شطره الثاني مثلاً من الأمثال (مجمع الأمثال ١ / ٢١ رقم ٥٤)
ويضرب لمن يخذله ناصره.

(١) غ: فتتموحت، بالخاء المهملة وهذه العبارة ليست في ط.

(٢) غ: حاجتها، والتصحيح من آداب النفس وفي ط: حاجاتها.

(٣) غ: حاجته، والتصحيح من ط ومن آداب النفس.

(٤) ط: لم أرَ عجباً ترا - كذا - وفي غ: يرى.

(٥) غ: يرى.

(٦) قول بعض الحكماء: «لو كانت الملوك تعرف مقدار حاجتهم... إلخ» أورد السيد محمد
العيناتي العاملي هذا القول ونسبه إلى كسرى في وصيته إلى الهرمزان بلفظ: «وفي وصية كسرى إلى
الهرمزان: أما بعد فإنه لو كان الملوك يعرفون من حاجتهم إلى ذوي الرأي مثل الذي يعرف
أهل الرأي من حاجتهم إلى الملوك لم يكن عجباً أن ترى مواكب الملوك على أبواب العلماء
كما ترى مواكب العلماء على أبواب الملوك» (آداب النفس ص ٢٥) وقد نقل الماودي تعليلاً
منسوباً إلى بزرجمهر بلفظ: «وقيل لبزرجمهر: العلم أفضل أم المال؟ فقال: بل العلم قيل
فما بالنا نرى العلماء على أبواب الأغنياء، ولا نكاد نرى الأغنياء على أبواب العلماء؟ فقال
ذلك لمعرفة العلماء بمفظة المال، وجهل الأغنياء بفضل العلم» (آداب الدنيا والدين ص ٢٦).

[الفصل الثالث عشر]
[الأخلاق المتقابلة في الملوك]

وَلْيُعْلَمِ الْمَلِكُ أَنَّ أَرْبَعَةَ أَخْلَاقٍ مُتَقَابِلَةٌ لَيْسَ يَعْرِى مِنْهَا أَوْ مِنْ أَبْدَالِهَا
مَلِكٌ؛ فَإِنْ اسْتَعْمَلَتْ فِي مَوَاضِعِهَا وَوَقَفَتْ مِنْهَا عَلَى حَدُودِهَا تُخِمِدَتْ، وَإِنْ
اسْتَعْمَلَتْ فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا، أَوْ خَرَجَتْ عَنْ حَدُودِهَا إِلَى زِيَادَةٍ أَوْ تَقْصِيرٍ
ذُمَّتْ:

[١ - الرقة والرحمة]:

فَأَحْذَرُ الرِّقَّةَ وَالرَّحْمَةَ، تُحَمَّدُ عِنْدَ اعْتِدَالِهَا، وَفِي مَوَاضِعِهَا، وَتُذَمُّ عِنْدَ
غَلَبَتِهَا وَمِيلِهَا؛ لِأَنَّهَا إِذَا غَلَبَتْ أَفْضَتْ إِلَى تَرْكِ الْحُدُودِ، وَإِضَاعَةِ الْحَقُوقِ،
وَذَلِكَ دَاعٍ إِلَى هِيَاجِ طَبَاعِ الْمَفْسُودِينَ، وَتَحْرِيكِ مَطَامِعِ الْمُتَقَلِّبِينَ، فَيُنْحَلُّ
مِنْ عَرَى السِّيَاسَةِ مَا كَانَ بِالرَّهْبَةِ مُلْتَمِئًا، وَتَخُوفِ الْعُقُوبَةِ مُنْتَظِمًا.

وَمَنْ نُسِبَ إِلَى رَحْمَةٍ تَبْطُلُ حَدًّا، أَوْ تَضِيعُ حَقًّا، أَوْ تُحْدِثُ فُسَادًا، كَانَ
الْفُسَادُ عَلَيْهِ أَعْوَدًا، وَهُوَ لِنَظَرِهِ وَسِيَاسَتِهِ أَفْسَدُ، وَصَارَ - كَمَا قَالَه
الْمُقَدِّمُونَ - كَالطَّبِيبِ الَّذِي يَرْحُمُ الْعَلِيلَ مِنْ مَرَارَةِ الدَّوَاءِ، وَالْمِ الْحَدِيدِ،
فَتَوَدِّيهِ رَحْمَتُهُ إِلَى هَلَكَتِهِ، وَتَسْوِفُهُ الشَّفَقَةَ إِلَى مَنِيَّتِهِ، فَتَصِيرُ رَحْمَتُهُ لَهُ أَيْلَى
مِنْ قَسْوَتِهِ، وَرَفَقُهُ بِهِ أَضَرُّ مِنْ غُلَظَتِهِ.

وَالرَّحْمَةُ خَلَقَتْ مَرْكَبًا مِنَ الْوَدِّ وَالْجَزَعِ.

[٢ - القسوة والغلظة]:

ثُمَّ الْخُلُقُ الثَّانِي الْمُقَابِلُ لِهَذَا الْخُلُقِ وَهُوَ الْقَسْوَةُ وَالْغُلَظَةُ فَإِنَّهَا إِذَا
غَلَبَتْ أَفْضَتْ إِلَى مَجَاوِزَةِ الْحُدُودِ فِي الْحَيَاةِ، وَعُقُوبَةِ الْأَخْيَارِ الْمُبْرَةِ،
وَالْمَوَاحِظَةِ بِالتَّهْمِ وَالظُّنُونِ، وَالتَّسْوِيَةِ بَيْنَ الشُّكِّ وَالْيَقِينِ، فَلَا يَأْمَنُ سَلِيمٌ،

ولا يَتَمَيَّزُ سَقِيمٌ، وفي ذلك من فسادِ السياسةِ بإيحاءِ المؤانسِينِ، وخبثِ سرائِرِ المناصِحِينَ ما يجعلُ كُلَّ وَلِيٍّ خَصْماً، وكلُّ معيْنٍ التَّا^(١).

وربَّما ظنَّ بعضُ الولاةِ أَنَّ القساوةَ صرامةٌ، فعدَلَ عن الاقتصادِ والسدادِ إلى ضِدِّهما، وتجاوزَ حُكْمَ الدينِ والسياسةِ إلى غيرهما، ولا خيرَ (٢٣ آ) في العدولِ عن واحدٍ منهما، وقد قالَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم:

«أشدُّ النَّاسِ عذاباً يومَ القيامةِ أشدُّهم عذاباً للناسِ في الدُّنيا»^(٢)

وإنما الصرامةُ قِلَّةُ الغفلةِ عن الجرائِرِ، ومعرفةُ الأمورِ على الحقائقِ، حتى لا يتدلَّسَ عليه السقيمُ بالسليمِ، والخائنُ بالأمينِ، ولا يتصوَّرَ الخالِعُ بصورةِ الطائعِ.

والقساوةُ تهوُّنٌ في الحدودِ، وتعدُّ في الحقوقِ، يبعثُ عليه اتباعُ شهوتهِ، وتحكيمُ سطوتهِ.

وإذا اعتدلَّ فيه هذانِ الخلقانِ فَرَّقَ لأهلِ الحقِّ، وعَتَفَ لأهلِ الباطلِ، اعتدلَّت سيرتُهُ، وصحَّحتِ سياستهُ.

والقسوةُ خلقٌ مركَّبٌ من البغضِ والجراةِ.

[٣ - السَّماحةُ والعطاءُ:]

ثم الخلقُ الثالثُ وهو السَّماحةُ والعطاءُ فإنَّ وقَفَ على حدِّه^(٣)،

(١) التَّا كذا في الأصل غ وليست في ط. والآلت البهتان وربما كانت مصفحة عن (أَلِيا) وصف من الألم.

(٢) حديث: «أشدُّ النَّاسِ عذاباً يومَ القيامةِ أشدُّهم عذاباً للناسِ في الدُّنيا» أورده المؤلف في كتابه الأمثال والحكم (الورقة ١٤٩ آ) بلفظه وقد سقطت منه عبارة (في الدُّنيا) ولم يذكر راويه. وقد رواه الإمام أحمد وابن حبان عن خالد بن الوليد والحاكم عن عياض بن غنم وهشام بن حكيم في حديث صحيح (الجامع الصغير ٤٢ / ٤٢) وانظر أيضاً (التيسير بشرح الجامع الصغير ١٥٤ / ١٥٤) وقد أخرجه عبد الله بن الزبير الحميدي في مسنده عن خالد بن الوليد بلفظه «أشدُّ النَّاسِ عذاباً عندَ الله يوم... إلخ» (المستدرك ٢٥٥ / ٢٥٦ الحديث رقم ٥٦٢) وهو في مسند أحمد بالإسناد نفسه (مسند أحمد ٩٠ / ٤).

(٣) قوله: «وقف على حدِّه...» أي تعريفه، وهو هنا سيذكر حدَّ السخاء الذي دَوَّنه في أدب =

وهو بذل ما يحتاج إليه عند الحاجة، وإيصاله إلى مستحقه بحسب الطاقة،
كان محمود البذل، مشكور العطاء.

وإن تجاوز هذا الحد فأعطى في غير حق، وبذل من غير تقدير، صار
منسوباً إلى التبذير والإضاعة، وصار بإزاء تبذيره حقوق مضاعة.

قيل: كل شرف فيإزائه حق مضيع^(١).

وإذا انتشر أن أمواله تنال بغير استحقاق، وتدرك بغير سعي، ثارت به
مطامع المحتذين^(٢)، وتكاثرت عليه وفود السائلين، الذين ألفوا كلف
الاحتراف، واستبدلوا به دني الاقتراف، فإن رام رضى جميعهم لم يطق؛
لاتساع أمالهم، وقوة أطماعهم، ولو أطاق لأفسد سعي اتباعه، وتخبث
نيات أشياعه؛ إذ سوى في العطاء بينهم؛ وبين من لم يسع (٢٣ ب)
سعيهم، ولا سد في الموازنة والمظاهرة مسدهم.

قال بعض الحكماء:

لا خير في السرف ولا سرف في الخير^(٣).

= الدنيا والدين (ص ١٦٩). وقد عقد الجاحظ فصلاً للسخاء والحياء في كتاب التاج في أخلاق
الملوك (ص ١٣٩).

(١) قوله: «قيل كل سرف فيإزائه حق مضيع» أورده الماوردي في أدب الدنيا والدين (ص ١٧١)
ونسبه إلى معاوية، وهو في التمثيل والمحاضرة (ص ٣١) منسوب إلى معاوية أيضاً وأورده فيه
بلفظ: «ما رأيت تبذيراً إلا وإلى جانبه حق مضيع» وأورده ابن مسكويه في حكم العرب
وأمثالها السائرة مرتين في كتابه الحكمة الخالدة ولم ينسبه لقائل في الموضعين أحدهما بلفظ «مع كل
سرف حق مضيع» (ص ١٧٧) والثاني بلفظ «مع كل شرف حق مضيع» بالشين وهو
نصحيح (ص ١٩٨).

(٢) المحتذون جمع محتذ وهو طالب العطاء: يقال: أحذيت أحذية إحذاء أعطيته ومنه حديث:
«مثل الجليس الصالح مثل الداري إن لم يحذك من عطره علقك من ريحه» أي إن لم يعطك
(النهاية في غريب الأثر ١ / ٣٥٨) مادة (حذا).

(٣) قوله «قل بعض الحكماء: لا خير في السرف ولا سرف في الخير» أورده الماوردي في أدب
لدنيا والدين مرتين ونسبه في الأولى إلى المأمون وهو فيها بلفظه (ص ١٧١) ونسبه في الثانية
إلى الحسن بن سهل إذ ورد أنه قال: «إذا لم أعط إلا مستحقاً فكأنني أعطيت غريباً، وقال:
«الشرف في السرف، فقيل له: لا خير في السرف. فقال: ولا سرف في الخير» (ص ١٧٥)
وأورده صاحب رسالة كلمات مختارة بلفظ: «قال ثعلب: قلت للحسن بن سهل وقد كثر =

وإنَّ خَصَّ بِالْعَطَاءِ قَوْماً وَحَرَّمَ قَوْماً لَمْ يَكُنْ بَيْنَ مَنْ أَعْطَاهُ وَهُوَ غَيْرُ مُسْتَحِقٍّ، وَبَيْنَ مَنْ حَرَّمَهُ فَرْقٌ، وَلِحَقُّهُ مِنْ دَمٍ مِنْ حَرَمِهِ أَضْعَافٌ مَا لِحَقُّهُ مِنْ حَمْدٍ مِنْ وَصَلُهُ، وَلَيْسَ يَمْنَعُ هَذَا مِنَ التَّبَرُّعِ بِالصَّلَةِ، وَمَنْ مَرَاعَاةٍ مِنْ أَمْتٍ بِجُرْمَةٍ إِذَا ظَهَرَتْ أَسْبَابُهَا، وَتَلَوَّحَ صَوَائِبُهَا، لِأَنَّ الْمَلُوكَ مُطَالِبُ ذَوِي الْحَاجَاتِ، وَذَخَائِرُ ذَوِي الْحُرْمَاتِ. وَهَذَا فِي حَقِّ السَّاسَةِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ:

وَالسَّخَاءُ خَلْقٌ مَرَكَّبٌ مِنَ الْحَيَاءِ وَالْإِثَارِ.

[٤ - الْبَخْلُ وَالْإِمْسَاكُ]:

ثُمَّ الْخَلْقُ الرَّابِعُ الْمَقَابِلُ لِهَذَا الْخَلْقِ وَهُوَ الْبَخْلُ وَالْإِمْسَاكُ الْمُؤَدِي إِلَى تَفْرِيقِ النَّصَحَاءِ، وَتَنْكِرِ الْأَلْبَاءِ، وَاسْتِطَالَةِ الْأَعْدَاءِ، فَإِنَّ الْأَمْوَالَ تُصِيرُ إِلَى الْمَلُوكِ لِنُوضَعِ فِي حَقِّهَا، وَتَفَرَّقَ عَلَى مُسْتَحِقِّهَا، لَا لِيَعْدَلَ بِهَا عَنِ الْعَطَاءِ إِلَى الْمَنْعِ، وَعَنِ التَّفَرُّقِ إِلَى الْجَمْعِ.

وَقَدْ قِيلَ:

مَنْ جَمَعَ الْمَالَ لِنَفْعِ غَيْرِهِ أَطَاعُوهُ، وَمَنْ جَمَعَهُ لِنَفْعِ نَفْسِهِ أَضَاعُوهُ^(١).

= عَطَاؤُهُ: لَا خَيْرَ فِي السَّرَفِ، فَقَالَ: لَا سَرْفَ فِي الْخَيْرِ، فَرَدَّ اللَّفْظَ وَاسْتَوْفَى الْمَعْنَى (ص ٣٤) وَسَرَّاجُ الْمُلُوكِ (ص ٩١)، وَأُورِدَهُ الثَّعَالِبِيُّ بِلَفْظِ «وَكَانَ الْحَسَنُ بْنُ سَهْلٍ يَقُولُ: الشَّرْفُ فِي السَّرَفِ، فَإِذَا قِيلَ لَهُ: لَا خَيْرَ فِي السَّرَفِ، قَالَ: وَلَا سَرْفَ فِي الْخَيْرِ، فَيَرَدُّ اللَّفْظَ وَيَسْتَوْفِي الْمَعْنَى» كِتَابُ مَنْ غَابَ عَنْهُ الْمَطْرِبُ (ص ٢٩٠) وَكِتَابُ (التَّمَثِيلِ وَالْمَحَاضِرَةِ ص ١٣٥) وَكِتَابُ (الْإِبْجَازِ وَالْإِعْجَازِ ص ٢٥) وَكِتَابُ (خَاصِ الْخَاصِ ص ٨) وَفِي أَقْوَالِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «لَيْسَ فِي سَرْفٍ شَرَفٌ» وَهُوَ مُنَاقِضٌ لِمَا سَبَقَ (انْظُرْ غُرُرَ الْحِكْمِ ٢٥٨) وَكَانَ يَقَالُ: «الشَّرْفُ فِي السَّرَفِ» (عِيُونَ الْأَنْبَاءِ ١ / ٣٤٢) وَقَدْ نَظَّمَ هَذَا الْمَعْنَى مُحَمَّدُ بْنُ حَازِمٍ فَقَالَ:

لَا الْفَقْرَ عَارَ وَلَا الْغِنَى شَرَفَ وَلَا السَّخَاءَ فِي طَاعَةِ سَرْفِ
مَالِكَ إِلَّا شَيْءٌ تَقَدَّمَ وَكُلُّ شَيْءٍ آخَرَهُ تَلَفَ
انْظُرْ سَرَّاجَ الْمُلُوكِ (٩١).

(١) قَوْلُهُ: «مَنْ جَمَعَ الْمَالَ لِنَفْعِ غَيْرِهِ أَطَاعُوهُ...» أُورِدَهُ عَبْدُ الْوَاحِدِ الْأَمْدِيُّ ضَمَّنَ الْأَقْوَالَ الْمُنْسُوبَةَ لِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِلَفْظِ «مَنْ جَمَعَ الْمَالَ لِيَنْتَفِعَ بِهِ النَّاسُ أَطَاعُوهُ، وَمَنْ جَمَعَ لِنَفْسِهِ أَضَاعُوهُ» (غُرُرُ الْحِكْمِ ٢٨٢) وَهُوَ غَيْرُ مُنْسُوبٍ فِي أَحْسَنِ الْمَحَاسِنِ بِلَفْظِهِ وَفِيهِ «... لِنَفْعِ النَّاسِ أَطَاعُوهُ...» (ص ١٦٢).

وإذا شح ومنع اعتقد كل ممنوع أنه غريمُ مماطل، مستحق مدفوع، لا يعذر إن منع، ولا يشكر إن أعطي، يرى أن أيام السلامة مغرم، وأن أيام الاختلاط مغنم، فهو على رصد من تقلب الزمان، وتوقع الغير والحدثان، ثم تدعوه الضرورة إن تطاولت به المدة إلى الخيانة في أمانته، والغش في نصيحته، وقبول الرشا في مضمرته، فيعكس^(١) عليه قواعد دولته، ويُفسد له^(٢) نظام مملكته.

قال بعض الحكماء:

إذا بخل (٢٤ آ) الملك كثرت أراجيف الناس عليه، وفسدت مودتهم له^(٣).

وإذا اعتدل في هذان الخلقان في العطاء والمنع، فلم ينقبض في حق، ولم ينبسط في باطلٍ وسرف، صلح واستصلح.

وقال هشام بن عبد الملك^(٤):

إنا لا نعطي تبذيراً ولا نمنع تقتيراً، إنما نحن خزان الله عز وجل، فإذا أحب^(٥) أعطينا، وإذا كره أيئنا، ولو كان كل قاتل يصدق، وكل سائل يستحق ما جبهنا قاتلاً، ولا ردّدنا سائلاً^(٦).

والبخل خلق مركب من الفحة والأسف.

(١) غ: فيعكس.

(٢) غ: ويفسدها نظام.

(٣) قولهم: «إذا بخل الملك كثرت أراجيف الناس عليه...» أورده أبو حيان التوحيدي منسوباً إلى أفلاطون بلفظ «إذا بخل الملك بالمال كثرت الإرجاف به...» (الإمتاع والمؤانسة ٢ / ٤٦) وقال ابن المقفع فيها قال: «... وليس له أن يبخل؛ لأنه أقل الناس عنراً في تحوف الفقر...» (الأدب الكبير ١١٤).

(٤) هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي المتوفى ١٢٥ هـ انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٤٧ ٢٥٠.

(٥) غ: فإذا شاء أعطينا، والتصحيح من الأمثال والحكم.

(٦) قول هشام: «إنا لا نعطي تبذيراً...» تجده في كتاب الأمثال والحكم للماوردي (الورقة ٦٣ ب) بلفظه نفسه منسوباً إليه.

فهذه أخلاق إذا أخذ الملك نفسه بتعديلها فيه اتسقت له السياسة العادلة، وانتظمت له السيرة الفاضلة.

فإن خرج الملك عن القصد والاعتدال المحمود في العطاء والمنع إلى أحد^(١) الطرفين المذمومين من زيادة في العطاء بسخائه، أو زيادة في المنع ببخله، فقد تنقسم أحوال الملوك فيها أربعة أقسام:

أحدهما: ملك سخي على نفسه سخي على رعيته.

والثاني: ملك بخيل على نفسه بخيل على رعيته.

والثالث: ملك سخي على نفسه بخيل على رعيته.

والرابع: ملك بخيل على نفسه سخي على رعيته.

وقد اختلفت طوائف الأمم: أي الأربعة أقرب إلى الصواب، وأبعد من العيب، وإن لم يخل بالخروج عن الاعتدال من خطأ وعيب على أربعة آراء:

ف رأي الروم: أن أقربهم إلى الصواب وأبعدهم من العيب هو البخيل على نفسه وعلى رعيته؛ لأنه مستبقي وغير مستهلك.

ورأي الهند: أن أقربهم إلى الصواب وأبعدهم من العيب هو السخي على نفسه السخي على رعيته، لأنه متفجع ونافع.

ورأي الفرس: أن أقربهم إلى الصواب وأبعدهم من العيب هو السخي على نفسه البخيل (٢٤ ب) على رعيته؛ لأنهم يرون تنعيم النفوس من الواجبات، فكان حق نفسه أحق به من حق غيره^(٢).

ورأي العرب: أن أقربهم إلى الصواب، وأبعدهم من العيب هو البخيل على نفسه السخي على رعيته؛ لأنه إثارة غيره على نفسه.

(١) غ أخذ - بالذال المعجمة.

(٢) مثل هذا الرأي نجد رأياً لسيقراط إذ يقول: «من بخل على نفسه فهو على غيره أبخل، ومن جاد على نفسه فذلك المرجو جوده» (مختار الحكم ومحاسن الكلم ٩٣) ولعلي رضي الله عنه: «من بخل على نفسه كان على غيره أبخل» (غور الحكم ٢٨٣) وهذا القول الأخير غير منسوب في (أحسان المحاسن ١٥٨).

وقد جاء القرآن بما يظهر هذا [في] قول الله عز وجل:
 «وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ، وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ
 فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»^(١).

وقد ظهر ذلك في أشعار العرب حتى قال بعضهم^(٢): [من الطويل]
 وَإِنَّكَ إِنِ اعْطَيْتَ بَطْنَكَ هَمَّةً
 وَفَرَجَكَ نَالًا مُنْتَهَى الدَّمِ أَجْمَعًا^(٣)

* * *

(١) سورة الحشر آية رقم ٩.

(٢) قوله: «قل بعضهم...» قلت هو حاتم الطائي الشاعر المشهور وكان أحد أجواد العرب وبه يضرب المثل في الكرم وله صلة بعبيد بن الأبرص والناطقة، وابنه عدي الصحابي الجليل، أنظر أخباره في: الشعر والشعراء ٧٠-٧٥، الأغاني بولاق ١٦/ ٩٦-١١٠، (ساسى) ٩٣/ ١٦-١٠٦، أمالي القالي ٣/ ١٥٤-١٥٨، تاريخ دمشق لابن عساكر ٣/ ٤٢١-٤٢٩، خزانة الأدب ١/ ٤٩٤، تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (الترجمة العربية) ١/ ١١١-١١٢ وديوانه طبع في لندن ١٨٧٢، ولاهور ١٨٧٨ وطبعات أخرى كثيرة منها في ليبزج ١٨٩٧، وضمن مجموع بالمطبعة الوهية بالقاهرة ١٢٩٣ ودار الكتاب العربي بيروت ١٩٦٨ وفي هذه طبعة مقدمة عن حياته في ٢٣ صفحة.

(٣) قوله: «وإنك إن أعطيت بطنك هم... الخ البيت» نجد هذا البيت في ديوان حاتم لطائي المطبوع ضمن مجموع بالمطبعة الوهية ص ١١٤ مع ثلاثة أبيات وهي -أعي الأبيات الأربعة- في شرح ديوانه (دار الكتاب العربي) ص ٦٩ والبيت فيه بلفظ «وإنك مهما تعط بطنك سؤاله... وفي البيان والتبيين ٣/ ٣٠٨ منسوباً إليه مع أربعة أبيات بلفظ «وإنك مهما تعط بطنك سؤاله... وهذا اللفظ الأخير ورد في شرح نهج البلاغة ٤/ ٤٧٦.٣٨٠ وهو منسوب إليه في الموضعين، وورد في موضع آخر منه بلفظ «فإنك إن أعطيت نفسك سؤالها...» (٤/ ٣٨١) وغير منسوب في موضع رابع (١/ ٢٧٤) وقد ورد في الشعر والشعراء (السقا) ص ٧٥ بلفظ «فإنك إن أعطيت بطنك سؤاله» وفي التذكرة لسعدية ١/ ٣٤٧ بلفظ... سؤاله وكذا في تنقيف اللسان ١٧٤ وهو في هذا الأخير غير منسوب لأحد، وقد أورده الثعالبي منسوباً إليه بلفظ «وأنت إذا أعطيت بطنك سؤاله» في التمثيل والمحاصرة ص ٥٥ وقد أورده الماوردي في كتابيه أدب الدنيا والدين ص ٢٠١ والأمثل والحكم الورقة ٣٢٢ دون أن ينسبه إلى أحد في الموضعين.

[الفصل الرابع عشر]

[الوفاء بالمعهد]

[مزاياء الوفاء بالمعهد]:

وَلْيَعْلَمْ الْمَلِكُ أَنَّ مِنْ قَوَاعِدِ دَوْلَتِهِ الْوَفَاءُ بِعَهْدِهِ؛ فَإِنَّ الْغَدْرَ قَبِيحٌ، وَهُوَ بِالْمَلُوكِ أَقْبَحُ، وَمُضَرٌّ، وَهُوَ بِالْمَلُوكِ أَضَرُّ؛ لِأَنَّ مَنْ لَمْ يُوَثِّقْ مِنْهُ بِالْوَفَاءِ عَلَى بَذْلِهِ، وَلَمْ يَتَحَقَّقْ مِنْهُ تَصْدِيقُ قَوْلِهِ بِفِعْلِهِ، وَوَسِمَ بِنَقْضِ الْعَقُودِ، وَنَكْثِ الْعَهْدِ، قُلُّ الرُّكُونِ إِلَيْهِ، وَكَثُرَ النُّفُورُ مِنْهُ وَعَنْهُ.

وَانْعِقَادُ الْمَلِكِ إِنَّمَا يَكُونُ بِالرُّكُونِ الْمَوْجِبِ لِلِاسْتِسْلَامِ وَالطَّاعَةِ الْبَاطِنَةِ عَلَى النُّصْرَةِ^(١)؛ لِيَصِيرَ النَّاسُ مَعَ الْمَلِكِ مِنْ بَيْنِ مُسْتَسْلِمٍ إِلَيْهِ، وَنَاصِرٍ لَهُ، وَيَهْذِينَ يَكُونُ الْمَلِكُ مُنْعَقِداً.

فَإِذَا نَفَرَهُمُ الْغَدْرُ، انْتَفَضَتْ قَوَاعِدُهُ؛ لِزَوَالِ الْاسْتِسْلَامِ، وَقِلَّةِ التَّنَاصُرِ.

وَإِذَا عَرَفَ الْأَعْدَاءُ الْوَفَاءَ مِنْهُ لَانُوا، وَطَالَ عَلَيْهِمُ بِالنُّصْرَةِ^(٢) فَهَانُوا، وَقَبِلَ عَلَى غَدْرِهِ بِمِثْلِهِ، فَدَانَ لَهُ النَّاسُ بِمِثْلِ مَا دَانَ:

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
«كَمَا تَدِينُ تُدَانُ»^(٣)

(١) غ: النصيرة

(٢) غ: بالصبرة.

(٣) حديث «كما تدين تدان» أورده البخاري تعليقاً في كتاب التفسير من صحيحه (صحيح البخاري ٣ / ٦٤). والحديث رواه أبو نعيم والدلمي من حديثه وحديث غيره كلاهما من جهة مكرم بن عبد الرحمن الجوزجاني عن محمد بن عبد الملك الأنصاري عن نافع عن ابن عمر رفعه في حديث لفظه: «البر لا يبلى، والذنب لا ينسى، والديان لا يموت، فكن كما شئت فكما تدين تدان» ومن هذا الوجه أورده ابن عدي في الكامل وضعف محمداً، لكن أخرجه البيهقي عن أبي قلابة مرسلًا، وأخرجه غيره (انظر المقاصد الحسنة ص ٣٢٦ رقم ٨٣٤) وكتاب (كشف الخفاء ٢ / ١٨٣ - ١٨٤ رقم ١٩٩٦) ورواه عبد الرزاق في الجامع بلفظ «البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت، اعمل ما شئت كما تدين تدان» عن =

قال الشاعر^(١): [من الطويل]

وعندي قروض الخير والشر كلها
فبؤسى لدى بؤسى ونعمى بأنعم^(٢)

فإذا لا شيء أضرب بالملك من الغدر، ولا أنفع له من الوفاء.

[مساوىء الغدر]:

وربما استسهل غدره، ينتهزها فرصة، فسامح نفسه بها، وجعلها من
الذنوب المكفّرة بالتوبة، ولا يعلم أنها أنكى في مملكته من عدو (٢٥ آ)
قاهر، ومتغلب جائر؛ لأنهم قد وسموه بها، وإن ندرت، واكتفوا بها وإن

= أبي قلابة مرسلاً في حديث حسن (الجامع الصغير ١/ ١٢٧) ووصله أحمد في الزهد بإثبات
أبي الدرداء (التيسير بشرح الجامع الصغير ١/ ٤٣٩) وقد أورده الماوردي عن طريق
محمد بن عبد الملك المدائني عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم: «الذنب لا ينسى والبر لا يبلى والديان لا يموت، فكن كما شئت،
وكما تدين تدان» (أدب الدنيا والدين ص ٨٧) و(أدب الوزير ص ١٤) وأورده عبد الواحد
الأمدي موقوفاً على علي بلفظ «كما تدين تدان» (غرر الحكم ٢٤٨) وانظر كتاب (٢٠٠٠ كلمة
ص ٨٠ رقم ١٨٩٣) وقد ورد كمثل من الأمثال (معجم الأمثال ٢/ ١٥٥ رقم ٣٠٩٤)
(خاص الخاص ص ٢٤) وقد نظم بعضهم هذا الحديث فقال:

أحسن وأنت معان يا أيها الإنسان
إن الأيادي قروض كما تدين تدان
(نظر التمثيل والمحاضرة ص ٤٣٢).

(١) قوله: «قال الشاعر» قلت هو أوس بن حجر بن عتاب الشاعر الجاهلي المشهور كان زهير
ربيه وراوته، نادم ملوك الحيرة، وكان عاقلاً في شعره كثير الوصف لكارم الأخلاق، وقد
سبق إلى دقيق المعاني وإلى أمثال كثيرة وقد نشرت أشعاره في فينا ١٨٩٢ انظر نبذة من أخباره
في الأغاني (ببلاق) ١٠/ ٨-٦، (ساسي) ٥-٨، الشعر والشعراء (السقا) ٤٧-٤٩، الموشع
للمزباني ٦٣، خزانة الأدب ٢/ ٢٣٥، معاهد التنصيص ١/ ١٣٧، سمط اللآلي ٢٩٠،
ناريخ الأدب العربي لبروكلمان (الترجمة العربية ١١٢-١١٣).

(٢) قول الشاعر: «وعندي قروض الخير... إلخ» ذكره الماوردي في الأمثال والحكم (الورقة ٥٣)
منسوباً إلى أوس بن حجر، وقد جاء به بلفظه الموجود هنا، وقد ذكره البحتري منسوباً
لأوس أيضاً بلفظ: «... والشر مثله... لأنعم» (الحماسة ٢٥٢). وقد أورده ابن السكيت
مع بيت آخر بعده ونسبها لأوس أيضاً بلفظ:

شدّت، ولا يقبلون توبته، ويجعلون ما يعقبها من الوفاء اضطراباً، ومن العذر اختياراً، فلا يكون في وفائه مشكوراً ولا في عذره معذوراً.

وقد قيل:

ما لغادر عاذر

وربما تأول الملك في غدره تأويلاً بجعله عذراً لنفسه، فلا يجد من الناس عاذراً، ولا يكون عندهم إلا غادراً، لأنهم يحملون الأمور على ظواهرها، ولا يكشفون عن غوامضها، فيقصون بسقم الظاهر على سلامة الباطن، وبفساد العيان على صلاح الكامن، تغليباً على السرائر.

وما ينفعه أن يعذر نفسه، وهو عند الناس غير معذور، ويشكرها وهو عندهم غير مشكور.

قال بعض الحكماء:

الوفاء من الملوك يجلب إليهم نفوس الرعايا وأموالها، وقلة الوفاء يقبض نفوس الرعايا وأموالها^(١).

* * *

= فعندي قروض الخير والشر كلها فبوسى لدى بوسى ونعمى لأنعم

وما أنا إلا مستعد كما أرى أخا شركي الورد غير مستم

(أطر كنز الحفاظ بتهذيب الألفاظ لابن السكيت بتهذيب الخطيب التبريري ص ١٠٦) وقد

أخذ هذا المعنى حسان بن ثابت فقال:

فكل معاً قد جزينا بمنعبي فبوسى ببؤسها وبالنعم أنعم

(انظر ديوان حسان ١ / ٣٦).

(١) قول بعض الحكماء: «الوفاء من الملوك... الخ» أورده المبرور بن فاتك مسبوفاً إلى أعلام

ضمن حكمه وأدابه بلفظ: «الوفاء من الرؤساء يجلب إليهم تعزيز الرعايا بأنفسهم

وأموالهم، وحسد الملوك يخفي بهجة الملك» (مختار الحكم وعاسن الكلم ص ١٦٨).

[الفصل الخامس عشر]

[الحسد]^(١)

[تجنب الحسد]:

ومما يجبُ على الملك: أن يحفظَ نفسه من الحسد؛ فإنه خلقُ دنيٍّ، وطبعُ رديٍّ، فهو في عمومِ الناسِ مذمومٌ، وفي أخلاقِ الملوكِ أذمٌّ؛ لأنَّ قدرَ الملكِ يجلُّ عن دناءته^(٢)، ومنزلةُ المحسودِ مستصغرةٌ في عظمِ همتهِ.

قال بعضُ الحكماء:

حسدُ الملوكِ يخفي بهجةَ الملك^(٣).

ولو لم يكن في الحسد من الذمِّ إلّا ما يُفضي إليه من تفضيلِ المحسودِ لكفى ذا القدرِ خملاً^(٤)، وذا الفضيلةِ نقصاً^(٥)، فكيف بآثره إذا وصم، وبضرره إذا قصم؟.

قال ابنُ المقفع:

الحسدُ والحرصُ يكثرُ الذنوبُ، وأصلُ المهالكِ، أما الحسدُ فأهلكِ إبليسَ، وأما الحرصُ فأخرجَ آدمَ من الجنةِ.

وفي الحسدِ نوعانِ: يختصُّ أحدهما بظاهره، والآخرُ بباطنه:

فأما الأخصُّ بالظاهر: فهُجْنُهُ إذا عُرفَ، وقُبْحُهُ إذا وُصِفَ؛ لأنَّه في

(١) عن الحسد عقد المؤلف فصلاً في الحسد والمنافسة، وهو الفصل السادس من باب أدب النفس من كتاب أدب الدنيا والدين (من ص ٢٤٤-٢٤٩)، وقال في تعريفه: «وحقيقة الحسد شدة الأسى على الخيرات تكون للناس الأفاضل، وهو غير المنافسة» (ص ٢٤٥).

(٢) غ: فناءة.

(٣) قولهم: «حسد الملوك... إلخ» أورده المبرش بن فاتك منسوباً إلى أفلاطون يلفظه صمراً كلام مَرَّ قَبْلَ قَلِيلٍ، (مختار الحكم ١٦٨).

(٤) غ: حولاً.

(٥) ع: نقضاً.

الظاهر شدة الأسي على (٢٥ب) الخير أن يكون للناس الأفاضل^(١)، وظاهر هذا قبيح إذا ذكر، وشائع إذا ستر^(٢)، وخاصة الملوك الذين هم أس الفضائل، ومعدن الخيرات.

وأما الأخص بالباطن^(٣): فكذ القلب بغمه، وهذ الجسد بسقمه، لا يجد لقلبه سلوا، ولا لجسده هدوا، وهذا عذاب جنة يداؤه، والمحسود قريير العين، وادع الجسد؛ قد ضر ولم يستضر.
وقيل:

ليس في خصال الشر شيء أعدل من الحسد؛ لأنه يبدأ بإضرار الحاسد قبل المحسود^(٤).

[المنافسة]

وأما المنافسة^(٥): فهي غير الحسد، فلا بأس أن ينافس الأكفاء في فضائلهم، ويتشبه بالأخيار في محاسنهم، ويجتهد إن لم يزد عليهم أن لا يقصر عنهم، فما تكامل فضل الأخيار^(٦) إلا بالافتداء بالأخيار؛ لأن لكل نفس في الخير حظا مطبوعا، وحظا مكتسبا؛ فإذا اجتمعا تكامل الخير بهما.

(١) قوله: «لأنه في الظاهر شدة الأسي على الخير أن يكون للناس الأفاضل» هو نفس ما عرف به حقيقة الحسد (في أدب الدنيا والدين ٢٤٥) وقد جاء فيه بلفظ «وحقيقة الحسد شدة الأسي على الخيرات تكون للناس الأفاضل».

(٢) غ: سر.

(٣) غ: الباطل.

(٤) قوله: «وقيل: ليس في خصال الشر شيء أعدل من الحسد...» ذكر الماوردي هذ القول في أدب الدنيا والدين (٢٤٥) ونسبه إلى معاوية بلفظ: «ليس في خصال الشر أعدل من الحسد، يقتل الحاسد قبل أن يصل إلى المحسود»، قيل لأتوشروان: «هل يقدر الحاسد أن يضر المحسود؟ قال: كيف يقدر على ذلك وهو لا يصل إلى ذلك إلا بشر يصل إلى نفسه، وإن زالت نعمة المحسود لم تصل إليه» (الحكمة الخالدة ٥٩).

(٥) قوله: «المنافسة غير الحسد» سيذكر بعد قليل الفرق بينهما.

(٦) غ: الأجناد.

والعربُ تقولُ:

لولا الوثامُ لَهَلَكَ الأَنَامُ^(١).

أي لولا الناسُ يرى بعضهم بعضاً فيقتدي به^(٢) في الخير، ويتهمي به عن الشرِّ لهلكوا.

قيل لعيسى بن مريم عليه السلام^(٣):

من أذَبَكَ؟

قال:

ما أذبنى أحدٌ، [ولكني]^(٤) رأيتُ جهلَ الجاهلِ فاجتنبته^(٥).

وربما غلطَ قومٌ فظنوا أنَّ المنافسةَ في الخير هي الحسدُ، وليس كما ظنوا؛ لأنَّ المنافسةَ طلبُ الشبيهِ بالأفاضلِ، [من غير إدخالِ ضررٍ عليهم]،^(٦)

(١) غ: لولا الأوام هلك الأنام، وفي ط: قالت العرب: لولا الأنام هلك الأنام، والتصحيح من أدب الدنيا والدين ٩٦ إذ ذكره هناك بلفظه ومن كتب التخريج.

وقد ورد هذا القول في أمثال العرب (انظر كتاب الأمثال لأبي الوفاء محمد بن أحمد البسك ص ٩٣) وقال في شرحه: «الوثام: التشبه بالكرم، والوثام أيضاً: المباهاة، يقول: لولا تشبه اللثام بالكرم هللكوا بخلا، ويروي المثل أيضاً بلفظ: «لولا اللثام هلكت الأنام» أي لولا الموافقة هلك الناس (ص ٩٣ منه). وقد أورده أبو عبيد القاسم بن سلام بلفظ «لولا الكرم هلكت اللثام» (أمثال أبي عبيد ص ١٣) وفي مجمع الأمثال (٢ / ١٧٦ رقم ٢٢٣٥) بلفظه، وقال: الوثام: الموافقة، يقال وامته موامته ووثاماً وهي أن تفعل مثل ما يفعل، أي لولا موافقة الناس بعضهم بعضاً في الصحة والمعاشرة لكانت الهلكة، هذا قول أبي عبيد وغيره من العلماء، وأما أبو عبيد فإنه يروي «لولا الوثام هلكت اللثام» وقال: الوثام المباهاة، قال: إن اللثام ليسوا يأتوك الجميل من الأمور على أنها أخلاقهم وإنما يفعلونها مباهة وتشبيهاً بأهل الكرم، ولولا ذلك هللكوا. ويروي «لولا اللثام هلكت الأنام» من قولهم: لامت بينهما، أي أصلحت من اللأم، وهو الإصلاح، ويروي اللوام بمعنى الملازمة من اللوم.

(٢) في أدب الدنيا والدين: «فيقتدي بهم في الخير لهلكوا» ص ٩٦.

(٣) غ: صلوات الله عليه وسلامه، وما أثبتناه عن ط.

(٤) الريادة من أدب الدنيا والدين ٢١٠ وليست في غ ولا في ط.

(٥) في أدب الدنيا والدين: فجانته، وفي ط زيادة هي قوله «قصرت أدياً» والقول في أدب الدنيا والدين ص ٢١٠.

(٦) الريادة من أدب الدنيا والدين ٢٤٥ وليست في غ ولا في ط.

والحسدُ مصروفٌ إلى الضرر؛ لأنَّ غايته أنْ يعدمَ الفاضلَ فضلَه، وإنْ لم يصِرْ للحاسدِ مثله.

فهذا هو الفرقُ بين المنافسة والحسد^(١).

فصارت المنافسةُ خيراً والحسدُ شراً.

[الامتنان]:

ومما هو جديرٌ بالملك أن يجتنبَ الامتنانَ بإنعامه، والبذخَ بإحسانه؛ لأنه من ضيقِ النفسِ، وضعفِ المنة، وهو تابعٌ لفسادِ الأخلاقِ، وملحقٌ بمساوئِ الشيمِ، وفيه تكديرٌ للصنيعِ، وإحباطٌ للشكرِ، وإغراءٌ بالذمِّ، فيعكسُ عليه ما صنعَ، فيصيرُ مسيئاً (١٦) بإحسانه، ومذموماً بامتنانه، فيعتاضُ بالإحسانِ كفرأ، وبالامتنانِ عصياناً، إلا^(٢) قوماً قد أظهروا^(٣) كفرَ إحسانه، واستبطانَ عصيانه، فيخرجُ الامتنانَ عليهم مخرجَ الوعيدِ والتهديدِ، مقابلةً على ما أضاعوه من شكرِ إحسانه، فيكونُ ذلك منه استئنافَ إحسانٍ إليهم؛ لأنه تقويمٌ على ميلٍ، وتأديبٌ على ذلك.

وحسبك بدمِ الامتنانِ أن يصيرَ عصياناً.

قال الشاعر^(٤): [من البسيط]

(١) العبارة من قوله: «وربما غلط قوم...» إلى هنا موجودة نصاً في كتاب أدب الدنيا والدين ٢٤٥.

(٢) غ: إلا أن قوماً. والتصحيح من السياق.

(٣) غ: أظهروا.

(٤) قوله: «قال الشاعر» قلت هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي الشاعر المشهور بالملك الضليل، وشهرته بين الشعراء أشهر من قصيدته قفا نيك بين القصائد. انظر نماذج من شعره ونبله من أخباره في الأغاني (بولاق) ٧٢ / ٨، ٨٤، تاريخ دمشق لابن عساكر ٣ / ١٠٤-١١١ شرح شواهد المغني للسيوطي ٦-٩، الشعر والشعراء (السقا) ٣١-٣٧، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان (الترجمة العربية) ٩٧ ١٠١، وقد نشر ديوانه في باريس ١٨٣٧ بعناية دي سلان وشرح شروحاً عديدة.

أَفْسَدْتُ بِالْمَنْ مَا أَسَدَيْتُ مِنْ حَسَنِ
لَيْسَ الْكَرِيمُ إِذَا أَسَدَى بِمَنْئَانٍ^(١)

* * *

(١) قول الشاعر: «أفسدت بالمن...» أورده الماوردي في أدب الدنيا (ص ١٨٨) دون أن يعزوه إلى أحد، وكذا في عيون الأخبار (٣ / ١٧٧) بلفظه غير منسوب وهو في شرح ديوان امرئ القيس (ص ٢١٦) قاله حين امتن عليه رجل من طيء بمئة، وهو فيه بلفظ «ما أدليت من نعم...».

[الفصل السادس عشر]

[تصفح الأعمال]

[اعتیاد تصفح الأعمال]:

ليكن من دأبه التصفح في ليله أعمال نهاره^(١)؛ فإن الليل أحضر للخطر. وأجمع للذكر؛ ليكون ما فعله موقوفاً على استيضاح الرأي فيه، فإن كان صواباً أبرمه وأمضاه، واقتفى أثره فيما جانسُه وضاهاه. وإن كان قد مال فيه عن سنن الصواب، وزلّ عن نهج الاقتصاد، بادر إلى استدراكه فيما أمكن، وانتهى عن مثله في المستقبل؛ ليكون بالماضي معتبراً، وبالمستأنف خبراً.

وليعلم أن ما صدر من أفعاله لا يخلو من ثلاثة أحوال:

إما أن يكون قد اقتصد فيها، ووقف منها على حدّها، وهو العدل المقصود، والغرض المطلوب.

أو يكون قد أفرط فيها فزادت؛ أو قصر فيها فنقصت، وكلاهما خروج عن العدل، وميل عن القصد.

فليعرف ذلك بسبره وتصفحهِ، ولیمضيه بعد العلم بصوابه.

قال النبي عليه السلام:

(١) قال ابن المقفع: «وعلى العاقل أن يخصص على نفسه مساوياً في الدين وفي الرأي وفي الأخلاق وفي الآداب، فيجمع ذلك كله في صدر أو في كتاب، ثم يكثر عرضه على نفسه، ويكتفها إصلاحه ويوظف ذلك عليها توظيفاً من إصلاح الخلة، أو الخلتين، والخلال في اليوم، أو الجمعة، أو الشهر، فكلما أصلح شيئاً عاه، وكلما نظر إلى ثابت اكتاب، وكلما نظر إلى نحو استبشر» (الأدب الصغير ٤٤ وفي رسائل البلغاء ص ١٢).

«إِذَا تَبَيَّنَتْ أَصَبْتُ أَوْ كَدْتُ تُصِيبُ، وَإِذَا اسْتَعْجَلْتُ أَخْطَأْتُ، أَوْ كَدْتُ تُخْطِئُ»^(١).

وليكن - مع ذلك - متصفحاً لأفعال غيره، فما أعجبته من جميلها واستحسنه من فضائلها بادر إلى فعله، وزين نفسه بالعمل به، فإن السعيد من تصفح أفعال غيره فانتهى (٢٦ب) عن سيئها، واقتدى بحسنها، فنال هنيء المنافع، وأمن خطر التجارب، ووصل إلى الصواب بغير تكلف، وعمل بالحزم من غير تعقّب.

[قال النبي عليه السلام:

«السَّعِيدُ مَنْ وَعَظَ بِغَيْرِهِ»]^(٢).

وَوَجَدَ عَلَى حَجَرٍ بِالْهِنْدِ مَكْتُوبٌ:

(١) حديث «إِذَا تَبَيَّنَتْ أَصَبْتُ...» أورده الماوردي في الأمثال والحكم بلفظه عن سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه (الورقة ٢٨ أ) وفي أدب الوزير بلفظ «من تألأ أصاب أو كاد ومن عجل أخطأ أو كاد» (ص ٥٣) ونقله عنه النويري (نهاية الأرب ٦/ ١٣٧) والحديث أخرجه البيهقي عن ابن عباس بلفظ «إِذَا تَأَنَّبْتُ أَصَبْتُ أَوْ كَدْتُ تُصِيبُ، وَإِذَا اسْتَعْجَلْتُ أَخْطَأْتُ أَوْ كَدْتُ تُخْطِئُ» كشف الخفاء ١/ ٨٨ رقم الحديث ٢١٥.

(٢) الزيادة من ط وليست في غ.

وحديث «السعيد من وعظ بغيره» ذكره الماوردي في الأمثال والحكم بلفظه وفيه زيادة «والشقي من شقى في بطن أمه» وقد جاء به موطأ عن مصعب بن منظور عن عقبة بن عامر (الورقة ٤٢ ب) وأدب الدنيا والدين ٣٢٦ وأخرجه مسلم في كتاب القدر من صحيحه (انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١٦/ ١٩٣) في حديث طويل، قال السخاوي: رواه مسلم من حديث عمرو بن الحارث عن أبي الزبير المكي عن عامر بن واثلة عن ابن مسعود، وهو عند العسكري في الأمثال من حديث ابن عون عن أبي وائل، وعبد القضاعي من حديث إدريس بن يزيد الأودي عن أبي إسحق عن أبي الأحوص كلاهما عن ابن مسعود به مرفوعاً وأخرجه كذلك البيهقي في المدخل، وكذا هو في مسند البزار من حديث هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة مرفوعاً لكن بلفظ «السيد من سعد في بطن أمه» وسنده صحيح. وكذا أخرجه الطبراني في الصغير من هذا الوجه، لكن مقتصر على «السعيد من سعد في بطن أمه» والعسكري من حديث عبد الله بن مصعب بن خالد بن زيد عن أبيه عن جده زيد بن خالد رفته: «السعيد من وعظ بغيره» ورواه القضاعي من هذا الوجه ثمانية، ويروي من حديث عبد الله بن مصعب عن أبيه أيضاً فقال: عن عقبة بن عامر ٣

من اعتبرَ بغيرِهِ لم تُصِبْهُ محنة^(١).

قالَ الشاعرُ^(٢): [من البسيط]

إِنَّ السَّعِيدَ لَهُ فِي غَيْرِهِ عِظَةٌ

وَفِي التَّجَارِبِ تَحْكِيمٌ وَمُغْتَبَرُ^(٣)

= بدل زيد وهما ضعيفان، ولذا قال ابن الجوزي في أمثاله: إنه لا يثبت كذلك مرفوعاً، وفيه مع ما قدمت نظراً، بل قال شيخنا إنه صحيح، وسبقه لذلك شيخه العراقي «المقاصد الحسنة» ٢٤٠-٢٤١ الحديث رقم ٥٦١ و (كشف الخفاء ١ / ٥٤٨ رقم الحديث ١٤٧٥) قال السيوطي رواه الطبراني في الصغير في حديث صحيح بلفظ «السعيد من سعد في بطن أمه والشقي من شقي في بطن أمه» (الجامع الصغير ٢ / ٣٧) والحديث مثل من الأمثال السائرة (أمثال أبي عبيد ص ٥) و (مجمع الأمثال ١ / ٣٤٣ رقم ١٨٣٩) بلفظه وفي التمثيل والمحاضرة (ص ٢٨) بلفظ «من اتعظ» وكذا في المكافأة (ص ١٤٧) وفي كتاب أبي العتاهية إلى سهل بن هرون بلفظ «السعيد من وعظ بغيره» (البصائر والذخائر ٤١) وانظر حوله (الأمثال للبرهان ٤٢) و (الإيجاز والإعجاز ص ٧) وهو من أقوال عمر رضي الله عنه (انظر رسالة في التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم ٢١٩)، وهو في الحماسة الشجرية ١ / ٢٧٥. قوله: «ووجد على حجر بالهند مكتوب...» في ط: قيل إنه وجد على حجر بالهند به... إلخ وقد ذكره المؤلف في الأمثال والحكم بلفظه وقصته (الورقة ٣٧ آ).

(٢) قوله: «قال الشاعر» قلت هو الحارث بن حلزة الشكري وقد مرت ترجمته وذكر هبة الله بن علي بن حمزة العلوي الحسني أن قائله هو الحارث بن كلدة وربما كان ذلك تصحيحاً، (انظر الحماسة الشجرية ١ / ٢٧٤) على أن الجاحظ قد ذكر البيت ونسبه إليه بلفظ «وأشندوا للحارث بن حلزة الشكري» (البيان والتبيين ٢ / ١٠٦) وهو أسقى من صاحب الحماسة بلا شك. والحارث بن كلدة الثقي طيب عربي اشتهر بالطب في الجاهلية وعاش حتى أدرك معاوية. انظر أخباره في عيون الأنباء في طبقات الأطباء (بيروت) ٢ / ١٢. طبقات الأطباء والحكماء لامن جلجل ص ٥٤ رقم ١٦، الإصابة ١ / ٢٨٨ رقم ١٤٧٥ والاستيعاب في هامشه في الصفحة نفسها.

(٣) قول الشاعر: «إن السعيد له في غيره عظة... إلخ البيت» أورده الماوردي في أدب الدنيا والدين (٣٢٧) دون أن يعزوه لقاتل وقد أورده الجاحظ في البيان والتبيين ٢ / ١٠٦ مع بيت آخر منسوباً إلى الحارث بن حلزة وهو في الحماسة الشجرية ١ / ٢٧٤ مع ثلاثة أبيات نسها إلى الحارث بن كلدة وقال عنه «هذا كقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «السعيد من وعظ بغيره» وعد جامع ديوان الحارث بن حلزة هذا البيت من منحول الشعر إلى الحارث (ديوان الحارث بن حلزة تحقيق هاشم الطعان ص ٢٣ رقم ١١).

ومن أقوالهم المشابهة لهذا المعنى:

في الشيب لي واعظٌ إن كنت متعظاً

وفي التجارب لي ناءٌ ومزدجرُ

[الحذر والاحتراس]:

ينبغي للسلطان أن لا يغفل عن الحذر والاحتراس؛ ليجعل التوكل على الأعداء وما تجري به الأقدار طريقاً إلى إضاعة الحزم، فيستسلم لنوائب الدهر؛ فإن الله تعالى أمرنا بالتوكل بعد الإنذار، وندب إليه بعد الإعداء، بذلك أنزل كتابه، وأمضى سنته فقال عز وجل:

«خُذُوا حِذْرَكُمْ»^(١).

وقال:

«وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ»^(٢).

وقال النبي عليه السلام:

«اعقلها وتوكل»^(٣).

وسئل: ما الحزم؟

قال: «الحذر».

وقيل لبعض الحكماء:

ما الحزم؟

(١) سورة النساء آية ٧٠.

(٢) سورة البقرة آية ١٩٥.

(٣) حديث «اعقلها وتوكل» رواه الترمذي عن أنس بن مالك أنه قال: قال رجل يا رسول الله اعقلها وتوكل أو أطلقها وتوكل؟ قال: «اعقلها وتوكل» وأضاف الترمذي: «قال عمرو بن علي، قال يحيى بن سعيد: هذا عندي حديث منكر» (سنن الترمذي ٤١٧ / ٥ رقم ٤١٠٧) قال السيوطي: «هو حديث ضعيف» (الجامع الصغير ٤٧ / ١) و(التيسير بشرح الجامع الصغير ١ / ١٧٥) قال السخاوي رواه البيهقي في الشعب وأبو نعيم في الحلية وابن أبي الدنيا في التوكل. - وابن حبان في صحيحه، والطبراني في الكبير (المقاصد الحسنة ٦٥ رقم ١٢٨) [كشف الخفاء ١ / ١٦١ رقم ٤١٨] وقد أصبح هذا الحديث مثلاً يضرب. «انظر كتاب الأمثال لأبي الوفاء محمد بن أحمد البساک (ص ٢١) وأمثال أبي عبيد (ص ٢) والتمثيل والمحاضرة (ص ٢٣) وفيه «اعقل...» وجميع الأمثال (٢ / ٢٦ رقم ٢٤٧٣).

قال: أن تحذر ما يمكن كونه.

قيل: فما العجز؟.

قال: [أن]^(١) تأمن ما يمكن كونه.

وليعلم الملك أن شدة الاتقاء والحذر تدعو إلى [وقوع]^(٢) ما يتقي ويحذر؛ فإنه ربما عادَ عليه من استظهاره فشل، وداخله من شدة حذره وجل، فصار بهما عرضة للنوائب، وهدفاً للمصائب، فتدخله شدة اتقائه فيما كان منه بدء إشفاقه.

وقيل:

من التوقي ترك الإفراط في التوقي^(٣).

وإذا أخذ بالحذر والاحتراص في مواضع الشدة، وعمل على الجراءة والإقدام، عند انتهاز الفرصة، فقد أخذ بالحزم في شدته، وعمل بالعزم عند فرصته.

قال طاهر بن الحسين^(٤): [من البسيط]

(١) الزيادة من ط.

(٢) الزيادة من السياق.

(٣) قوله: «وقيل: من التوقي ترك الإفراط في التوقي» أورده الجاحظ منسوباً إلى محمد بن محمد الحمراي أو الحمراوي (البيان والتبيين ٢ / ١٠٤) وهو أحد النساك الذين أدركهم الجاحظ (البيان والتبيين ١ / ٣٦٥) وذكره مرة أخرى غير منسوب لأحد (١ / ٢١٠) بلفظه وهو في عيون الأخبار (٢ / ٦) وفي سراج الملوك (٢٠٠) دون عزو، وكذا في كتاب الأمثال لأبي الوفاء محمد بن أحمد اليساك (١٠٩)، وقد جعله من الأمثال المعروفة، وقد أورده المشرب بن فاتك ضمن حكم وأدب أفلاطون بزيادة (إن) في بدايته في كتابه مختار الحكم ومحاسن الكلم (١٧٤) وأورده ابن مسكويه ضمن حكم العرب وأمثالها السائرة بلفظه في كتابه الحكمة الخالدة (ص ١٩٥).

(٤) طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق بن ماهان (أبو الطيب) الخزاعي بالولاء الملقب (ذو اليمينين) كان من أكبر أعوان المأمون في محاربة أخيه الأمين، ولد سنة ١٥٩هـ بخراسان =

ركوبك الأمر ما لم تبدُ فرصته
 جهلٌ ورأيك في الإقحامِ تَغْرِيرُ
 فاعملُ صواباً وخذْ بالحزمِ مائرةً
 فلنْ يُذَمَّ لأهلِ الحزمِ تدبيرُ^(١)

[الوعد والوعيد]:

وعلى هذا قياسُ ما قدّمنا مع المنعِ والعطاء؛ لأنَّ لكلَّ فضيلةٍ حداً،
 وتجاوزُ الحدِّ نقصٌ في المحدودِ.

ليكنْ من عادةِ الملكِ إذا أرادَ المقابلةَ على الإحسانِ والإساءةِ، أنْ
 لا يَعدَّ محسناً بثوابٍ، ولا يتوعَّدُ مسيئاً بعقابٍ، لأنَّه على الأمزينِ قادرٌ، وفي
 الوعدِ بالثوابِ تكديرٌ، وفي الوعيدِ بالعقابِ تنفيرٌ، فاستغنى بالفعلِ عن
 القولِ، إلّا أنْ يجعلَ حمده ثواباً، وذمّه عقاباً، فيقتصرَ على الجزاءِ بالقولِ
 بحسبِ الإحسانِ والإساءةِ، ولا يغريه توعّدٌ ولا وعيدٌ على زيادةٍ، وليعتمدْ

= وتوفي بمرور سنة ٣٠٧ هـ مسموماً. له مجموع رسائل، ورسائله إلى المأمون مشهورة. انظر
 بعضاً من أخباره في الفهرست ١٧٦، وفيات الأعيان ٢ / ٢٠١-٢٠٦ رقم الترجمة ٢٨٦،
 المعر ١ / ٣٥١-٣٥٢، وانظر نماذج من توقيعاته في العقد الفريد (العريسان)
 ٣١١-٣١٢.

(١) قوله: «ركوبك الأمر... إلخ البيتين» مع بيتين آخرين بعث بها طاهر بن الحسين حين أخذ
 بغداد مع رسالة إلى إبراهيم بن المهدي دونها ابن عبد ربه وقد جاءت عنده بلفظ:
 ركوبك الهول ما لم تلق فرصته جهل رمى بك بالإقحام تغرير
 فازرع صواباً وخذ بالحزم حيطته فلن يذم لأهل الحزم تدبير
 وقد استشهد الماوردي بهذين البيتين ونسبهما لعبد الله بن طاهر (وهو ابنه) مع ثلاثة أبيات
 وقد جاءت بلفظ:

ركوبك الهول ما لم تبدُ فرصته	جهل وأمرك بالإقدام تغرير
فكن مصيباً وخذ بالحزم مائرة	فلن يذم لأهل الحزم تدبير
فإن ظفرت بجهل ثم فزت به	قالوا جهول أعانتهم المقادير
وإن ظفرت بحزم أو هلكت به	فأنت عند ذوي الألباب معذور
أنكد بدنياً ينال المخطئون بها	حظ المصيبين والمغرور مغرور

(نظر نصيحة الملوك للماوردي الورقة ٨٤ أ).

على الجزاء بالقول فيمن كان بالحق عروفاً، وعن المال عزوفاً؛ فإن تأثير الكلام في الكرام أبلغ من تأثير الفعل بالثام .
وقد قال أنوشروان :

الناس ثلاث طبقات، تسوسهم ثلاث سياسات :
طبقة من خاصة الأحرار، تسوسهم باللين واللفظ .
وطبقة من خاصة الأشرار، تسوسهم بالشدة والعنف .
وطبقة هم العامة، تسوسهم باللين والشدة؛ لئلا تخرجهم الشدة، ولا يبطرهم اللين^(١).



(١) في غ: (لأن لا تخرجهم الشدة ولا ينظر باللين) والتصحيح عن لباب الآداب ٥٣ وتخرجهم بالحاء المهملة من الخرج.

وقول أنوشروان هذا رواه الأمير أسامة بن منقذ ونسبه إليه بلفظه، وفيه «... من خاصة الأبرار تسوسهم بالمعطف واللين والإحسان... تسوسهم بالغلظة والشدة، وطبقة وهم العامة...» (لباب الآداب ٥٣) وأورده النويري وهو عنده بلفظه إلا أن فيه: «... طبقة هم خاصة الأشراف... وطبقة هم خاصة الأشرار تسوسهم بالغلظة والعنف...» (نهاية الأرب ٦ / ٤٤) وأورده السيد محمد العيناوي العاملي ونسبه إلى بعض حكماء الملوك وفيه «... من خاصة الأبرار يسوسهم القول المثبت الرشيد على رشده، الصارف بالمحطى عن خطئه، وطبقة من خاصة الأشرار يسوسهم الفعل الناكل والعنف المستأصل، وطبقة هم العامة يسوسهم مرة هذا ومرة ذاك لئلا يخرجهم غلظة الفعل بلا إبقاء، ولا يخرجهم لين القول بلا إرهاب» (آداب النفس ص ٢٤)، ومن أقوال المأمون المشابهة لهذا المعنى قوله: «الإخوان ثلاث طبقات: طبقة كالغذاء لا يستغنى عنه، وطبقة كالدواء لا يحتاج إليه إلا أحياناً، وطبقة كالداء لا يحتاج إليه أبداً»، (عيون الأخبار ج ٣ ص ١).

[الفصل السابع عشر]

[الطيرة والفأل^(١)]

[اعتقاد الطيرة]:

وليُعلم الملك أن من أقوى الأمور في نقض العزائم: اعتقاد الطيرة؛ فإنه لا شيء أضرب بالرأي، ولا أفسد للتدبير منها، مع ورود السنة باجتنابها، والنهي عنها، فما الأقدار إلا بقضاء محتوم، وأجل معلوم.

قال الشاعر: [من الكامل]

ما للرجال مع القضاء تحيل

ذهب القضاء بحيلة المحتال^(٢)

[(٢٧ آ)]

ومن ظن^(٣) أن الطيرة ترد قضاء، أو تدفع مقدوراً فقد جهل.

إن أفضية الله نافذة بأمره، وجارية على قدره، فليحذر الطيرة، ولا يجعل لنقض عزائم أسباباً، ولا لفساد الرأي عللاً، وليمض الأمور على مقتضى أحوالها.

قيل:

(١) حول الطيرة والفأل عقد الماوردي فصلاً في كتابه أدب الدنيا والدين (٢٨٧-٢٩٠).
 (٢) قول لشاعر: «ما للرجال مع القضاء...» أورده الماوردي في الأمثال والحكم (الورقة ٤٧آ) على أنه مثل من الأمثال وقال إنه تمثل به مروان وأورده بلفظه وفيه «... مع القضاء محالة» وسيأتي به مرة أخرى بلفظه في هذا الكتاب، وقد أوردته نسخة ط قبل فصل الطيرة والفأل بلفظ «... مع القضاء محالة» والشطر الأول من هذا البيت من أمثال العرب وقد أورده ليدي بلفظ «ما للرجال مع القضاء محالة» وقال: المحالة: الحيلة، ومنه قولهم: المرء يعجز لا محالة. (بجمع الأمثال ٢ / ٢٨٩ رقم ٣٩٣٨). وشطره الثاني ورد غير منسوب في الإمتاع والمؤانسة (٢ / ١٤٨) بلفظ «... بحيلة الأقدام» وهو مأخوذ من قولهم: «إذا نزل القضاء كان العطب في الحيلة» (سراج الملوك ١٧٥).
 (٣) قوله «ومن ظن...» إلخ عبارته في أدب الدنيا والدين: «ومن ظن أن خوار بقرة أو نعيب عراب يرد قضاء أو يدفع مقدوراً فقد جهل» (ص ٢٨٧).

الخيرة في ترك الطيرة^(١).

ولينسب ما جرّه القضاء وساقه القدر إلى مدبر الأمور ومقلب الدهور؛
فما لمتطير عيش يصفو من وجل، ولا عزم يخلو من فشل، فيحسم وساوس
الشیطان عن نفسه؛ فما جعل الله لما استأثر لعلمه من الغيوب بشيراً،
ولا نذيراً، وإنما وكله إلى عقول يتدبرون بها، ويعملون بموجبها،
ولم يجعل للطيرة فيها حظاً.

وقد قال الشاعر^(٢): [من الطويل]

وما عاجلات الطير تدني من الفتى
رشاداً ولا عن ريشهن يخيب
[ورب أمور لا تضيرك ضيرة
وللقلب من مخشاتهاهن وجيب]^(٣)

[التفأول]:

فأما الفأل فمحمود الأثر، مؤنس الخبر؛ لأن فيه تنفيذ الآراء، وتقوية
العزائم، فصار في موافقة الرأي على ضد الطيرة في مخالفة الرأي؛
فلذلك تدب إلى الفأل، ومنع من الطيرة.

(١) غ: قبل الخيرة... بالباء في الموضعين.

(٢) قوله: «قال الشاعر...» قلت هو ضياء بن الحارث البرجمي الشاعر المذبح، له شعر كثير
سجنه عثمان لجنابة كانت منه، مات في السجن سنة ٣٠هـ انظر أخباره في الإصابة
٢/ ٢٠٧ رقم ٤٢٠٩، الشعر والشعراء (السقا) ١٢٦، طبقات الشعراء لابن سلام ص ٦٤
وقد جعله في الطبقة التاسعة الخزائنة ٤/ ٨٠، الأعلام ٢/ ٣٠٥، معاهد
التنصيص ١/ ١٨٦، الحيوان ١/ ٣٦٩ وله شعر في حاسة البحر ص ٥ وفي الزهرة
(النصف الأول) ص ٢١٠، وانظر التخريج.

(٣) الزيادة من ط. وقد ذكر الماوردي هذين البيتين في الأمثال والحكم (الورقة ١١٣-١١٣ب)
ونسبهما إلى ضياء بن الحارث وأورد الثاني مع بيت آخر هو قوله:

ولا خير في من لا يوطن نفسه على نائبات الدهر حين تنوب
(الورقة ٦٦ب) ونسبها إليه أيضاً. وهذه الأبيات من قصيدته التي قالها في الحبس حين حسبه
عثمان وفيها البيت الذي يستشهد به كثيراً وهو:

ومن يك أمسى بالمدينة رحله فلني وقياراً بها لغريب
وقد وردت القصيدة في مراجع ذكرها محقق التذكرة السعدية زميلنا الأستاذ عبد الله الجوري
(٣٦٧/١)، فلتراجع هناك.

تفأل رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزواته وحروبه، ولم يتطير^(١)، فافترقا في النص والتعليل، واختلفا في المدلول والدليل.

قيل:

لا تحرك من الأمور ما كان ساكناً، ولا نظهر منها ما كان كامناً، فتعجل تحقيق الحذر وتقدم بادره الخطر^(٢).

وليترك الأمور على مطاوي الدعة، ومجاري^(٣) السلامة، ما لم يبلغه اضطراب، ولا تسقه إليه أقدار؛ فقد قيل في منشور الحكم:

لا تفتح باباً يعينك سده، ولا ترم سهماً يعجزك رده، ولا تفسد أمراً يعينك (٢٨ أ) إصلاحه، ولا تغلق باباً يعجزك افتتاحه^(٤).

قال الشاعر: [من الطويل]

فإياك والأمر الذي إن توسعت

موارده ضاقت عليك المصادر^(٥)

(١) قوله: «تفأل رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزواته وحروبه ولم يتطير» انظر تفصيل ذلك في أدب الدنيا والدين ٢٨٩.

(٢) قوله: «قيل لا تحرك من الأمور ما كان ساكناً...» نسب الثعالبي هذا القول إلى أنوشروان وجاء به بلفظه (غور أخبار ملوك الفرس وسيرهم ص ٦٠٧) ونسب قولاً آخر يتفق به في معناه إلى هرمزد بلفظه «لا تحركن ساكناً، وسكن كل متحرك» (التمثيل والمحاضرة ١٣٨) وأورد شطره الأول الميداني ضمن أمثال المولدين غير منسوب لأحد بلفظه «لا تحركن ساكناً» (مجمع الأمثال ٢ / ٢٥٩).

(٣) غ: مجار. وليست في ط.

(٤) قوله: «قيل في منشور الحكم: لا تفتح باباً يعينك سده...» أورده الأمير أسامة بن منقذ ضمن أقوال الحكيم أرسطوطاليس بنفس لفظه (لياب الآداب ٦٠٧) وأورده الرحبي غير منسوب وفيه «... يفتوك صلاحه... باباً لا يمكنك افتتاحه» (أحاسن المحاسن ١٦٤) وأورد عبد الواحد الأمدي مقاطع منه ونسبها إلى علي رضي الله عنه بلفظه «لا تغلق باباً يعجزك افتتاحه» (غور الحكم ٣٣٣) و«لا ترم سهماً يعجزك رده» (٣٣٤) و«لا تغلق عقداً يعجزك إيقاعه، ولا توحش أمراً يسوؤك فراقه» (٣٣٤) و«لا تبسطن يديك على من لا تقدر على دفعها عنه» (٣٣٥)، وانظر القول بلفظه غير منسوب لقائل في المستطرف (١ / ٢٦).

(٥) غ: مصدره ضاقت عليك الموارد والتصحيح من ط ومن السياق ومن مصادر التخريج.

فَمَا حَسَنُ أَنْ يَعْذَرَ الْمَرْءُ نَفْسَهُ
وَلَيْسَ لَهُ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ عَافِيَةٌ^(١)

* * *

(١) قول الشاعر: «فإياك والأمر الذي إن توسعت... الخ» أوردهما الماوردي في كتاب أدب الدنيا والدين (٣٢٧) دون أن يذكر قائلهما وكذا ذكرهما صاحب التذكرة السعدية (١ / ٢٧٥) وفيها تحريج فليتنظر ولم يذكر القائل.

[الفصل الثامن عشر] [الملوك قدوة للناس]

[البدء بالنفس]:

لا يحسنُ بالملك أن يأمرَ بالمعروفِ إلّا بدأ بفعله، ولا ينهي عن منكرٍ، إلّا بدأ بتركه، ولا يُلْمُ أحداً فيما لا يلومُ عليه نفسه، ولا يستقبحُ منه ما لا يستقبحه من نفسه، ولا يأمرُهم بالبرِّ بما لا يأمرُ به نفسه؛ فإنَّ الناسَ على شاكلةِ ملوكهم يجرون^(١)، وبأخلاقهم يستنون؛ لأنهم أعلامُ متبوعة، ومناهجُ مشروعة.

قال بعضُ الحكماء:

أصلحُ نفسك لنفسِكَ يكنُ الناسُ تبعاً لك^(٢).

(١) قوله: «إنَّ الناسَ على شاكلةِ ملوكهم يجرون...» أصله حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: «أعمالكم عمالكم وكما تكونوا يول عليكم الإيجاز والإعجاز (ص ٦) والتمثيل والمحاضرة (ص ٢٣) والمقاصد الحسنة (٣٢٦ رقم ٨٣٥) وكشف الخفاء (١٨٤ رقم ١٩٩٧)، قل الطرطوشي: «لم أزل أسمع الناس يقولون: أعمالكم عمالكم وكما تكونوا يول عليكم، لي أن ظفرت بهذا المعنى في القرآن. قال الله تعالى: «وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً» (سراج الملوك ١١٦) ومن أمثال المولدين «الناس على دين الملوك» (مجمع الأمثال ٢ / ٣٥٨).

(٢) قوهم: «أصلح نفسك لنفسك يكن الناس تبعاً لك» وفي ط: «تكن النفس تبعاً لك» أورده الماوردي في نصيحة الملوك (الورقة ١٨آ) ضمن كلام الحكيم أرسطوطاليس بنفس اللفظ، وأورده أيضاً في أدب الدنيا والدين (٣٢٨) ولم ينسبه لقاتل، وقد أورده الطرطوشي بلفظه ونسبه إلى الخليل بن أحمد (سراج الملوك ١١٧) ونسبه كل من الأمير أسامة بن منقذ (لباب لأدب ٤٤٩) والمبشر بن فاتك (مختار الحكم ١٩٣) إلى الحكيم أرسطوطاليس بلفظه وفيه «... نفسك» ضمن كلام طويل، ونسباً قولاً آخر في معناه إلى أفلاطون بلفظه: «من قام من الملوك بالعدل والحق ملك سائر رعاياه...» ضمن كلام طويل أيضاً (لباب الأدب ٤٤٩) ومختار الحكم ١٤٩) ونسبه الميداني إلى أبي بكر الصديق وجاء به بلفظه «أصلح نفسك يصلح لك الناس» (مجمع الأمثال ٢ / ٤٥١) وعند الرخجي غير منسوب بلفظه «من أصلح نفسه صلحت رعيته» (أحسن المحاسن ١٦٢) وفي لباب الأدب في موضع آخر ضمن أقوال الحكيم أرسطوطاليس لفظ «حاجة السلطان إلى صلاح نفسه أشد من حاجته إلى صلاح رعيته، وفائدته في إحسان سيرته أعظم من فائدته في ثبات وطنه؛ لأنه إذا أصلح نفسه صلحت رعيته...» (ص ٥٨)، وأخرج ابن الجوزي عن كعب الأحبار أنه قال: «الرعية تصبح بصلاح الوالي وتفسد بفساده» (المصباح المضيء في خلافة المستضيء ١ / ٤٧٠) وفيه تحريجه.

وقال المأمون:

أسوس الملوك من ساس نفسه لرعيته، فأسقط عنه مواقع حجتها،
وقطع مواقع حجته عنها^(١).

قال بعض الحكماء:

أفضل الملوك من أبقي بالعدل ذكره، واستعمله الناس بعده^(٢).
والملك الفاضل هو الذي يحوش الفضائل، ويجود بها على من دونه،
حتى تكثر في أيامه، ويتجمل بها من لم تكن فيه.

وجدير بمن أمر بصلاح أن يكون أحق بفعله، وبمن نهى عن فساد
أن يكون أحق بتركه، ولأن كان علو القدر لا يزيده تحفظاً لم ينقص.

قال الشاعر^(٣): [من الكامل]

(١) قوله: «قال المأمون: أسوس الملوك». الخ» روى النويري هذا القول بلفظه وفيه
«... مواقع حجتها عنه...» (نهاية الأوب ٦ / ٤٤) ومن كلام علي رضي الله عنه: «أعقل
الملوك من ساس نفسه للرعية بما يسقط عنه حجتها، وساس الرعية بما تثبت به حجته» (غرر
الحكم ٩٩) و«حق على الملك أن يسوس نفسه قبل جنده» (غرر الحكم ١٧٠) ولا كتاب ٢٠١٠
كلمة ص ٥٤ رقم ١٢٢٤) ومن ساس نفسه أدرك السياسة ومن بذل ماله استحق الرئاسة»
(غرر الحكم ٢٧٠)، ومن أقوال المعجم: «أسوس الملوك من قاد أبدان الرعية إلى طاعته
بقلوبها» (عيون الأخبار ٨ / ٨) والترجمة والنقل (ص ٢٥٩) وسراج الملوك (ص ١١٨).

(٢) قول بعض الحكماء: «أفضل الملوك من أبقي بالعدل ذكره...» ذكره الميرزا بن فائق على
أنه لأفلاطون بلفظ «أفضل الملوك من بقي بالعدل ذكره، واستعمل بعده فضائله» (مختار
الحكم ١٥٢) وكذا نسب الأمير أسامة بن منقذ إليه بلفظ مقارب من ذلك وهو قوله: «أفضل
الملوك من بقي بالعدل ذكره، واستعمل منه من يأتي بعده» (الباب الأدب ٤٥٦) ولم ينسبه في
(ص ٧١ منه) ومن كلام علي رضي الله عنه: «أفضل الناس سجية من عم الناس عدله»
(غرر الحكم ٩٠) و«أجل الملوك من ملك نفسه ويسط منه العدل» (ص ٩٤) و«خير الملوك من
أما الجور وأحى العدل» (ص ١٧٤).

(٣)

قوله: «قال الشاعر» قلت ينسب هذا البيت لشعراء كثيرين ورد في شعرهم:

فقد نسب الماوردي إلى المتوكل اللبني (الأمثال والحكم الورقة ٥٢ب) وهو المتوكل بن عبد
الله بن نهشل - كنائي، يكنى أبا جهمة مدح معاوية ويزيد انظر أخباره في الأغاني ١٦٠/١٢
طبقات ابن سلام ٢٠٩ وجعله في الطبقة السابعة من الإسلاميين وديوانه طبع في بغداد أخيراً.
ونسبه يوسف بن سليمان بن عيسى الشتمري إلى أبي الأسود اللؤلؤي (تحصيل عين الذهب
من معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب - في أسفل كتاب سيبويه - ١ / ٤٣٤) وأبو =

لا تنه عن خلقي وتأتي مثله
عز عليك إذا فعلك عظيم^(١)

وقال الشاعر: [من الطويل]

لك الخير لم نفساً عليك ذنوبها
ودع لوم نفس ماعليك مليم
وكيف ترى في عين صاحبك القذى
ويخفى قذى عينيك وهو عظيم^(٢)

[الرجوع إلى الحق]:

لا يأنف من حق إن لزم، أو حجة إن قامت؛ فإن الرجوع إلى الحق
أولى من (٢٨ ب) العدول إلى باطل قد كان ناهياً عنه، وربما منعه القدرة
من الاعتراف بما لا يهواه، وأخذته العزة أن يلين بمن سواه، فعاند الحق

= الأسود واسمه ظالم بن عمر المتوفى ٦٧هـ المترجم له في معجم الأدباء ١٢/ ٣٤، ومقدمة ديوانه
الذي حققه الأستاذ عبد الكريم الدجيلي وطبعه ببغداد.

ونسبه ابن عبد البر إلى العرزمي (جامع بيان العلم وفضله ١/ ١٩٥) والعرزمي اسمه عبد
الملك بن أبي سليمان الكوفي أحد المحدثين الكبار توفي ١٤٥هـ (انظر العبر ١/ ٢٠٤).

ونسب مرة أخرى إلى سائق الربري (فصل المقال ٨٥) وهو أبو سعيد سابق بن عبد الله
الشاعر الأموي المشهور بالمواظ والحكم ترجم له عبد الله كتون في مجلة مجمع اللغة العربية
بدمشق م ٤٤-٢٣.

ونسب لظرماع (ديوان أبي الأسود ٢٣١) وهو الظرماع بن حكيم الطائي المتوفى حوالي
١٠٥هـ المترجم له في الشعر والشعراء (المقا ٢٢٨) وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١
/ ٢٤٤ وديوانه مطبوع في لندن ١٩٢٧ وفي دمشق ١٩٦٨.

ونسب للأخطل (الكتاب ١/ ٤٣٤) ونسب لآخرين (حماسة الظرفاء ١/ ١٧٢).

(١) البيت: لانه عن خلق... الخ زيادة من ط وليس في غ وقد أورده الماوردي في الأمثال
واحكم (الورقة ٥٢ ب) منسوباً إلى المتوكل الليثي، والبحري أيضاً (الحماسة ١٧٣)
وديوانه ٢٨٣، والأغاني ١٢/ ١٦٠، والحماسة البصرية ٢/ ١٥، وهو في ديوان أبي
الأسود ٢٣١ و٢٣٣، والعقد الفريد (العريان) ٢/ ١٦٦، ٢/ ٢١٥، ومجمع الأمثال ٢/ ٢١٣
رقم ٣٥٠١، شرح نهج البلاغة ٤/ ٢٢٧، ديوان الأخطل ٣٩٧، جامع بيان العلم
وفضله ١/ ١٩٥ و١٩٦، حماسة الظرفاء ١/ ١٧٢ وفيها تحريج.

(٢) هذان البيتان لم يذكرهما في ط.

ونبذهُ، واستقلَّ المحقُّ ورفضه، ولم يرَ للمحقِّ حقاً فمرَحَ، ولئن طالَ لسانُ
الملكِ فلسانُ الحقِّ أطولَ، ولئن وجبت طاعتهُ فطاعةُ الحقِّ أوجبُ.

قالَ بعضُ الألباءِ:

من خادعِ الحقِّ خُدع، ومن صارعه صرع^(١).

قال الشاعر^(٢):

مَتَى مَا تَقْدُ بِالْبَاطِلِ الْحَقَّ يَأْبَهُ

وَإِنْ قُدَّتْ بِالْحَقِّ الرُّوَاسِي تَنْقَدِ^(٣)

ولئن يحتج لنفسه لمن علم وضوح حجته وظهر عجزه عن إبانته أليق
بسلطانه، وأحمد لزمانه، فإنَّ كلَّ امرئٍ إنما يخاطبه بأصغر لسانه، ويقبضُ

(١) قوله: «من خادع الحق خدع، ومن صارعه صرع» أورده الرخجي غير منسوب بلفظ «من خادع الله خدع، ومن صارع الحق صرع» (أحاسن المحاسن ١٦٠) وفي أدب الدنيا والدين لبعض الحكماء: «من تهاون بالدين هان ومن غالب الحق لان» (ص ٩٣) وقد أورده ابن مسكويه ضمن حكم العرب وأمثالها السائرة بلفظ «من صارع الحق ذل ومن أكثر المزح مل، ومن ترك الكبر جل» (الحكمة الخالدة ١٩٨) ومن أقوال علي: «من خادع الله خدع، من صارع الحق صرع» (غرر الحكم ٢٦٦) ومن عائد الحق صرعه، ومن اغتر بالأمل خدعه» (ص ٢٦٩) ومن صارع الحق صرعه» (كتاب ٢٠٠ كلمة ص ٥١ رقم ١١٥٣) وبمجمع الأمثال (٢/ ٤٥٤، ٤٥٨) وقد جاء القول في ط بلفظ: «من صارع الحق صرع».

(٢) قوله: «قال الشاعر» قلت هو قيس بن الخطيم بن عدي بن عمر الأوسي شاعر من أهل يثرب من شعراء الطبقة الثانية، وسمي أبا الخطيم لضربة خطمت أنفه أدرك قيس الإسلام ولكنه لم يسلم وقتل في الهجرة لكثرة ملاحاته الخوارج الذين قتلوا أباه وهو صغير. انظر أخباره في الأعاني (مسامي) ٢ / ١٥٤-١٦٤، معجم المرزباني ٣٢١-٣٢٢، طبقات الشعراء لابس سلام ص ٨٩، ١٧٦، الخزانة ٣ / ١٦٨-١٦٩، تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (الترجمة العربية) ١ / ١١٤-١١٥ وقد نشر ديوانه في ليزيك ٦٩١٤ وفي بغداد ١٩٦٢.

(٣) قول الشاعر: «متى ما تقد بالباطل...» البيت أورده الماوردي في الأمثال والحكم منسوباً إلى قيس بن الخطيم (الورقة ٢٠) وهو من قصيدة طويلة مطلعها:

تسروح من الحناء أم أنت مفتد وكيف انطلاق عاشق لم يزود

انظرها في ديوانه الذي جمعه الدكتور ابراهيم السامرائي والدكتور أحمد مطلوب ص ٤٤ ٤٧

٤٧ رقم القصيدة ٦ وقد ورد البيت صفحة ٤٦ منه. والبيت في التذكرة السعدية ١ / ٣٣٢ منسوباً إليه.

نفسه عن إقامة الحجة عليه، يراعي حق نفسه في ضبط شهواته؛ فإنها من نتائج الهوى المذموم المذهل عن زواجر العقول فيأتي منها [ما] لم يكن في العقل قبيحاً، ولا في الشرع محظوراً.

قال بعض العقلاء^(١)

إذا تفرغ الملك للهوى^(٢)، تفرغت الرعية لإفساد^(٣) ملكه^(٤).

[قال بعض البلغاء]^(٥)

من أثر اللهو ضاعت رعيته، ومن دوام السكر فسدت رويته^(٦).

[الاعتدال]:

وليقت في مباح الشهوات على حد معتدل بين منزلتين متقابلتين: منع وتمكين؛ ليصل بالتمكين إلى لذته، ويقت بالمنع على مصلحته. ولأن يميل إلى المنع فيتوفر على سياسته خير من أن يميل إلى التمكين، فينهمك في لذته؛ لأن زمان السياسة جد، وزمان اللهو هزل، والجد حق، والهزل باطل، والقيام بالحق أولى من الانهمك^(٧) في الباطل. (٢٩ آ)

قال بعض الحكماء:

من قوي على نفسه تناهى في القوة، ومن صبر على شهوته، بالغ في المروءة^(٨).

(١) ط: بعض الحكماء.

(٢) ط: للشهوة.

(٣) غ: لفساد ملكه وما أثبتناه عن ط. وقد أورد الماوردي ما يشبه هذا القول في نصيحة الملوك مما ينسب إلى أردشير في عهده: «إن اللعب واللهو ليس من أخلاق الملوك وإنما يضرن بأمساب المملكة مؤذنان بخرابها مؤقيان إلى نداعيهما» (الورقة ٣٤ب).

(٤) الزيادة من ط.

(٥) قولهم: «من أثر اللهو ضاعت رعيته...» أوردته الرخجي غير معزو بما نصه «من أكثر اللهو من السلاطين ضاعت رعيته، ومن دوام الشك فسدت رويته» (أحاسن المحاسن ١٦٥).

(٦) غ: الانهمال.

(٧) قولهم: «من قوي على نفسه تناهى في القوة...» ورد هذا القول ضمن الأقوال المنسوبة للإمام علي رضي الله عنه بلفظ «من قوي على نفسه تناهى في القوة ومن صبر على شهوته تناهى في المروءة» (غرر الحكم ٢٧٤) وورد أيضاً بلفظ «أجل الناس من وضع نفسه، وأقوى

[وقيل في مشور الحكم :
أيدي العقول تَمْسِكُ أَعْتَهُ الْأَنْفُسُ] ^(١)

[السواسية]:

وربما اختصَّ بعضُ الملوك في اللذات بما يحظره على من سواه
لينفرد باللذة كما تفرّد بالقدرة، ويأسى أن يشاركه فيها من لا يساويه في
الرتبة، فيخالف عدل السياسة وصواب التدبير؛ لأنه يوغر الصدور وينشيء
النفور؛ لما جُبِلَتْ عليه القلوب من بغض من استبدَّ واستأثر، وتوقع الغير
بمن استباح ما حظر.

وربما عوجل بالغوائل، فإن نوازع الشهوات تبعث على التوصل إليها
بكل حق وباطل، فيصيرُ الخطرُ في حَظَرِها يَكْدُرُ اللذة [في] استباحتها،
ولو أباح ما استباح لكان أصفى للذمة، وأسلم في عاقبتها.

فليكن ما استباحه من اللذات مباحاً للعموم، ولو أطاعته نفسه على
أن يمنعها من اللذات التي لا يقدر من دونه عليها كان أبلغ في استعطاف
القلوب، وطمس العيوب.

كتب الإسكندر ^(٢) إلى معلمه ^(٣) يسترشده في تدبير ملكه فكتب إليه
في جملة رسالته:

الناس من قوي على نفسه، (ص ٨٩) وقد ورد هذا القول في غ بلفظ: «... ومن صد عن
شهوته» وما أثبتناه عن ط.

(١) الزيادة من ط وليست في غ.

(٢) الإسكندر بن فيلش أو فيليس أول ملك من ملوك اليونانيين وأعظمهم على ما ذكره
بطليموس تلميذ على معلمه أرسطوطاليس، امتد سلطانه إلى فارس والهند والصين ومصر
والشام توفي في بابل سنة ٣٢٤ قبل الميلاد وقد ذكره المؤرخون العرب كثيراً وأثنوا عليه وربما
لقبوه بلذي القسرين، انظر نماذج من أقواله وبعضاً من أخساره في مسروح
الذهب ١ / ١٧٩-١٨٧، التمثيل والمحاضرة ١٣٣، ١٣٧، ١٧٦-١٧٧، نهاية الأرب ٦ / ١٦،
العقد الفريد ٢٨ / ٢٩، ١٤٥، ١٤٦، البيان والتبيين ١ / ٨١، ٤٠٧، ٢ / ٦٥، مختار الحكم
ص ٢٢٢-٢٥١، الحكمة الخالدة ٢١٩.

(٣) معلم الإسكندر هو أرسطوطاليس حكيم اليونان والفيلسوف الكبير صاحب مدرسة
المشائين، خلف عدداً من المؤلفات في المنطق والطبيعات والإلهيات والأخلاق توفي سنة
٣٢٢ قبل الميلاد، انظر شيئاً من مؤلفاته وأخباره في الفهرست ٣٥٩ ٣٦٦، أخبار الزمان =

لا تتناول من لذيق^(١) العيش ما [لا]^(٢) يمكن أوساط أصحابك تناول
مثله؛ فليس مع الاستبداد محبة، ولا مع المواساة بغضة^(٣).
[مخاسبة النفس]:

ليكن من دأب الملك تهذيب نفسه بسبر أخلاقه، وتصفح أحواله
وأفعاله؛ فإنه لا يحبذ عليها بإنكار، وإن استكرت، ولا يواجه عليها بإكبار
وإن أكبرت، ولا يسمع لها بدم وإن ذمت، ولا يلقي فيها إلا بما يرضيه من
سداد مختلها (٢٩ ب) وصلاح معتلها.

فإن ترك نفسه وهو متروك محتشم، وأهملها وهو مطاع معظم، قادة
الهوى في القدرة إلى مساوىء الأخلاق، وساقه الإهمال والمشاركة إلى
قبائح الأفعال.
قال بعض الألباء:

من عمل عملاً في السر يستحي منه في العلانية، فليس لنفسه عنده
قدرة^(٤).

للمسعودي ٩٤، تاريخ الفلسفة في الإسلام تأليف دي برور وترجمة محمد عبد الهادي أبي ريذة
ط ١ ص ٢٧ وما بعدها، مختار الحكم ١٧٨-٢٢٢، الحكمة الخالدة ٢٦٦-٢٨١، عيون الأنبياء
في طبقات الأطباء ١ / ٨٤-١٠٥، طبقات الأدباء ٢٥.

(١) غ: للذة والتصحيح من ط.
(٢) لزيادة من ط، وعبرة غ: لا تتناول من لذة العيش ما يمكن تناوله أوساط أصحابك تناول
مثله...

(٣) كتاب أرسطوطاليس إلى الإسكندر تجمد مقاطع منه في مختار
الحكم ١٩٦، ٢٠٥، ٢١٥، ٢١٨، ٢١٨، الحكمة الخالدة ٢١٩، عيون الأنبياء في طبقات
الأطباء ١ / ٩٩، نهاية الأرب ٦ / ١٦.

(٤) قوله: قال بعض الألباء: «من عمل عملاً في السر...» ورد في أدب الدنيا والدين أنه
«سنن محمد بن علي عن المروعة؟ فقال: ألا تعمل في السر عملاً تستحي منه في العلانية»
(ص ٢٩٩) وقد ورد القول غير منسوب لقائل في (٢٢٧) وفي (مختار الحكم ٢٩٨)، وفي
حاشيته أنه لإسقليبوس (المصدر نفسه) وفي التمثيل والمحاضرة أن أنوشروان قال: «المروعة
ألا تعمل عملاً تستحي منه في العلانية» (ص ٤٢١-٤٢٢) ومن أقوال علي رضي الله عنه.
«جماع المروعة أن لا تعمل في السر ما تستحي منه في العلانية» (غرر الحكم ١٦٥) وسبه
اللعالي في الإيجاز والإعجاز إلى اسفندياذ (أحد ملوك العجم) وأتى به بلفظ «لا تعمل في
السر ما تستحي منه في العلانية» (ص ١٠) وأورده ابن قتيبة من كلام محمد بن عمران
التيبي بلفظ «ما شيء أشد حملاً علي من المروعة، قيل: وأي شيء المروعة؟ قال: لا تعمل
شيئاً في السر تستحي منه في العلانية» (عيون الأخبار ١ / ٢٩٥).

فيهذبُ الملكُ نفسه بنفسه، ويستعينُ في صلاحها بحزمه، ويراقبُ وليُّه كما يراقبُ عدوُّه، ولا تحدثُ^(١) له الثقةُ والأنسةُ والانبساطُ، تركُ التحفِظِ عندَ وليٍّ، أو نسيبٍ^(٢)، فمن عَرَفَ منهم زَلَّتْه استقلُّ هيتُهُ.

وقد يصيرُ الموالي المؤنسُ عدوًّا وموحشاً، فينمُّ بما علمَ.

قال بعضُ العلماءِ^(٣):

ليكن استحيائك من نفسك أكثرَ من استحيائك من غيرك^(٤).

وقيلَ:

ما أحببتُ أن تسمعه أذنك فأتبه، وما كرهتُ أن تسمعه أذنك فاجتنبه^(٥).



فهذه جملةٌ كافيةٌ في أخلاقِ الملكِ الرشيدِ،

والله وليُّ التوفيقِ

والتسديدِ^(٦)

(١) غ: يحدث.

(٢) غ: نسب.

(٣) ط: بعض الحكماء، وكذا في أدب الدنيا والدين.

(٤) قولهم: «ليكن استحيائك من نفسك أكثرَ من استحيائك من غيرك» أورده المؤلف بلفظه في أدب الدنيا والدين (٢٢٧) غير منسوب لأحد. ومن كلام علي: «أحسن الحياء استحيائك من نفسك» (غرر الحكم ٩١) و«غاية الحياء أن يستحي المرء من نفسه» (٢٢٢) ومن تمام المروءة أن تستحي من نفسك، (٣٠٤).

(٥) قوله: «ما أحببت أن تسمعه أذنك...» أورد الماوردي هذا القول على أنه حديث من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك في أدب الدنيا والدين (٢٢٦) وهو من الأمثال السائرة فانظره في أمثال أبي عبيد (ص ١٥) وجمع الأمثال (٢ / ٤١١ رقم ٤٦٣٩).

(٦) ورد في ط قوله: فصل: قد مضى الكلام في أخلاق الملك. وأما الكلام في سياسة الملك فروي عن النبي عليه السلام أنه قال: «من سار فيمن بين ظهريه بسيرة حسنة... إلح الحديث الذي سيرد بعد قليل إن شاء الله تعالى.

الباب الثاني

في سياسة الملك^(١)

[تمهيد]:

قَالَ أَقْضَى الْقَضَاةِ رَحِمَهُ اللَّهُ:
حَقٌّ عَلَى مَنْ مَكَتَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَرْضِهِ وَيَلَادِهِ، وَاتْتَمَنَّهُ عَلَى خَلْقِهِ
وَعِبَادِهِ، أَنْ يَقَابِلَ جَزِيلَ نِعْمَتِهِ بِحَسَنِ السَّرِيرَةِ، وَيَجْرِيَ مِنَ الرِّعْيَةِ بِجَمِيلِ
السَّيْرِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (٢٣٠آ)

«يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ، فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ
وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ»^(٢).

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ:

«وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ»^(٣).

(١) في سياسة الملك قال أفلاطون:

«السياسة خمسة أنواع:

أولها: السياسة الكلية: وهي الشاملة لجوامع الكليات. وهي التي تقول بأن الناموس الأجل
تولى إحكامها وإتقانها.

والثانية: الملكية: وهي التي يسوس لها الملك رؤساء المدن.
والثالثة: المدنية: وهي التي يجب أن يساس بها سكان المدينة.
والرابعة: لبيتية: وهي التي يتولاها رب كل منزل في أهله.
والخامسة: إبدنية: وهي التي تحب على كل واحد في بدنه ونفسه.
(نظر السعادة والإسعاد ٢٠٩-٢١٠).

(٢) سورة ص، آية ٢٦.

(٣) سورة القصص، آية ٧٧.

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

«من سارَ فيمن بينَ ظهريه بسيرة حسنة كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمَلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَارَ فِيْمَنْ بَيْنَ ظَهْرِيهِ بِسِيرَةٍ سَيِّئَةٍ كَانَ عَلَيْهِ وَزْرُهَا وَوَزْرُ الْعَامِلِينَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»^(١).

وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال:

لو ضاعت سخلّة على شاطيء فرأت لحشيت أن يسألني الله عليها^(٢).

وحكي أن عثمان بن عبد الله وقف على محمد بن سماعة^(٣) القاضي وهو في مجلس قضائه يحكم بين الناس فقال:

(١) حديث: «من سار فيمن بين ظهريه بسيرة حسنة.. الخ» الحديث رواه مسلم عن جرير بن عبد الله في العلم من كتاب الصحيح بلفظ: «من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء» (صحيح مسلم بشرح النووي ١٦ / ٢٢٥-٢٢٦) وانظر (رياض الصالحين ١٠٢). ورواه الترمذي في العلم عنه (سنن ٤ / ١٤٩، رقم ٢٨١٥)، قال وفي الباب عن حذيفة، هذا حديث حسن صحيح. ورواه النسائي في الزكاة، وابن ماجه في السنة (ذخائر المواريث ١ / ١٨١، رقم ١٦٤١)، (والتزويج والترهيب ١ / ٤٢-٤٣) وفي الباب عن أبي جحيفة في الطبراني في الأوسط، وعمر وائلة بن الأسقع في الطبراني في الكبير وغيرهما، (مجمع الزوائد ١ / ١٦٧-١٦٨)، (وكشف الخفاء ٢ / ٣٥٣، رقم ٢٥٠٩).

(٢) قوله: وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: لو ضاعت سخلّة.. أخرجه ابن الجوزي في السيرة بالفاظ مختلفة منها قوله: «لو ماتت شاة على شاطيء الفرات ضائعة لظننت أن الله عز وجل سألني عنها يوم القيامة» وأخرجه عن داود بن علي. وفي لفظ آخر عن عبد الله بن عمر: «لو مات جدي بطف الفرات لحشيت أن يحاسب الله به عمر»، وعن علي رضي الله عنه قال: «رأيت عمر بن الخطاب رضوان الله عليه على قتب يعدو فقلت يا أمير المؤمنين أين تذهب؟ فقال: بعير نذ من إبل الصدقة أطلبه، فقلت: لقد أدلت الخلاء بعدك، فقال: يا أبا الحسن لا تلمني، فوالذي بعث محمداً بالنبوة لو أن عناقاً (أي سحله) ذهبت بشاطيء الفرات لأخذ بها عمر يوم القيامة»، (سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي طبعة الدار القومية، ص ١١٣)، (وكتاب ألف كلمة لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ص ٦٩، و ص ٩٠).

(٣) محمد بن سماعة: هو أبو عبد الله محمد بن سماعة بن عبيد بن هلال بن وكيع بن بشر -

إِسْمَعُ - لا سَمِعْتُ - يا ابنَ سَمَاعَةَ، وَأَنْشَدَ يَقُولُ: [من الوافر]

لَقَدْ كَلَّفْتُ يَا مَسْكِينُ أَمْرًا
تَضِيقُ لَهُ قُلُوبُ الْخَائِفِينَ^(١)
أَتَعْلَمُ أَنَّ رَبَّ الْعَرْشِ قَاضٍ
وَتَقْضِي أَنْتَ بَيْنَ الْعَالَمِينَ
فَقَامَ ابْنُ سَمَاعَةَ مِنْ مَجْلِسِهِ، وَدَمُوعُهُ تَجْرِي^(٢) عَلَى خَدَّيْهِ^(٣).

فليسَ أحدٌ [أجدر] بالحدِّ والإشفاق، وأولى بالنصب والاجتهاد ممن
تقلَّدَ أمورَ الرعية؛ لأنها أمانةُ الله التي أَمَنَهُ عليها، ورعيته التي استرعاه فيها
واستخلفه على أمورِها، وهو تعالى وليُّ السؤالِ عنها.

ولأنَّه سبحانه حَسَمَ موادَّ الاعتراضِ منها على أفعاله وكفَّ ألسنتها عن
ردِّ ما رآه في اجتهدِهِ، وأوجبَ عليها طاعته، وألزمها الانقيادَ لحكمِهِ،
وأمرَهُمْ أَنْ يتصرفوا بين أمرِهِ ونهيهِ فقال تعالى:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ»^(٤).

= التميمي، أخذت عن الليث بن سعد وأبي يوسف ومحمد بن الحسن وكتب النوادر على أبي
يوسف ومحمد وروى الكتب والأمال، وهو من الحفاظ وأحد أصحاب الرأي، ولي القضاء
ببغداد لثمامون بعد يوسف بن أبي يوسف، فلم يزل ناظرًا إلى أن ضمف بصره فاستعفاه،
وتوفي بعد تركه القضاء بمدة طويلة في سنة ٢٣٣هـ، وكان مولده سنة ١٣٠هـ وله كتب
مصنفة، وأصول في الفقه، انظر ترجمته وأخباره في: أخبار القضاة لوكيع ٣/ ٢٨٢، ٢٨٩،
٣٢٦، الفهرست ٣٠٣، تاريخ بغداد ٥/ ٣٤١-٣٤٢، رقم الترجمة ٢٨٥٩، تاج التراجم
٥٤-٥٥، طبقات ابن سعد ٥/ ٣٢١، أخبار قضاة بغداد وحكامها للدروبي بتحقيقنا
(عطوط) رقم الترجمة ١٦، طبقات أصحاب الحنفية لحنائي زادة، (مخطوط)، لورقة
٨ب-٩آ، الجواهر المضية ٢/ ٥٨، رقم ١٨٩.

(١) غ: الخافيتا والتصحيح من ط.

(٢) ط: جارية:

(٣) غ: على خله.

(٤) سورة النساء، آية ٥٨.

وجعل صلاح جماعتهم بصلاحه، وفساد أمورهم بفساده، لأنه قلب،
وهم أطراف، وقطب وهم أكتاف. (٣٠ب).

قال بعض العقلاء:

رشاد الوالي خير من خصب الزمان^(١).

وأرشد الولاة من حرس بولايته الدين، وانتظم بنظره صلاح
المسلمين؛ لأن الدين يصلح سرائر القلوب، ويمنع من ارتكاب الذنوب،
ويبعث على التأله والتناصف، ويدعو إلى الألفة والتعاطف، وهذه قواعد
لا تصلح الدنيا إلا بها، ولا يستقيم الخلق إلا عليها، وإنما السلطنة زمان
لحفظها، وباعت على العمل بها، ولو أهملوا، ونوازع الأهواء جاذبة،
واختلاف الآراء متقاربة، لتمازحوا، وتغالبا، ولما عرف حق من باطل،
ولا تميز صحيح من فاسد، وليس في العقل ما يجمعهم على حكم يتساوى
فيه قوتهم وضعفهم، ويتكافأ فيه شريفهم ومشروفهم، فلذلك وقفت
مصالحتهم على دين يقودهم إلى جمع الشمل واتفاق الكلمة، وينقطع به
تنازعهم، وتنحسم به مواد أطماعهم واختلافهم، وتصلح به سرائرهم،
وتنحفظ به أمانتهم.

(١) قولهم: «رشاد الوالي خير من خصب الزمان»، ورد في عهد أردشير مبدوءاً بقوله: «وقد قال
الأولون منا: رشاد الوالي خير للرعية من خصب الزمان» (عهد أردشير ص ٥٣ الفقرة ٣)
ومن هنا نسب إلى أردشير في الإيجاز والإعجاز، ص ١٢، بلفظ «عدل السلطان خير من
خصب الزمان» ونسبه المسعودي إلى كسرى أنوشروان بلفظ «صلاح أمر الرعية أنصر من كثرة
الجنود وعدل الملك أنفع من خصب الزمان»، (مروج الذهب ١ / ٢٧٠)، وورد منسواً إلى
أمثال الفرس في التمثيل والمحاضرة (٤٣)، وورد غير منسوب في غرر السير ٤٨٣،
ومحاضرات الراغب الأصفهاني ١ / ١٦٣، والإمتاع والمؤانسة ٢ / ١٤٩، والمستطرف
١ / ١٠١، والمصباح المضيء في خلافة المستضي ١ / ٤٢٤، ٤٥١ وفي هذا المعنى ورد قول
عمرو بن العاص «إمام عادل خير من مطر وابل، وأسد حطوم خير من إمام عشوم، وإمام
عشوم خير من فتنة تلوم»، انظر في التمثيل والمحاضرة (٣١) وغاية الأدب (٢٥٧) والإيجاز
والإعجاز (ص ١٢)، والمحاضرات ١ / ١٦٩، ونسبه عبد الواحد الأملدي إلى علي رضي الله
عنه (غرر الحكم ٣٥)، وكذا في سراج الملوك ٥٢، وقد نسب القول الأخير إلى أردشير
(غرر أخبار ملوك الفرس ٤٨٣، ولباب الآداب ٣٤٦، والعقد الفريد ١ / ٧، والكاما
للمرد ١ / ٢٦٩).

وربما أهمل بعض الملوك الذين، وعول في أموره على قوته، وكثرة
أجناده، وليس يعلم أن أجناده إذا لم يعتقدوا وجوب طاعته في الدين كانوا
أضر عليه من كل ضد مبين، لاقتراحهم عليه ما لا ينهض به، وتحكيمهم
عليه بما لا يثبت له، فإن سمعوا بنبأ نبيغ عليه، قوي طمعهم في اجتياح
أمواله، ولم يقنعهم استيعاب حاله، وكان منهم على شفا جرف هار،
لا يأمن سطوتهم به.

وقد قيل:

من جعل ملكه خادماً لدينه انقاد له كل سلطان، ومن جعل دينه خادماً
لملكه طمع فيه كل إنسان^(١).



(١) قوله: «وقد قيل: من جعل ملكه خادماً لدينه انقاد له كل سلطان...»، أورده الأمير أسامة
بن منقذ بهذا اللفظ ولم يسبه لمعين بل قال: «وقال حكيم آخر...» (لباب الأدب ٥٤)،
وقد ذكر الميشر بن فاثك هذا القول منسوباً إلى أرسطوطاليس بلفظ: «أي ملك أخدم ملكه
ديه فهو مستحق للرياسة، وأي ملك جعل دينه خادماً للملك، فالملك أفة له» (مختار الحكم
١٩٢). وقد أورده عبد الواحد الأمدي بلفظه ضمن أقوال الإمام علي رضي الله عنه، (غرر
الحكم ٢٩٥) وأورد في موضع آخر من كلامه أيضاً: «إن جعلت دينك تبعاً لدينك أهنتك
دينك ودينك وكننت في الآخرة من الخاسرين، وإن جعلت دينك تبعاً لدينك أحررت دينك
ودينك، وكننت في الآخرة من الفائزين» (ص ١٢٣-١٢٤) وانظر ما يشبهه من (ص ٢٠٢،
٢٠٣). وأورده أبو الحسن بن الحسين الرخجي غير منسوب بلفظ: «كل ملك جعل ملكه
خادماً لدينه انقاد له كل سلطان، ومضى جعل ديه خادماً للملك طمع فيه كل إنسان»
(أحسن المحاسن ١٥١).

[الفصل التاسع عشر]
[أن يكونَ الملكُ أفضلَ الناسِ ديناً]

[الدين والملك]:

ينبغي^(١) للملك أن يأنف من أن يكونَ (١٣١) في رعيته من هو أفضلُ ديناً منه، كما يأنف أن يكون في رعيته^(٢) [من هو]^(٣) أنفذُ أمراً منه.

وقالَ أردشير بن بابك^(٤) في عهده^(٥) إلى ملوكِ فارس.

(١) ط: قال بعض الحكماء: ينبغي للملك أن يأنف أن يكون...

(٢) غ: فيهم.

(٣) الزيادة من ط.

(٤) أردشير بن بابك: وأردشير: بفتح الهمزة وسكون الراء وفتح الدال المهملة وكسر الشين المعجمة وسكون الباء المثناة من تحتها وبعدها راء، قاله الدارقطني الحافظ، وقال غيره: معناه دقيق وحليب، ومثيل معناه دقيق وحلو، وهو لفظ أعجمي مكون من لفظتين (أرد) وهو عندهم الدقيق و(شير) الحليب، و(شيرين): الحلو، والله أعلم. وقال بعضهم: أردشير بالهمزة والزاي، قال ابن مكي الصقلي: «والصواب أردشير بن بابك براءين وفتح الباء» (تتقيف اللسان ٦٥)، وانظر (مجلة لغة العرب ١/ ١٥٢)، وأردشير هذا هو أحد ملوك الفرس الذي آباد ملوك الطوائف، ومهد الملك نفسه، واستول على الممالك، حكم بعد أردوان بن بهرام واستمر في حكمه ١٤ سنة وجاء من بعده ابنه سابور، انظر حوله وفيات الأعيان ٢/ ١٠٠-١٠١، ضمن الترجمة ٢٤٧، ٣/ ٤٨١ ضمن الترجمة ٦٢٠، وغرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم للتحالي ٤٧٣-٤٨٦، وتاريخ سخي ملوك الأرض والأنبياء ٤٢-٤٤، مروج الذهب ١/ ١٤٥-١٥٥، وانظر نماذج من أقواله وأخباره في تاريخ الطبري ٢/ ٣٧-٤٣، (١/ ٨١٣-٨٢٢، طبعة أوروبا)، التنبيه والإشراف ٩٨، البدء والتاريخ ٣/ ١٥٦، التاج في أخلاق الملوك: ٢٥، ٢٧، ٤٧، ١١٨، ١٥٥، العقد الفريد ١/ ٢٧، ٢٩، ٤٨، ١٤٨، التمثيل والمحاضرة ١٣٦، ثمار القلوب ١٧٨، مقدمة كتاب عهد أردشير للدكتور إحسان عباس.

(٥) عهد أردشير: كان الملك من ملوك فارس يعهد إلى من بعده من الملوك عهداً يكون لهم إماماً ومرشداً، ويكون واجباً عليهم أن يذعنوا قراءته ويكثروا تدبره، فعهد أردشير وصبة جامعة لمؤسس دولة جمع فيها تجاربه ومعرفته منسقة، فلا غرابة إذا ما صار لديهم دستوراً يحاط بالإحلال والتقديس؛ لما امتاز به أردشير من الذكاء، وبعد النظر، والمدالة، والحزم، فكان وثيقة سياسية هامة، تبين جوانب الفكر السياسي آنذاك، وقد ترجم إلى العربية في دور مبكر، يرجح أنها كانت في أواخر العصر الأموي، (انظر مقدمة عهد أردشير، ص ٣٥)، وظل هذا العهد متناثراً بين ثنايا الكتب، ولم ينشر - إذا استثنينا منتخب العلامة أحمد تيمور =

إِنَّ الدِّينَ وَالْمُلْكَ^(١) تَوَآمَانِ لَا قَوَامَ لِأَحَدِهِمَا إِلَّا بِصَاحِبِهِ؛ لِأَنَّ الدِّينَ أُسٌّ، وَالْمُلْكُ حَارِسٌ^(٢)، وَلَا بَدْ لِلْمُلْكِ مِنْ أُسِّهِ، وَلَا بَدْ لِلْأُسِّ^(٣) مِنْ حَارِسِهِ؛ لِأَنَّ مَا لَا حَارِسَ^(٤) لَهُ ضَائِعٌ، وَمَا لَا أُسَّ لَهُ مِنْهَدُمٌ^(٥).

= باشا منه الذي طبعه سنة ١٣١٨هـ - حتى قام الدكتور إحسان عباس أخيراً بتحقيقه وطبعه مطبعة دار صادر، بيروت، طبعته الأولى سنة ١٩٦٧.

قال المبرد: «ويروى أن المأمون أمر معلمه الوائق بالله - وقد سأله عما يعنده إياه - أن يعلمه: كتاب الله جلَّ اسمه، وأن يقرئه عهد أردشير، ويحفظه كتاب كليله وديمة» (الفاصل ص ٤).

(١) غ: الملوك، وما أثبتناه عن ط وعن مصادر التخريج.

(٢) غ: حادث.

(٣) ط: للدين، وما أثبتناه عن غ، وعن مصادر التخريج.

(٤) غ: حادث.

(٥) قول أردشير: «إِنَّ الدِّينَ وَالْمُلْكَ تَوَآمَانِ..» وردت هذه الفقرة في عهد أردشير بلفظ: «واعلموا أن الملك والدين أخوان تَوَآمَانِ لَا قَوَامَ لِأَحَدِهِمَا إِلَّا بِصَاحِبِهِ؛ لِأَنَّ الدِّينَ أُسٌّ وَالْمُلْكُ عِمَادُهُ، ثُمَّ صَارَ الْمُلْكُ بَعْدَ حَارِسِ الدِّينِ، فَلَا بَدْ لِلْمُلْكِ مِنْ أُسِّهِ، وَلَا بَدْ لِلدِّينِ مِنْ حَارِسِهِ؛ لِأَنَّ مَا لَا حَارِسَ لَهُ ضَائِعٌ، وَمَا لَا أُسَّ لَهُ مَهْدُومٌ»، (انظر عهد أردشير ص ٥٣، الفقرة رقم ٤)، وقد استشهد الماوردي بنصوص من هذا العهد في كتابه نصيحة الملوك، (الورقة ٦ب، ٢٢)، وقد وردت هذه العبارة في كثير من المصادر على صور مختلفة: ففي رسائل البلقاء: (٣ط ص ٣٨٢): «الدين أساس الملك، والملك حارس الدين، فلا يقوم أحدهما إلا بالآخر..» وفي عيون الأخبار: «إِنَّ الْمُلْكَ وَالِدِينَ أَخْوَان لَا غَنَى بِأَحَدِهِمَا عَنْ الْآخَرِ، فَالِدِينَ أُسٌّ وَالْمُلْكُ حَارِسٌ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَهُ أُسٌّ فَهُدُومٌ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَهُ حَارِسٌ فَضَائِعٌ..» (ج ١ ص ١٣)، وأيضاً في (ص ٥ منه)، وتجد العبارة كما وردت في العهد في مروج الذهب (١/ ١٥٤) وأنها من وصية أردشير لابنه سابور، وهي في لسان الأدب (ص ١٨)، وفيها زيادة، ونهاية الأرب (٦/ ٣٥)، والمستطرف (١/ ٨٧)، والمقد الفريد (١/ ٢٧) وفيه: «إِنَّ الْمُلْكَ وَالْمَدْلُ أَخْوَان..»، وفي سراج الملوك (٦١)، وغرر الخصائص (٦٣)، ومحاضرات الراغب الإصفهاني (١/ ١٦٧)، وقد ورد مقطع منه في التاج في أحلاق الملوك (ص ٣) غير منسوب، وفي الترجمة والنقل عن الفارسية منسوباً إلى نوشروان بلفظ: «إِنَّ قَوَامَ الْمُلْكِ إِنَّمَا هُوَ الدِّينُ، فَإِذَا ضَعُفَ الدِّينُ ضَعُفَ الْمُلْكُ» (ص ١٠٥)، والسعادة والإسعاد منسوباً إليه في كلام طويل (ص ٢٠٧)، وتفسير روح البيان للشيخ اسماعيل حقي لزموسوي (المطبعة العثمانية ١٣٣٠هـ، ج ١، ص ٣٩٢)، في تفسير آية: «وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ لِلنَّاسِ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ»، (آية ٤٠، من سورة الحج)، وانظر شرح موجز البلاغة (٤/ ١٣٦) وقد تكلم الغزالي بمعناها (نصيحة الملوك ٥١)، قال ابن الجوزي معللاً على هذا العهد: «قلت وهذا الذي قاله صحيح؛ فإن الأصل الملة والدين، والأنبياء تسوس بالترهيب والتشويق الأخراوي، ولما لم يكف ذلك في ردع النفوس لقوة غلبة الطباع، رددت =

[الدفع عن الدين بالملك]:

وكتب حكيم الروم^(١) إلى الإسكندر:
 ادفع عن دينك بملكك، ولا تدفع بدينك عن ملكك، وصير دينك
 وقاية لآخرتك، ولا تصير آخرتك وقاية لدينك^(٢)
 وكيف يرجو من تظاهر بإهمال الدين استقامة ملك، وصلاخ حال،
 وقد صار أعوان دولته أضدادها، وسائر رعيته أعداءها، مع قبح أثره وشدة
 ضرره، وبذلك قال النبي عليه السلام:
 «[إنكم] ستحرصون على الإمارة، ثم تكون حسرة وندامة يوم القيامة،
 فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة»^(٣).

= بالتحذير الدنياوي كالقتل والحد، قال الله عز وجل: «لقد أرسلنا رسلاً بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد» - الحديد: ٢٥- فالأمراء يدعون ما أمرت به الشرائع من الردع، فعلمت أن السلطنة شرعية، فيجب أن تكون السياسة فيها قائمة على حد العدل، فإن مالت إلى الظلم صار الوالي متصرفاً بهواه لا بأمر الشرع، فخرجت الولاية إلى مقام الهوى والطبع، (المصباح المضيء في خلافة المستضيء ١/ ٤٤٩-٤٥٠).

- (١) قوله: «حكيم الروم» قلت هو أرسطوطاليس وقد مرت ترجمته وترجمة الإسكندر.
 (٢) كتاب أرسطوطاليس إلى الإسكندر «ادفع عن دينك بملكك.. ذكره المشر بن فاثك منسوباً إليه بلفظ «صير دينك وقاية لآخرتك، وصير آخرتك وقاية لدينك، وقدم مجلس من كان معروفاً بالورع واقتض حوائج العامة بهم» (مختار الحكم ١٩٣)، وأورد عبد الواحد الأمدي قولاً لعلي رضي الله عنه بلفظ «صير الدين حصن دولتك والشكر حوز نعمتك، فكل دولة يحوطها الدين لا تغلب، وكل نعمة يحرزها الشكر لا تسلب» (غرر الحكم ٢٠٢)، وورد القول غير منسوب في أحاسن المحاسن بلفظ «ذب بملكك عن دينك، ولا تذب بدينك عن ملكك، واحلل دينك وقاية لأخراك، ولا تجعل آخرتك وقاية لدينك، فمن ذب بملكه عن دينه عز نصره، ومن وقى آخرته بدينه جل قدره»، (ص ١٦١).

- (٣) حديث «إنكم ستحرصون على الإمارة..» رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة بلفظ «إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة»، (صحيح البخاري ٤/ ١٥٨ - باب الأحكام) والنسائي من حديث أبي هريرة في سنه في كتاب القضاة والبيعة بلفظ «إنكم ستحرصون على الإمارة وإنها ستكون ندامة وحسرة، فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة» (مسن ٨/ ٢٢٥ و ٧/ ١٦٢)، وأحد في مسنده مرتين - إحداهما بلفظ «وستصير ندامة وحسرة.. فبئست المرضعة ونعمت الفاطمة»، والثانية بلفظ «.. حسرة وندامة.. نعمت المرضعة وبئست الفاطمة»، من حديث أبي هريرة (مسند أحمد ٢/ ٤٤٨، ٤٧٦).

وقد قيل:

الملك خليفة الله في بلاده، ولن يستقيم أمرُ خلافةِ مع مخالفته^(١).

فالسعيد من وقى الدين بملكه، ولم يوق الملك بدینه، وأحى السنّة بعديّه، ولم يمتها بجوره، وحرس الرعيّة بتدبيره، ولم يضعها بتدميرهِ؛ ليكون لقواعد ملكه موطئاً، ولأساس دولته مشيداً، ولأمر الله في بلاده ممثلاً، فلن يعجز الله استقامة الدين عن سياسة الملك وتدبير الرعايا.



(١) قولهم: «الملك خليفة الله في بلاده».. أورده الأمير أسامة بن منقذ بلفظ «.. لأن السلطان خليفة الله في أرضه».. ضمن قول طويل للحكيم أرسطوطاليس، (لباب الأدب ٥٨)، وانظر (ص ٧٢ منه) منسوباً إلى الحكماء. ومن كلام أنوشروان: «الملوك خلفاء الله في أرضه» وقال: «الملوك أمناء الله في أرضه، وأولى الأمور بالمؤمن حفظ ما يؤمن عليه».. (السعادة والإسعاد ٢٠٦-٢٠٨)، وفي (الترجمة والنقل عن الفارسية ص ١٠٤-١٠٥)، وأورد الطرطوشي كلاماً طويلاً لسعد العشيرة حين دخل على بعض ملوك حمر جاء فيه «طاعة الأئمة فرض على الرعية، كما أن طاعة السلطان مقرونة بطاعة الله، اتقوا الله بحمته ولسلطان بطاعته. من إجلال الله إجلال السلطان عادلاً كان أو جائراً».. (سراج الملوك ٥٩)، وأورده أبو الحسن محمد بن أبي ذر يوسف العامري النيسابوري ضمن أقوال أنوشروان بنقط: «قال أنوشروان: إن الله تبارك وتعالى إنما خلق الملوك لتنفيذ مشيئته في خلقه، ولإقامة مصالحهم وحراستهم، فلذلك نقول بأنهم خلفاء الله في أرضه»، (السعادة والإسعاد ٢٠٦) وفي الحديث: «إنما السلطان ظل الله ورعته في الأرض»، (المقاصد الحسنة ١٠٥)، رقم ٢٠٧) و(كشف الحفاء ١/ ٢٤٦، رقم ٦٤٥) و(نهاية الأرب ٦/ ١٢)، ومن كلام كعب الأحبار: «السلطان ظل الله في أرضه»، (المصباح المضيء في خلافة المستضيء ٤٠١/ ١).

[الفصل العشرون]

[قواعد الملك]^(١)

ثم أقول:

- إن قواعد الملك مستقرة على أمرين:
- تأسيس.
- سياسة.

(١) ذكر المؤلف هذه القواعد في أدب الدنيا والدين بتفصيل آخر إذ يقول:

«إعلم أن ما به تصلح الدنيا حتى تصير أحوالها منتظمة، وأمورها ملتزمة ستة أشياء هي قواعدها وإن تفرعت وهي:

دين مشيع.

وسلطان قاهر.

وعدل شامل.

وأمن عام.

وخصب دائم.

وأمل فسيح...»

وأخذ يشرح كل قاعدة من هذه القواعد. (انظر ص. ١١٩ وما بعدها).

[تأسيس الملك وأقسامه]^(١):

فأما تأسيس الملك فيكون في تثبيت أوائله ومباده، وإرساء قواعده ومبانيه.

وتنقسم ثلاثة أقسام:

تأسيس دين.

وتأسيس قوة. (٣١ب)

وتأسيس مال وثروة.

[تأسيس الملك على الدين]:

فأما القسم الأول، وهو تأسيس الدين فهو أثبتها قاعدة، وأدومها مدة، وأخلصها طاعة.

وليس يخلو انتقال الملك به من ثلاثة أسباب:

أحدها:

أن يخرج الملك من منصب الدين حتى يتولى عليه غير أهله، ويظهر منه خلاف عقده، فتتفر منه النفوس إن لآن، وتعانده إن خشن، تعصيه

(١) أورد الأمير أسامة بن منقذ للحكيم أرسطوطاليس قولاً فيه أقسام الملوك على النحو التالي: -
«قال الحكيم:

اعلم أن الملوك ثلاثة: ملك دين، وملك حزم، وملك هوى. فأما ملك الدين فإنه إذا قام لأهله دينهم، وكان دينهم هو الذي يعطيهم الذي لهم، ويلحق بهم الذي عليهم أرواحهم ذلك، وأنزل الساخط منهم منزلة الراضي في الإقرار والتسليم.

وأما ملك الحزم فإنه يقوم به الأمر ولا يسلم من الطعن والسخط، ولن يضر طعن مع حزم القوي.

وأما ملك الهوى فلعب ساعة ودمار الدهر. (لباب الآداب ٧٤)، وفي الأدب الكبير من كلام ابن المقفع ضمن رسائل البلغاء، وفي سراج الملوك (٥٤) وعيون الأخبار (ج ١ ص ٢) منسوبة فيها إلى ابن المقفع.

القلوب وإن أطاعته الأجساد، فيتطلب الناس للخلاص منه أسباباً، ويفتحون للثوب عليه أبواباً، يستهلون فيها بذل النفوس والأموال؛ حفظاً لدينهم، فيصير ملكه عرضةً للطالب، وحریمه غنیمةً للسالب، وقد قال حكيم الروم:

لا يزال الجائر من الملوك مهلاً، حتى يتخطى إلى أركان العمارة، ومباني الشريعة، فإذا قصدها اقتربت مدته.

والسبب الثاني:

أن يكون الملك ممن قد استهان بالدين، وهون^(١) أهله، فأهمل أحكامه، وطمس أعلامه، حتى لا تؤدي فروضه، وتوفى حقوقه، إما لضعف عزمه في الدين، وإما لانهماكه في اللذات، فيرى الناس أن الدين أقوم، ولحقوقه وفروضه ألزم، فيصير دينه مذحولاً^(٢)، وملكه محلولاً.

قال بعض الحكماء:

إذا أقبلت الدولة خدعت الشهوات للعقول، وإذا أدبرت خدعت العقول للشهوات^(٣).

والسبب الثالث:

أن يكون الملك ممن قد أحدث بدعة في الدين شناعة، واختار فيه أقوالاً بشعة، يفضي استمرارها إلى تبديله، ويؤول إلى تغييره وتعطيله، فتأبى نفوس الناس بغير دين قد صح لهم معتقده، واستقرت في القلوب أصوله وقواعده، فيصير دينه مرفوضاً، وملكه منقوضاً.

فإذا طرأ على الدين هذه الأسباب الثلاثة، ونهض إلى طلب الملك

(١) غ: وهو من أهله وهو تصحيف.

(٢) مذحولاً: الذحل: الحقد والعداوة.

(٣) قولهم: «إذا أقبلت الدولة... الخ» أورد هذا القول المشر بن فائق ضمن آداب ومواعظ أفلاطون بنفس ألفاظ المقطع الأول، أما المقطع الثاني منه فيلقت: «... وإذا أدبرت خدعت العقول للشهوات» (غتنار الحكم ١٣٨).

من يقومُ بنصرة الدين، ويدفعُ (٣٢آ) تبدلَ المبتدعين، ويجري فيهم على السُننِ المستقيم، أذعنَتِ النفوسُ لطاعته^(١)، واشتدَّت في مؤازرته ونصرته، ورأوا أن بذلَ النفوس له من حقوقِ الله المفترضة، وأنَّ النصرَ له من أوامره الملتزمة، فملك القلوب والأجساد، واستخلص الأعوانَ والأجنادَ، فإن نالوا معه من الدنيا حظًا، وجمعوا به بين صلاحِ الدين والدنيا، صارَ مجتذباً^(٢) إلى الملك لا جاذباً، ومرغوباً إليه لا راغباً، ولأنَّ له كلَّ صعب، وهانَّ عليه كلَّ خطب، وتوطَّد له من أسس الملك ما لا يقاومُ سلطانه، ولا تُغلُّ أعوانه؛ لفرق ما بين ملك الطالب والمطلوب، وتباين ما بين طاعة الخاطب والمخطوب.

[تأسيس الملك على القوة]:

وأما القسمُ الثاني، وهو تأسيسُ القوة، فهو أن يُحلَّ نظامُ الملك إما بالإهمال والعجز، وإما بالظلم والجور، فينتدبُ لطلب الملك أولو القوة، ويتوثَّب عليه ذو القدرة، إما طمعاً في الملك حينَ يضعف، وإما دفعاً للظلم حينَ استمر.

وهذا إنما يتمُّ لجيشٍ قد اجتمعت فيهم ثلاثُ خلالٍ:
كثرة العدد.

وظهورُ الشجاعة.

وتفويضُ الأمرِ إلى مقدَّمٍ عليهم إما لنسبٍ وأبوة، وإما لفضلٍ رأيٍ وشجاعة.

فإذا توثَّبوا على الملك بالكثرة، واستولوا عليه بالقوة كانَ ملكٌ قهري.

فإن^(٣) عدلوا مع الرعية، وساروا فيهم بالسيرة الجميلة صارَ ملكٌ تفويضي وطاعة؛ قرساً وثبتت.

(١) غ: أذعن في النفوس بطاعته.

(٢) غ: عتدياً.

(٣) غ: وإن.

وإن جاروا وعسفوا، فهي حولة توثب، ودولة تغلب، بيدها الظلم،
 ويزيلها البغي، بعد أن تهلك بهم الرعايا، وتخرّب بهم البلاد.
 [تأسيس الملك على المال والثروة]:

وأما القسم الثالث فهو تأسيس المال والثروة، فهو أن يكثر المال في
 (٣٢ب) قومه، فيحدث لهم بعلو الهمة طمعاً في الملك، وقل أن يكون هذا
 الأمر إلا فيمن له بالسلطنة اختلاط، وبأعوان الملك امتزاج، فيبعث مطامع
 الراغبين فيه على طاعته، وتسليم الأمر إلى زعامته.

وبعيد أن يتم ذلك إلا عند ضعف الملك وهائه، وفساد أعوانه
 وزعمائه. وقيل في منشور الحكم:
 المال ربما سؤد غير السيد، وقوى غير الأيد^(١).

فإذا انتقل به الملك كان أوهى الأسباب قاعدة وأقصرها مدة؛ لأن
 المال ينفذ مطامع طالبيه، ويذهب باقتراح الراغبين فيه.
 وقد قيل:

من ودك لأمر ولّى مع انقضائه^(٢).
 قال سليمان بن داود عليه السلام:

(١) قلهم: «المال ربما سؤد غير السيد...» ورد هذا القول في رسالة كلمات غنّارة غير منسوب
 لأحد وبلغظ: «ربما سؤد المال غير السيد وقوى غير الأيد» (ص. ٢١) وفي الإمتاع والمؤانسة
 (١٤٩/٢) ومن كلام علي: «الغني يسؤد غير السيد. المال يقوى غير الأيد» (غرر الحكم
 ٣١) والأيد، بوزن جيد، القوي.

(٢) قولهم: «من ودك لأمر ولّى مع انقضائه» قال أبو حيان: «وجد على خاتم ملك الهند: من
 ودك لأمر ولّى عند انقضائه» (البصائر والذخائر ١٤٦) وفي آداب التنس منسوباً إلى حكيم
 بلغظه (٨٥/١)، وفي هذا المعنى يقول صالح بن عبد القدوس: «شر الإخوان من كانت
 مودته مع الزمان، إذا أقبل، فإذا أدبر الزمان أدبر عنك، فأخذ هذا المعنى الشعر فقال.
 شر الأخلاء من كانت مودته مع الزمان إذا ما حاف أو رغا
 إذا وترت امرأ فاحذر عداوته من يزرع الشوك لا يحصد به عنباً
 إن العُدو وإن أبدى مسالمة إذا رأى منك يوماً فرصة وشا

وقد اورد عبد الواحد الأمدي هذا القول ضمن أقوال علي رضي الله عنه بلغظ: «من واذك
 لأمر ولّى عند انقضائه» (غرر الحكم ٢٨١) وفي موضع آخر «من رغب فيك عند إقبالك رهد =

الذي يتوكل على غنايته سقوطه سريع.

فإن اقترن بسبب يقتضي ثبوت الملك [ثَبَّتْ] وإلا فهو وشيك الزوال،
سريع الانتقال.

واعلم أن الدولة تبتدىء بخشونة الطباع، وشدة البطش؛ لتسرّع
النفوس إلى بذل الطاعة، ثم تتوسط باللين والاستقامة؛ لاستقرار الملك،
وحصول الدعة، ثم تختتم بانتشار الجور وشدة الضعف؛ لانتفاض الأمر،
وقلة الحزم.

وبحسب هذه الأحوال الثلاثة يكون ملوكها في الآراء والطباع.

وقد شبه المتقدمون الدولة بالثمرة؛ فإنها تبدو حسنة الملمس، مرة
الطعم، ثم تدرك فتلين وتستطاب، ثم تنضج فتكون اقرب للفساد
والاستحالة.

وكما تُبتدأ الدولة بالقوة، وتختتم بالضعف، كذلك تُبتدأ بالوفاء وتختتم
بالغدر؛ لأن الوفاء مشيد، والغدر مشرد^(١).



= فيك عند إيدبارك» (ص ٢٩٠) ونسبه الثعالبي إلى بلهرا ملك الهند بلفظ: «من وذلك لأمر
أبغضك عند انقضائه» (الإيجاز والإعجاز ١١).

(١) قوله: «وكما تبتدأ الدولة بالقوة وتختتم بالضعف... إلخ» أورد المشرحين فائدته قولاً
لأفلاطون قريباً من هذا المعنى وهو قوله: «الدولة تبتدأ بالعدل والرغبة، فإذا توسط أمرها
سيست بالرغبة والرغبة، وإذا قرب زوالها سيست بالرغبة والمحابة...» (مختار الحكم
١٦٣).

[الفصل الحادي والعشرون]

[سياسة الملك]

[قواعد سياسة الملك]:

وأما سياسة الملك بعد تأسيسه واستقراره (٣٣٣) فتشتمل على أربع قواعد^(١)، وهي:

عمارة البلدان.

وحراسة الرعية.

وتدبير الجند.

وتقدير الأموال.

[١ - عمارة البلدان]:

فأما القاعدة الأولى، وهي عمارة البلدان، فالبلاد نوعان

مزارع.

وأمصار.

(١) غ: أربعة قواعد. وقوله «وأما سياسة الملك بعد تأسيسه واستقراره فتشتمل على أربع قواعد» لم تذكر نسخة ط هذه الأمور. وقد جاء في أدب الدنيا والدين ما نصه: «والذي يلزم سلطان الأمة من أمورها سبعة أشياء: أحدها: حفظ الدين من تبديل فيه، والحث على العمل به من غير إهمال له، والثاني: حراسة البيضة، والذب عن الأمة من عدو في الدين، أو ساخي نفس أو مال، والثالث: عمارة البلدان بإعتماد مصالحها، وتهذيب سبلها ومسالكها، والرابع: تقدير ما يتولاه من الأموال بمنن الدين من غير تخويف في أخذها وإعطائها، والخامس: معانة المظالم والأحكام بالتسوية بين أهلها واعتماد الصفة في فصلها، والسادس: إقامة الحدود على مستحقها من غير تجاوز فيها ولا تقصير عنها، والسابع: اختيار خلائه في الأمور، أن يكونوا من أهل الكفاية فيها، والأمانة عليها» (أدب الدنيا والدين ١٢٣).

ومن كلام أنوشروان في واجبات الملك: «وأول ما يجب على الملوك إقامة الدين... السعادة والإسعاد (٢٠٦ ٢٠٨) والترجمة والنقل عن الفارسية (١٠٥)، وقال أفلاطون: «وأول ما يجب على الملك أن يأخذ به رعيته الإيمان بالله» السعادة والإسعاد (٣٤٠).

[أ - عمارة المزارع]:

فأما المزارع فهي أصول المواد التي يقوم بها أود الملك، وتنظم بها أحوال الرعايا، فصلاحيها خصب وثراء، وفسادها جذب وخلاء، وهي الكنوز المدخورة، والأموال المستمدة، وأي بلد كثرت ثماره ومزارعه استقل بخيره، وفاض على غيره، فصارت الأموال إليه تجلب، والأقوات منه تطلب، وهو بالضد، إن قلت أو اختلت.

فلزم مدبر الملك فيها ثلاثة حقوق:

أحدها: القيام بمصالح المياه التي هو عليها أفدر، ولها أفهر، حتى تدر فلا تنقطع، وتعم فلا تمتنع، ويشارك فيها القرب والبعد، ويستوي في الانتفاع بها القوي والضعيف.

فإن أهملت حتى قلت، وتغالب الناس عليها بسطوة وقوة، اختل نظامها، وفسد الثامها، واستبد فيها من استطال، وتحكم في الأموال والأقوات، فضيق على الناس لسعته، وهزم لمنفعته، وصار خصبه جذبا، وخطبه صعبا.

والحق الثاني: عليه أن يحميهم من تخطف الأيدي لهم، ويكف الأذى عنهم، فإنهم مطامع أولي السلاطة، ومأكلة ذوي القوة، ليأمنوا في مزارعهم، ولا يتشاغلوا بالذبح عن أنفسهم، ولا يكون لهم غير الزراعة عملا؛ لأن لكل صنعة أهلا فيستكثروا من العمارة، ويتسعوا في الزراعة، فيكونوا عوناً وعواناً لمن عداهم.

وقال النبي عليه السلام:

«التمسوا الرزق في خبايا الأرض، الزرع»^(١)

والحق الثالث: عليه تقدير ما يؤخذ منهم بحكم الشرع وقضية العدل (٣٣ ب) حتى لا يتألمهم في قدرها حيف^(٢)، ولا يلحقهم في أخذها عسف، فإنهم لا يصلون إلى إنصافه إلا بعدله؛ لتدعن نفوسهم ببذل الحق منها طوعاً، ويكون لهم في تخفيف الكلف عنهم فضل^(٣)، فإن الزمان باتساعهم خصب، والملك باستقامة أمورهم ملتئم.

فإن حيف عليهم في القدر، أو عسف بهم في الأخذ انعكس الصلاح إلى ضده، فدانوا وأدانوا، وصارت ولاية فھر تخرج من سيرة العدل والإنصاف.

ثم هم لإخلالهم واختلالهم من وراء نفور وجلاء.

قال سليمان بن داود عليه السلام:

اشرب الماء من ينبوعك، وليفض مأوك في أسواقك ليكون^(٤) ينبوعك مباركاً.

(١) حديث «التمسوا الرزق في خبايا الأرض، الزرع» رواه الدارقطني والبيهقي عن عائشة (كشف الخفاء / ٢٠٣ رقم ٥٢٩) وروى بلفظه، وقد يروي بلفظ «اطلوا» عند أبي يعلى والطبراني والبيهقي سند ضعيف (نفس المصدر ١ / ١٥٤ رقم ٣٩٦) وانظر أيضاً المقاصد الحسة (ص ٨٣ ضمن الحديث رقم ١٦٢) والجامع الصغير (١ / ٤٤) وقال النسائي هذا حديث مكر (التيسير شرح الجامع الصغير / ١٦٤) وقد ذكر الماوردي هذا الحديث في أدب الدنيا والدين (١٩٤) والأمثال والحكم (الورقة ٤١ ب) وأدب الوزير (٢٠) وانظره في ثمر القلوب (٥٠٩) والتمثيل والمحاضرة (ص ٢٦) وفيه «يعني الحرث» وفيه أيضاً أنه من أمثال الفلاحة والزراعة (ص ٢٥٢، ١٩٤) ونخاص الخاص (٨١) ومن كلام عمر بلفظ «استعوا الأرزاق...» (ألف كلمة لأمر المؤمنين عمر بن الخطاب ص ٧).

(٢) ع: خوف.

(٣) غ: فضلاً.

(٤) غ: ليكن.

قال بزرجمهر:
مَنْ عَمَرَ بَيْتَ الْمَالِ مِنْ ظُلْمِ رَعِيَّتِهِ كَمَنْ طَيَّنَ سَطْحَهُ مِنْ قَوَاعِدِ
بَيْتِهِ^(١).

وكتب زياد^(٢) إلى عماله على السواد:
أحسنوا إلى المزارعين؛ فإنكم لا تزالون سيماناً ما سمعنا^(٣).

[ب - عمارة الأمصار]:
وأما الأمصار فهي الأوطان الجامعة.
والمقصود بها خمسة أمور:
أحدها: أن يستوطنها أهلها طلباً للسكون والدعة.

(١) قول بزرجمهر: «من عمر بيت المال...» أورده الثعالبي ونسبه إلى أنوشروان بلفظ: «إن
لثك إذا كثرت أمواله بما يأخذ من رعيته كان كمن يعمر سطح بيته بما يقتلع من قواعد
بنيانه» (ثمار القلوب ١٧٩) (والتمثيل والمحاضرة ١٣٧) (نهاية الأرب ٦ / ٨) ويلفظ: «مثل
الملك الذي يعمر خزائنه بأموال رعيته كمثل الذي يطين سطح بيته بالتراب الذي يقتلعه من
أساسه» (الإيجاز والإعجاز ١٤).

ومن كلام جعفر بن يحيى الذي ساقه الطرطوشي بقوله: «... ومثل من كلف الرعية
من الخراج فوق طاقتها كالذي يطين سطحه بتراب أساس بيته» (سراج الملوك ١٢٣) وانظر
المستطرف ١ / ١٠٨).

ومن كلام كسرى في قصة طريفة بينه وبين عجوز وابتهى في العدل والخصب: قال:
«إن الملك إذا عمر بيوت أمواله بما يأخذ من الرعية كان كمن يعمر سطح بيته بما يقلعه من
قواعد بنيانه» (المصباح المضيء في خلافة المستضيء ١٠ / ٥٠٦).

(٢) زياد: هو زياد بن أبي سفيان، كان من الدعاة الخطباء الفصحاء. ضرب به المثل في حسن
السياسة ووفور العقل وحسن الضبط لما يتولاه، مات سنة ثلاث وخسين وهو أمير المصريين
الكوفة والبصرة ولم يجعما قبله لغيره وخطبته البتراء مشهورة انظر شيئاً من أخباره في
الإصابة (١ / ٥٦٣ رقم ٢٩٨٧)، الاستيعاب (عل هامش الإصابة) (١ / ٥٤٨-٥٥٥) أسد
انفاس ٢ / ٢٧١ رقم ١٨٠٠ (طبعة الشعب)، وانظر نماذج من أقواله في التمثيل
والمحاضرة ٣٢، ٤٠، ١٣٤، البيان والتبيين ١ / ٧٣، ١١٨، ١٦٥، ١٩٦، ٢٩٦، ٢٦٠،
٣٨٧، ٣٨٨، ٣٩٥، ٦ / ٦١، ٦٥، ٦٦، ٨١، ٩٥، ١١٢، ١١٤، ١٤٥، ١٩٤،
٢٠٠، ٢١٠، ٢١٣، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٥١، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٦٠، ٢٧١، ٢٩٦، ٢٩٩،
٣٠١، ٣٢٠، ٣ / ٢٤٠، ٢٩٤.

(٣) قوله: «كتب زياد إلى أعماله على السواد: «أحسنوا إلى المزارعين...» انظر هذا الكتاب
لفظه منسوباً إليه في عيون الأخبار (١ / ١٠) وسراج الملوك (١٢٣) بلفظ «لم تزالوا».

والثاني: حفظ الأموال فيها من استهلاك وإضاعة.
والثالث: صيانة الحريم والمحرم من انتهاك ومذلة.
والرابع: إلتماس ما تدعو إليه الحاجة من متاع وصناعة.
والخامس: التعرض للكسب وطلب المادة.
فإن عُدَمَ فيها أحد هذه الأمور الخمسة، فليست من مواطن الاستقرار،
وهي منزل قبيحة ودمار^(١).

قال الزبير بن العوام^(٢) رضي الله عنه: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«إِنَّ الْبِلَادَ بِلَادُ اللَّهِ، فحيث ما وجدت خيراً فاحمد الله وأقم»^(٣)

وحظَّ السلطان في عمارة (٣٤ آ) البلدان والأوطان أوفى من حظ رعيته؛ لأنه أصل هم فروعه، ومتبوع هم أتباعه.

[شروط إنشاء الأمصار]:

والذي يُعتبر في إنشائها ستة شروط:

أحدهما: سعة المياه المستعذبة.

والثاني: إمكان^(٣) الميرة المستمدة.

والثالث: اعتدال المكان الموافق لصحة الهوى والترية.

(١) غ: منزل قلعة ووقار، وهو تصحيف، والقيمة كما في الصحاح مثل القاع، وبعضهم يقول هو جمع.

(٢) الزبير بن العوام الصحابي الجليل وأحد المبشرين بالجنة المقتول سنة ٣٦ هـ انظر الإصابة ١/ ٥٢٦-٥٢٨ رقم ٢٧٨٩، الاستيعاب ١/ ٥٦٠-٥٦٥، أسد الغاية ١/ ٢٤٩-٢٥٢ رقم ١٧٣٢، طبقات خليفة بن خياط ١٣، ١٨٩، ٢٩١، تاريخ خليفة بن خياط ٢٧، ٤٥، ٦٤، ٧٨، ١١٤، ١١٩، ١٢١، ١٦٠-١٦٨، ١٨٦.

(٣) حديث: «إن البلاد بلاد الله...» رواه أحمد والطبراني من حديث الزبير بسند ضعيف ولفظه عندهما: «البلاد بلاد الله، والعباد عباد الله فأى موضع رأيت فيه رفقا فأقم» (المقاصد الحسنة ١٤٧ رقم ٣٠٤) ويلفظ «فحيثما أصبت خيراً فأقم» (الجامع الصغير ١/ ١٢٨) و(كشف الحفاء ١/ ٣٤٢ رقم ٩٢٤) و(التيسير بشرح الجامع الصغير ١/ ٤٤١).

(٤) غ: أركان الميزة.

والرابع: قرْبَةُ مما تدعو الحاجةُ إليه من المراعي والأحطاب.
والخامس: تحصينُ منازلِهِ من الأعداءِ والزُّعَارِ^(١)
والسادس: أن يحيطَ به سوادٌ يعينُ أهْلَهُ بموادِهِ.
فإذا تكاملتْ هذه الشروطُ الستةُ في إنشاءِ مصرٍ، استحكمتْ قواعدُ
تأبيدهِ، ولم يُزَلْ إلَّا بقضاءٍ محتومٍ، وأجلٍ معلومٍ
[ما على منشيءِ المِصرِ في حقوقِ ساكنيه]:

ثم على منشيءِ المِصرِ في حقوقِ ساكنيه ثمانيةُ شروطٍ:
أحدها: أن يسوقَ إليه ماءُ الساريةِ إن بعدتْ أطرافُهُ، إما في أنهارٍ
جاريةٍ، أو حياضٍ سائلةٍ، ليسهلَ الوقوفَ إليه من غيرِ تعسفٍ.
والثاني: تقديرُ طرقِهِ وشوارعِهِ، حتى تتناسبَ ولا تضيقَ بأهلِها،
فيستضرَّ المارُّ بها.

والثالث: أن يبنى جامعاً^(٢) للصلواتِ في وسطِهِ؛ ليقربَ على جميعِ
أهلِهِ، ويعمَّ شوارعَهُ بمساجدهِ.

والرابع: أن يقدرَ أسواقَهُ بحسبِ كفايتهِ، وفي مواضعٍ حاجتهِ.
والخامس: أن يميزَ خططَ أهلِهِ، وقبائلَ ساكنيهِ، ولا يجمعَ بينَ
أضدادٍ متنافرين، ولا بينَ أجناسٍ مختلفين.

والسادس: إن أرادَ الملكُ أن يستوطنَهُ سَكَنَ منه في أفسحِ أطرافِهِ،
وأطافَ به جميعَ خواصِّهِ، ومن يكفيه^(٣) من أمرِ أجنادهِ، وفرقَ باقيهِمْ في
بقيةِ أطرافِهِ، ليكفُوهُ من جميعِ جهاتهِ، وخصَّ أهلَهُ بالعدلِ، وجعلَ وسطَهُ
بعواماً أهلِهِ (٣٤ ب) ليكونوا مكنوفينَ بهم، وليقلَّ ركوبُهُ فيهِمْ، حتى لا يبلينَ
في أعينهِمْ.

(١) الزُّعَارُ: جمع زُعْرٍ، والزُّعْرُ: الرجل الذي فيه زُعَارَةٌ، والزُّعَارَةُ - بتشديد الزاء - شراسةُ
الحلق.

(٢) غ: جامع

(٣) غ: يكتفه.

والسابع: أن يحوِّطهم بسورٍ إن تآخموا عدوًّا، أو خافوا اغتياًلاً، حتى لا يدخل عليهم إلّا من أرادوه، ولا يخرج عنهم إلّا من عرفوه؛ لأنّه دارٌ لساكنيه، وحرزٌ لمستوطنيه.

والثامن: أن ينقل إليه من أعمالِ أهلِ العلومِ والصنائعِ ما يحتاجُ أهلهُ إليه؛ حتى يكتفوا بهم، ويستغنوا عن غيرهم.

فإذا قامَ منشئه بهذه الشروطِ الثمانيةِ فيه، فقد أدّى حقَّ مستوطنيه، ولم يبقَ لهم عليه إلّا أن يسيرَ فيهم بالسيرةِ الحسنی، ويأخذهم بالطريقةِ المثلى، وقد صارَ من أكملِ الأمصارِ وطناً، وأعدّها مسكناً.

[أنواع الأمصار]:

والأمصارُ نوعان:

مصرٌ مزارعٌ وسوادٌ.

ومصرُ فرصةٍ وتجارةٍ.

[مصر المزارع والسواد]:

فأما مصرُ المزارعِ والسوادِ، فهو أثبتُ المصيرينِ أهلاً، وأحسنهما^(١) حالاً، وأولاهما^(٢) استيطاناً؛ لوجودِ موائدهِ فيه، واقتناءِ أصولهما منه.

[من شروط مصر المزارع والسواد]:

ومن شرطه: أن يكونَ في وسطِ سوادهِ، وبينَ جميعِ أطرافه، حتى تعتدلَ موائدهُ منها، وتتساوى طرقُهُ إليها، وهو موفورُ العمارةِ ما كانَ سوادهُ عامراً.

فإن نالَ أهلهُ فيه حيفاً، فرَّقَهُم الحيفُ في سوادهِ، فأصابوا عيشاً، ودافعوا من زمانِ الحيفِ وقتاً. وإن جارَ السوادُ على أهلهِ كانَ لهم في المصيرِ أمنٌ وملأدٌ، ويكونُ كلُّ واحدٍ منهما للآخرِ معاذاً^(٣).

(١) غ: وأحسنها.

(٢) غ: وأولاهما.

(٣) غ: معاذ.

[مصر الفرصة والتجارة]:

وأما مصرُ الفرصةِ والتجارةِ فهو من كمالِ الإقليم، وزينة الملك؛ لأنه مقصودٌ بتحفيّ البلاد، وطرف (٣٥ آ) الأقاليم، فلا يعودُ فيه مطلوبٌ، ولا ينقطع عنه مجلوبٌ.

[شروط هذا النوع من الأمصار]:

والمعتبر فيه ثلاثة شروط:

أحدها: أن يتوسطَ أمصارَ الريف، ويقربَ من بلادِ المتاجر، فلا يبعدَ على طالبه، ولا يسبقَ على قاصده.

والثاني: أن يكونَ على جادةٍ تسهلُ مسالكها، ويمكنُ نقلُ الأثقالِ فيها، إما في نهر، أو على ظهر. فإن توعرتُ مسالكه، وأجذبتُ مفاوزه، عدلَ الناسُ عنه إلّا من ضرورة.

والثالث: أن يكونَ مأمونَ السبلِ لأهلِ الطرقات، خفيفَ الكلف، قليلَ الأثقال؛ فإنه ليس يأتيه إلّا جالبٌ مجتازٌ يطلبُ من البلادِ أجداها، فإن توعرَ هجر.

وهذا أكثرُ البلدين طالباً، وأنشرهما في الأقاليم ذكرأ.

وهو معدٌ لمطالبِ الملوك، لا لموادهم، فإن استمدوه وتحققوه بالمكوس والأعشار نفروا عنه.

وإن وجدوا سواه صارَ لأهلِ الضروراتِ دونَ الاختيار^(١)، ولا دوامَ لأوطانِ الإضرار، ولا يبعدُ أن يندرسَ، فيلحقَ المضطّرُّ بالمختار، وإن لم يستدركه سلطانه بتخفيفٍ وإنصافٍ؛ لأنَّ [أمواله]^(٢) أموالُ تجارةٍ متقلبة،

(١) غ: الاختيار.

(٢) الزيادة من البياق.

لا يشقّ عليهم تحويلها، فهم^(١) يستوطنون من البلاد أعدائها، ويقصدون من المتاجر والمعاملات أسهلها، فإن بنا بهم وطن، فكُلّ البلاد لهم وطن.

قال الشاعر^(٢): [من الكامل]

وَأَتْرُكُ مَحَلَّ السُّوءِ لَا تَخْلُلُ بِهِ

وَإِذَا نَبَا بِكَ مَنْزِلٌ فَتَحَوَّلِ^(٣)

(١) غ: فهو.

(٢) قوله: «قال الشاعر...» قلت إن البيت للشاعر قيس (أو عبد قيس) بن خفاف بن عمرو بن حنظلة البرجمي التميمي والبراجم من بني تميم، شاعر مجيد، له المفضليتان ١١٦، ١١٧، وهما الأصمعتان ٨٧ و ٨٨، وتدلان على خلق رفيع، وكان جاهلياً، انظر بعضاً من أشعاره في الحماسة الشجرية ١ / ٤٦٨، وحماسة الطرفاء ١ / ١٥٣، وعن نسبه انظر اللباب ١ / ١٣٣، وربما نسب لشعراء آخرين. انظر مصادر التخرّيج.

(٣) قوله: «وأترك محلّ السوء...» إلى آخر البيت نسبه الماوردي في كتابه الأمثال والحكم إلى قيس بن خفاف البرجمي (الورقة ٤٦ب) وجاء به بلفظه، وكذا في الحماسة البصرية (١٦ / ٢) وفي الحماسة الشجرية مع قصيدة (١ / ٤٦٩) منسوباً إلى عبد قيس بن خفاف وكذا في حماسة البحتري (١٧٩) بلفظ «احذر محلّ السوء...» وهو كذلك عند المفضل الضبيّ منسوباً إلى عبد قيس أيضاً ضمن ثمانية عشر بيتاً بلفظه (المفضليات ٢ / ١٨٥ رقم القصيدة ١١٦ من تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون وص ٧٥١ من طبعة كارلوس يعقوب لايل بمطبعة الآباء اليسوعيين بيروت) وقد أورده ابن منظور في قصيدة من ١٤ بيتاً منسوبة إلى عبد القيس بن خفاف (لسان العرب - دار صادر - مادة كرب ١ / ٧١٢) قال ناشره حول هذا الاسم: «وكذا في التهذيب، والذي في الحكم: قال خفاف بن عبد القيس البرجمي» (المصدر نفسه) وانظر تهذيب اللغة (مادة كرب ١٠ / ٢٠٦) والبيت في حماسة الطرفاء (١ / ١٥٣) وفيها تخرّيج ضمن أحد عشر بيتاً منسوبة إلى عبد قيس الحنظلي لابنه جليل بلفظ «واحذر محلّ السوء... فلذا...» وقد ورد شطره الثاني غير منسوب في التمثيل والمحاضرة (ص ٤٠٠) وقد ورد البيت غير منسوب أيضاً في الأشباه والنظائر للخالدين (١ / ١٩٤) وقال محققه: إنه لمعترضة وذكر تحريماً له، كما ذكر أنه ينسب إلى عبد قيس (انظر حاشية ١ / ١٩٤) قال الخالديان: «ويروى أن هبنة القيسي الذي يجمع سمع مشدداً ينشد هذا البيت، فقال: أخطأ القاتل. قيل له: ولم؟ قال: لأن أهل السجون قد بنا بهم منزلهم ولا يقدرون على التحول، ولكن الصواب أن يقول:

إذا كنت في دار عيسنك أهلها ولم تكن مكبولاً بها فتحول

(الأشباه والنظائر ١ / ١٩٤ والتذكرة السعدية ١ / ٣١٣. وفي الحماسة البصرية من شعر المقع الكندي (٢ / ٣) ونسبه في موضع آخر إلى أبي المياح العبدي (٢ / ٢٣) وهذا المعنى قد طرقة الشعراء كثيراً قال مسكين الدارمي:

[٢ - حراسة الرعية^(١)]

وأما القاعدةُ الثانيةُ [وهي حراسةُ الرعية] فلأنهم - لأماناتِ الله التي استودعه حفظها، واسترعاه القيامَ بها، لا يقدرُونَ على الدفعِ عن أنفسهم إلاّ بسلطانهِ، ولا يصلون إلى العدلِ والتناصفِ إلاّ بإحسانهِ، وهو منهم بمنزلةِ وليّ اليتيمِ المندوبِ لكفالتِهِ، والقيمِ بمصالحِهِ، يلزمه - بحكمِ الاسترعاءِ والأمانة - أنْ يَقُومَ زللهُ، ويصلحَ خللهُ، ويحفظَ أمواله، ويشمّرَ مَوادّه، كذلك مكانهُ من عَيْتِهِ في الذبِّ عنهم، والنظرِ لهم، والقيامِ (٣٥ ب) بمصالحِهِمْ^(٢)، فإن النفعَ بصلاحِ أحوالِهِم عائدٌ عليه، والضررُ [بفسادِها]^(٣) متعدّدٌ إليه، فلن توجدَ استقامةُ ملكٍ فسدت فيه أحوالُ الرعايا.

= أقيم بدار الحي ما لم أهن بها وإن خفت من دار هواناً تركتها
(أنظر الأشبه والنظائر ١ / ١٩٥) وفيه آيات أخرى بهذا المعنى. وقال العباس بن مرداس:
وإن بوؤوك مبركاً غير طائل غليظاً فلا تنزل به وتحول
(شرح ديوان الحماسة ١ / ٤٣٤)، وقال حزن بن جنب التميمي:
وإن خفت من دار هواناً فوطاً سواك وعن دار الأذى فتحول
(البتذكرة السعدية ١ / ٣٢٢) ويلفظ «وإن خفت من أمر فواتاً فوله...» منسوباً إلى منقر بن فروة المنقري (البيان والبيان ٣ / ٢٢٨).
(١) حول حراسة الرعية قال أنوشروان:
«الرعايا أربعة أقسام:

فقسم منها أهل الدين، وهم أصناف: الحكام والعباد والنسك والمعلمون.
وقسم المقاتلة، وهم صنفان: فرسان ووجالة.
والقسم الثالث: الكتاب، وهم أصناف: فمنهم كتاب الرسائل، وكتاب الخراج، وكتاب الشروط.
والقسم الرابع: الخدم وهم الزراع والرعاة والصناع والتجاره
(السعادة والإسعاد ص ٢٠٩).

(٢) قال ابن المقفع: «حق الوالي أن يتفقد لطيف أمور رعيته فضلاً عن جسيمها؛ فإن لطيف موضعاً يتفقد به، وللمجسيم موضعاً لا يستغنى عنه، ليفقد الوالي - فيها يتفقد من أمور الرعية - فاقة الأحرار منهم فليعمل في سدها، وطفيان السفلة منهم فليقمعه» (الأدب الكبير ١١٦).

(٣) الزيادة من حاشية غ.

[ما يلزم الملوك في حق الاسترعاء]:

والذي يلزم الملك في حقوق الاسترعاء عليهم عشرة أشياء^(١):

أحدها: تمكين الرعية من استيطان مساكنهم وادعين.

والثاني: التخليّة بينهم وبين مساكنهم آمنين.

والثالث: كفّ الأذى والأيدي الغالبة عنهم.

والرابع: استعمال العدل والنصفة معهم.

والخامس: فصل الخصام بين المتنازعين منهم.

والسادس: حملهم على موجب الشرع في عباداتهم ومعاملاتهم.

والسابع: إقامة حدود الله تعالى، وحقوقه فيهم.

والثامن: أمن سبلهم ومسالكهم.

والتاسع: القيام بمصالحهم في حفظ مياههم وقناطرهم.

والعاشر: تقديرهم وترتيبهم على أقدارهم، ومنازلهم، فيما يتميزون به من دين وعمل وكسب وصيانة.

فلإذا قام فيهم بهذه الحقوق، فهي السياسة العادلة، والسياسة الفاضلة التي تستخلص بها طاعة الرعية، وتُنظّم بها صلاح المملكة.

وإن أُخلّ بها كان وإياهم على ضدها.

قال أردشير بن بابك:

(١) قوله: «عشرة أشياء...» ذكر المؤلف في أدب الدنيا والدين ص ١٢٣ أن الذي يلزم سلطان الأمة من أمورها سبعة أشياء سبق أن نقلناها في حاشية موضوع (فصل سياسة الملك بعد تأسيسه) فلتراجع. وقد سئل أنوشروان: ما الذي يجب على الملوك للرعية، وما الذي يجب للرعية على الملوك؟ قال: للرعية على الملوك أن يصفوهم ويتصفوا لهم، ويؤمنوا سرهم، ويجرسوا نفورهم، وعلى الرعية للملوك النصيحة والشكر» (الحكمة الخالدة ص ٥٦).

سعادة الرعية في طاعة الملك، وسعادة الملك في طاعة المالك^(١).

قال بعض الألباء^(٢):

إذا لم يكن في سلطان الملك سرور لرعيته كان ملكه ظلماً^(٣).
حكى أن أنوشروان أنفذ^(٤) رسولا إلى ملك قد أزمع^(٥) على محاربتِه،
وأمره أن يتعرف سيرته في نفسه ورعيته، فرجع [إليه]^(٦) وقال:

وَجَدْتُ عِنْدَهُ^(٧) الهزل أقوى من الجَدِّ، والكذب أكثر^(٨) من الصدق،
والجور أرفع^(٩) من العدل.

فقال أنوشروان: رزقت الظفر عليه^(١٠)، سر^(١١) إليه، وليكن عملك في

(١) من قوله «قال سليمان بن داود عليه السلام: الذي يتوكل على غناؤه سقوطه سريع...» إلى هنا ليس في ط.

وقول أردشير بن بابك: «سعادة الرعية...» استشهد به الماوردي في كتابه نصيحة الملك وإنه من كلام أردشير في عهد وجاء به هناك بلفظ: «سعادة الرعية في طاعة الملوك وسعادة الملوك في طاعة الله الملك» (الورقة ٢٩ب)، وقد أورد الجاحظ هذا القول منسوباً إليه بلفظ «... في طاعة الملوك، وسعادة الملوك...» (التاج في أخلاق الملوك ص ٢)، وقد أورد ابن الجوزي منسوباً إليه بلفظ: «سعادة الرعية في طاعة الملوك. وسعادة الملوك في طاعة الله» (المصباح المضيء في خلافة المستضيء ١ / ٤٠١).

(٢) ط: بعض الحكماء.

(٣) قوهم: «إذا لم يكن في سلطان الملك سرور لرعيته كان ملكه ظلماً» أوردته المؤلف في كتابه أدب الوزير بلفظه وفيه (... سرور الرعية...) (ص ١٢) ومن أقوال عمر في هذا المعنى: «أشقى دولة من شقيت به رعيته» (التمثيل والمحاضرة ٢٩) و(مجمع الأمثال ٢ / ٤٥١) والإيجاز والإعجاز ٨.

(٤) في نصيحة الملوك: وجه.

(٥) في سراج الملوك: قد أجمع.

(٦) الريدة من سراج الملوك وليست في غ ولا في ط ولا في نصيحة الملوك.

(٧) في نصيحة الملوك: الهزل عنده.

(٨) في نصيحة الملوك: أكثر عنده.

(٩) في نصيحة الملوك وسراج الملوك: أوقع وما أثبتناه عن غ وط.

(١٠) في سراج الملوك؛ الظفر به.

(١١) في نصيحة الملوك: ثم دعا بعض قواده فقال له: سر إليه...

محاربتِهِ بما هو ^(١) أضعفُ عندهُ، وأقلُّ، وأضعفُ، فإنك منصورٌ عليه ^(٢)، وهو مخدولٌ.

فسارَ إليه فظفرَ به ^(٣) واستولى على ملكه ^(٤).

[٣ - تدبير الجند]:

وأما القاعدةُ الثالثةُ - وهي تدبيرُ الجندِ - فلأنَّ بهم مَلَكٌ (٣٦) حتى قهرَ، واستولى على قدرٍ، فإن صلحوا كانت قوتُهم له، وإن فسدوا صارت قوتُهم عليه.

وبعيدٌ ممن كان معه فصارَ عليه أن يرى معه رشداً.

[شروط تدبير الجند]:

وتدبيرُهم الذي يحققُ عليهم طاعتهم، ويستخلصُ به نصرَتهم، يكون بأربعةِ شروطٍ، إن استكملها صلحوا به، واستقاموا له، وإن أخلَّ بها فسدوا عليه، وأفسدوا ملكه.

أحدها: تقويمُهم بالأدب الذي يحفظُ عليه وفورُ نَجْدَتِهِمْ، وكمالُ تَجْنِيدِهِمْ، ليصلَحَهُمْ بذلك لأنفُسِهِمْ، ثم لنفسِهِ، ثم لرعيَتِهِ.

(١) في نصيحة الملوك وسراج الملوك: بما هو عنده أضعف، وفي ط بما هو أضعف وأقل.

(٢) (عليه) ليست في نصيحة الملوك ولا في سراج الملوك.

(٣) في نصيحة الملوك وسراج الملوك فقتله.

(٤) في نصيحة الملوك: على مملكته. وقوله: «حكى أن أنوشروان أنفذ رسولا إلى ملك قد أرمع على محاربتِهِ... الخ» أوردها الماوردي في كتابه نصيحة الملوك (الورقة ٣٧) ورواها الطرطوشي قائلًا: «وقال الواحشي: وجه أنوشروان...» (سراج الملوك ١٨٨) ونجد مثل هذا الأمر ما رواه ابن مسكويه عن بعض قداماء الملوك أنه كان «إذا أراد محاربة ملك وحه من يبحث عن أخباره وأخبار رعيته... الخ» (الحكمة الخالدة ١٨٧) وابن عبد ربه في (العقد الفريد ١/ ١٤٨).

فأما صلاحهم لأنفسهم، فيكون بثلاثة أشياء:

أحدها: معطاة ما يحتاج إليه أجناد الملوك من الارتياض بالركوب، والخبرة بالحروب؛ لأنها صناعة تجمع بين علم وعمل.

والثاني: اختصاصهم بالجندية، واقتصارهم عليها؛ حتى لا ينقطعوا عنها بكسب سواها، فيصيروا مقصرين فيها.

والثالث: أن يقفوا في اللذات على اعتدال مباح، لا يقطعون إليها فتلهمهم، ولا يمنعون منها فتغريهم.

وأما صلاحهم لأنفسه: فيكون بثلاثة أشياء:

أحدها: أن تستقر محبته في نفوسهم حتى ينصحوه.

والثاني: أن تعظم هيئته في قلوبهم حتى يطيعوه.

والثالث: أن يعتقدوا أن صلاح ملكه عائد عليهم، وفساده متعد إليهم.

وأما صلاحهم^(١) لرعيتهم: فيكون بثلاثة أشياء:

أحدها: أن يكف نفسه عن أذاهم.

والثاني: أن يذب عنهم من أرادهم.

والثالث: أن يكون عوناً لهم على منافعهم.

فإذا صح له حملهم على هذا التأديب، واستقاموا على هذا التهذيب، كانوا أصلح جنود لأسعد ملك.

كتب الإسكندر إلى معلمه يسترشده [في جنده] ^(١)، فكتب إليه :

تفقد جندك؛ فإنهم أعداء ينتقم بهم من أعداء.
ومعناه ^(٢): أنهم أعداء إذا فسدوا ينتقم بهم من أعداء إذا صلحوا.

والشرط الثاني:

أن يرتبوا على حسب عنائهم ^(٣) في الحروب، وذبحهم عن الملك،
ومسارعتهم إلى الطاعة، حتى يعلموا أن سعيهم مشكور ^(٤)، ونصحهم
مذخور ^(٥) (٣٦ب)، يتقدمون به، ويتجاوزون ^(٦) عليه؛ فإن ذلك مفضي بهم
إلى ثلاث خصال تصلح بها أمورهم، ويتنظم بها تدبيرهم:

إحداهن: أن يزداد محسنهم طاعةً ونصحاً، طلباً للزيادة في التقديم،
ورغبةً مضاعفةً الجزاء.

والثانية: أن يرغب من قصر منهم ^(٧) أو أساء، في مثل ما ناله
المحسن من منزلة وجزاء؛ فيتأسى به في الطاعة، ويساويه في المناصحة.

والثالثة: أن يكف المقصر عن طلب ما لا يستحقه، ويتأخر عن مقام
لا يستوجب، ويرضى بالخمول إن صغرت همته، ويقنع بالتقصير إن ضعفت
مشته، فإن حركته حمية لم يتردد ^(٨) إن لم يزد.

(١) الزيادة من ط.

(٢) في ط: قال أفضى القضية: معناه أنهم...

(٣) غ: غناهم.

(٤) غ: مشكوراً.

(٥) غ: مذخوراً.

(٦) غ: ويتجاوزن.

(٧) ع: عنهم.

(٨) غ: لم يتردد.

والشرط الثالث:

أن يقوم بكفائاتهم؛ حتى لا يحتاجوا؛ فإن الحاجة تدعوهم إلى
اخصلة من ثلاث، لا خير في واحدةٍ منهن:

إما أن يتسلطوا على أموال الرعية.

وإما أن يعدلوا إلى من يقوم لهم بالإكفاء.

وإما أن يشتغلوا بمكسب فيوهنوا، وإذا احتيج إليهم لم يغنوا،
ما بذلوا انفسهم إلا لقيامه بكفائتهم.

وقد قيل:

من وثق بإحسانك أشفق على سلطانك.

ومتى اقتطعهم طلب الكسب ضعف في أنفسهم رجاؤه، وقل في
أعينهم عطاؤه، ثم [إن] (١) بدر عليهم العطاء فلا يحوجون (٢) إلى المطالبة؛
فإن المطالب جرى، وفي جراتهم خرق للحشمة، ووهن للهيبة، وقل
ما يختل الملك إلا بمثله؛ لأن بهم تدفع الخطوب الملمة، فإذا كانوا هم
الخطب الملم فبمن يدفعون إلا بالتلطف والإنصاف، فهم كالمثل السائر في
قول الشاعر: [من البسيط]

بالملاح يصلح ما يخشى تغيرُهُ
فكيف بالملاح إن حلت به الغيرُ

وقد كانوا يرون القصد في إعطائهم قدر الكفاية أولى من التوسعة
عليهم بالزيادة؛ لأن الزيادة تؤول بهم إلى إحدى خصلتين مذمومتين:

(١) الزيادة من السياق وليست في الأصل.

(٢) غ: يحوجوا.

إمّا إلى صرفها في الفساد ليفسدوا.

وإمّا إلى الاستغناء بها فيتقاعدوا.

حكى ابن قتيبة^(١) أن أبرويز^(٢) (٣٧) قال لابنه [شبرويه^(٣)] وهو في حبسه^(٤):

لا توسّعنّ على جنديك^(٥)؛ فيستغنوا عنك، ولا تضيّقنّ عليهم؛
فيضجّوا منك، وأعطهم^(٦) عطاءً قصداً، وامنعهم منعاً جميلاً، ووسّع^(٧) لهم
في الرجاء، ولا توسّع عليهم في العطاء^(٨).

(١) ابن قتيبة: هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري الأديب والمؤرخ وصاحب التصانيف البديعة: المعارف، وأدب الكاتب، وعيون الأخبار، والشعر والشعراء، والإمامة والسياسة. وهو غني عن التعريف كان فاضلاً ثقة، ولد ببغداد سنة ٢١٣هـ وتوفي سنة ٢٧٠هـ وقيل ٢٧١ وقيل ٢٧٦ والأخير أصحها، وعتيبة تصغير قتيبة بكسر القاف واحدة الأقتاب والأقتاب الإمعاء انظر أخباره في وفيات الأعيان ٢/٢٤٦-٢٤٧، رقم الترجمة ٣٠٤، ومقدمة عيون الأخبار بقلم أحمد زكي العدوي ١/١-٤٤، الفهرست ١٢١-١٢٢، تاريخ بغداد ١٠/١٧٠، شذرات الذهب ٢/١٦٩، تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (الترجمة العربية) ٢٢١-٢٣٠، ومقدمة كتاب المعارف بقلم ثروت عكاشة.

(٢) أبرويز: هو أبرويز بن هرمز من كسرى أنوشروان، أحد ملوك الفرس. ولي بعد خلع أبيه هرمز وملك ثمانين سنة، حتى صجر الناس منه فخلعوه ونصبوا ابنه شبرويه. انظر نبذة من أخباره في غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم ص. ٦٦١-٧٢٧، وتاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ص. ١٩، المعارف ٦٦٥، مروج الذهب ١/١٦٩-١٧٥.

(٣) شبرويه: هو شبرويه بن أبرويز وقد ملك بعد أبيه، ذلك أن أباه كان قد استعان بقيصر فأنكحه قيصر ابنته فكان شبرويه ابن بنت قيصر، وقد خفف بعض الشيء على الناس. وإن كان قد قتل أباه وبعضاً من إخوته، وقد دام حكمه سبعة أشهر، انظر أخباره في غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم ص. ٧٢٧، مروج الذهب ١/١٧٥، المعارف ٦٦٥، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ص. ١٩.

(٤) الريادة من عيون الأخبار ومن سراج الملوك والعقد الفريد وليست في غ ولا في ط.

(٥) ط: على عيذك.

(٦) في عيون الأخبار وغرر أخبار ملوك الفرس: أعطهم بسقوط الواو.

(٧) ط: وأوسع.

(٨) قوله: وحكى ابن قتيبة أن أبرويز قال لابنه... روى ابن قتيبة ذلك في عيون الأخبار (١١/١)، وقال: وقرأت في كتاب التاج... ثم ساقه بلفظه، وروى ذلك أيضاً =

والشرط الرابع:

أن لا تنطوي عنه أخبارهم، ولا تخفى عليه آثارهم، وهم رعاة دولته،
وحماة رعيته.

فإن تدلّس سقيمهم، وستر جميلهم للقيح، سرى فيهم أخبث
الأميرين؛ لأن الشر أنفر بين الخير، فمالوا وأمالوا.

وتلحقهم ثلاث آفات خطيرة تقدح في صلاحهم، وتمنع من فلاحهم:

إحداهن: أن يكرهوا زمن السلامة والمسالمة، ويستقلّوا مدة الدعة، لبوار
نفاقهم، وفتور أسواقهم، فيجعلوا لفتن الرتوق أسباباً، ويفتحوا لمخارجة
العدو أبواباً يتوصلون بها إلى مطامع حسنها السلام والدعة، فإن استدركت
غوائلهم، وإلا فهم الخطب الأظم، والقدح الأعم.

والثانية:

أن يتوصل العدو إلى استمالتهم لفرصة الغفلة عنهم، فإذا لم يمنع
التيقظ، ولم يكفه التحفظ، وسهام الرغائب صائبة، ظفر بكيد فاصطنع،
ومال به فاحتكم.

والثالثة:

أن يبعثهم الإغفال على التسلط، ويدعوهم الإهمال إلى التبسط؛

== الثعلبي في غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم (٦٩٠) بلفظه أيضاً، وقد أورده الطرطوشي
بصه وفيه «ووسع لهم في الرخاء» بالخاء المعجمة القوية وهو تصحيف (سراج الملوك ١٢٢)
وقد أورده ابن عبد ربه بلفظ: «لا توسمن على جندك سعة يستغنون بها عنك ولا تضيق
عليهم صيقاً يضجون به منه، ولكن أعطهم عطاء قصداً، وامنعهم منعاً جيلاً واسط لهم في
الرجاء ولا تبسط لهم في العطاء» (العقد الفريد ١/٣٠) وهو اللفظ نفسه الذي دونه النويري
في نهاية الأرب (١٧/٦).

تطاولاً للسلطنة؛ فلا يقبضوا يداً عن إرادة يستهلكون بها الأموال، ويستأصلون بها الأحوال، فتكثر بهم الرزايا، وتهلك بهم الرعايا، ويكونوا أضرباً بالملك من كل متغلب، وأذكى^(١) فيه من كل متوثب، وهذا لا يتحسّم إذا استمر إلا بالزواج القاهرة، وهم يده الباطشة، فيستعين بمستقيمهم إن ظفروا بتسليم مستقيم، وإلا فإلى عطب يؤول [إلى]^(٢) الفساد، فبعد أن يعم فسادهم وفي الملك ثبات.

فإن (٣٧ب) أسعده الفضل بصلاحهم استدرك ما يستأنفه بالبحث عن أحوالهم المستقلة، ولم يغفل عن صغير لكبير، فإن كبار الأمور تبدو صغارا كالنار يصير إغفال قليلها ضرا ما لم يستدرك.

وأصعب ما يعانیه المدبر للدولة سياسة الجند؛ لأن بهم يقهر حتى يسوس، وإذا عجز بفسادهم صار مقهوراً، وإن ساسهم بحزمه حتى انقادوا كان لهم بالقوة سلطاناً، وكانوا له بالطاعة أعواناً، وقد قيل:
من علامات الدولة قلة الغفلة^(٣).

[٤ - تقدير الأموال]:

وأما القاعدة الرابعة - وهي تقدير الأموال - فلأنها المواد التي يستقيم الملك بوفورها، ويختل بقصورها.

(١) غ: وأزكى وليست في ط.

(٢) الزيادة من السياق.

(٣) قولهم: «من علامات الدولة قلة الغفلة» ساق الماوردي هذا القول في أدب الوزير دون أن ينسبه لفائل وذلك بلفظ «من علامة بقاء الدولة قلة الغفلة» (ص. ١٣)، ومن كلام علي رضي الله عنه: «من إمارات الدولة التيقظ لحراسة الأمور» (غرر الحكم ٣٠٤) و «من دلائل الدولة قلة الغفلة» (٣٠٥).

وقالوا: «من لم يستظهر باليقظة لم يتفع بالحفظة» (مراج الملوك ٥٧).

وتقديرها على الملوك مستصعب.

لأنهم يزوّن - بفضل القدرة - بلوغ كل غرض، ودرك كل مطلب، فإن وصلوا إليه بالأسهل الألفظ، وإلا توصلوا بالأصعب الأعنف، وإن استباحوه شرعاً، وإلا ارتكبوا^(١) محذوره، وكابدوا معسوره.

فإن أقاموا بفضل الحزم على السياسة العادلة حتى وقفت بهم القدرة على تقدير الأموال أن يعتبر بما استدام حصوله، ويسهل وصوله، ولم يحتج معه إلى التماس معذر^(٢)، وارتياح متعذر، اعتدلت ممالكهم، وتعذلت مطالبهم، فلم يعجزوا عن حق، ولم يتعدوا إلى باطل، وكان الظافر بهذه الحال منهم هو الملك السعيد، ورعيته به أسعد الرعايا، وكان المقصر فيها على ضدها.

قال لي بعض الملوك - وقد توفّر على لذته، ولام غيره من الملوك عليها، وكنث سفيراً بينهما: إني قدّرتُ خرجي بدخلي، وجعلتُ لكل خرج دخلاً كافياً، واستنّبت فيه أمانة^(٣) (٣٨) كفاة^(٤)، وأذنتُ لمن قصر دخله عن خرجِه أن يقترض من غيره ما يقضيه عند وفور دخله، ثم صرفتُ زمان التشاغل به إلى اللذة بعد إحكامه، ونفسي ساكنة [إلى]^(٥) انتظامه؛ فإن الملك يراؤ للالتذاذ به، ولو لم أفعل هذا لكنث في التشاغل باللذة ملوماً. فإن كان هذا الملك قبل توفّره على لذته قد أحكم ما أحكمته^(٥) لم يلّم، وإن^(٦) كان قد أهمله فهو الملوّم دوني.

(١) غ: ارتكبه.

(٢) غ: معوز.

(٣) ط: على امانة الكفاة

(٤) الريادة من ط.

(٥) ط: أحكمت.

(٦) ط: وإن أهمل فهو الملوّم.

فقلتُ له: قد لمتَ غيرَكَ بذنبٍ خلصتَ منه نفسَكَ، فجعلتَهُ (١)
لنفسِكَ عذراً، ولغيرِكَ جرماً، ولعمري إنَّ المستظهرَ أعذرُ من المسترسلِ.

وأحجمتُ عن استيفاءِ مناظرته (٢) التزاماً لحشمته، وإنَّ كانَ حجاجُهُ
معتلاً، وعذره مختلاً؛ لأنَّ قليلَ الذلِّ (٣) لا يعري [من] (٤) قليلَ العدلِ.

[وجه تقدير الأموال]:

وإنَّ كانَ تقديرُ الأموالِ قاعدةً، فتقديرُها معتبرٌ من وجهين:

أحدهما تقدير دخلها:

وذلك مقدَّرٌ من أحد وجهين:

إما بشرحٍ وردَ النصُّ فيه بتقديره، فلا يجوزُ أن يخالفَ.

وإما باجتهادٍ ولأه العبدُ فيما أذاهم الاجتهاد إلى وضعه وتقديره،
ولا يسوغُ أن ينقضَ. وإذا رُدَّتْ إلى القوانينِ المستقرةِ ثمرتُ بالعدلِ وكانَ
إضعافُها بالجورِ مباحاً.

والثاني تقدير خرجها:

وذلك مقدَّرٌ من وجهين:

أحدهما: بالحاجةِ فيما كانت أسبابه لازمةً أو مباحةً.

والثاني: بالمكنةِ حتى لا يعجزَ منها دخلٌ، ولا يتكلَّفَ معها عسْفٌ.

(١) ط: فجعلت.

(٢) ط: مناظرته.

(٣) ط: القليل الزلل.

(٤) غ: لا يعترى قليل والتصحيح والزيادة من ط، وهذه الحكاية تؤيد ما ذكره المترجمون
للماوردي من أنه كان يقوم بمهمة السفارة بين الملوك.

[مقابلة الدخل بالخرج]:

ثم لا يخلو حال الدخل إذا قوبل بالخرج من ثلاثة أحوال:
أحدها:

أن يفضل الدخل عن الخرج .

فهو الملك السليم، والتقدير المستقيم؛ ليكون فاضل الدخل معدداً لوجوه النوائب (٣٨ب) ومستحدثات العوارض؛ فيأمن الرعية عواقب حاجته، ويثق الجند بظهور مكنته، ويكون الملك قادراً على دفع ما طرأ من خطب، أو حدث من خرق؛ فإن للملك فنوناً لا ترتقب، وللزمان حوادث لا تحتسب.

والحال الثانية:

أن يقصر الدخل عن الخرج .

فهو الملك المعتل، والتدبير المختل؛ لأن السلطان - بفضل القدرة - يتوصل إلى كفايته كيف قدر، فتأول ما وجب، ويطالب بما لا يجب، وتدعو الحاجة إلى العدول عن لوازم الشرع وقوانين السياسة إلى حرف^(١) يصل به إلى حاجته ويظفر بإرادته، فيهلك معه الرعايا، وينبسط عليه الأجناد، وتدعوهم الحاجة إلى مثل ما دعت، فلا يمكن قبضهم عن التسليط وقد تسلط، ولا منعهم من الفساد وقد أفسد.

فإن استدرك أمره بالتقنع، وساعده أجناده على الاقتصاد، وإلا فإلى عطب ما يؤول الفساد.

والحال الثالثة:

أن يتكافأ الدخل والخرج حتى يعتدل، ولا يفضل، ولا يقصر؛ فيكون الملك في زمان السلم مستقلاً، وفي زمان الفتوق والحوادث مختلاً، فيكون لكل واحد من الزمانين حكمه. فإن ساعده القضاء بدوام السلم كان على

(١) حرف: وجه وقد سقط هذا الموضوع من ط.

دَعَتْهُ واستقامته، وَإِنْ تَحَرَّكَتْ بِهِ النَوَائِبُ، كَدَّهُ الاجْتِهَادُ، وَتَلَمَّهُ الْأَعْوَانُ،
فَيَجْعَلُ الْمَلِكُ ذَخِيرَةً نَوَائِبِهِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ الْإِحْسَانَ إِلَى رَعِيَّتِهِ،
وَتَحْكِيمَ الْعَدْلِ فِي سِيَاسَتِهِ؛ لِيَكُونَ بِالرَّعِيَةِ مُسْتَكْثَرًا، وَبِالْعَدْلِ مُسْتَمْرًا.



[الفصل الثاني والعشرون]

[أصل ما تبني عليه السياسة العادلة]

وأصل ما تبني عليه السياسة العادلة في سيرة الرعية بعد حراسته الدين
وتخير الأعوان أربعة:
الرغبة.

والرهبة. (٣٩)

والإنصاف.

والانتصاف^(١)

فأما [الرغبة]:

فتدعو إلى التآلف، وحسن الطاعة، وتبعث على الإشفاق، وبذل
النصيحة، وذلك من أقوى الأسباب في حراسة المملكة.

فإن قبضها عنهم زال حكمها معهم، وتصدعوا بالطاعة تربصاً للدوائر،
وسارعوا إلى المعصية عند هجوم النوايب، فهو منهم بين نفاق وإن
ساتروه، وبين شقاق وإن جاهره، ولا خير في ما تردد بين نفاق وشقاق.

وقال أبو ريز:

أجهل الناس من يعتمد في أموره على من لا يأمل خيره، ولا يأمن
شره^(٢).

وأما [الرهبة]:

فتمنع خلاف ذوي العناد، وتحسم سعي أهل الفساد؛ حذراً من

(١) أصل هذا الكلام قول أرسطوطاليس للإسكندر: «تشكل بأشكال مختلفة من لين سياسة
وغلظة؛ ليجتمع لك أمر الناس طوعاً من بعض، وكرهاً من آخرين... الخ» في أقوال
كثيرة (انظر السعادة والإسعاد ٣٠١).

(٢) قول أبو ريز: «أجهل الناس من يعتمد في أموره على من لا يأمل خيره ولا يأمن شره»،
أورده الأمير أسامة بن منقذ بهذا اللفظ منسوباً إليه (لباب الآداب ٥٨).

السطوة؛ وإشفاقاً من المؤاخذه، وذلك أقوى الأسباب في تهذيب المملكة.
فإن زالت عنهم زال حكمها معهم، فلأن، واشتدوا وهان، واعتزوا،
فاستسهلوا معصيته، واستقلوا طاعته، وصارت أوامره فيهم لغواً، وزواجره
لهواً، وقد قيل:
من إمارات الجد حسن الجد^(١).

وإذا جمع بين الرغبة والرغبة، قادهم الرجاء إلى طاعته، وصدهم
الخوف عن معصيته، وانبسط فيهم الأمل، وكثر منهم الرجل، فعز سلطانه،
واستقام أعوانه.

قال بعض الحكماء:

من أعرض عن الحذر والاحتراش، وبني أمره على غير أساس، زال
عنه العز، واستولى عليه العجز^(٢).

وأما [الإنصاف]:

فهو عادلٌ يفصل بين الحق والباطل، يستقيم به حال الرعية وتنظم به
أمور المملكة؛ فلا ثبات لدولة لا يتناصف أهلها، ويغلب جورها على
عديها؛ فإن الندرة من الجور تؤثر، فكيف به إذا كثر.

(١) قولهم: «من إمارات الجد حسن الجد» أورده الأمير أسامة بن منقذ ضمن أقوال
أرسطوطاليس بلفظه (لباب الآداب ٦٨). قال الشيخ أحمد محمد شاكر في شرح هذا القول:
«الجد الأولى بفتح الجيم بمعنى البخت والخطوة، والثانية بكسرها بمعنى الاجتهاد» (لباب
الآداب حاشية ص ٦٨).

(٢) قولهم: «من أعرض عن الحذر والاحتراش... الخ» سيورده المؤلف مرة أخرى في هذا
الكتاب بزيادة فيه وهي قوله: «فصار من يومه في نحس ومن غده في لبس»، وأورده في
أدب الوزير (ص ٢١) باللفظ الذي ورد هنا وفي الأمثال والحكم (الورقة ٥٢ ب)، باللفظ
الذي ورد هناك. وقد نسب الأمير أسامة بن منقذ هذا القول إلى الحكيم أرسطوطاليس
بألفاظه وبزيادته باستثناء كلمة (الحذر) فلما فيه بلفظ (الحزم)، (لباب الآداب ٦١)، وأورده
النويري منسوباً لبعض الحكماء بزيادة هي قولهم: «وإن قدم لطوارئه حذر المتيقظ وتلقاها
بعدة المتحفظ رد بادرها بعزم ذي حزم، قد حلب أشطر دهره وقام بواضح عذره»، (نهاية
الأرب ٦ / ١٠٦).

ولو لم يتناصف أهل الفساد لما تم لهم فعل الفساد، فكيف بملك قد استرعاه الله صلاح عباده، ووكل إليه عمارة بلاده، إذا لم يحمل على التناصف والتعاطف، ومزجت (٣٩ب) فيه الأهواء بالخرف^(١)، وتحكمت القوة في منع الحي أن لا يوفى، وفي إحداث ما لا يستحق أن يستوفى، وتهارج الناس فيها بالتغالِب، وتمازجوا فيها بالتطاول والتغاضب، هل يقترب بهذا الملك - وقد تعطلت هذه الأصول به - صلاح؟ كلا، لن يكون الباطل حقاً، والفساد صلاحاً، وقد قال أردشير بن بابك:

إذا رغب الملك عن العدل رغب الرعية عن الطاعة^(٢).

قال الإسكندر لحكام الهند:

أيما أفضل: العدل أم الشجاعة؟

قالوا:

إذا استعمل العدل استغني عن الشجاعة^(٣).

(١) غ: بالخرف.

(٢) غ: عن الباطل والتصحيح مما سيورده المؤلف في هذا الكتاب إذ استشهد به مرة ثانية، ومن ط ومن كتب التخريج. وقوله: «إذا رغب الملك عن العدل رغب الرعية عن الطاعة»، تجده في ثمار القلوب (١٧٨) بلفظه منسوباً إلى أردشير، وفي التمثيل والمحاضرة (ص ١٣٦) بلفظ «عن طاعته»، ونسب أيضاً إليه، وهو بهذا اللفظ الأخير في زهر الأدب (٢١٢) وأقوال أردشير (ملحق بكتاب عهد أردشير)، ص ١٠٢، رقم الفقرة ٢٦، والمستطرف ١/ ١٠١.

(٣) قول الإسكندر لحكام الهند: «أيما أفضل العدل أم الشجاعة؟»، أورده الماوردي في أدب الدين والدين بزيادة هي قوله: «وحكي أن الاسكندر قال لحكام الهند، وقد رأى قلة الشرائع بها: لم صارت سنن بلادكم قليلة؟ قالوا: لإعطائنا الحق من أنفسنا، ولعدل ملوكنا فينا، فقال لهم: أيما أفضل: العدل أم الشجاعة؟...» (انظر ص ١٢٥)، وأورده النويري بلفظ: «سأل الإسكندر حكاء بابل فقال: أيما أبلغ العدل أو الشجاعة... وفيه: إذا استعملنا العدل استغنيانا عن الشجاعة»، (نهاية الأرب ٦/ ٣٥)، وانظر (المستطرف ١/ ١٠١-١٠٢). وأورده الأمير أسامة بن منقذ بلفظه منسوباً إليه (لباب الأدب ٥٧)، وأورده الحسن بن الحسين الرخيجي بلفظ: «وقد قيل إنه - أي الإسكندر - سأل من حصره من حكاء الهند: لم سريتمكم قليلة؟ فقالوا لإعطائنا الحق من تقوسنا وطاعتنا للملوكنا، وحسن سيرتهم وعدلهم فينا، فقال لهم: أيما أفضل العدل أو الشجاعة عند الحرب؟ فقالوا: من عدل استغنى عن الحرب، ومن استغنى عن الحرب استغنى عن الشجاعة» وأورده ابن -

قال بعض العلماء^(١):

الملك يبقى على الكفر ولا يبقى على الظلم^(٢).

فأخذه بعض الشعراء فقال في ذلك:

عليك بالعدل إن وليت مملكة

واحذر من الجور فيها غاية الحذر

فالملك يبقى على الكفر البهيم ولا

يبقى مع الجور في بدو وفي خضر

ولا ينقض^(٣) هذا القول ما قدمناه من اعتبار الدين في قواعد الملك؛

لأن الكفر تدني باطل، والإيمان تدني بحق، وكلاهما دين معتقد، وإن صح أحدهما وبطل الآخر.

وربما^(٤) ظن من تسلط بالسطوة من الولاة أنه بالجور أقدر، وأقهر،

وأن أمواله بالحيث أكثر وأوفر، ويخفى عنه أن الجور مستأصل، يقطع قليل باطله كثير الحق في الأجل، ثم إلى زوال يكون المال، فقد قيل في حكم الفرس:

سنة أشياء لا ثبات لها:

= الجوزي بلفظ: قيل لأنوشروان: أي العدد أقوى؟ قال: العدل، وأول العدل أن يبدأ المرء نفسه، فيلزمها كل خلة زكية وخصلة مرضية (المصباح المضيء ١ / ٤٥١) وفيه تحريج.

(١) ط: بعض الحكماء.

(٢) قولهم: «الملك يبقى على الكفر ولا يبقى على الظلم»، ورد هذا القول بلفظه دون نسبة إلى قائل في التمثيل والمحاضرة ١٣٠، والمصباح المضيء ١ / ٤٦١، ونسبه الثعالبي إلى الحاشي أحد ملوك الحبشة (الإيجاز والإعجاز ١٥)، وقد أورده الغزالي على أنه حديث سوي بلفظه وفيه ومع الكفر... مع الظلم، (نصيحة الملوك ٤٤).

(٣) ط: قال أقضى القضاة: ليس ينقض..

(٤) ط: قال أقضى القضاة: وربما ظن...

ظَلَّ الغمام ، وخَلَّةُ الأشرار ، وعشرة^(١) النساء ، والثناء الكاذب ،
والسلطان الجائر ، والمال الكثير^(٢)

وقالوا :

إِنَّ الجورَ يرفعُ [نفسه] .^(٣)

وعلةُ هذا صحيحة^(٤) ؛ لأن الجورَ مدرسة^(٥) ، ولا يبقى مع الدارسِ
ما يتوجَّه الجورُ إليه ، والعدلُ ثابتُ الأصول ، نامي الفروع ، مكينُ القوانين ؛
فهو كالغرس في الأرض ، يعلو شجره ، ويتوالى ثمره ، والجورُ (٤٠ آ)
مستأصلٌ لما أنشأه العدلُ ؛ فلا يدعُ له أصلاً ثابتاً ولا فرعاً نابئاً .

(١) وعشرة كذا في غ وط وفي مصادر التخريج عشق .

(٢) قوله : « وقد قيل في حكم الفرس : ستة أشياء لا ثبات لها . » استشهد المؤلف بهذا القول
في الأمثال والحكم (الورقة ٥١-٥١ ب) ، بلفظ « وعشق » وقد أورده ابن مسكويه ضمن
وصايا الفرس بلفظ « خمسة أشياء لا بقاء لها ولا ثبات : ظل الغمام ، وخلة الأشرار ، وعشق
النساء ، والثناء الكاذب ، والمال الكثير » (الحكمة الخالدة ٧٨) ، وهو عند ابن المقفع بلفظ :
« وقيل في أشياء ليس لها ثبات ولا بقاء : ظل الغمام ، وخلة الأشرار ، وعشق النساء ، والثناء
الكاذب ، والمال الكثير » (الأدب الصغير ، ضمن رسائل البلغاء ، ٣٧) ، ونجد القول عند ابن
قنينة بلفظ : « وفي كتاب للهند لا ثناء مع كبر ، وفيه : ستة أشياء لا ثبات لها : ظل الغمام
وخلة الأشرار ، وعشق النساء ، والمال الكثير ، والسلطان الجائر ، والثناء الكاذب ، (عيون
الأخبار ٣ / ١٦٩) ، وعند ابن عبد ربه : « ثلاثة لا بقاء لها : ظل الغمام ، وصحة الأشرار ،
والثناء الكاذب ، » (العقد الفريد - تحقيق العريان - ٢ / ١١٠) ، من أقوال بطليموس :
« لا بقاء لظل الغمام ، ولا لمودة الأشرار ، ولا لأخوة أهل الرياء ، ولا لمن سن سنة الجور »
(مختار الحكم ٢٥٩) ، ونجد معنى هذا الكلام في سراج الملوك ١٢ .

(٣) الزيادة من ط . وقولهم : « إن الجور يرفع نفسه » نجد معناه في قول أنوشروان في كلام طويل
يقول : « ويحب على الملوك أن يقيموا العدل الذي به صلاح الملك والمملكة ؛ فإن العدل
هو سبب عمارة المملكة ، والجور سبب الخراب والبوار » (السعادة والإسماع ٢٠٨) ، والترجمة
والنقل عن الفارسية (ص ١٠٥) ، وقد وقع المأمون في قصة متظلم من عمرو بن مسعدة .
« يا عمرو أعمرو نعمتك بالعدل فإن الجور يهلمها » (سراج الملوك ص ٥٣) ، وقالوا : « الحور
آفة الزمان » ، (نهاية الأرب ٦ / ٤٠) .

(٤) ط : صحيح .

(٥) غ : يدرسه ، ومدرسة مفعلة (مصدر ميمي) من درس أي عفا .

ثم الإنصاف^(١) استثمار، والعدل استكثار، فيصيرُ [الإنسان]^(٢) بالإنصاف مستثمراً، وبالعدل مستكثراً. وما نقصَ ملكٌ من إنصافٍ، ولا جاءَ من إسعافٍ، وهما بالمزيد أجدر^(٣). وفرق ما بين العدل والإنصاف في الحقوق الخاصة.

وليس يخرجَانِ بهذا الفرقِ من الاشتراكِ في الحقِّ، كما أن بمثله يكونُ فرقٌ ما بينَ الجورِ والحيفِ، ولا يمنعُ من الاشتراكِ في الباطلِ.

وقد قيل:

من عدلَ في سلطانيه استغنى عن أعوانه^(٤).

وقال جعفر بن يحيى^(٥):

[الخراجُ عمودُ الملكِ، و]^(٦) ما استُغزِرَ المالُ بمثل [العدلِ، وما استُتِرَ بمثل]^(٧) الجورِ^(٨).

(١) ط: والإنصاف.

(٢) الزيادة من ط.

(٣) ط: أحذر.

(٤) قولهم: «من عدل في سلطانه استغنى عن أعوانه» أورده الأمير أسامة بن منقذ بهذا اللفظ، ونسبه إلى الحكيم، أي أرسطوطاليس، (لباب الآداب ٥٨)، وأورده مرة أخرى منسوباً إليه أيضاً بلفظ: «وأي ملك عدل في حكمه وقضيته استغنى عن جنده ورعيته» (ص ٦٥، ٧١)، وأورده عبد الواحد الأمدي بلفظه ضمن أقوال علي (غرر الحكم ٢٨٤) وأورده الرخجي غير منسوب ونفس لفظه (أحسن المحاسن ١٦٠)، وقد نسب المسمودي إلى أنوشروان بلفظ: «صلاح أمر الرعية أنصر من كثرة الجنود، وعدل الملك أنفع من خصب الزمان»، (مروج الذهب ١ / ٢٧٠) وقد عد الطرطوشي قولهم «إصلاح الرعية خير من كثرة الجنود» من الأمثال (سراج الملوك ١١٤).

(٥) جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد، كان كاتباً بليغاً، قتل في نكبة الرامكة سنة ١٨٧هـ، انظر بعضاً من أخباره في تاريخ بغداد ٧ / ١٥٢، النجوم الزاهرة ٢ / ١٢٣، وفيات الأعيان ١ / ٢٩٢-٣٠٥، رقم الترجمة ١٢٩، العقد الفريد ١ / ٣٦، ٢٠٠، ٢٠١، ٣٠٩، ٣١١، ونماذج من توقيعاته في العقد - العريان - ٤ / ٣٠٨، البيان والتبيين ١ / ١٠٦.

(٦) الزيادة من مصادر التخريج وليست في غ ولا في ط.

(٧) الزيادة من ط، ومصادر التخريج وليست في غ.

(٨) قول جعفر بن يحيى: «الخراج عمود الملك...» ورد منسوباً إليه وفيه «عماد الملوك»، والإيجاز =

وأما [الانتصاف]:

فهو استيفاء الحقوق الواجبة، واستخراجها بالأيدي العادلة؛ فإن فيه قوام الملك، وتوفير أمواله، وظهور عزه، وتشديد قواعده، وليس في العدل ترك مالٍ من وجهة، ولا أخذه من غير وجهة، بل كلا الأمرين عدلٌ، لا استقامة للملك إلا بهما.

وكما أن الانتصاف عدلٌ في حقوق الملك، ولما كان الحيف في حقوق الرعية قبيحاً، كان الحيف في حقوق الملك أقبح؛ لأن يده أعلى، ونفع ماله أعم.

وإن لم ينتصف لعجز، كان ذلك من وهاء ملكه.

وإن لم ينتصف لإهمال كان ذلك من ضعف سياسته.

وإن لم ينتصف لترك، كان ذلك من تبذيره وسرفه، إلا أن يكون عفواً لموجب يندب إلى مثله، لا يخرج عن قانون السياسة، وهو منها، وليس بعام فيلام.

فإذا ذهب الأموال - أموال الملك - بأحد هذه الأسباب القاطعة لموادّه، زال عنه الرجاء، واشتد فيه الطمع، وصار على شفا جرف، إن صدّعه خطب، أو قارّعه (٤٠ب) ضدّ، فتلجئه الحوادث إذا ترك ما يستحق، إلى أن يأخذ ما لا يستحق، فيصير في الترك جاثراً على ملكه،

= والإعجاز ص ٢٥، وخاص الخاص ٩٠، والمقد الفريد ١ / ٣٦، عيون الأخبار ١ / ١٣، وفيه «مثل الظلم» وسراج الملوك ١٢٣، في وصية طويلة، وقد ورد منسوباً إلى أنوشروان، وأنه من توفيعاته إلى ولاية الخراج (رسالة العسكري في التفضيل بين ملائقي العرب ولعجم ٢١٧)، وقد ورد منسوباً إلى أردشير بلفظه في غرر أخبار ملوك الفرس وميرهم ٤٨٤، وعين الأدب والسياسة (على هامش غرر الخصائص) ص ١٤٧، وأقوال متفرقة لأردشير (ملحقة بآخر كتاب عهد أردشير ص ١٠١، الفقرة ٢٤)، وهو من أقوال الحكماء بهذا اللفظ عند ابن الحوزي والمصباح المضيء في خلافة المستضيء ٢ / ٥٣١، وقد ذكره الماوردي في كتبه نصيحة الملوك (الورقة ٥٥ب)، على أنه مما وقع به عبد الله بن طاهر. ثم أنه نثره في كتبه أدب الوزير بلفظ «واعلم أنك لن تستغزر موادك إلا بالعدل والإحسان ولن تستندرها (بالدال) بمثل الجور والإساءة، لأن العدل استثمار دائم، والجور استئصال منقطع» (ص ٤).

وفي الأخذ جائراً على رعيته، فلا ينفك في الحالين من أن يكون خاطئاً ملوماً، وجائراً مذموماً.

قال بعضُ البلغاء:

لا يستغني الملكُ عن الكفاة، ولا الكفاةُ عن الإفضال، والإفضالُ عن المادة، ولا المادةُ عن العدل^(١).

فالملكُ بغير الكفاة^(٢) مختلٌ، والكفاةُ بغير الإفضالِ مسَلُطون^(٣)، والإفضالُ بغير المادةِ منقطعٌ، وإنما يقيّمُ الموادُ تسليطَ العدلِ، وفي تسليطِ العدلِ حياةُ الدنيا، وبهاءُ الملكِ.

[و]^(٤) في هذا التنزيل تعليلٌ للعدل^(٥)؛ فإنه من قواعدِ الملك^(٦)؛

(١) قول بعض البلغاء: «لا يستغني الملك عن الكفاة...» ورد في ط بلفظ «... ولا المادة عن المال ولا المال عن العدل»، وقد أورد المؤلف ما يشبه هذا القول ونسبه إلى أنوشروان بلفظ «إن الملك بالجنود، والجنود بالأموال، والأموال تستخرج من الأرضين، والأرضون تزكو بالعمارة، والعمارة لا تتم إلا بالعدل»، (نصيحة الملوك، الورقة ٥٥ب-٥٦)، ومروج الذهب ١/ ١٦٨، والترجمة والنقل عن الفارسية ١١٧، والمستطرف ١/ ١٠١، والمصباح المضيء في خلافة المستضيء ١/ ٤٥٠، باختلاف يسير.

وقد نسب ابن عبد ربه إلى عمرو بن العاص بلفظ: «لا سلطان إلا بالرجال، ولا رجال إلا بجال، ولا مال إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بعدل»، (العقد الفريد ١/ ٣٩)، وانظره أيضاً منسوباً إلى عمرو في كتاب الأداب لجعفر بن شمس الخليفة، ص ٢٧ والنويري في نهاية الأرب (٦/ ٣٥)، وقال الطرطوشي: إن ذلك مما اتفق عليه حكماء العرب والمعجم (سراج الملوك ٥٢)، وانظر معناه فيه في (ص ٨٨)، وقد أوردته الثعالبي في كتبه ونسبه إلى أردشير بلفظ «لا سلطان إلا برجال، ولا رجال إلا بجال، ولا مال إلا بعمارة ولا عمارة إلا بعدل وحسن سياسة»، (ثمار القلوب ١٧٨)، و(التمثيل والمحاصرة ١٣٦)، و(الإيجاز والإعجاز ١٢)، و(غور ملوك الفرس ٤٨٢)، و(غور الخصائص ٦٢)، ثم انظره في أقوال متفرقة لأردشير ملحقة بمعهد أردشير ص ٩٨، فقرة ١٦.

(٢) غ: كفاة.

(٣) غ: مبطلون والصواب ما أثبتناه عن ط.

(٤) الريادة من ط وفيها: قال أقصى القضاة: وهذا التنزيل الواضح... الخ ومعنى العارة، إن في هذا الترتيب بيان سبب العدل وأهميته.

(٥) غ: العدل.

(٦) ط: من قواعد المصالح.

فإنك لن تجد صلاحاً^(١) كان الجورُ علة وجوده، ولا فساداً كان العدلُ علة ظهوره^(٢)، وإنما تجتذب^(٣) العلة^(٤) [إلى]^(٥) الأصولِ نظائرها.

[شروط استقامة الملك بهذه القواعد الأربع]:
ولا استقامة الملك بهذه القواعد الأربع ثلاثة شروط:

أحدها:

أن يقفَ منها على الحدِّ المقصود، ويتهيَّ فيها إلى العرفِ المعهود.
فإن تجاوزَ فيها مسرفاً أو مقصراً كان باللوم^(٦) جديراً؛ فإنَّ الزيادةَ في الرغبة صرْع، والزيادةُ في الرهبة سلاطة، وكذلك النقصانُ منهما يكونُ على ضدِّهما.

والثاني:

أن يستعملها^(٧) في مواضعها، ولا يعدلُ بالرغبة إلى موضع الرهبة^(٨)، ولا يستعملُ الرهبةَ في موضع الرغبة؛ فيصيرُ تاركاً للرغبة والرهبة، وقد تكلف^(٩) عناءَ ضاعث مغارمة، وبطلت مغابمة^(١٠)، فهو كآكل الطعام من الظمأ، وشارب الماء من المجاعة، لا يرتوي بما أكل، ولا يشبع بما شرب.

(١) ط: صلاحاً.

(٢) ط: علة وجوده.

(٣) ط: تجذب.

(٤) غ: عليك الأصول.

(٥) الزيادة من ط.

(٦) غ: اللوم. وهذه الفقرة ليست في ط.

(٧) ع: يستعملها. وهو تصحيف، وفي ط هنا قوله: قال أقصى القضاة في أثناء كلامه في هذا

المعنى: ويجب أن يستعمل هذه الأمور في مواضعها.

(٨) ط: إلى عمل الرهبة فيصير تاركاً للرغبة والرهبة.

(٩) ط: كلف.

(١٠) ط: وبطلت مغابمة، وهو على وجل من ضرره وحذر من خطره، فهو كآكل الطعام من الظمأ.

ثم هو على وجلٍ من ضرره، وحذرٍ من خطره، وقد أحسن^(١) المتنبي^(٢) في قوله: [من الطويل]

وَوَضَعَ التَّدَى فِي مَوْضِعِ السِّيفِ بِالْعَلَى
(٤١آ) مَضْرُوءُ كَوْضِعِ السِّيفِ فِي مَوْضِعِ التَّدَى^(٣)

قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ:

من سكرات السلطان الرضا عن بعضٍ من يستوجبُ السخطَ، والسخطُ على بعضٍ من يستحقُّ الرضا^(٤).

(١) ط: وقد أصاب.

(٢) المتنبي: أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي الكوفي الشاعر المشهور الذي ملأ الدنيا وشغل الناس، المولود في سنة ٣٠٣هـ بالكوفة، والمتوفى سنة ٣٥٤هـ، انظر نماذج من أخباره في وفيات الأعيان ١/ ١٠٢-١٠٧، رقم الترجمة ٤٩، الباب في تهذيب الأنساب ٣/ ١٦٢، وقد شرح ديوانه الواحدي والعكبري وابن جني، ويقام مهرجان في بغداد هذه الأيام (سنة ١٩٧٥) احتفالاً به.

(٣) البيت في ديوانه ١/ ٢٨٨، و(الواحدي) ٥٣٣، واليازجي ٣٨٧، من قصيدة يمدح بها سيف الدولة، وفي كتاب المختار من دواوين المتنبي والبحري وأبي تمام لعبد القاهر الجرجاني (ضمن الطرائف الأدبية) ص ٢٠٨، وقد جعل صاحب ابن عباد هذا البيت من الأمثال السائرة، (الأمثال السائرة من شعر المتنبي ص ٤٨)، وانظر زهر الربيع في المثل البيديع ص ٨٩، وقد ورد في التمثيل والمحاضرة منسوباً إليه (١١١، ٢٩١)، مجمع الأمثال ١/ ١٤، وشرح مشكلات ديوان أبي الطيب المتنبي أو الفتح على فتح أبي الفتح لأبي عبيد بن فورجة البروجدي (تحقيق الدكتور محسن غياض مجلة المورد المجلد الثاني العدد الثاني، ١٩٧٣ ص ٩٧)، وقد جعل العلامة أبو علي محمد بن الحسن المظفر الخاقاني هذا البيت مأخوذاً من قول أرسطوطاليس: «من استعمل الفكر في موضع البديهة فقد أضر بخاطره وكذلك مستعمل البديهة في موضع الفكر»، (انظر الرسالة الخاقانية ص ١٤٨-١٤٩)، ومعناه من الأمثال العالمية (المثل المقارن ١٠١، ١٥١) وهو في شرح نهج البلاغة ٤/ ٣٨، أسرار البلاغة ٢٤٠، الكشكول (مصر ١٣١٨)، ص ١٣٨، نهاية الأرب ٣/ ١٠٦.

(٤) غ: والسخط عن بعض من يستحق الرضا، والتصحيح من ط ومن أدب الوزير (ص ٥)، فقد استشهد المؤلف بهذا القول بلفظه هناك وقد سقطت منه كلمة (السخط)، وقد أورد أبو الحسن الرخجي قولاً مقارباً له دون أن ينسب لأحد بلفظ: «من عفا عن مستحق العقوبة كان كمن عاقب من يستوجب الأجر والثوبة» (أحسان المحاسن ١٦٥).

والثالث:

أن يترجى لها زمانها^(١)، ويتوقع إبانها، حتى لا تضيع الرغبة والرهبة إن قدمهما، ولا يقر بأن آخرهما؛ فإن^(٢) فعل الشيء في غير زمانه كصلاح المريض في غير أوانه، لا يقع من الانتفاع موقعاً، ولا يكون العمل فيه إلا ضائعاً. وقد قيل:

مَنْ أَخَّرَ الْعَمَلَ عَنْ وَقْتِهِ فَلْيَكُنْ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ فَوْتِهِ^(٣).

وليسير^(٤) ذلك في وقته أنفع من كثيره في غير وقته.

وربما ضرر كما يستضر بالدواء في الصحة، وإن كان نافعاً في المرض.

وإذا صادف بالرغبة زمانها، ووافق بالرهبة أوانها سَعِدَ بحزمه، وحظي بعزمه، وطبق مفاضل أغراضه، وبلغ كنه مراده.



(١) ط: قال: ويتوخى بها زمان الحاجة حتى لا تضيع الرهبة والرغبة وفعل الشيء في غير زمانه كعلاج المريض...

(٢) ط: وفعل، غ: وإن.

(٣) قوله: «من أخر العمل عن وقته...» استشهد به المؤلف في أدب الوزير على أنه من أقوال الحكماء بلفظ: «من أخر الفرصة عن وقتها فليكن على ثقة من فوتها»، (ص ٥٣). ومن أقوال أرسطوطاليس في هذا المعنى قوله: «إياك والتأخير في أمورك، والتواني عنها فيما يحدث منها؛ فإنك إن فعلت ذلك كثرت عليك، ثم لم تجد لك بمباشرتها بدءاً، ويقدرحك إن وكلتها إلى غيرك وتضيع من يدك...» (مختار الحكم ١٩٠-١٩١)، وقيل للملك قد زال عنه ملكه: وما الذي سنبك ما كنت فيه؟ قال: دفع عمل يوم إلى غد والتماس عذر بتضييع عمل، (لباب الآداب ٣٩).

(٤) ط: قال أقصى القضاة: وليسير... والمعنى: ولقليل، واللام لام الابتداء.

[الفصل الثالث والعشرون]

[تهذيب الأعوان والحاشية]

[سياسة الملك بالأعوان والحاشية]:

وليُعلم الملك أنه لا استقامة له، ولرعيتيه، إلا بتهذيب أعوانه وحاشيته؛ لأنه لا يقدر على مباشرة الأمور بنفسه، وإنما يستنيب فيها الكفاة من أصحابه^(١)؛ لأن سياسات الملوك مقصورة في مباشرتهم لها على أمرين:

أحدهما: تدبير أمور الجمهور^(٢) بأرائهم.
والثاني: استنابة الكفاة في تنفيذها على أوامره.

وما سوى ذلك فالأعوان هم كفلاء مباشرتها، وزعماء القيام بأعوامها^(٣).

وقد شبه المتقدمون السائس المدبر للمملكة في السلم والحرب بالطبيب المدبر للجسد في حفظ الصحة، وعلاج الأمراض: البدين في بطشهما بالجند والأعوان، والرجلين بالكراع (٤١ب)، والظهر والعينين بالحجاب والحرس، والأذنين بأصحاب البريد والأخبار، واللسان في نطقه بالوزراء والكتاب، والأعضاء المجاورة في القلب بحاشية الملك على طبقاتهم في القرب والبعد.

وحاجة الخاصة للعامة في الاستخدام كحاجة الأعضاء الشريفة إلى التي ليست بشريفة؛ لأن بعض الأمور لبعض سبب، وعوام الناس لخواصهم عدة، ويكل صنف منهم إلى الآخر حاجة.

(١) قوله: «وإنما يستنيب فيها الكفاة من أصحابه...» قال ابن المقفع: «ولا عيب على الملك في تعينه وتنعمه إذا تعهد الجسيم من أمره وفوض ما دون ذلك إلى الكفاة» (الأدب الكبير ١١٥-١١٦).

(٢) غ: تدبير الأمور الجمهور.

(٣) غ: بأعوامها.

وإذا كان^(١) أعوانه منه بمنزلة أعضائه التي لا قوام للجسد إلا بها، ولا يقدر على التصرف إلا بصحتها واستقامتها، وجب عليه تقويم عوجهم، وإصلاح فاسدهم؛ ليستقيموا، فيستقيم الملك بهم، كما لا تستقيم أفعاله إلا باستقامة أعضائه من جسده.

قال النبي عليه السلام:

«العينان دليлан، والأذنان قمعان، واللسان ترجمان، واليدان جناحان، والكبد رحمة^(٢)، والطحال [ضحك، والرئة]^(٣) نفس، والكليتان مكر، والقلب ملك، فإذا صلح الملك صلحت رعيته^(٤)، وإذا فسد الملك فسدت رعيته^(٥)».

فتشابهت أعضاؤه في حق نفسه بحواشيه في حق ملكه، ومن لم يستقم منهم من عوجه بعد التقويم، ولا^(٦) كف عن زيفة بعد التهذيب كان إبعاده منهم أسلم لبقية أعوانه كالسلع^(٧) التي تقطع من الجسد.

قال أبرويز^(٨):

من اعتمد على كفاة السوء لم يخل من رأي فاسد، وظن كاذب، وعدو غالب^(٩).

(١) غ: كانوا.

(٢) غ: والكبد جمد والتصحيح من الجامع الصغير ٢ / ٧١ والتيسير ١٥٩ / ١.

(٣) الزيادة من الجامع الصغير ومن التيسير.

(٤) غ: الرعية.

(٥) غ: الرعية. وحديث: العينان دليلان والأذنان قمعان... الخ أخرجه أبو الشيخ في المعظمة وابن عدي في الكامل، وأبو نعيم في الطب عن أبي سعيد الحكيم عن عائشة، (الجامع الصغير ٢ / ٧١). قال المناوي: «وسيه أنه دخل عليها كعب الأخبار فقال لها فذلك فقالت: هكذا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم» (التيسير بشرح الجامع الصغير ٢ / ١٥٩) وفي أمثاله: «العين ترجمان القلب» التمثيل والمحاضرة ٣٠٩ و«الأذن قمع القواد» التمثيل والمحاضرة ٣١١.

(٦) غ: وإلا وهو نصيف.

(٧) السلع: جمع سلعة وهي زيادة في البدن كالغدة تتحرك إذا حركت.

(٨) غ: برويز (يسقط الألف).

(٩) قول أبرويز: «من اعتمد على كفاة السوء...» ذكره الماوردي بلفظه في أدب الوزير (٣٢)، =

[أصل ما يني عليه قاعدة أمره في اختيارهم]:

وأصل ما يني عليه قاعدة أمره في اختيار أعوانه وكفائته: أن يختبر أهل مملكته، ويسبر جميع حاشيته، يتصفح^(١) عقولهم وآرائهم، ومعرفة هممهم وأخلاقهم، حتى يعرف به (٤٢آ) باطن سرائرهم، وما يلائم كامن شيمهم؛ فإنه سيجد طباعهم مختلفة، وهممهم متباينة، ومنتهم متفاضلة. وقد قيل:

الهمة رائد الجد^(٢)

فيصرف كل واحد منهم: فما طبع عليه من خلقي، وتكاملت فيهم الآلة، وتخصّصت به من همة، فهي أحوال ثلاث يجب اعتبارها في كل مستكف وهي:

الخلق، والكفاية، والهمة.

فلا يُعطي أحدهم منزلة لا يستحقها لنقص أو خلل، ولا يستكفيه أمر ولايته، ولا ينهض بها، لعجز أو فشل؛ فإنهم آلات الملك، فإذا اختلت كان تأثيرها مختلاً وفعلها معتلاً.

= وأورده النويري بلفظه أيضاً منسوباً إلى أبرويز في نهاية الأرب (٦ / ١١٤) وقد أورده الأمير أسامة بن منقذ منسوباً إليه وبزيادة. وجاء به بلفظ «... ما ينجو من رأي فاسد، وظن كاذب، وعدو غالب، وأن مما يعود ينصح الولاة ويؤمنهم غدر الكفاة ربهم (أي تربيتهم) لسالف النعم وحفظهم لواجب الذمم، وتمقّقهم عن أموال الخدم، وتصرفهم على شرط الكرم، فمن خافه وزيره ساء تدبيره، ومن طمع في أموال عماله ألجأهم إلى اقتطاع أمواله» (لباب الأدب ٢٥٦) وستأتي قطعة من هذا الكلام بلفظ: «من طمع في أموال عماله... الخ» وقد أورد هذا القول أبو الحسن بن الحسين الرخجي منسوباً إلى بهرام جور بلفظ: «من اعتمد على كفاة السوء لم يخل من رأي فاسد، وظن كاذب، وأمل خائب، وعدو غالب» (أحاسن المحاسن ١٤٦)

(١) غ: يتصفح.

(٢) قولهم: «الهمة رائد الجد» رائد بالبدال كذا في الأصل غ وقد ورد أيضاً بهذا اللفظ في الأمثال والحكم (الورقة ٢٤ب- ٢٥آ) أما في أدب الدنيا والدين فقد أورده المؤلف بلفظ «الهمة راية الجد» (ص ٢٩١).

وفي عكس هذا القول أورد المؤلف قولاً منسوباً لبزرجمهر بلفظ «الجزل آفة الجد، والكذب عدو الصلوق، والجور مفسدة الملك» (أدب الوزير ص ٨) وفي سراج الملوك قال بزرجمهر: «الزح آفة الجد، والكذب عدو الصلوق، والجور مفسدة الملك» (ص ١٨٨).

قيل ليزرجمهر:

كيف اضطربت أمور آل ساسان وفيهم مثلك؟

قال:

لأنهم استعانوا بأصاغر^(١) العمال على أكابر الأعمال، قال أمرهم إلى ما آل^(٢).

وقيل في منشور الحكم:

من استعان بأصاغر رجاله على أكابر أعماله فقد ضيع العمل وأوقع الخلل^(٣).

وقيل^(٤):

من استوزر غير كافٍ، خاطر بملكه، ومن استشار غير أمين^(٥) أعان على هلكه، ومن أسر إلى غير ثقة ضيع سره، ومن استعان بغير مستقل أفسد أمره، ومن ضيع عاقلاً ذل على ضعف عقله، ومن اصطنع جاهلاً أعرب عن فرط جهله^(٦).

(١) ط: بأصغر العمل على أكثر الأعمال.

(٢) قوله: «وقيل ليزرجمهر: كيف اضطربت...» أورد الطرطوشي هذا القول بلفظ: «وسئل بزرجمهر: ما بال ملك آل ساسان صار إلى ما صار إليه بعدما كان فيه من قوة السلطان وشدة الأركان؟ فقال: ذلك لأنهم قلدوا كبار الأعمال بصغار الرجال» (سراج الملوك ٥٥) وذكره في موضع آخر بلفظ: «وقد روي عن بزرجمهر وقد قيل له: ما بال ملك آل ساسان صار أمره إلى ما صار إليه؟ قال: لأنهم قلدوا كبار الأعمال بصغار الرجال» (ص ١٤١).

(٣) قولهم: «من استعان بأصاغر رجاله...» ليس هذا القول في ط، وقد ذكره أسامة بن منقذ ضمن أقوال أرسطوطاليس بلفظ: «من استعان بصغار رجاله على كبار أعماله ضيع العمل وأوقع الخلل» (لباب الآداب ٦١) ورواه ابن الجوزي على أنه من أقوال الحكماء بلفظ: «من استعمل صغار الرجال على كبار الأعمال ضيع العمل وأوقع الخلل» (المصباح المضيء في خلافة المستضيء ١/ ٤٩٥).

(٤) ط: قال بعض البلغاء.

(٥) ط: غير مؤتمن.

(٦) قولهم: «من استوزر غير كافٍ خاصر بملكه...» أورد عبد الواحد الأملدي بعضاً من هذا القول ضمن أقوال علي رضي الله عنه بلفظ: «من خانته وزيره فسد تدبيره، ومن غش مستشيريه سلب تدبيره» (غرر الحكم ٢٧٠) وفي موضع آخر بلفظ: «من أسر إلى غير ثقة =

قال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر: [من البسيط]
لا بدّ للشاة من راع يدبرها
فكيف بالناس إن كانوا بلا وال
وإن أضيف إلى الأذناب أمرهم
دون الرؤوس فهم في حال إهمال^(١)

وكما أنه لا يزيد أحدهم على قدر استحقاقه، فكذلك لا ينقصه عن
المنزلة التي يستحقها بكفائته، ويستوجبها بكمال آليته، ويترقى إليها بعلو
همته، فتضاع كفايته وتبطل (٤٢ب) آلته، فيصير -لأنفة من عمله- متهاوناً،
وباستقلاله واحتقاره متوانياً، فيختل العمل بكماله، كما اختل عمل العاجز
بنقصه، فيصير الكمال فيه نقصاً في عمله، والكفاية فيه عجزاً في نظره.

وإذا وافق بهم قدر استحقاقهم، فصرف أكابر العمال في أكابر
الأعمال، وأصاغرهم في أصاغرها، استقلت أعماله، واستقام عمله.
وإن خالف، فالخلل بالأمير واقع، وكلاهما بالعمل مضر، وبالسياسة
مُعر.

وتدبير هذا على امتياز حتى يوافق قدر استحقاقه صعب، إلا على من
كان صائب الفكرة، حسن الفطنة، صادق الفراسة، ثم ساعده القضاء في
تقديره، وأعانه التوفيق في تدبيره، وإن كان تقدير الحظوظ بحسب الفضائل
متعذراً، وإنما هي أقسام جرّها قدر محتوم، وساقها حظ مقسوم.

قال بزرجمهر:

يجب للعاقل أن لا يجزع من جفاء الولاة، وتقديمهم الجهال عليه

= ضيع سره، ومن استعان بغير مستقل ضيع أمره، ومن ضيع عاقلاً دل على ضعف عقله،
ومن اضطع جاهلاً برهن عن وفور جهله (ص ٢٧٥)، وفي أحاسن المحاسن غير منسوب
بلفظ: «من استتاب غير كاف خاطر بملكه، ومن استشار غير أمين أعانه على هلكه، ومن
ضيع أمره ضيع كل أمر، ومن جهل قدره جهل كل قدر. . .» (ص ١٦٤).

(١) قول عبيد الله: لا بدّ للشاة من راع يدبرها. . . أورد الماوردي هذين البيتين في كتابه
(نصيحة الملوك الورقة ١٣ب) دون أن ينسبها إلى قائل.

إذا^(١) كانت الأقسام لم توضع على قدر الأخطار، وإن حكم الدنيا أن لا تعطي أحداً ما يستحقه لكن تزيده أو تنقصه^(٢).

وليحذر الملك تولية أحد بشفاعة شفيع^(٣) أو لرعاية حرمه، إذا لم يكن مضطراً بثقل ما ولي، ولا ناهضاً بعبء ما استكفي، فيختل العمل لعجز عامله، ويفتضح العامل بانتشار عمله، فيصير الحزم بهما مضاعفاً والهوى فيهما مطاعاً، وليقتصر حقوق الحرمة بأمواله في معونتهم وتقريبهم ومنزلتهم، ففيهما حفاظاً وأجزاء^(٤)، وقد سلمت أعماله من خلل العجز، وضياع التقصير.

قال بعض الحكماء:

من قلّد لذي الرعاية ندم.

ومن قلّد لذي الكفاية سليم^(٥).

قيل في (٤٣) حكم الفرس:

(١) إذا بالالف كذا في ط وفي غ وفي أدب الوزير (الأمثال والحكم: إذ).

(٢) قول بزرجمهر: «يجب للعاقل أن لا يجزع... الخ» أورده المؤلف منسوباً إليه بلفظه وفيه: «... وتقديهم الجاهل... فإن حكم الدنيا أن لا تعطي أحداً ما يستحقه لكن تزيده وتنقصه» (أدب الوزير: ٤٥) و(الأمثال والحكم الورقة ٣٦ب-٣٧أ)، وقد أورده أبو هلال العسكري منسوباً إليه بلفظ «لا ينبغي للعاقل أن يجزع من سط السلطان إياه عن منزلة رفع إليها خاملاً، فإن الأقدار لم تحر على قدر الأخطار».

وقد أورد ابن مسكويه هذا القول ضمن حكم الروم ونسبه إلى أرسطوطاليس بلفظ: «لا يوجد العاقل يجزع من جفاء الولاة وتقريبهم الجهلة دونه لعلمه بأن الأقسام لم توضع على قدر الأخطار» (الحكمة الخالدة: ٢٧٠).

(٣) قوله: «وليحذر الملك تولية أحد بشفاعة شفيع...» ورد في عهد علي رضي الله عنه الذي كتبه إلى مالك بن الحارث الأشتر حين ولّاه مصر في كلام طويل: «... ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختياراً ولا تولهم محابلة وأثره؛ فإنها جماع شعب الجور والخيانة، وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام... الخ» (نهاية الأرب ٦/ ٢٥).

(٤) غ: وجرا.

(٥) قول بعض الحكماء: «من قلّد لذي الرعاية ندم...» ورد في أحسن المحاسن معناه بلفظ: «ولا تستكف إلا الكفاة النصحاء، ولا تستيطن إلا الثقة الأمناء... فمن أسلم لغير الكفاة أعماله ضيع ولايته وأمواله...» (ص: ١٦٦).

لا تستكفين مخدوعاً عن عقله، [والمخدوع]^(١) من بلغ به قدراً لا يستحقه، أو أثيب ثواباً لا يستوجبه^(٢).

وعلى هذا الاعتبار لا يورث الأبناء منازل الآباء، إذا لم يتناسبوا في الطباع، كما لا يورث الأشرار مراتب الأخيار.

ولا يستعمل في الكتبة من كان أبوه كاتباً إذ كان هو غير كاتب.

فإن أحب مكافأة واحد من هؤلاء لحقوق آبائهم كافأة بما قدمناه من المال والتقريب، دون الولاية والتقليد؛ ليكون قاضياً لحقوقهم بماله، ولا يكون قاضياً لحقوقهم بملكه.

حكى^(٣) أنه كان على باب كسرى^(٤) ساجة^(٥) عليها مكتوب:
العمل للكفاة، وقضاء الحقوق على بيوت الأموال^(٦).

ومن رآه قد تصدّى للمعالي وليس من أهلها، وقد تطاول للرتب، ولم يؤهل لها، فلا بأس باستكفائه، إذ كان على ما تصدّى له مطبوعاً، ولما

(١) الزيادة من أدب الوزير والأمثال والحكم ولباب الآداب ونهاية الأرب.

(٢) قوله: «لا تستكفين مخدوعاً... الخ» أورده المؤلف في الأمثال والحكم (الورقة ٥١آ) وأدب الوزير (ص ٣٢) وأورد قولاً يشابهه في موضع آخر من أدب الوزير (ص ٤٧) وقد جاء في لباب الآداب ما صورته: «وكتب بعض الحكماء إلى ملك زمانه: لا تستكفين في مهامك مخدوعاً عن عقله، والمخدوع عن عقله من بلغ به قدراً لا يستحقه، وأثيب ثواباً لا يستوجبه» (ص ٣٩) وفي أحاسن المحاسن: «ولا تصطنع من خاتنه الأصل، ولا تدن من فاته العقل؛ لأن من خاتنه الأصل يغش من حيث ينصح، ومن لا عقل له يفسد من حيث يريد أن يصلح» (ص ١٦٥) وقد أورده النويري مرة بلفظه منسوباً إلى بعض الحكماء (نهاية الأرب ١ / ١١٥) ومرة أخرى بلفظ: وقيل للملك سلب ملكه: ما الذي سلبك ملكك؟ فقال: دفع شغل اليوم إلى غد، والتماس عدة بتضييع عُدَد، واستكفاء كل مخدوع عن عقله، والمخدوع عن عقله من بلغ قدراً لا يستحقه، أو أثيب ثواباً لا يستوجبه» (نهاية الأرب ٦ / ٤٥) والعقد الفريد ١ / ٥١).

(٣) غ: حتى والتصحيح من ط.

(٤) كسرى: وهو أبرويز بن هرمز بن أنوشروان، وقد مرت ترجمته، قال ابن قتيبة: «أبرويز بن هرمز ويعرف بكسرى... الخ» (المعارف - حكاية - ٦٦٥).

(٥) ط: ساجة منقوشة يذهب عليها: العمل للكفاة...

(٦) قولهم: «العمل للكفاة وقضاء الحقوق على بيوت الأموال» لم أجده.

تطاوَلْ له مستحقّاً، إذا نهزته الهمة، وساعدته الآلة؛ فلا سبيلَ إلى نجباء الأولادِ نجباء على الأبد، وقد قيل:

من فاته حسب نفسه لم ينفعه حسب أبيه^(١).
وعبر رجلٌ سقراطَ بنسبه^(٢)، فقال سقراطُ:
نسبك إليك انتهى ونسبي مني ابتدا^(٣).

قال أبو تمام الطائي: [من الوافر]

إذا ما شئتَ حسنَ العَدِ سم منك بصالِحِ الأدبِ
فممن^(٤) شئتَ كنْ فلقَدْ فَلَحتْ بأكرمِ النسبِ
فنفْسك قطعْ أصلحها ودعني من قديم أب^(٥)
وحكي في سيرة الأكاسرة: أن بعضَ ملوكهم مرَّ بـغلامٍ يسوقُ حماراً
غيرَ منبعتٍ، وهو^(٦) يعتفُّ عليه بالسُّوقِ فقالَ:
- يا غلامُ أرفقْ به.

فقال: أيها الملكُ في الرفقِ به مضرَّةٌ عليه، وفي العنْفِ به إحسانٌ

إليه.

(١) في معنى قوله «من فاته حسب نفسه لم ينفعه حسب أبيه» جاء قولهم: «ليست الأنساب بالأباء والأمهات لكنها بالفضائل المحمودات» من أقوال علي رضي الله عنه (غرر الحكم ٢٥٣).

(٢) غ: بنفسه.

(٣) قول سقراط: «نسبك إليك انتهى ونسبي مني ابتدا» رواه المشر بن فاثك بلفظ: «قال له رجل شريف الجنس وضعي الخلاق: لم تأنف -كذا ولعلها لم- يا سقراط من خسارة جنسك؟ فأجابه: جنسك عندك انتهى، وجنسي مني ابتدا» (مختار الحكم ص ١٠٠) ونسبه مرة أخرى إلى ذيوجانس الكلبي حين عبره رجل شريف الجنس بضعة أمه فقال له: «أنا شرقي مني ابتدا، وأنت شرفك إليك انتهى» (ص ٨٠) ورواه ابن حبان بلفظ: «تناظر شريفان، فقال أحدهما لصاحبه: إن شرفك إليك يتهي، وشرقي مني يتلدي» (الخصائص والذخائر ٥٥).

(٤) غ: فمن... فَلَحت.

(٥) قول أبي تمام: «إذا ما شئت حسن العلم... الخ» الأبيات في ديوانه بشرح الخطيب التبريزي تحقيق محمد عبده عزام مجلد ٤ ص ٥٩٣ في باب الزهد القصيدة رقم ٤٨٥ وفيه: «إذا ما شئت حسن الدين...».

(٦) في صراح الملوك: وقد عتف عليه.

قَالَ^(١): (٤٣ب) وما في الرفق به من المضرة؟

قال: يطول طريقه، ويشتد جوعه^(٢).

قال: وما في العنف من الإحسان؟

قال: يخف حمله، ويطول أكله.

فأعجب الملك بكلامه^(٣).

قال: قد أمرت لك بألف درهم.

قال: رزقي مقدور، وواهب مأجور.

قال: وقد أمرت بإثبات اسمك في حشمتي.

قال: كفيت مؤونة، ورزقت^(٤) معونة.

قال: ولولا أنك حدث^(٥) السن لاستوزرتك.

قال: لن يعدم الفضل من رزقي العدل^(٦).

قال: فهل تصلح لذلك؟

قال: إنما يكون الحمد والذم بعد التجربة، ولا يعرف الإنسان نفسه حتى يبلوها^(٧).

فاستوزره، فوجده ذا رأي صليب، وفهم رحيب، ومشورة تقع مواقع التوفيق^(٨).

وَلَقَدْ ما يتكامل للملك الظفر بكفاة أعماله، لكثرة الأعمال وقلة الكفاة.

(١) في سراج الملوك: فقال الغلام يا أيها الملك في الرفق به مضرة عليه قال وما مضرته؟

(٢) في سراج الملوك: تطول طريقه ويشتد جوعه، وفي العنف إحسان إليه، قال: وما الإحسان إليه.

(٣) في غ: كلامه وما أثبتناه عن سراج الملوك.

(٤) في سراج الملوك: ورزقت بها معونة.

(٥) في سراج الملوك: حديث.

(٦) في سراج الملوك: رزق العقل.

(٧) غ: يبلوها، وهو تصحيف.

(٨) قوله: «حكي في سيرة الأكاسرة أن بعض ملوكهم مرّ بغلام يسوق حماراً... إلخ» القصة رواها الطبرطوشي بلفظ «ومرّ بعض الملوك بغلام يسوق حماراً غير منبعت... إلخ» (سراج الملوك ١٨٨).

فإذا ظفرَ بذِي الكفاية لمنصبٍ اغتنمها، ولم يعطَ لها، وأن استغنى في الحال عنها؛ فإنه لا يدري متى يحتاج إليها، ليكون ذخراً لحاجته، ومَعَدّاً لطوارقه، كما لا يضيع أمواله إذا استغنى عنها، ويعدها ذخراً للحاجة، والكفاة أعوزُ من الأموال، والأموال أوجدُ من الكفاة، وبهم تجتذبُ الأموال، وتستجرُ الأعمال، وإن تراد^(١) الأعمال للكفاة دون النسب، وإن كانت الكفاة هي النسب، وحسب صاحبها ما يبلغ بها إذا ساعده الجَدُّ، وإن كانت الكفاة من الجَدِّ.

قيل في منشور الحكم:

من علامة الإقبالِ اصطناعُ الرجالِ^(٢)

وإن نفرتِ النفوسُ من هجومِ رتبته، ولم تدعُ بالانقيادِ لطاعته، وطُتَّتْ له النفوسُ بتدريجِه فيها إلى رتبةٍ بعد رتبةٍ، حتى تصلَ إلى الكفاية من أقربِ مراقبيها، فلا تنفرُ منه النفوسُ إذا (٤٤آ) رقاها، ولا تقف عن الطاعة له إذا علاها؛ ليكون على عمله معاناً، والعملُ بتدريجِه فيه مصاناً، فما أحدٌ يحمُّ إلا عن غمضٍ، ولا ارنفعُ إلا عن خفضٍ، ولا يقدمُ إلا من تأخيرٍ، ولا كملُ إلا عن تقصيرٍ، ومن خبرَ الزمانَ لم يستجهل أخباره، ولم يستهول آثاره.

وقد قالَ النبي عليه السلام:

«الناسُ بأزمتهم أشبه»^(٣).

(١) غ: يراى.

(٢) قوله: «قيل في منشور الحكم: من علامة الإقبالِ اصطناعُ الرجال» ذكره الماوردي في أدب الوزير بلفظه (ص ١٦) وذكره في أدب الدنيا والدين مرتين إحداها مصدرة بقوله: «قال بعض الحكماء...» (انظر ص ١٦٦)، والأخرى مصدرة بقوله «قال بعض البلغاء...» (انظر ص ٣٠٦) وقد ورد ضمن أقوال علي رضي الله عنه بلفظه (غرر الحكم ٣٠٢) ولفظه «لكل شيء فضيلة، وفضيلة الكرام اصطناع الرجال» (ص ٢٥١) وقد ورد بلفظه غير منسوب في أحاسن المحاسن (١٦٣) ومرة أخرى غير منسوب أيضاً بلفظه: «رأس الفضائل اصطناع الأفاضل ورأس الرذائل اصطناع الأراذل» (أحاسن المحاسن ١٥٧). وقد أورده الأمير أسامة بن منقذ منسوباً إلى أرسطوطاليس بلفظه: «من علامات...» (لباب الآداب ٦٨).

(٣) في ط. «الناس بأزمتهم أشبه» ورواه الماوردي في الأمثال والحكم بلفظه: «الناس برمانهم أشبه منهم بأبلهم» ولم يذكر اسم الراوي (الورقة ٦١ ب) وهو مثل من الأمثال في التمثيل -

[من يتفقدهم الملك من أعوانه؟]:

وبالملك أشد الحاجة [إلى] أن يتفقد أربع طبقات لا يستغني عن تفقد أحوالهم بنفسه؛ لأنهم عماد مملكته، وقواعد دولته، ليستكفيهم، وهو على ثقة من سدادهم وأمانتهم، ويستعملهم بعد علمه بكفايتهم وشهامتهم:

فالطبقة الأولى الوزراء^(١):

لأنهم خلفاؤه في سلطانه، وسفراؤه في أعوانه، وشركاؤه في تدبيره، وأمناءه على أسراره.

ثم لهم مزية الاستيلاء والتفويض؛ لأن على ألسنتهم تظهر أقواله، وعلى أيديهم تصدر أفعاله.

فإذا باشروا عنه الأمور عادَ عليه خيرها وشرها، وكان له نفعها وضرها، وبقي عليه صفوها وكدرها؛ فإن أحسنوا نسب إليه إحسانهم، وإن أساءوا أضيفت إليه مساوئهم، فيصير بإحسانهم محموداً، وبإساءتهم مذموماً، ويسدادهم مشكوراً، وبالتوائهم متوراً، يخفي صلاحه بفسادهم، ويبطل عدله بجورهم، ويقل خيرهم بشرهم، مع عظم الضرر الداخلي على مملكته،

= والمحاضرة (٣٠٥) باللفظ الأخير وهو من أمثال المولدين في مجمع الأمثال (٢ / ٣٥٨) والبيان والتبيين (٣ / ٢٩٤) قال الغزالي: «قالت الحكماء: الناس بملوكهم أشبه بمنهم بزمانهم، وقد جاء في الخبر أيضاً: الناس على دين ملوكهم» (نصيحة الملوك الغزالي ٥٣) وقد أخرج ابن الجوزي «عن مصعب بن سعد قال: قال عمر بن الخطاب رضوان الله عليه: الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم» (سيرة عمر بن الخطاب ١٤٠)، قال السخاوي: «حديث الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم أورده الحافظ الصريفي في بعض أجزاءه من قول عمر بن الخطاب وقال: قال محمد بن أيوب: ارتفعت إلى يحيى بن هشام الغساني من أجله» (المقاصد الحسنة ٤٤١ رقم ١٢٣٥) وقيل إنه قول علي بن أبي طالب. قال القاري: وهو الأشهر الاظهر (كشف الخفاء ٢ / ٤٣٠-٤٣١ رقم الحديث ٢٧٨٨).

(١) حول صفات الوزراء وضع الماوردي كتابه (أدب الوزير) المطبوع في مطبعة دار العصور الطبعة الأولى سنة ١٩٢٩ / ١٣٤٨ بتصحيح حسن الهادي حسين فلينظر، ثم عقد فصلاً حول تقليد الوزارة في الأحكام السلطانية (ص ٢٢-٢٩) وانظر الأحكام السلطانية لأبي يعلى (١٣-١٧)، وتجد أقوالاً لأنوشروان حول صفات الوزير في السعادة والإسعاد (ص ٤٢٥ ٤٢٦) وفي كتاب الترجمة والنقل عن الفارسية (ص ١١٠) وهاية الأرب (١٥١-٩٢ / ٦).

والقدح الموهن لدولته، والخلل العائد على رعيته، فهو وملكه معهم على استقامة ما استقاموا، وعلى اختلال إذا فسدوا.

قال النبي عليه السلام:

«إذا أراد الله بالملك خيراً جعل له وزيراً صدقاً، إن نسي ذكره، وإن^(١) ذكر أعانته، وإذا أراد به (٤٤ب) غير ذلك جعل له وزيراً سوءاً، إن نسي لم يذكره، وإن ذكر لم يعنه»^(٢).

[ووصى سابور بن أردشير ابنه في عهده فقال:

ليكن وزيرك مقبول القول عندك مكين المحل من نفسك يمنعه مكانه منك من الضراعة إلى غيرك، حتى تبعته بك إلى محض النصيحة لك، والتجريد في منازعة عن عتقك أو نقض عهد حقك]^(٣).

وذكر حكماء الملك^(٤) من صفات اختياره أن يكون وافر العقل سليم الطبع، أديب النفس، معتدل الأخلاق، مناسب الأفعال، عالي الهمة، قوي المنة، سريع البديهة، مقبول الصورة، جزل الرأي، صائب الفكرة، كثير التجربة، شديد التزاهة، قليل الشرّة، حسن التدبير، تام الصناعة.

(١) غ: وإذا والتصحيح من مصادر التخريج.

(٢) حديث: «إذا أراد الله بالملك خيراً...» رواه أبو داود في سننه عن عائشة بلفظ: «إذا أراد الله بالأمير خيراً...» وإذا أراد الله به... (سنن أبي داود ٣ / ١٣١ رقم ٢٩٣٢) والنسائي عنها بلفظ «من ولي منكم عملاً فأراد الله به خيراً جعل له وزيراً صالحاً إن نسي ذكره وإن ذكر أعانته» (سنن النسائي ٧ / ١٥٩) وأحمد عنها أيضاً بلفظ «من ولاه الله عز وجل من أمر المسلمين شيئاً فأراد به خيراً جعل له وزير صدق فإن نسي ذكره وإن ذكر أعانته» (مسند الإمام أحمد ٦ / ٧٠) والبيهقي في شعب الإيمان في حديث حسن (الجامع الصغير ١ / ١٨) قال المناوي ضعفه العراقي (التيسير بشرح الجامع الصغير ١ / ٦٦)، والحديث في لباس الآداب بلفظ «من أراد الله به خيراً جعل الله له وزير صدق صالحاً إن نسي ذكره وإن ذكر أعانته» (ص ٣٦) ورواه المنذري بلفظ أبي داود وذكر رواية النسائي قال ورواه ابن حبان أي بالفاظ النسائي (الترغيب والترهيب ٣ / ٩٤).

(٣) الزيادة من ط وليست في غ وقوله وصى سابور... انظر هذا العهد لابنه في نهاية الأرب ٦ / ١٨.

(٤) قوله: «وذكر حكماء الملك من صفات اختياره...» ذكر المؤلف كثيراً من أقوالهم في كتابه أدب الورير (ص ٢٣-٢٨) وذكر التويري بعضاً من ذلك (نهاية الأرب ٦ / ٩٢-١٥١).

وهذه أوصافُ كمالٍ، يوفِّقُ الله تعالى لها من شاء، ويسعدُ بها من الملوك من أحبَّ.

والطبقةُ الثانيةُ القضاةُ والحكامُ:

الذين هم موازينُ العدلِ، وتفويضُ الحكمِ إليهم، وحراسُ السنةِ باتباعها في أحكامهم، وبهم يتصفُ المظلومُ من الظالمِ في ردِّ ظلاميته، والضعيفُ من القويِّ في استيفاءِ حقِّه.

فإنَّ قُلَّ ورعهم، وكثُرَ طمعهم، فأماتوا^(١) السنةَ بأحكامٍ مبتدعةٍ، وأضاعوا الحقوقَ بأهواءٍ متبعةٍ، فكانَ قدحُهم في الدينِ أعظمَ من قدحِهم في المملكةِ، وإضرارُهم بالمملكةِ في إبطالِ العدلِ أعظمَ من إضرارِهم بالمتحاكمينَ إليهم في إبطالِ الحقِّ.

وقد قيلَ:

من أقبحِ الأشياءِ سَخْفُ القضاةِ، وظلْمُ^(٢) الولاةِ.

وقال أنوشروانُ:

ما عدَلُ من جارتِ قضاةِ، ولا صلَحَ من فسَدَتِ كفاةُ^(٣).

والذي تقتضيه السياسةُ في اختيارِهم بعدَ الشروطِ المعتبرةِ فيهم بالشرعِ^(٤) أن يكونَ القاضي حسنَ العلانيةِ، مأمونَ السريرةِ، كثيرَ الجدِّ،

(١) غ: فماتوا.

(٢) ط: وجور الولاة.

(٣) قول أنوشروان: «ما عدل من جارت قضاة ولا صلح من فسدت كفاة» أورده الرخجي منسوباً إليه بلفظ «... جارت ولاته...» (أحسن المحاسن ص ١٤٦).

(٤) قوله: «الشروط المعتبرة فيهم بالشرع» ذكر الماوردي شروط جواز ولاية القاضي هي على الإجمال سبعة:

١ - ذكوره وفضته وصحة تمييزه، ولا يكفي في ذلك بالعقل فقط.

٢ - الذكورة

٣ - الحرية.

٤ - الإسلام.

٥ - العدالة.

قليل الهزل، شديد الورع، قليل الطمع، قد صرفته القناعة عن الضراعة، ومنعته النزاهة من الشرّة (٤٥آ) وكفه الصبر عن الضجر، وصدّه العدل عن الميل، يستعينُ بدريسه علي علمه، ويمذاكرته على فهمه، لطيف الفطنة، جيد التصور، مجانباً^(١) للشبه، بعيداً^(٢) من الرّيب، يشاور فيما أشكل، ويتأني فيما أعضل، فلا معدلَ عمن تكاملها، ولا رغبة فيمن أشل بها.

والطبقة الثالثة: أمراء الأجناد:

الذين هم أركان دولته، وحماة مملكته، والذابون عن حريم رعيته، والمالكون أئمة أجناده، والعاطفون بهم على صدق نصرته وموالاته.

فإن استقامت له هذه الطبقة، استقام له جميع أعوانه.

وإن اضطربت عليه فسَدَ نظامُ تدبيره مع سائر أجناده؛ لأنهم إلى طاعة أمرائهم أسرع، ولقول زعمائهم أطوع؛ فإن خاف سطوة من به يسطو، ولم يأمن جانب من به ينجو، كان بملكه مغرراً، وبنفسه مخاطراً.

وقيل:

إن الوفاء^(٣) لك بقدر الجزاء منك^(٤).

والمعتبر فيهم: النجدة، والحمية، والوفاء، والمودة، وظهور الطاعة منهم ولهم، ليكونوا بطاعتهم متقادين، وبالطاعة لهم قائدين.

= ٦ - كماله في نفسه.

٧ - العلم بالأحكام الشرعية والعمل بأصول الشرع الأربعة: القرآن، والحديث، والإجماع، والقياس (انظر الأحكام السلطانية ٦٥-٦٦) وفصل فيها القول بإسهاب في (أدب القاضي ٦١٨-٦٤٣).

(١) غ: مجانب، وهو سهو.

(٢) غ: بعيد، وهو سهو.

(٣) غ: للوفاء، والتصحيح من ط.

(٤) ط: بقدر الوفاء منك. وقولهم: «إن الوفاء لك بقدر الجزاء منك» أورده الأمير أسامة بن منقذ ضمن قول الحكيم أرسطوطاليس بلفظ: «من أبلى حذته في خدمتك، وأفنى مدته في طاعتك، فارع دماحه في حياته، وتكفل أيتامه بعد وفاته؛ فإن الوفاء لك بقدر الرّحاء فيك... إلخ في كلام طويل (لباب الآداب ٥٩).

والطبقة الرابعة عمال الخراج:

الذين هم جباة الأموال، وعمّار الأعمال، والوسائط بينه وبين رعيته.
فإن نصحوه في أمواله، وعدّلوا في أعماله، توفّرت خزائنه بسعة
الدخل، وعمّرت بلاده بسط العدل.
وقد قيل:

فضيلة السلطان عمارة البلدان^(١).

وإن خانوه في ما اجتنبوه^(٢) من أمواله، وجاروا في ما تقلّدوه من أعماله،
نقصت موارده، وخربت بلاده، وتغيّر عليه - لقلّة دخله - أعوانه وأجناده،
وتولد منه ما يكون^(٣) محل فساد.

قال بعض العلماء: (٤٥ب)

ظلم العمال ظلمة الأعمال^(٤).

وحكي أن المأمون^(٥) جلس ذات يوم وأحضر العمال فقبلهم^(٦)
أعمال السواد، واحتاط في العقود، فلما فرغ قام إليه^(٧) بعض قضائه فقال:

(١) قولهم: «فضيلة السلطان عمارة البلدان» ورد ضمن أقوال علي رضي الله عنه بلفظه (عرر الحكم ٢٢٧) وأنظروه في كتاب ٢٠٠٠ كلمة للإمام علي (ص ٧٧ رقم ١٨٠٤) وأورده الأمير أسامة بن منقذ ضمن أقوال أرسطوطاليس بلفظه (لياب الآداب ٦٨)، وأخرج ابن الجوزي عن كعب الأخبار أنه قال: «الرعية تصلح بصلاح الوالي وتفسد بفساده» (المصباح المضيء في خلافة المستضيء ١٠ / ٤٧٠ وفيها تحريج).

(٢) غ: اجتنبوه، وليست في ط.

(٣) غ: ما ليس محل فساد. ولا يصح ذلك.

(٤) قولهم: «ظلم العمال ظلمة الأعمال» ورد في ط مصدراً بقوله قال بعض الحكماء، وهذا القول ورد في رسالة (كلمات مختارة ص ٢١) غير منسوب لقاتل.

(٥) قوله: «وحكي أن المأمون...» إلخ روى المؤلف هذه القصة في أدب الوزير بلفظ: «وحكي أن المأمون عزم على تضييع السواد، وعنده عبيد الله بن الحسن العنبري القاضي فقال له: يا أمير المؤمنين إن الله دفعها إليك أمانة فلا تخرجها من يلك قبالة، فعدّل عن الضمان» (أدب الوزير ص ٣٧)، والحادثة بهذا اللفظ نقلها التويري عن أدب الوزير (نهاية الأرب ١٢١ / ٦).

(٦) قبلهم أعمال السواد: أي جعلها عليهم تضييعاً.

(٧) ط: قام إليه عبيد الله بن الحسن العنبري القاضي فقال.

يا أمير المؤمنين: إن الله [قد] ^(١) دفعها إليك أمانةً، فلا تخرجها من يدك قبالةً، فقال: صدقت، وفسخ ذلك.

وإنما ^(٢) أراد القاضي أن تقبيل الأعمال [ذريعة] ^(٣) إلى تحكّم ^(٤) العمال، وتحكمهم سبب لخراب الأعمال.

فتنبه المأمون على مراده وعمل برأيه.

والمعتبر في اختيارهم ^(٥) أن يكون فيهم إنصاف، وانتصاف، وعمارة، وخبرة، ونزاهة؛ لتدرّ أموال الرعية، وتتوفر أموال السلطنة.

[والطبقة الخامسة من يستخدمهم في شؤونه الخاصة]:

وها هنا طبقة أخرى يجب أن يتفقد أحوالهم بنفسه، غير أنهم يختصون بحراسة نفسه، لا بسياسة ملكه، وهم الذين يستخدمهم في مطعمه

(١) الزيادة من ط.

(٢) ط: وقال أقضى القضاة؛ وإنما أراد عبيد الله أن تقبيل...

(٣) الزيادة من ط.

(٤) غ، ط: تحكيم وهو تصحيف.

(٥) في اختيار عمال الخراج نقل ابن قتيبة عن كتاب أبريز إلى ابنه شيرويه ما نصه:
انتخب لخراجك أحد ثلاثة:

إما رجلاً يظهر زهداً في المال ويدعي ورعاً في الدين، فإن كان كذلك عدل على الضعيف، وانصف من الشريف، ووفر الخراج، واجتهد في العمارة، فإن هو لم يرع ولم يعف إبقاء على دينه ونظراً لأمانته كان حرياً أن يجنون قليلاً ويوفر كثيراً استسراً بالرياء واكتساباً بالخيانة، فإن ظهرت على ذلك منه عاقبه على ما خان، ولم تحمده على ما وفر، وإن هو جَلَح في الخيانة وبارز بالرياء، نكلت به في العذاب واستنظفت ماله مع الحبس.

أو رجلاً عالمًا بالخراج غنياً في المال مأموناً في العقل فيدعوه علمه بالخراج إلى الاقتصاد في الجلب والعمارة للأرضين والرفق بالرعية، ويدعوه غناه إلى العفة، ويدعوه عقله إلى الرغبة فيما ينفعه والرهبة مما يضره.

أو رجلاً عالمًا بالخراج مأموناً بالأمانة مقترأ من المال فتوسع عليه في الرزق فيقتنم حاجته الرزق، ويستكثر لفاقته اليسر ويوزجي يعلمه الخراج، ويقف بأمانته عن الخيانة...

وذكر البويري أنه حكى أن الإسكندر كتب إلى معلمه أرسطوطاليس ليستشيريه في عمله فكتب إليه: «إن من كان له عيب فاحسن في سياستهم فولّه الجند، ومن كان له صنعة فاحسن تدبيرها فولّه الخراج» (نهاية الأرب ٦/ ١١٧).

ومشربه وملبسه، ومن يقربُ منه في خلوته؛ فإنهم حصنُ من الأعداء، وجُنَّتُهُ^(١) من الأسواء.

وقد اختارَ حكماء الملوك أن لا يستخدموا^(٢) في مثل هذه الحال إلا أحدَ ثلاثة:

إما من تربى مع الملك والفة.
وإما من رباه الملك على أخلاقه.
وإما من ربى الملك في حجره.

فإن هؤلاء أهل صدق في موالاته، ونصح في خدمته، وعلو في حفاظه وحياطته، ومن أجل ذلك وجب أن يكون إحسانه إليهم أفضل، وتفضله عليهم أظهر، ويتولى فعل ذلك بنفسه، ولا يكلُ مراعاتهم إلى غيره، كما لم يكل مراعاته إلى غيرهم، حتى لا يلجئهم إلى من يجتذب قلوبهم بنفقتِه فيما يلو، ويكون من تقلبهم على عرض^(٣)، ومن تنكرهم على خطر.

فقد قيل في سالف الحكم: (٤٦آ)
ليس من استكره نفسه في حظك كمن كان حظّه في طاعتك^(٤).
[تفقدّه لمن سوى هؤلاء]:

ثم يتفقُ في من سوى هذه الطبقات بحسب منازلهم من خدمته، فقد قيل:

-
- (١) اللجنة: بضم الجيم ما استترت به من سلاح.
(٢) غ: يستخدمون.
(٣) على عرض كذا في غ وليست في ط وربما كانت على حذر لتستقيم الفاصلة.
(٤) قوله: «فقد قيل في سالف الحكم: ليس من استكره...» أورد الأمير أسامة بن مقذ معي هذا القول بلفظ: «قالت الحكماء: إن الملوك حقيقون باختيار الأعوان فيما يهتمون من أعمالهم وأمورهم من غير أن يكرهوا على ذلك أحداً فإن المكره لا يستطيع المبالغة في العمل» (لباب الآداب ٤٦).

من قضيت واجبه أمنت جانبه^(١).

وليكن اعتناؤه بمراعاته من استبطنته منهم أكثر؛ ليكونوا اختياراً مهذبين، وأصفياء مأمونين، فيسلم من مكرهم، ويأمن من شرهم، فقد روي عن النبي عليه السلام أنه قال:

«ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصمة الله تعالى»^(٢).

ويمنع كل أحد من أعوانه أن يتجاوز قدر رتبته، أو يتعدى إلى غير عمله [فيكون]^(٣) بعمله منفرداً وعلى رتبته مقتصراً.

وربما دل بعضهم بحظوة نالها فتخطى بها إلى غير عمله، وتجاوز^(٤) بها قدر رتبته، ثقة بحسن رأي الملك فيه، وتعويلاً على مكانه منه. [وقد]^(٥) روي عن النبي عليه السلام أنه قال:

«ما هلك امرؤ عرف قدره فانتشر بجناح مهيض وزاحم بجسد مريض»^(٦).

(١) قومهم: «من قضيت واجبه أمنت جانبه» أورده الماوردي في أدب الوزير بلفظه مبدوءاً بقوله: وقد قيل في مشور الحكم (انظر ص ٣٣).

(٢) حديث: «ما بعث من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان...» رواه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري بلفظه إلا أن فيه «... تأمره بالمعروف...» بدل «... تأمره بالخير...» (صحيح البخاري ٤ / ١٦٥ في كتاب الأحكام) وأخرجه أيضاً من حديثه في كتاب القدر بلفظ «ما استخلف خليفة إلا له بطانتان بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه وبطانة...» (٤ / ٩٩) والنسائي عن أبي سعيد أيضاً ويلفظ المتن (سنن ٧ / ١٥٨) وقد أورد لفظين للحديث أحدهما عن أبي هريرة والآخر عن أبي أيوب (سنن ٧ / ١٥٨-١٥٩)، ورواه أحمد عن أبي هريرة في موضعين باختلاف (مسند أحمد ٢ / ٢٣٧، ٢٨٩) وعن أبي سعيد الخدري في موضعين أيضاً (٣ / ٨٨، ٣٩) وانظر أيضاً (الترغيب والترهيب ٣ / ٩٤).

(٣) الزيادة من السياق.

(٤) غ: ويتجاوز.

(٥) الزيادة من السياق.

(٦) حديث: «ما هلك امرؤ عرف قدره...» أورده المؤلف في أدب الدنيا والدين (٢٩٢) وهو مثل من أمثال العرب: انظر أمثال أبي عبيد (ص ١٣) بلفظ «لن يهلك امرؤ عرف قدره» =

فلا يلبث أن يهبط سريعاً، أو يخطّ سريعاً، بعد مضرة إفراطه،
وهجنة انبساطه.

وكذا عاقبة من عدلّ طوره، وجهلّ قدره، ثم قد اختلفت به الرتب
حتى هانت، واعتلت به المملكة حتى لانت، فصار عزها مسكوناً وملكها
متهوناً.

[من يحذر الملك أن يجعلهم في بطانته؟]:

وليحذر الملك أن يستبطن، أو يسترسل إلى أحد من عَدَدِ^(١)،
مَعَايِنِهِمْ^(٢) مفترقة، وأحكامهم متفقة، بالأعداء المباينين أشبه منهم بالأعوان
المساعدين، فإن صرعة الاسترسال لا تُقال^(٣).

= وهو بلفظه في التمثيل والمحاضرة (ص ٢٨)، وفي مجمع الأمثال (٢ / ٨٧) وفي
المعمرين ٩-١٦، وهو من كلام علي في غرر الحكم (١٨١ و ٣٠٨) وكتاب ألفي كلمة
(ص ٢١ رقم ٤١٨) وهو من كلام أكثم بن صيفي في الفاخر (ص ٢٦٢ رقم ٣٩٦).

(١) قوله: «من عدد...» أي من جماعة محددين. وسيذكر المؤلف هذا العدد وأوصافهم. قال
بطليموس في هذا الشأن: «ينبغي للذي السلطان أن لا يثق بمن كان له مهيناً، ولا بمن اشتد
حرصه، ولا بمن أجهلته الفاقة والمسكنة، ولا بمن تقدم له جرم
بخلاف العقوبة عليه. ولا بمن سلبه ماله، أو عزلته عن
سلطانه، ولا بمن له مضرة بنولته، ولا منفعه له فيها، ولا بمن بينه وبين عدوه مودة،
ولا يفوض إليهم ولا يستعين بهم ما وجد من ذلك بدءاً» (مختار الحكم ٢٥٦). وحكى ابن
قتيبة جماعاً لهذه الأمور ناقلاً عن التاج أن أبرويز كتب إلى ابنه شيرويه من الحبس: «ليكن
من تختاره لولائتك امرأةً كان في ضعة فرفعته، أو ذا شرف وجدته مهتضاً فاصطنعته،
ولا تجعله امرأةً أصبته بعقوبة فانقمع عنها، ولا امرأةً أطاعك بعدما أذلته، ولا أحداً ممن
يقع في خللك أن إزالة سلطانتك أحب له من ثبوته، وإياك أن تستعمله صرعاً غمراً كثر
إعجابه بنفسه، وقلت تجاربه عن غيره، ولا كبيراً مذبراً قد أخذ الدهر من عقله كما أخذت
السن من جسمه» (عيون الأخبار ١ / ١٥)، ونقله ابن عبد ربه باختلاف يسير في العقد
المريد (١ / ٣٢).

(٢) معانيهم: مظاهرهم.

(٣) لا تقال: لا تعقر.

- أحدهم: (٤٦ب) شَرِيرٌ مَظَاهِرٌ بِالْخَيْرِ؛ لِأَنَّهُ ذُو نِفَاقٍ وَمَكْرٍ.
- والثاني: مَطْرَحٌ لِلدِّينِ وَالْمَرَاقِبَةِ؛ لِأَنَّهُ قَلِيلُ الْوَفَاءِ سَرِيعُ الْغَدْرِ.
- والثالث: حَرِصٌ شَرِيرٌ؛ لِأَنَّهُ يَنْبِى (١) بِالْيَسِيرِ وَيَطْمَعُ فِي النَّافَةِ الْحَقِيرِ.
- والرابع: مَضْرُورٌ ذُو فَاقَةٍ؛ فَإِنَّهُ لَا يَصْفُو لِمَنْ لَا يَجِرُ فَاقَتَهُ، وَيَسُدُّ خَلَّتَهُ.
- والخامس: مَحْطُوطٌ عَنْ رَبِّيَّةٍ بَلَّغَهَا، أَوْ مَمْنُوعٌ مِنْ حَقَوِيٍّ اسْتَوْجَبَهَا، وَهُوَ سَاخِطٌ مُتَنَكِّرٌ.
- والسادس: مُهَاجِرٌ بِذَنْبٍ لَمْ يُعْفَ عَنْهُ، وَلَمْ يَنْتَقِمْ مِنْهُ، فَهُوَ خَائِفٌ حَذَرٌ.
- والسابع: مُذْنِبٌ مَعَ جَمَاعَةٍ عَفِيَ عَنْهُمْ وَعُوقِبَ فَصَارَ مُوتُورًا.
- والثامن: مُحَسِّنٌ مَعَ جَمَاعَةٍ جُوزُوا وَمُنِعَ، فَصَارَ مُحَرُومًا.
- والتاسع: ذُو كِفَاءٍ مِنْ حَسَدَةٍ وَأَعْدَاءٍ قُدِّمُوا عَلَيْهِ وَأُخِّرَ، فَصَارَ حَنِقًا.
- والعاشر: مُسْتَضَرٌّ بِمَا يَنْفَعُكَ، أَوْ مُتَنَفِّعٌ بِمَا يَضُرُّكَ، فَلَا يَكُونُ [إِلَّا] (٢)
- مُبَايِنًا.
- والحادي عشر: مَنْ كَانَ لِعَدُوِّكَ أَرْجَى مِنْهُ لَكَ، فَيَكُونُ لِعَدُوِّكَ مِمَّا يَلَا.
- والثاني عشر: مَنْ بَغَى عَلَيْهِ أَعْدَاؤُهُ، فَسُوعِدُوا عَلَيْهِ، فَتَنْتَقِلَ عِدَاوَتُهُ إِلَى مَنْ صَارَ لَهُ مُسَاعِدًا.
- فَلَا حَظَّ لِلْمَلِكِ فِي اسْتِكْفَاءِ أَحَدِهِمْ، وَلَا أَقَارِبِهِ، إِنْ هَزَّتْهُ الرِّبْتُ، وَلَزَّتْهُ النَّوَابِئُ، كَانَ بَيْنَ مَرَاقِبَةٍ مُخْتَلَسٍ، أَوْ مَوَائِبَةٍ مُفْتَرَسٍ.

(١) غ: يَنْسَى

(٢) الزيادة من السياق.

وليحذر الملك من استدنائهم؛ فإنه معهم على خطرٍ من اغتيالٍ،
أو احتيالٍ.

قال حكيمُ الروم:

ينبغي للملك أن يصرفَ حذرَه إلى الأشرارِ واستنامتهِ إلى الأخيارِ^(١).

فإن زالت أسبابُ الحذرِ، وعادوا إلى أحوالِ السلامة، صاروا كأهلِها
في جوازِ الاستكفاءِ والاصطناعِ؛ فليسَ المأمونُ أن يصلحَ الفاسدُ، كما
ليسَ بمأمونٍ أن يفسدَ الصالحُ، وللعلي نتائجُ يرتفعُ معلولُها (٤٧آ) بزوالِ
تعليلِها، ونتائجُ الأضدادِ متباينةٌ.

وقد قيلَ في منشورِ الحكم:

من حسنَ^(٢) صفأؤه وجبَ اصطفاؤه^(٣).

قال الشاعر^(٤): [من الطويل]

وقد تقلبَ^(٥) الأيامُ حالاتِ أهلِها

وتعدو على أسدِ الرجالِ الثعالبُ^(٦)

(١) قال ابن المقفع: «ليتفقد الوالي فيما يتفقد من أمور الرعية فاقة الأحرار منهم فليعمل في سبدها، وطغيان السفلة منهم فليقمعه»، (الأدب الكبير ١١٦).

(٢) غ: من وجب صفأؤه والتصحيح من الأمثال والحكم والمستطرف.

(٣) قولهم: «من حسن صفأؤه وجب اصطفاؤه»، أورده المؤلف في الأمثال والحكم (الورقة ٣١) غير منسوب، وأبو الحسن بن الحسين الرخجى غير منسوب أيضاً بلفظ «من عرف...» (أحاسن المحاسن ١٥٨)، والإيشي بلفظه غير منسوب أيضاً، (المستطرف ٢٥/١).

(٤) قوله «قال الشاعر» قلت هو الخارث بن عمر التنوخي إذ قد أورد الماوردي البيت في الأمثال والحكم منسوباً إليه وفي التذكرة السعدية.

(٥) تقلب كذا في غ، ط، التذكرة السعدية، وفي الأمثال والحكم (تغلب) بالغين

(٦) البيت في الأمثال والحكم للماوردي (الورقة ٨ب)، منسوباً إلى الخارث بن عمر التنوخي والتذكرة السعدية ٣٧٥، رقم القطعة ١٥٩، من باب الأدب والحكم والأمثال ونسبه إليه مع بيت آخر قبله هو:

وكل له فيها يروم ضريبة وتفضيل ما بين الرجال الضرائف
فانظرهما فيها وفيها تخريج.

وإذا اكتفى من استكفاه، اقتصر، ولم يستكثر؛ فحسبه في العمل من كفاه؛ فما في الاستكثر بعد الاكتفاء إلا مال مضاع، [وسرّ مذاع^(١)]، وكلا الأمرين خللٌ وزللٌ.

قال بعض البلغاء:

ليس العمل بكثرة الإخوان، ولكن بصالح الأعوان^(٢).

وإن وجد كافياً، ولم يجد عملاً لاستيلاء الكفاة على الأعمال، تمسك به، ولم يهمله، وراعه بقدر كفايته، وأدخره لوقت حاجته، فلا غنى بالملك عن ادخار أعوان يعدهم لما يطغى، ويستظهر بهم على من استكفى، حتى لا تفجأ الحاجة وأعوانها متعذرون، ويكفي أن يسرسل أو يدلل عليه الناظرون.

فإذا أدخر الأموال لنواب الملك كان ادخار الأعوان أحق؛ لتمثيل الأموال، وتفاضل الأعوان.

* * *

(١) الزيادة من السياق لذكره أمرين.

(٢) قولهم: «ليس العمل بكثرة الإخوان ولكن بصالح الأعوان» أورده المبرر بن فائق غير مسوب لأحد بلفظ «ليس رجاء الغلبة بكثرة الأعوان ولكنه بصالحائهم» (مختار الحكم ٣٥٥).

[الفصل الرابع والعشرون]

[أشد ما يمتنى به الملك في سياسة ملكه]

وأشد ما يمتنى^(١) به الملك في سياسة ملكه شيان:
أحدهما: أن يفسد عليه الزمان.
والثاني: أن يتغير عليه الأعوان.

[فساد الزمان]:

فأما فساد الزمان فنوعان:
نوع حدث عن أسباب إلهية.
ونوع حدث عن عوارض بشرية.

[ما حدث عن أسباب إلهية]:

فأما الحادث عن الأسباب الإلهية [فيجب]^(٢) أن يقابلها الملك
بأمرين:

أحدهما: إصلاح^(٣) سريره، وسرائر رعيته. فقد^(٤) روي عن النبي
عليه السلام أنه قال:
«إذا جارت الولاة قحطت السماء»^(٥).

(١) غ: تمنى. ط: قال أقصى القضاة وأما ما تكلم به في سياسة الملك فأشد ما عني.

(٢) الزيادة من ط وفيها: فأما الأول فيجب...

(٣) ط: صلاح.

(٤) غ: وقد.

(٥) حديث «إذا جارت الولاة قحطت السماء»، أورده المؤلف من الأمثال والحكم بلفظه (الورقة ٤٨ ب)، ومن توقيعات الأقدمين توقيع أردشير بن بابك، وكان أهل زمانه قحطوا مرفعوا إليه قصة يشكون ذلك فوقع إلى صاحب بيت المال: «إذا قحط المطر جادت سحائب الملك ففرق فيهم ما قاتهم ومانهم»، (رسالة أبي أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري في التمهيد بين بلاغي العرب والعجم، ص ٢١٧)، وفي غرر السير «رفع أهل اصطخر إلى أردشير يشكون إمساك القطر وسوء أثر القحط فوقع: إذا بخلت السماء بقطرها جادت...»

وقال علي^(١) بن أبي طالب رضي الله عنه:

من حاول أمراً بمعصية الله كان أبعد لما رجا وأقرب لمجيء ما أتقى^(٢).

والثاني: (٤٧ب) أن يتطامن لها إذا طرقت، ويتلطف^(٣) في تلاقيها إذا هجمت، حتى تنجلي عنه^(٤) وهو سليم من لفحتها^(٥) معان في شدتها، فما عن أقضية الله صاد، ولا^(٦) عن أوامره راد، فالسلم^(٧) فيها أسلم، ودفاع الله عنها أقوم.

وجد في عضد الإسكندر صحيفة فيها مكتوب:
قللة الاسترسال إلى الدنيا أسلم، والاتكال على القدر أروخ، وعند حسن الظن تقر العين^(٨).

سحابتنا بدرها، وقد أمرنا لكم بما يجبر كسرکم، وبغني فقرکم» (ص ٨٤)، وانظر أقوال متفرقة لأردشير بكتاب عهد أردشير، ص ١٠١-١٠٢، الفقرة رقم ٢٥، وفي الإيجاز والإعجاز: «رفع أهل اصطخر إلى نرسي بن بهرام احتباس المطر فوق: إذا انجلت - كذا ولعبها بخلت - السماء بقطرها جادت يد الملك بدرها» (ص ١٣)، وانظر (خاص الخاص ٨٤). ومن كلام كسرى في قصة طريفة ما يأتي من هذا المعنى (المصباح المضيء في خلافة المستضيء ١ / ٥٠٦)، وفي سيرة أنوشروان قصة تؤيد مصداق ما جاء في الحديث، أوردها الغزالي (نصيحة الملوك ٧٠-٧١).

(١) غ: وقال على كرم الله وجهه.
(٢) قول علي رضي الله عنه: «من حاول أمراً بمعصية الله كان أبعد لما رجا وأقرب لمجيء ما أتقى»، نحوه بلفظه في نهاية الأرب (١٠٧/٦)، وأورده المؤلف في الأمثال والحكم (الورقة ٤٥ب)، منسوباً إليه بلفظه وفيه «لحي ما أبقي»، وهو تصحيف.

(٣) غ: ويتسلط.
(٤) غ: من وقد سقطت من ط.
(٥) غ: نفحتها.
(٦) ط: ولا لأوامره راد.
(٧) ط: والسلم.

(٨) غ: العيون والتصحیح من ط ومن الأمثال والحكم. وقوله: «وجد في عضد الإسكندر صحيفة فيها مكتوب: قللة الاسترسال.. إلخ» أورده المؤلف في الأمثال والحكم بلفظه (الورقة ٣٦ب)، ومن أقوال علي رضي الله عنه: «قللة الاسترسال إلى الناس أحزم»، (غرر =

وقد قيل في مشور الحكم^(١):

لا تجهدن^(٢) في ما لا درك فيه تريح التعب، وادحض البخل، ولا كنت خازن غيرك، [ولا تدخرن المال لبعل عرسك]^(٣) ولا تظهرن^(٤) إنكار ما لا عدة معك لدفعه، ولا يلهينك قدره^(٥) عن كيد حيلة^(٦).

قال الشاعر: [من الكامل]

ما للرجال مع القضاء تحيل

ذهب القضاء بحيلة السحتال^(٧)

[ما حدث عن العوارض البشرية]:

وأما الحادثات عن العوارض البشرية من أفعال العباد^(٨)، فهي التي يساس فسادها بالحزم حتى تنحسم، وبالاجتهد حتى تنتظم؛ فليس ينشأ^(٩) الفساد إلا عن أسباب خارجة عن العدل والاقتصاد، ولا تنحسم إلا بحسم أسبابها.

= الحكم ٢٣٤) وفي موضع آخر «عشرة الاسترسال لا تقال» (٢٢١)، ويلفظ «من أقل الاسترسال سلم، من أكثر الاسترسال ندم» (ص ٢٦٦).

(١) ط: في حكم الفرس.

(٢) غ: لا تجتهدون، والصواب ما أثبتناه عن ط، وعن الأمثال والحكم.

(٣) الزيادة من الأمثال والحكم.

(٤) غ: ولا تظهر.

(٥) ط: قدر وما أثبتناه هو الصواب عن غ وعن الأمثال والحكم.

(٦) قوله: «وقد قيل في مشور الحكم: لا تجهدن في ما لا درك فيه..» أورده المؤلف بلفظه في الأمثال والحكم (الورقة ٥٠ب)، ومن أقوال علي رضي الله عنه، «لا تبسطن يدك على من لا تقدر على دفعها عنه» (غرر الحكم ٣٣٥)، و«ما جمعت من المال فوق قوتك فإني أنت فيه حازن لغيرك» (سراج الملوك ٩١)، ووجد مكتوباً على حجر: «انتبهز الفرص عند إمكانها ولا تحمل على نفسك هم ما لم يأتك، واعلم أن تقتيرك على نفسك توفير لخزائنه غيرك، فكم من جامع لبعل حليته» (سراج الملوك ٩١) ونجد في كلام الأحنف بن قيس ما يشبه هذا الكلام في خطاب طويل فانظره في (نهاية الأرب ٨ / ١٨٥-١٨٦).

(٧) مرّ هذا البيت قبلاً.

(٨) ط: وأما الحادث عن الأسباب البشرية من أفعال المخلوقين.

(٩) ط: يتشر الفساد.

قال الشاعر^(١): [من البسيط]

[وقلما يفجأ المكروه صاحبَه

إذا رأى لوجوه الشر أسبابا^(٢)

فيرا عي الملك سبب الفساد: فإن كان حادثاً عن شدة وعنفٍ وعنفٍ
حَسَمَهُ باللين واللفظ، وإن حدث عن لينٍ وضعفٍ حَسَمَهُ بالشدة والعنف،
وكذلك ما عداهما من الأسباب، تنحسّم بأضدادها، فإن حَسَمَ الداء بضده
من الدواء فقد قال الشاعر: [٣]: [من الكامل]
فالنارُ بالماء الذي هو ضدها

تعطي النضاج وطبعها الإحراق^(٤)

وربما اختلفت^(٥) الأسباب لامتزاج أنواع الفساد، فتحسّم الأسباب
المتنوعة^(٦) بأضدادٍ متنوعة، كما تعالج الأمراض المضادة بأدوية متضادة،
فيستخرج حسّم كل فسادٍ من سببه، وما يصعب من هذه السياسة إلا معرفة
الأسباب، فإذا عرفها وقف على الصواب، وإن أشكلت عليه التبس عليه
الصواب؛ فثاء عن قصده وذهل عن رشده.

قال الشاعر^(٧): (٤٨ آ) [من الطويل]

-
- (١) قوله: قال الشاعر: قلت هو حثامة بن قيس كما نسب إليه الماوردي في الأمثال والحكم.
(٢) قوله: وقلما يفجأ المكروه.. إلخ، البيت ورد منسوباً إلى حثامة بن قيس في الأمثال والحكم
(الورقة ٧ب)، وهو غير منسوب لأحد في المعقد الفريد (طبعة العريان، ٢ / ١٨٨) وفيه:
حتى يرى لوجوه الشر...
(٣) الزيادة من حاشية الأصل غ ويمض منها من ط.
(٤) قوله: «فالنار بالماء الذي هو ضدها.. إلخ» البيت مع بيت آخر قبله هو قوله:
وإذا عجزت عن الصلوة فداره وامزج له إن المزاج وفاق
سائقهما المؤلف مرة أخرى في هذا الكتاب كما أتى بهما في أدب الدنيا والدين (١٦٧)، دون
عزو إلى قائل. وقد ورد البيت غير معزو أيضاً في التمثيل والمحاضرة (٢٦٤) بلفظ (والنار).
وقد سقط ما بين هذا البيت وبين ذكره مرة ثانية بعد ورقات من نسخة ط.
(٥) غ: اختلف.
(٦) غ: المتنوعة.
(٧) قوله «قال الشعر..» قلت قد سماه المؤلف في الأمثال والحكم فذكر أنه عبيدة بن حصص =

إذا ما أتيت الأمر من غير بابِه
ضللت وإن تقصِدت إلى البابِ تهتد^(١)
وتقلب الزمان بأحوال أهله يعودُ عليهم بخيره وشره. روي عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال:

«إذا كانَ أمرؤُكم خيارَكم، وأغنياؤُكم سمحاءَكم، وكانَ أمرُكم
بينكم، فظهرَ الأرضُ خيرٌ لكم من بطنِها، وإذا كانَ أمرؤُكم شرارَكم^(٢)،
وكانَ أغنياؤُكم بخلاءَكم، وكانَ أمرُكم إلى نساءِكم، فبطنُ الأرضِ خيرٌ لكم
من ظهرها»^(٣).
[تغْيِيرُ الْأَعْوَانِ]:

وأما تَغْيِيرُ الْأَعْوَانِ فنوعانِ:
أحدهما: أَنْ يَكُونَ لِفَسَادٍ تَعَدَّى إِلَيْهِمْ.
والثاني: أَنْ يَكُونَ لِفَسَادٍ حَدَثَ مِنْهُمْ.

[تَغْيِيرُ الْأَعْوَانِ لِفَسَادٍ تَعَدَّى إِلَيْهِمْ]:

فإذا كانَ تَغْيِيرُهُمْ لِفَسَادٍ تَعَدَّى إِلَيْهِمْ عَوجَلُوا بِحَسْمِ أَسْبَابِهِ قَبْلَ
تَفَاقُمِهَا؛ فسيجدهم - بعدَ حَسْمِهَا - على السَّدادِ.

= الأودي، على حين ورد البيت في ديوان قيس بن الخطيم الذي جمعه الدكتور إبراهيم
السامرائي والدكتور أحمد مطلوب ضمن قصيدة طويلة.

(١) قول الشاعر: «إذا ما أتيت الأمر من غير بابِه..» البيت أورده المؤلف في الأمثال والحكم
(الورقة ١٤ب)، منسوباً إلى عبيدة بن حصن الأودي، وأورده دون أن ينسبه إلى قائل في
أدب الوزير (ص ١٩)، وهو في ديوان قيس بن الخطيم ضمن قصيدة طويلة لقيس بلفظ:

مضى ما أتيت الأمر من غير بابِه ضللت وإن تدخل من الباب تهتد
(انظر ديوان قيس بن الخطيم، القصيدة رقم ٦، ص ٤٦) وقد ورد البيت غير
منسوب في نهاية الأرب (٦ / ١٠٥) وفي المستطرف (١ / ٣٠)، وهو فيها بلفظه.

(٢) غ: أشراكم وكذا في الجامع الصغير والتصحيح من مصادر التخريج.

(٣) حديث: «إذا كانَ أمرؤُكم خيارَكم..» رواه الترمذي عن أبي هريرة بلفظ «إذا كانت..»
وأمرؤكم شوري بينكم.. وأغنياؤكم بخلاءكم وأمرؤكم إلى نساءكم..» وقال هذا حديث
غريب لا نعرفه إلا من حديث صالح المري وصالح في حديثه غرائب، لا يتابع عليها
وهو رجل صالح، (سنن الترمذي ٣ / ٣٦١، رقم الحديث ٢٣٦٨)، وانظره في الجامع
الصغير (١ / ٣٤)، والتيسير (١ / ١٢٥)، والترغيب والترهيب (٣ / ١٦٦-١٦٧).

فإن أهملوا، فلكل برهة تمضي من زمانهم تأثير في استحكام فسادهم، حتى يقضي إلى غاية لا تستدرك؛ لأن حسم ما استحکم متعذر، مستبعد.

وسبب هذا الفساد واحد من ثلاثة أسباب:
 إما أن يكون لتقصير بهم فيستدرك بالتوفر عليهم.
 وإما أن يكون لعدوان عليهم فيستدرك بالكف عنهم.

وإما [أن يكون] لمفسد أطمعهم، فهو أخبثها؛ لأن الطمع مصائل^(١) للعقول، ومفسدة للقلوب. فإن لم يصده حزم، أو حذر، خبث به السرائر؛ فهيج من النفوس سواكنها، وأبرز من القلوب كوامنها، وصار كأجيج النار في يابس الحطب.

وقد روي عن النبي عليه السلام أنه قال:
 «استعينوا بالله من طمع يؤدي إلى طبع»^(٢).

- (١) مسائل: اسم فاعل مأخوذ من صؤل البعير بالهمز من باب ظرف إذا صار يقتل الناس ويعتدو عليهم ويؤاثمهم فهو جل صؤل.
- (٢) حديث «استعينوا بالله من طمع يؤدي إلى طبع»، رواه الإمام أحمد من حديث معاذ بلفظ «استعينوا بالله من طمع يهدي إلى طبع ومن طمع يهدي إلى غير مطعم ومن طمع حيث لا طمع»، (مسند أحمد ٥ / ٢٣٢)، ورواه مرة أخرى عنه بلفظ «ومن طمع في غير مطعم» بدل قوله «ومن طمع يهدي إلى غير مطعم»، (مسند أحمد ٥ / ٢٤٧)، وقد ورد الحديث في أدب الدنيا والدين (ص ٢٩٨)، وفي نسخة ط بلفظ: «وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في ادعائه: اللهم إني أعوذ بك من طمع يهدي إلى طبع»، وقد ورد أيضاً في تهذيب اللغة (مادة طبع ٢ / ١٨٦)، بلفظ: «نعوذ بالله من طمع يهدي إلى طبع»، وقد رواه أيضاً الحاكم في المستدرك والطبراني في الكبير عن معاذ من حديث صحيح (الجامع الصغير ١ / ٤٠)، قال في التيسير: قال القاضي: والمعنى تعوذوا بالله من طمع يسوق إلى شيء في الدين وإلزاء بالمروءة (١ / ١٤٧)، وإحياء علوم الدين ١ / ٣٣٠ ومن حكمهم: «رب طمع أدى إلى طبع» في قصة المثل المشهور «قلب الصخرة» وهي أنهم قالوا إنه كان رحل من معد رأى صخرة عظيمة ببلاد اليمن مكتوباً عليها بالمسند «أقلبني أنفعك» فاحتال في قلبها ولقي العناء من ذلك، فإذا على الجانب الآخر «رب طمع أدى إلى طبع» فما زال يضرب برأسه الحجر تلهفاً حتى انتثر لحمه ومات (ثمار القلوب ٥٥٨)، و(مجمع الأمثال ١ / ٤٣٩) رقم (٢٣٣٢)، وقولهم «رب طمع أدى إلى طبع» قد ورد في التمثيل والمحاضرة (ص ٤٤٦)، =

وقال عمرُ [بْنُ الخطابِ رضي الله عنه^(١)]:
 إِنَّ الطَّمْعَ فَقْرٌ وَإِنَّ [الْيَأْسَ غِنًى، وَإِنَّ الْمَرْءَ إِذَا يَشَسَ مِنْ شَيْءٍ^(٢)
 اسْتَغْنَى عَنْهُ^(٣).

وحسبُ هذا الطَّمْعِ يَكُونُ بِمَعَالِجَةِ إِرْغَابٍ مِنْ اشْتَدَّ حَتَّى يَنْسَى،
 وَإِرْهَابٍ مِنْ لَأَنَ حَتَّى يَنْتَهِي، لَتَمْتَرَجَ (٤٨ب) الرِّغْبَةُ بِالرَّهْبَةِ، فَفِي انْفِرَادٍ
 أَحَدُهُمَا فَسَادٌ.

= وجمع الأمثال (١ / ٣٠٦، رقم ١٦٤٢)، بلفظ (يهدى) وقال: الطمع الدنس، وقد أخذ
 هذا المعنى عروة بن أذينة القرشي - أموي - إذ قال:

لا خير في طمع يهدي إلى طبعٍ وَغَفَّةٍ مِنْ قِوَامِ الْعَيْشِ تَكْفِيفِي
 (حاشية النجاشي في أخلاق الملوك ١٢١)، وفي الحماسة البصرية ٢ / ٨١ بلفظ «... يدل إلى
 طبعٍ وَغَيْرٍ مِنْ كِفَافٍ...»، ونسبه ابن السكيت لثابت بن قطة العتكي مع بيتين آخرين (كنز
 الحفاظ من كتب تهذيب الألفاظ تهذيب الخطيب التبريزي ص ٢٢ و ٤٣٧)، ومن أمثالهم
 «الطمع طبع»، (جمهرة اللغة مادة ط ب ع ١ / ٣٠٦).

(١) الزيادة من ط وفي غ: عمر عليه السلام.

(٢) غ: من الشيء.

(٣) قول عمر رضي الله عنه: «إن الطمع فقر واليأس غنى...» أخرجه ابن الجوزي من حديث
 هشام عن أبيه قال: قال عمر رضوان الله عليه: تعلموا أن الطمع فقر وأن اليأس غنى،
 وأن المرء إذا يش من شيء استغنى عنه»، (سيرة عمر بن الخطاب ١٢٦)، وكتاب (الف
 كلمة لأمر المؤمنين عمر بن الخطاب) بلفظ «إن الطمع فقر وإن اليأس غنى وإنه من ييأس
 عما في أيدي الناس استغنى عنهم»، (ص ٣٣ رقم القول ٣٢٤)، ورواه الماوردي في الأمثال
 والحكم (الورقة ٤٤٤) وأخرجه رزين من حديث عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب قال
 يوماً في خطبته «تعلمون أيها الناس: أن الطمع فقر وأن اليأس غنى، وأن المرء إذا يش من
 شيء من أمور الدنيا استغنى عنه» (جامع الأصول ١١ / ٣٥٧، رقم الحديث ٨٤٥٠)، وقد
 ورد في ما نسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله: «الطمع فقر ظاهر واليأس غنى
 حاضر»، (غرد الحكم ١٦)، وفي موضع آخر: «إن أكيس الناس من اقتنى اليأس ولزم
 الصمت والورع، وبرىء من الحرص والطمع الفقر الحاضر، وإن اليأس والقناعة الغنى
 الظاهر» (١١٤-١١٥)، وقد ورد معنى قول عمر ضمن حديث للرسول صلى الله عليه
 وسلم أن رجلاً قال: يا رسول الله أوصني. قال: عليك باليأس عما في أيدي الناس، وإياك
 والطمع فإنه الفقر الحاضر، وإذا صليت صلاةً فصل صلاةً مودع، وإياك وما يعتذر منه»
 (المستدرک ٤ / ٣٢٦) عن سعد بن أبي وقاص وانظر (أدب الدنيا والدين ٢٩٨)، وانظر
 (الدر المنظم في الوعظ والحكم ص ١٧)، وقد ورد هذا القول في رسالة (كلمات مختارة
 ص ٢١)، بلفظ «إن المطامع فقر والغنى يأس» غير منسوب وبهذا اللفظ أيضاً في (الإمتاع
 والمؤانسة ٢ / ١٤٨).

قال الشاعر^(١): [من الكامل]

والنفس راغبة إذا رَغِبَتْهَا
وإذا تُرِدُّ إلى قليل تَفْتَنُ^(٢)

[تغيّر الأعوان لفساد حدث منهم]:

وأما تغيّر الأعوان لفساد حدث منهم، عدلوا به عن الاستقامة، وزالوا عن أحوال السلامة، فهو الدَّغْلُ^(٣)، والقرْحُ النُّغْلُ^(٤)، والخطْبُ العَضْلُ^(٥).
والفرق ما بين الفساد الطارىء عليهم، والفساد الناشئ منهم من وجهين:

أحدهما: أنَّ الطارىء منفصل، والناشئ متصل، ونكاية المتصل أبلغ من نكاية المنفصل.

والثاني: أنَّ الطارىء ظهر قبل حلوله فيهم، فأمكن تعجيل استدراكه، والناشئ ظهر بعد استحكامه فيهم، فتعذر تعجيل استدراكه، فلزم لدغل دائه، وعضل دوائه، أن تقرّر في تلافيه، وحسم دواعيه، قواعد كل حالة على قاعدتها، ويدبّر بموجبها.



(١) قوله: «قال الشاعر» قلت هو لابي ذؤيب الهزلي وقد مرت ترجمته.

(٢) قوله: «والنفس راغبة..» مرّ الاستشهاد بهذا البيت وتخرجه.

(٣) الدغل - بفتحين: الفساد.

(٤) النغل: يقال نغل الأديم: فسد وبابه طرب فهو نغل. ومنه قولهم: فلان نغل إذا كان فاسد السب، والعاقبة تقول نغل بالتسكين.

(٥) العصل: الشديد الذي أعيا الأطباء.

[الفصل الخامس والعشرون]
[سياسة الملك وأحواله]

[بم يساس الملك؟]:

وإذا كَانَ كَذَلِكَ فالملك يساس بثلاثة أمور:
أحدهما: بالقوة في حراسته وحفاظه.
والثاني: بالرأي في تديره وانتظامه.
والثالث: بالمكيدة في فل أعدائه.
فتكون القوة مختصة بالعقل.

والرأي مختصاً بالتدبير. وهما على العموم في جميع الأحوال والأعمال.

فأما المكيدة فمختصة بفل الأعداء؛ فإن من ضَعُفَ كيده قوي عدوه، وهذا أصل يعتمد^(١) عليه مدار السياسة، ويحمل عليه تدبير الملك^(٢).

[أحوال الملك]:

وللملك ثلاث أحوال:

فالحال الأولى: تثبيت قواعده.

والحال الثانية: تدبير رعيته.

والحال الثالثة: استقامة أعوانه.

[١ - تثبيت قواعد الملك]:

فأما الحال الأولى في تثبيت قواعده وحراسته من الأعداء المنازعين فيه فضربان:

أحدهما: (٤٩آ) حاله قبل استقراره عند المنازعة فيه والمحاربة عليه، فيساس بالأمور الثلاثة:

(١) غ: معتمد.

(٢) قال محمد بن يزداد الكاتب: «إذا لم تستطع أن تقطع يد عدوك فقبلها»، (عيون الأخبار ١١٢/٣).

أحدهما: بالقوة في حراسته والذب عنه حتى تستقر قواعده.
 والثاني: بالرأي في تدبيره، حتى ينتظم على اعتداله.
 والثالث: بالمكيدة في انتهاز فرصته ودفع غوائله.
 والثاني: حاله بعد استقراره في السلم والدعة، فيساس بأمرين:
 أحدهما: بالقوة الحافظة لقواعده المستقرة.
 والثاني: بالرأي الجامع للسياسة العادلة.
 ولا حاجة إلى استعمال المكيدة فيه عند السلم والموادعة.
 [٢ - تدبير الرعية]:

وأما الحال الثانية في تدبير الرعية فضربان:
 أحدهما: حالهم في السلامة والسكون، فيساس بالرأي وحدة
 المحافظة لتدبيرهم على السيرة العادلة.
 والضرب الثاني: حالهم في الاضطراب والفساد، فيساسون بأمرين:
 أحدهما: بالقوة في كف مفسدهم، وكف الفساد عنهم.
 والثاني: بالرأي في تدبير أمورهم على السيرة العادلة.
 ولا وجه لاستعمال المكيدة فيهم؛ لأن حقوق الأموال مستمدة منهم؛
 فإن كيدوا صار الملك بهم مكيداً، فكان الضرر عليه أعود، والفساد فيه
 أزيد.

[أحوال الملوك مع رعيتهم]:
 وقد تنقسم أحوال الملوك مع رعيتهم أربعة أقسام يعلم بتفصيلها
 أسباب الصلاح ومواد الفساد:

فالقسم الأول: ملكٌ صلحت سريرته، واستقامت رعيته، فأعين على
 صلاح السيرة باستقامة رعيته، وأعينت الرعية على الاستقامة بصلاح سيرته،
 فهذا هو العدل منهما، فصارت السعادة شاملةً لهما، وقد روي عن النبي
 عليه السلام أنه قال:

«خيرُ أمرائكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وشرُّ أمرائكم (٤٩ب) الذين
 تبغضونهم ويبغضونكم»^(١).

(١) حديث: «خيرُ أمرائكم الذين تحبونهم ويحبونكم...» رواه مسلم من حديث عوف بن مالك =

والقسم الثاني: **مِلْكٌ** صلحت سيرته، وفسدت رعيته، فقد أضاعت الرعية بفسادها صلاح ملكها، وخرجوا من سكون الدعة، إلى زواجر السياسة، فاحتاج إلى تقويمهم بالشدة بعد لينه، وبالسطة بعد سكونه^(١)، ليقلموا عن الفساد إلى السداد فيكف عنهم، والعدل في الحاليين مستعمل معهم؛ لأن الزجر تأديب، والرهبة تهذيب.

قال بعض الألباء:

لا تُعادوا الدُولَ المقبلة، فإنكم تدبرون بإقبالها^(٢).

والقسم الثالث: **مِلْكٌ** فسدت سيرته، واستقامت رعيته. فإن استدرك صلاح ملكه بعدل سيرته وصحة سياسته، وإلا تطاولت عليه الرعية بقوة الاستقامة، وكان معهم [على] أمرين:

أحدهما: أن يصلحوه حتى يستقيم، فيصير مأموراً بعد أن كان آمراً، ومقهوراً بعد أن كان قاهراً، وتزول هيئته، وتبطل حشمته، ولا يبقى له من الملك إلا اسمٌ مستعار، قد استبقوه عليه تفضلاً.

قيل: من كثر تعديده كثر أعاديته^(٣).

= الأشجعي بلفظ «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم...» (صحيح مسلم بشرح النووي ١٢ / ٢٤٥) وأخرجه الترمذي من حديث عمر بن الخطاب بلفظ «ألا أخبركم بخيار أمرائكم وشرارهم؟ خيارهم الذين تحبونهم ويحبونكم وتدعون لهم ويدعون لكم وشرار أمرائكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم» (جامع الأصول ٤ / ٤٥٥ رقم ٢٠٥٠) والجامع الصغير (٢ / ٨) والتيسير (١ / ٥٢٣-٥٢٤) والحديث في أدب الدنيا والدين بلفظ «خير أئمتكم... وشر أئمتكم...» وفيه زيادة هي قوله: «وتلعنونهم ويلعنونكم» (ص ١٢٣).

(١) غ: كونه.

(٢) قول بعض الألباء: «لا تعادوا الدول المقبلة...» نجد معناه في أدب الدنيا والدين بلفظ «ولا تعرضن لعدوك في دولته، فإذا زالت كفيت شره» (ص ٣١٠). وقد نسب المشر بن فاتك إلى أفلاطون وجاء به ضمن حكمه وآدابه بلفظ «لا تعادوا الدول المقبلة، وتشرىوا قلوبكم استغناها فتدبروا بإقبالها» (محاسن الكلم ١٧١).

(٣) قولهم: «من كثر تعديده كثر أعاديته» ورد غير منسوب في رسالة كلمات مختارة بلفظ: «من قلت أياديهِ كثرَت أعاديهِ» (ص ٤٠) ومن أقوال علي رضي الله عنه «من حسنت مساعيه طابت مراعيه ومن كثر تعديده كثرَت أعاديهِ» (غرر الحكم ٢٧٦).

والثاني: أن يعدلوا إلى غيره فيملكوه عليهم فيكونوا له أعواناً إن نوزع، وأنصاراً إن قورع، فيصير بفساد سيرته مزيلاً لملكه، ومعيناً على هلكه.

والقسم الرابع: ملك فسدت سيرته، وفسدت رعيته، فاجتمع الفساد في السائيس والمسوس، فظهر العدوان من الرئيس والمرؤوس، فلم يتقاصد عن فساد، ولا داع إلى صلاح، فخرجت الأمور عن سبيل السلامة، وزالت عن قوانين الاستقامة، ولا ثبات لملك زالت عنه السلامة (٥٠) وعدمت فيه الاستقامة^(١)، وهو بمرصد من نائر يصطلم^(٢)، وقاهر ينتقم. وقد قال أردشير بن بابك:

بمثل هذا الملك، وهذه الرعية تختم الدول، وتستقبل الفتنة، وتذال الدهور^(٣).

[٣ - استقامة الأعوان]:

وأما الحال الثالثة في استقامة الأعوان فضربان: أحدهما: حالهم في السكون والدعة: فيسأسون بالرأي وحده في تدبيرهم بالرغبة والرغبة حتى تستقر أمورهم على السيرة العادلة. قال سابور^(٤) في عهده إلى ابنه هرمز^(٥):

(١) غ: وعدمت فيه السلامة.

(٢) يصطلم: يستأصل.

(٣) قول أردشير: «بمثل هذا الملك...» نجد غوراً من كلامه في هذا المعنى في عهد أردشير والأقوال الملحقه به وفي كتاب غرر ملوك الفرس وسيرهم (ص ٤٨٢).

(٤) سابور: معرب عن شاپور وهي تحفة عن شاهبور، وهو سابور بن أردشير بن بابك أحد ملوك الفرس ملك بعد أبيه واقتلى بسيرته طيلة إحدى وثلاثين سنة، انظر غوراً من أخبار ملوك الفرس وسيرهم ٤٨٧-٤٩٨ ومروج الذهب ١/ ١٥٤-١٥٥ والمستطرف ١/ ٩٤-٩٦ وفيها قصة ولادته وعلمها من أعجب ما حدث، وثمرات الأوراق - على هامش المستطرف ١/ ١٨١-١٩٦.

(٥) هرمز: هو هرمز بن سابور ويقال له هرمز البطل لشدة بأسه ومراسه. ملك بعد أبيه سابور وكانت مدة ملكه نحواً من ستين ثم ملك بعده جهرام بن هرمز. انظر نبذة من أخباره في =

اعلم أنَّ جندك لم يغنوا عنك وإن كثروا وكملت عدّتهم، حتى تكمل فيهم ثلاثُ خصالٍ ليس عنهن^(١) عوض: محض المودة، وصدق الناس، وسلس الطاعة؛ فإنهم يؤدون بهن حقك، ويدفعون بهن عدوك^(٢).

والضرب الثاني: حالهم في تغيُّرهم وفسادهم:

[وفسادهم]^(٣) على ضربين:

أحدهما: أن يكون الفساد خاصاً في بعضهم، فيساس من فسد منهم بأميرين:

بالقوة في إصلاحهم بمن سلم.

وبالرأي في تدبير أمورهم كالمسالمة؛ ليسيروا جميعاً على السيرة العادلة؛ فإن انتشار فسادهم من كثرة رؤسائهم المتنافسين في الرتب، فيجتذب كل رئيس حزباً يدعوهم إلى طاعته، ويبعثهم على نصرته، فيصيرون أحزاباً مختلفين، وأضداداً متنافرين. فهذه حالهم إن كثروا، وهم بالضد منها إن قلّوا.

والضرب الثاني: أن يكون الفساد عاماً في جميعهم؛ فلا يخلو حالهم في الفساد العام من أن يتظاهروا به، أو^(٤) يستروه.

فإن استروه فقد استبقوا^(٥) بالمساترة شطراً، فيساسون بالرأي وحده؛ لإعواز القوة بفسادهم، ولا يساسون بالمكيدة؛ لمساترتهم.

فإن جاهرُوا بالفساد (ب) فهو الوهن الواصم، والخطبُ القاصم.

== غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم ٤٩٨-٤٩٩، مروج الذهب ١/ ١٥٥. تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ٢٩.

(١) غ: منهن.

(٢) عهد سابور إلى ابنه هرمز تجد نصوصاً منه في غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم ٤٩٥-٤٩٨.

(٣) الزيادة من السياق وقد سقط هذا الموضوع من ط.

(٤) غ: ويستروه (بالواو).

(٥) غ: استبقوه.

ويشوع ثلاثة أنواع:

أحدها: أن يكون فسادهم مختصاً بانتهاك الرعايا، واستباحة الأموال؛ فقد سلبوه القوة بمتاركته^(١)، ومنعوه الطاعة بمخالفته، وجعلوه كالصنم الذي لا يزاؤ على التعظيم، فاستبقوا يسير حشمته، واستولوا على جميع مملكته، فیسوسهم بالرأي واللين، واجتذاب فريق، فغساه يقوى فيمنع، ويشتد فيدفع، وإلا فالملك وإي الفساد متناه، وهو كالمثل المضروب بقول الشاعر: [من الخفيف]

كم ترى يلبث الرصاص على النا.....ر ومنها يكون ذوب الرصاص

قال بعض البلغاء:

أضعف الحيلة خير من أقوى الشدة، وأقل التآني أجدي من أكثر العجلة، والدولة رسول القضاء المبرم، وإذا استبد الملك برأيه عميت عليه المراشد^(٢).

والنوع الثاني: أن يكون فسادهم مختصاً بالإسراف في مطالبته بما لا يستحقونه، والإقتراح عليه في التماس ما لا يستوجبونه، فلا يخلو فيه من أحد أمرين:

إما أن يكون قادراً عليه،

أو عاجزاً عنه.

فإن كان قادراً عليه كان هذا منهم طمعاً فيه قد أطرحوا فيه مراقبته، واستبدلوا فيه [الاستطالة] بحشمته^(٣)، وأوهنوا بالاستطالة ملكه، فصار مسلوب القوة باستطالتهم،

(١) غ: لم تاركته.

(٢) قول بعض البلغاء: «أضعف الحيلة خير من أقوى الشدة...» نسبة الماوردي إلى الفرس في حكمها وفيه «وأقل التآني خير من أكثر العجلة...» (أدب الدنيا والدين ص ٢٧٧) وفي هامشه: الدولة: أي الحرب. وقد ذكر ابن مسكويه أن قائله هو أوشهنج وأورده بلفظ. «أضعف الحيلة أنفع من أقوى الشدة...» والدعاء رسول القضاء المبرم... (الحكمة الخالدة ص ٩).

(٣) غ: واستبدلوا فيه حشمته، والزيادة يقتضيها السياق.

منهوب المال بطلالبتهم، قد جعلوه مأكلة مطامعهم، فهو معهم كذي المال المستضعف مع البغاة الأقوياء محروب^(١)، ومسلوب، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً، فيساسون بالرأي والخداع، فما استبقوا من حشمتهم إلا حشاشته^(٢)، فلا يعرضها لنفور مهلك، ويتوصل إلى رضاهم سرّاً وجهراً، بما يختلفون (١٥١) في أسبابه، وهم لا يشعرون؛ لمتزج أسباب الرضا من وجوه متغايرة، فيكون به أرفق، ولهم أوفق، كما قال الشاعر: [من الكامل].

وإذا عجزت عن العدو فدأره
وامزح له إن المزاح وفاق
فالنار بالماء الذي هو ضدّها
تعطي النضاج وطبعها الإحراق^(٣)

فإذا سكنوا من فورة الاشتطاط، توصل إلى حسم مطامعهم، وإن حسمت سلم ملكة بعد السقم، وإن لم تحسم^(٤) فهو ذاهب الملك، وشيك الهلك، إن لم يعضده نصر من الله وفتح قريب.

وإن كان عاجزاً عما اقترحوه، وطمعوا فيه فهو عنثٌ مستحيلٌ، قد جعلوا العنث فيه سبباً لغيره، فيساسون بأمرين: بالرأي والمكيدة؛ فإنهم لا يقفون على حالهم المستحيلة، وسينقلون عنها إلى خصلة من ثلاث:

إما أن يكفوا عن عتتهم، فيكفي أمرهم، ويدبرهم بعد كفهم.
وإما أن يختلفوا، فيقوى بمن وافقه منهم على باقيهم.
وإما [أن] يتقلوا إن لم يعنه القدر عليهم إلى ما يقع فيه التسليم والاستسلام، والله يقضي فيه بما يشاء وهو القوي العزيز.

(١) المحروب: المسلوب قال في القاموس: حربه حرباً كطلبه طلباً سلب ماله فهو محروب وحرب (مادة حرب ١ / ٥٥٥).

(٢) الحشاشنة: بضم الحاء بقية الروح في المريض والجريح (قاموس - حشش - ٢ / ٢٧٩).

(٣) قول الشاعر: وإذا عجزت... البيتين: مر ذكر البيت الثاني قبل قليل.

(٤) غ: ينحسم.

والنوع الثالث: أن يكون فسادهم مختصاً بالتعريض لنفسه، وهو الشر المغتلم^(١)، والبلاء المصطلم^(٢)، وقل أن يكون إلا لسبب من أحد ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون لسوء سيرته فيهم، فهو الملوّم دونهم، وليس يرجى زواله مع بقائه على سوء السيرة. فإن أقلع عنها فرجعوا عنه، وإلا ساسهم بما اقتضاه الرأي من لين ولطف، ثم لله الأمر من قبل ومن بعد.

والسبب الثاني: أن يكون تغيرهم عليه لملل^(٣) منهم له حدث بطول مكثه فيهم. فليس الملل^(٤) من لوازم العلل، ولئن لم (٥١ب) يزده المكث حقاً لم ينقصه.

وقل أن يكون ذلك إلا عند حدوث ناشئة لم ينالوا من دولته حظاً، فهم يأملون بتقلب الأمور أن يستحدثوا نقماً، ويرجون بانتقالها توجيهاً وتقدماً.

فإن لم يفسد بهم غيرهم كان الخطب بهم أيسر للظفر ببقية منهم؛ ليستعان بها عليهم.

وإن عمّ بهم الفساد فهو أصعب الخطبين؛ فيسوسهم باللطف والثأمين، واستصلاح فريق بعد فريق.

فإن ظفر منهم بظهور الأمل، وإلا فهو بمرصاد من بغى قد استولى، ومملك قد تولى، إلا أن يمده الله تعالى بلطف غير مرتقب، وعون^(٥) غير محتسب.

والسبب الثالث: أن يكون تغيرهم عليه لانحرافهم إلى عدوّ قد مايلوه، وإغرائهم إلى ضدّ قد استبدلوه، فهو أسوأ الخطوب محالاً،

(١) المغتلم: المحتاج.

(٢) الاصطلام: الاستصال.

(٣) غ: للملك وهو تصحيف.

(٤) غ: الملك وهو تصحيف.

(٥) غ: وهون وهو تصحيف.

وأعظمها وبالأ؛ لأنه قد بلي بانحراف أعوانه، واستطالة أعدائه؛ لأن لكل واحدٍ منهما نكاية لا تطاق، فكيف إذا اجتمعا؟

قال الشاعر^(١): [من الكامل]

إنَّ البلاءَ يطاقُ غيرَ مضاعفٍ

فإذا تضاعفَ صارَ غيرَ مطاقٍ^(٢)

ولم يبق ما يستدفع به خطبه إلا المكيدة؛ فإنها علاج ما أعضل من دائهم، فيعالجهم بها قبل أن يستأصلوه، ويظهر معها إن تراخت له المدة بإجمال سيرته، واحتماله رعيته؛ ففي كل واحد منهما عون.

فإن سرت المكيدة في عدوه لأن أعوانه.

وإن سرت في أعوانه لأن عدوه؛ لأن أعوانه يُسرُّ في واحد منهم، فهو موكل، متوقع لما تجري به الأقدار، ويتقلب به الليل والنهار، ولئن كان في غاية متناهية فليس بمأبوس أن يظفر.

روي^(٣) عن النبي صلى الله عليه وسلم (١٥٢) أنه قال:

«الدنيا دول، فما كان منها لك أذاك على ضعفك، وما كان منها عليك، لم تدفعه بقوتك»^(٤)، ومن انقطع رجأؤه مما فات استراح بدنه، ومن رضي بما رزقه الله قرت عينه»^(٥).

(١) قوله: قال الشاعر: قلت هو ابن الرومي وقد مرت ترجمته.

(٢) قوله: «إن البلاء يطاق... إلى آخر البيت» في ديوان ابن الرومي - بمناية كامل الكيلاني - ٣/٣٦١ مع ثلاثة أبيات أخرى. وقد أورده المؤلف في أدب الدنيا والدين (ص ٢٧٠) منسوباً إليه. كما أورده غير منسوب لقائل في أدب الوزير (ص ٢٤) وهو في نهاية الأرب غير منسوب أيضاً (٦/ ١١٠) وذكره الطرطوشي منسوباً إليه (سراج الملوك ١٠٢).

(٣) ط: روى علي بن الحسين عن أبيه عن جده رضي الله عنهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٤) غ، ط: بقوة، والتصحيح من مصادر التخريج.

(٥) حديث: «الدنيا دول...» في أدب الدنيا والدين (٢٠٩) وقسمه الأول في الحكمة الخالدة (١٨٨) بلفظ «... لك منها...» وما كان عليك... إلى قوله: بقوتك. وقد نسبته ابن الأثير

إلى أكرم ابن صيفي بلفظ «... لم تدفعه بقوتك، وسوء حمل الغنى يورث مرجأ، وسوء حمل =

وقيل:

ربما كان اليأس إدراكاً، والحرص هلاكاً^(١).

وقيل:

رب مستسلم سلم، ومتحزّز ندّم^(٢).

قال الشاعر: [من الكامل]

وحذرت من أمرٍ فمرّ بجانبني
لم يبكني ولقيت ما لم أخذِر^(٣)

وليس يطرأ أمثال هذه الحوادث على الممالك إلا من استرسال الملوك

في حالتين:

إحدهما: أن يغفلوا عن الحزم حتى يتشتر من الإهمال ما يطفئ.

والثانية: أن يسترسلوا في العدل، حتى يظهر من الجور ما يوحش.

قال أردشير بن بابك:

= الفاقة يضع الشرف، والحاجة مع المحبة خير من البغضة مع الغنى، والعادة أملك بالأدب»
(مجمع الأمثال / ١ / ٣٣٧ رقم المثل ١٨٠١). وقد أخرجه الشريف الرضي موقوفاً على علي رضي الله عنه من كتاب له إلى عبد الله بن عباس بلفظ: «أما بعد فإني لست بسابق أجلك، ولا مرزوق ما ليس لك، واعلم بأن الدهر يومان يوم لك ويوم عليك، وأن الدنيا دار دول، فما كان منها لك أنك على ضعفك وما كان منها عليك لم تدفعه بقوتك» (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ٢٣٢) وانظر الشطر الأول من الحديث غير منسوب في الأدب الصغير بلفظه (ص ٥٣)، وضمن رسائل اليلقاء (ص ١٧).

(١) قوله: «وقيل: ربما كان اليأس إدراكاً والحرص هلاكاً» نسب هذا القول إلى علي رضي الله عنه بلفظ «قد يكون اليأس إدراكاً إذا كان الطمع إهلاكاً» (غرر الحكم / ٢٣٢).

(٢) قولهم: «رب مستسلم سلم ومتحزّز ندّم» جاء معناه منسوباً إلى علي رضي الله عنه بلفظ «رب متحزّز من شيء فيه آفته» (غرر الحكم / ١٨٤).

(٣) قول الشاعر: «وحذرت من أمرٍ فمرّ بجانبني... الخ» أورده المؤلف في الأمثال والحكم

(الورقة ٢٦) بلفظ «... فمن... لم ييلني... باللام. ونسبه إلى سهل بن حطب وأورده

كذلك في أدب الوزير (ص ٢١) ولم ينسبه لقائل، وهو في نهاية الأرب غير منسوب

(١٠٧ / ٦).

إذا رغبَ الملكُ عن العدلِ رَغِبَتِ الرعيَّةُ عن الطاعة^(١).

وهما أُسَانُ لِلْمَلِكِ، فإذا خلا منهما، فاجتمع فيه طغيانُ الإهمالِ، واستيحاشُ الجورِ، تقوّضتْ قواعِدُ صلاحِه، وتهدّمتْ أركانُ سدادِه، فلم تبعُدْ عليه نتائجُ فسادِه، بحوادثٍ لا تحتسبُ، لأن عواقِبَ الفسادِ أدهى وأمرٌ، ونتائجُ الشرِّ أَعْدَى وأضرُّ. كما قال لقمنُ لابنِه:

يا بني اعتزل الشرَّ يعتزلُك؛ فإنَّ الشرَّ للشرِّ خلقُ^(٢).

قال بعضُ الألباء^(٣):

من فعلَ الخيرِ فبنفسِه بدا، ومن فعلَ الشرِّ فعلى نفسِه جنى^(٤).

(١) قول أردشير: «إذا رغب الملك عن العدل...» مر هذا القول قبلاً.

(٢) قول لقمان لابنِه «يا بني اعتزل الشر يعتزلك فإن الشر للشر خلق» أورده المؤلف في الأمثال والحكم (الورقة ٤٣ب) منسوباً إليه، وفي أدب الوزير (ص ٢٩ و ١٥) أيضاً، وأورده ابن مسكويه دون أن ينسبه إلى أحد بلفظ «اعتزل الشر يعتزلك الشر فإن الشر يسرع إلى الشر» (الحكمة الخالدة ١٢٧) ومن الأمثال التي تنسب إلى لقمان: «اترك الشر يتركك» (مجمع الأمثال ١ / ١٣٨ رقم المثل ٦٨٨)، وأورد شطره الثاني دون نسبة بلفظ «الشر للشر خلق» وقال «هو كقولهم: الحديد بالحديد يفلح» (مجمع الأمثال ١ / ٣٦٦ رقم المثل ١٩٦٦)، ومن كلام الأحنف بن قيس: «إن رأيت الشر يتركك إن تركته فاتركه» (العقد الفريد ١ / ١١٦) ولبطليموس قول يشابهه بلفظ: «ادفع الشر بالشر فإن الحديد بالحديد يفلح» (مختار الحكم ص ٥٤) وأمثال أبي عبيد (ص ٢) وفيه «ادفع الشر بمثله» (ص ٤) وقد جاء عن لقمان ما يكذب ذلك إذ قال: «يا بني كذب من قال: إن الشر لا يطفئه إلا الشر، إن كان صادقاً فليوقد ناراً إلى جنب نار، ولينظر هل يطفئها؟ ولكن الشر لا يطفئه إلا الخير كما يطفىء الماء النار» (مختار الحكم ٢٦٤) والتمثيل والمحاضرة (٣٥) وقال أيضاً: «اعتزلوا شرار الناس تصلح لكم قلوبكم وتسترح أبدانكم وتطب نفوسكم» (مختار الحكم، ٢٧٦).

(٣) ط: بعض الحكماء.

(٤) قولهم: «من فعل الخير فبنفسه بدا ومن فعل الشر فعل نفسه جنى» استشهد به المؤلف في أدب الوزير بلفظه ونسبه إلى بعض الحكماء (ص ١٥) وقد أخرجه ابن الجوزي بلفظ «من أحسن فبنفسه بدا ومن أساء فعلى نفسه اعتدى» (المصباح المضيء في خلاصة المستضيء ٢ / ٤٦١ وفيها تحريج، وهو من أحسن المحاسن غير معزو لأحد وقد جاء به بلفظ «... فعليها جنى واعتدى» (ص ١٥٠) وقد نسبه الأمير أسامة بن منقذ إلى الحكيم أرسطوطاليس وجاء به بلفظ «لأن تحسن وتكفر خير من أن تسيء وتشكر، فمن أحسن فبنفسه بدا، ومن أساء فعلى نفسه اعتدى» (لباب الآداب) ونسبه الثعالبي إلى الخليفة الفاهر بالله بلفظ «من صنع خيراً أو شراً بدأ بنفسه» (الإيجاز والإعجاز ص ٢٢).

قال الشاعر^(١):

الخيرُ لا يأتِيكَ مجتمِعاً
والشرُّ يسبقُ سيئه مَطْرُهُ^(٢)
[استعمال الحزم وبسط العدل]:

وإذا أحكمَ الملكُ قواعدَ ملكه باستعمالِ الحزمِ وبسطِ العدلِ، ولم يغفلْ عن الحزمِ في صغيرٍ ولا كبيرٍ، ولم يترخَّصْ في الجورِ من قليلٍ ولا كثيرٍ، أحاطت السلامةُ بملكه، وحفت السعادةُ بدولته، فأمنَ غوائلُ الفسادِ، وسَلِمَ (٥٢ب) من ظهورِ الفسادِ، وكان الناسُ معه من بين حامدٍ لعدله وإحسانه، وحذرٍ من بأسه وسلطانِه، فشكَّره الأخيارُ، واتَّقاهُ الأشرارُ، ولم يتطرقْ إلى ملكه خللٌ، ولا على نفسه وَجَلٌ، فصَحَّ أن الحزمَ والعدلَ أدفعُ لشوائبِ الملكِ، ومخاوفِ الملوكِ من كلِّ عدَّةٍ وأبلغُ في صلاحهم من كلِّ نجدةٍ، فيستنجدُ للملكِ حزْمُه، ويستعدُّ عدْلُه؛ فإنه يستغني بهما عن كلِّ عدَّةٍ، ويستعانُ بهما في حراسته من الخطرِ، وحفظِ ملكه من الغيرِ.

(١) قوله: «قال الشاعر...» قلت هو أبو زيد الطائي - المنفرد بن حرملة، وفي الطرائف اسمه حرملة بن المنذر، أدرك الإسلام ومات نصرانياً وكان من المعمرين يقال إنه عاش خمسين ومائة سنة، وكان ينادم الوليد بن عقبة، وأبو زيد شاعر غير مكثّر له ديوان جمعه زميلنا الدكتور نوري حمودي القيسي (مطبعة المعارف بغداد ١٩٦٧) وله أبيات في حماسة ابن الشجري ٩١٣/٢، والأغاني ١٢/١٢٦، والحيوان ٣١٨، وجمهرة أشعار العرب ٢٦٠، والطرائف الأدبية ٩٨-١٠١.

(٢) مطره بالماء في كل من غ وط وفي الأمثال والحكم (مطر) والبيت في الأمثال والحكم (الورقة ٢٦ب) منسوبٌ إليه، وفي (أدب الوزير ٢٥) غير منسوب لأحد، ولم أجده في ديوان أبي زيد الطائي الذي جمعه الدكتور نوري حمودي القيسي. وقد وردت العبارة الأخيرة من الشطر الثاني مثلاً من الأمثال في التمثيل والمحاضرة (ص ٢٣٧) بلفظ «سبق سيئه مطره». والبيت في المستطرف (١ / ٣٠) دون نسبة، وفيه «... لا يأتيك متصلاً...» ومثل هذا قول الشاعر:

ألم تر أن سير الخير ريث وأن الشر راكبه يطير
وقول محمد بن بشير ((أويسر):

تأتي المكاره حين تأتي جملة وترى السرور يحبى مع الفلتات
(البيان والتبيين ٣ / ٢٠٨ ٢٠٩).

قال بعض العلماء^(١):

بالعدل والإنصاف تكون مدة الائتلاف^(٢).

[قيل لأنوشروان: أي الخير أوفى؟ قال: الدين. قيل: وأي العدد

أقوى؟ قال: العدل]^(٣)

[تصفح أحوال الحاشية في زمان السلم]:

وليعلم الملك أن من الحزم أن يتصفح أحوال حاشيته وأعوانه^(٤) في زمان السلم، وأوقات السكون؛ لأن القدرة أشد، والمكيدة أمد؛ فإن لكل صنف من الحواشي والأعوان آفة مفسدة، وبليّة قاذحة، تجعل الصلاح بهم فساداً، والميل منهم عناداً، فيقف عليها، يتصفح أحوالهم؛ ليسلموا، فيصير منهم سليماً، ويستقيموا فيصير بهم مستقيماً، فقد قيل في منشور الحكم^(٥):

آفة الملوك^(٦) سوء السيرة.

وآفة الوزراء خبث^(٧) السريرة.

وآفة الأمراء مفارقة الطاعة^(٨).

(١) ط: وفي منشور الحكم.

(٢) قولهم: «بالعدل والإنصاف تكون مدة الائتلاف»، أورده المؤلف مصدراً بقوله: «وقد قيل في منشور الحكم»، دون نسبة إلى قائل (أدب الوزير، ص ٤).

(٣) الزيادة من ط.

(٤) قوله: «إن من الحزم أن يتصفح أحوال حاشيته وأعوانه..»، قال الجاحظ: «ومن أخلاق الملك السعيد البحث عن سرائر خاصته وحامته - بالحاء - أي الخاصة - وإذكاء العيون عليهم خاصة وعلى الرعية خاصة»، (التاج في أخلاق الملوك ١٦٧).

(٥) قوله: «قيل في منشور الحكم: آفة الملوك.. الخ»، أورد هذه الأقوال كلها مع غيرها الأمير أسامة بن منقذ وقال ما نصه: «قال أبو الحسن علي بن محمد الصغاني في كتاب الفوائد والقلائد في الاستعانة على حسن السياسة آفة الملوك..» (لباب الآداب ٦٧-٦٨)، وقال الشيخ أحمد محمد شاكر: «لم أجد لهذا الكتاب ولا لمؤلفه ذكراً في شيء مما بين يدي من المراجع»، (لباب الآداب حاشية ٦٧)، وقد أوردها عبد الواحد الأمدي بتقديم وتأخير ضمن حكم الإمام علي رضي الله عنه، (غور الحكم ١٣٦-١٣٧)، وهذه الأقوال وردت غير منسوبة في (أحسن المحاسن ١٦٣).

(٦) غ، ط: الملك، ومن أحسن المحاسن: السلاطين.

(٧) غ: خب.

(٨) في غور الحكم: «آفة الرعية مخالفة الطاعة، آفة الورع قلة القناعة»، وفي أحسن =

- وآفة الجند مخالفة القادة^(١).
 وآفة الرعية ضعف السياسة^(٢).
 وآفة العلماء حب الرياسة.
 وآفة القضاة حب الطمع^(٣).
 وآفة العدول قلة الورع.
 وآفة الملك تضاد الحماية^(٤).
 وآفة العدل ميل الولاة^(٥).
 وآفة الجريء إضاعة الحزم^(٦).
 وآفة القوي استضعاف الخصم.
 وآفة المجرد عوائق القضاء^(٧).
 وآفة المشاورة انتقاض الآراء^(٨).
 وآفة المنعم قبح المن^(٩).
 وآفة المذنب سوء الظن^(١٠).

= المحاسن: «آفة الأمراء، إضاعة الحزم» وليست في لباب الآداب، وقد قدمت في ط على ما قبلها.

- (١) ورد في غرر الحكم بعدها: آفة الرياضة خلية العادة.
 (٢) في غرر الحكم ولباب الآداب: آفة الرعية مخالفة الطاعة، ومن لباب الآداب بعدها: وآفة لزعماء ضعف السياسة.
 (٣) في غرر الحكم: آفة القضاء الطمع، وفي لباب الآداب شدة الطمع، وفي أحاسن المحاسن بعدها: آفة الفقهاء قلة الورع.
 (٤) في لباب الآداب: آفة العدل ميل الولاة، وآفة الملك تضاد الحماية، وفي غرر الحكم: آفة الملك ضعف الحماية، آفة الجهود قلة الرعاية، آفة النقل كذب الرواية، وفي أحاسن المحاسن: آفة الملك اختلاف الآراء فيه.
 (٥) غرر الحكم: آفة العدل الظالم القادر.
 (٦) لباب: آفة الحرب، الغرر: آفة الشجاعة إضاعة الحزم، أحاسن: آفة الأمراء إضاعة الحزم.
 (٧) غ: القضاة والتصحيح من أحاسن المحاسن، ومن ط. وقد سقطت هذه العبارة وما بعدها من لباب الآداب.
 (٨) غ: المعد والتصحيح من غرر الحكم وأحاسن المحاسن: آفة الحمد اختلاف الأهواء.
 (٩) غرر الحكم: آفة السخاء المن، وفي أحاسن المحاسن آفة المنعم سرعة المن.
 (١٠) غرر الحكم: آفة الدين سوء الظن، وفي أحاسن المحاسن: آفة الحمد حسن الظن، وآفة الحزم شتات الآراء.

وآفة الزعماء قلة السياسة^(١) (١٥٣)

وليس أسباب الفساد في هؤلاء الأصناف مقصورة على هذه الأوصاف، حتى لا يتعدها إلى ما سواها، وإنما ذُكر الأغلب من فساد كل صنف، وإن جاز أن يفسد بغيره، فيتوصل إليه بتصفحه، وسيره.

[حسم مواد الفساد]:

فإذا وقف الملك على مواد فسادهم، وأسباب آفاتهم، قطع أسبابها، وحسم موادها، لتسلم له مصادر الأمور، فتستقيم مواردها، ويأمن نتائج التقصير، فتحمد عواقبها، فإن مبادئ^(٢) الأمور أس إن رسا تشيد، وإن وهي تقوض.



(١) في غرر الحكم ولباب الآداب: آفة الزعماء ضعف السياسة، وقد سقطت من ط.

(٢) غ: فبان مباد.

[الفصل السادس والعشرون
[دوام تفقد الملك الأحوال العامة]

[١ - تفقد الملك سيرة حماة البلاد وولاية الأطراف]:

وليكن كثير الاعتناء بسير حماة البلاد، وولاية الأطراف، الذين فوض إليهم أمانات ربّه، واستخلفهم على رعاية خلقه، فيندب لذلك من أمنائه من حاز خصال التفويض، واستحق بحزمه وشهامته الولاية والتقليد.

قال أردشير [بن بابك من بعض حكمه]^(١):

لا يصلح لسد الثغور، وقود الجيوش، وتدريب الجنود^(٢)، وحراسة الأقاليم^(٣)، إلا من تكاملت فيه خمس خصال:

حزمٌ يتيقن به عند موارد الأمور حقائق مصادرها.

وعلمٌ يحجزه عن^(٤) التهور في المشكلات، إلا عند تجلّي فرصتها.

وشجاعة لا تنقصها^(٥) الملمات بتواتر حوائجها [وعظم هولها]^(٦)

وصدق في الوعد والوعيد، يوثق منه بالوفاء عليهما^(٧).

(١) الزيادة من ط.

(٢) ط: وتدريب الخيول.

(٣) ط: الإقليم

(٤) ط. عند التهور.

(٥) غ، ط: لا تقضها، والتصحيح من مروج الذهب.

(٦) الزيادة من ط.

(٧) ط: عليها.

وجود يهون عنده تبذير الأموال عند ازدحام السؤال عليه^(١).

وأقول^(٢):

إن كمالها [فيه مقيد]^(٣) باعتبار خصلتين معها:

إحداهما: أن يقدم مصالح ما تقلده على مصالح نفسه؛ لعود صلاحه إليه، ورجوع فسادة عليه.

والثانية: أن يرى [أن]^(٤) اكتساب الأجر والحمد أفضل مكاسبه^(٥)، فإن لم يجذبه^(٦) الميل إلى نفسه [فهو]^(٧) موثوق بخيره، مأمون^(٨) على غيره، [ولاً]^(٩) فلا خير فيه.

(١) قول أردشير: «لا يصلح لسد الثغور، وقود الجيوش.. الخ» أورده المسعودي ونسبه إلى هرمز بن سابور بلفظ: «كتب إلى بعض عماله: لا يصلح لسد الثغور، وقود الجيوش، وإبرام الأمور، وتدبير الأقاليم، إلّا رجلٌ تكاملت فيه خمس خصال.. وعلم يحجبه.. يوثق بولائه بهما، وجود يهريق عليه تدبير الأموال في حقها»، (مروج الذهب ١ / ١٥٥).

وقد ورد في هذا المعنى قولهم وينبغي أن يجتمع في قائد الجيش: وثبة الأسد، واستلاب الخدّة، وختل الذئب، وروغان الثعلب، وحملة الخنزير، وبكور الغراب، وحراسة الكركي..»، (التمثيل والمحاضرة ص ١٥٣)، وجعلها الثعالي عشر خصال (برد الأكباد في الأعداد ١٤١)، وأن القائد العظيم ينبغي أن تكون فيه خصال من أخلاق الحيوان: شجاعة الديك، ونحن الدجاجة، وقلب الأسد، وحملة الخنزير، وروغان الثعلب، وختل الذئب، وكان يقال من صفة الرجل الجامع: له وثبة الأسد، وروغان الثعلب، وختل الذئب، وجمع الذرة، وبكور الغراب»، (عيون الأخبار ١ / ١١٥)، وانظر ذلك وأنه من أقوالهم في (العقد الفريد - تحقيق الريان - ٢ / ١١١).

(٢) ط: قال أفضى القضاة: وأقول...

(٣) الزيادة من ط، وفيها مقيد بخصلتين أن يقدم.

(٤) الزيادة من ط.

(٥) ط: أفضل من اكتساب المال.

(٦) ط: لم يجذبه.

(٧) الزيادة من السياق وليست من غ، أو ط.

(٨) غ: ومأمون.

(٩) الزيادة من السياق وليست من غ، أو ط. وقد سقطت العبارة (فلا خير فيه) من ط.

فهذه خصال إن لم يَحْزُها (٥٣ب) سائس الملك، ومدبر الرعايا، كان اختلال عمله بحسب اختلال كماله؛ لأن لكل ثلمٍ مَسَدًا، ولكل وَهْيٍ (١) مردًا.

وقد (٢) يفتن بهذه الخصال ما يختلف باختلاف الزمان، فربما حمد في بعض الأحيان اللين واللطف، وفي بعضها الخشونة والعنف، فإن لكل وقت (٣) حكمًا، ولكل قوم تدبيرًا.

وقد وصف عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخلاق الولاة فقال: لا يصلح لمن يلي أمر الأمة إلا أن يكون حصيف العقدة (٤) قليل العزة، بعيد الهمة، شديدًا من غير عنف، لينًا من غير ضعف، جوادًا من غير سرف، لا يخشى في الله لومة لائم (٥).

وهذه الأخلاق التي وصفها يجب أن تكون لازمة في كل والٍ، مطبوعة في كل مدبرٍ، [وقد ذكر الإيادي (٦)، مع إعرابيته، أوصاف الولاة في شعره] (٧) فقال: [من البسيط]

(١) الوهي: يقال وهي السقاء يبي بالكسر وهما تحرق وانشق.

(٢) ط: وقال أنقى القضاة في أثناء كلامه: فرما حد في بعض الزمان اللين.

(٣) ط: لكل زمان.

(٤) غ: حصيف العقدة. والعقدة ما عقد عليه من رأي وعزم.

(٥) قول عمر: «لا يصلح لمن يلي أمر الأمة إلا أن يكون...» أخرجه ابن سعد وأبو عبيد والخطيب في رواية مالك، وابن عساكر، عن ابن عباس بأسانيد والفاظ، (انظر كثر العمال جده ص ٤٣٦-٤٤٠، رقم الحديث ٢٤٧٣، ٢٤٨٠، ٢٤٨٤)، وقد أوردته الماوردي في كتابه أدب القاضي ١ / ٢٥٤، وانظره في العقد الفريد ١ / ٢٨، وعيون الأخبار ١ / ٩، والبيان والتبيين ٣ / ٢٥٥، ومراج الملوك ٦٢، ١٣٩، ١٤٠، وقد نسبت أقوال بمعناه إلى أفلاطون من السعادة والإسعاد ٢١٤، وإلى زياد بن أبيه في لباب الآداب ٣٥ وإلى علي رضي الله عنه في غرر الحكم ٢٤٦، وإلى المهدي في التمثيل والمحاضرة ١٣٨.

(٦) الإيادي: هو لقيط بن يعمر الإيادي، الشاعر المشهور الذي عاصر كسرى أنوشيران، وقد طبع ديوانه بعتابة زميلنا الدكتور خليل إبراهيم العطية، (بغداد ١٩٧٠)، وفي مقدمته تعريف بالشاعر ومصادر ترجمته.

(٧) الزيادة من ط، وفي غ: قال الشاعر.

[و] ^(١) قلّدوا أمركم لله دركم
 رجب الذراع ^(٢) بأمر الحرب مضطلعا
 لا مترفاً إن رخاء ^(٣) العيش ساعده
 ولا إذا عض ^(٤) مكروه به خشعا
 ما زال يحلب دّر ^(٥) العيش ^(٦) أشطره
 يكون متبعا يوماً ومتبعا
 حتى استمرت ^(٧) على شزر مريته
 مستحكم الرأي ^(٨) لا قحماً ^(٩) ولا ضرعاً ^(١٠)

(١) الزيادة من ط، ومن مصادر التخريج وفي بعضها: فقلّدوا.

(٢) في حماسة الظرفاء: رجب الجنان، وقوله رجب الذراع: أي واسعه (الكامل ٣ / ٤٠٦).

(٣) غ: رجاء.

(٤) ط: غض، حماسة الظرفاء: حل.

(٥) غ: ذر، ط: دى، وفي مختارات ابن الشجري: ما انتفك يحلب هذا.

(٦) في عيون الأخبار ونهاية الأرب والأحكام السلطانية: در الدهر، وفي حماسة الظرفاء ومختارات ابن الشجري والكامل: هذا الدهر.

(٧) في شرح نهج البلاغة والأحكام: حتى استمر. واستمرت مريته: أي فتلت فتلاً شديداً، وقوله: على شزر أي قتل مقلوباً، ويقال شزرت الحبل، إذا كررت فتله بعد استحكامه راجعاً عليه، (الكامل ٣ / ٤٠٧).

(٨) في عيون الأخبار مستحكم السن، وفي حماسة الظرفاء: صعب المقادة، وفي الكامل: مر العزيمة.

(٩) في غ، وحماسة الظرفاء: قحماً وفي ط، والأحكام السلطانية وعيون الأخبار قحماً، وفي شرح نهج البلاغة قحماً - بالرفع - وفي الكامل: لارثاً، وما أثبتناه عن نهاية الأرب ومختارات ابن الشجري والكامل. والقحمة: الكبير السن (قاموس قحمة ٤ / ١٦٣)، وقيل: آخر سن الشيخ، (الكامل ٣ / ٤٠٧).

(١٠) قوله: «قلّدوا أمركم...» الأبيات استشهد الماوردي بها في الأحكام السلطانية (ص ١٦)، دون أن ينسبها إلى قاتل. والأبيات من القصيدة التي كتب بها الشاعر لقيط بن يعمر الأيادي إلى قبيلته (لياد) وهم بالجزيرة حين وجه إليهم كسرى أنوشروان حيشاً كثيفاً على أثر نهوضهم على امرأته، وأخذهم لها مع أموال كثيرة ها في قصيدة طويلة وقعت في ٥٤ بيتاً ومطلعها:

يا دار عمرة من عتلتها الجرعا هاجت لي الهم والأحزان والوجعا =

ثم عليه أن يحفظ مراتب جماعتهم، وينزل كل واحد منهم المنزلة التي يستحقها بكفايته^(١) وحسن أثره. وإن حفظ المراتب في المملكة كحفظ السمع والبصر؛ لعظم المنافسة فيها، وانتشار العداوة منها، وقد تدلس عليها كتدليس البهرج، وترشح لها من ليس لها كفواً، ولا من أهلها غاصباً، أو مغالطاً، فتصفر منها أيدي أربابها وينفذ فيها حكم غصابها، وليس كل من تعظم بعظيم، ولا كل من تنسك بناسك، ولا كل من تسود بسيد، والناسك غير المتناسك، (٥٤) والشريف غير المشرف، ولا خير في مملكة صار الرؤوس فيها أذناناً، والأذنان فيها رؤوساً.

عهد بعض ملوك الفرس إلى ابنه فقال:

لا تكونن^(٢) في شيء من الأشياء أشد خشية منك من رأس صار ذنباً، أو ذنب^(٣) صار رأساً، أو يد مشغولة أحدثت فراغاً، أو كريم حال إلى ضرر، أو لثيم صار إلى فرح؛ فإنه يتولد من تنقل الناس عن حالاتهم فساد مضر^(٤).

= وكان تسلسل هذه الآيات فيها على التوالي: ٤٢، ٤٣، ٤٥، ٤٧. انظر ديوان لقيط، (ص ٤٦-٤٨)، وفيه إحالات إلى مظان القصيدة والآيات، فلتراجع.
وقد وردت منسوبة إليه في عيون الأخبار ١/ ١٥، نهاية الأرب ٦/ ١٧، شرح نهج البلاغة ١/ ٤٠٨، ٤/ ٢٨٠، حاشية الظرفاء ١/ ٣٤-٣٥، رقم الحماسية ٢٨، وفيها إحالات إلى مظان القصيدة، والعقد الفريد - العريان - ٦/ ١١٨-١١٩، الكامل ٢/ ١٥٢، ٣/ ٤٠٦. وقوله: ضرراً: الضرع بالتحريك: الدليل والضعيف (مختار الصحاح، مادة ضرع ٣٠١)، والكامل ٢/ ١٥٢، ٣/ ٤٠٧.

(١) قوله: وينزل كل واحد منهم المنزلة التي يستحقها بكفايته.. قال بطليموس: «ينبغي لأعوان السلطان أن يبدي كل واحد منهم عند سلطانه ما فيه من فضله ودينه ومروءته لشرفه بحسبه، وينبغي للسلطان أن يعرف أوليائه على منازلهم بقدر الذي عندهم من الفضل والدين والمروءة، ثم تكون منازلهم عنده واستعانتهم بهم على قدر الذي عند كل واحد منهم، من العناء والمنفعة»، (مختار الحكم ٢٥٧).

(٢) غ: (تكون) والصواب ما أثبتناه عن عهد أردشير، وقد سقطت هذه القطعة من ط.

(٣) غ: أو ذنباً.. أو يبدأ.. بالنصب.

(٤) قوله: «عهد بعض ملوك الفرس إلى ابنه فقال: لا تكونن في شيء.. إلى آخره، أورد الثعالبي بعض هذا العهد منسوباً إلى أردشير بلفظ: وأوحش الأشياء عند الملوك رأس صار =

وحفظ المراتب معتبر من وجهين :

أحدهما : في الولاية والتقليد .

والثاني : في الإكرام والتقريب .

فلا يتجاوز بأحدهم قدر الاستحقاق في أحدهما ؛ فإنه يطغى بالزيادة ، ويستوحش من نقصان . وهذا أمرٌ يجب صرفُ الاهتمامِ إليه ؛ لما في نظامه من نصارة ، وغضارة ^(١) ، وحفظ مراتبه ، وحشمته ؛ إذ لا شيء أعظم إحاشاً ، ولا أكثر تنكراً أو فساداً من حطّ مراتب الكفاة ، ورفع السُّفلة والدناة .

حكي أن أنوشروان وقع إلى ولاية الحسبة ^(٢) من أعماله أن لا يدعوا ^(٣) أولاد السُّفلة أن يقعدوا ^(٤) في المكاتب ، وأن يطردوا ^(٥) عن مجالس القضاة ؛

= دَنْباً ، وَدَنْبٌ صَارَ رَأْساً ، انظر ثمار القلوب (ص ١٧٨) ، وفي التمثيل والمحاضرة له أيضاً (ص ١٣٦) ، وغرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم (ص ٤٨٣) . ونجد هذا في عهد أردشير بلفظ : « فلا يكوننَّ لشيء من الأشياء بأوحش منه من رأس صار ذنباً وذنب صار رأساً ، أو يد مشغولة أحدثت فراغاً ، أو كريم ضريب ، أو لثيم مرح ؛ فإنه يتولد من تنقل الناس عن حالاتهم أن يلتمس كل امرئ منهم أسنى من مرتبته ، فإذا انتقل أوشك أن يرى أسنى مما انتقل إليه فينبط وينافس ، وقد علمتم أن من الرعية أقواماً هم أقرب الناس حالاً من الملوك ، وفي تنقل الناس عن حالاتهم مطمعة للذين يلون الملوك في الملك ، ومطمعة للذين دون الذين يلون الملك في تلك الحال ، وهذا لقاح بوار الملك » ، (عهد أردشير، ص ٦٣-٦٤ ، رقم الفقرة ١٣) .

ونجد مقاطع من هذه الفقرة في عين الأدب والسياسة (على هامش غرر الخصائص ، ط القاهرة ، ١٦٠) ونجد في التاج بلفظ : وكان أردشير .

- (١) غ : غضارته وليست هذه القطعة في ط .
(٢) ط . الحبشة . وهو تصحيف والحسبة وظيفة اجتماعية مهمتها إزالة كل ما هو مكر وقد أصبحت في عهد المسلمين وظيفة دينية لها دورها في المحافظة على المصالح العامة ، انظر مقالتنا حول نظام الحسبة في الإسلام في مجلة الرسالة الإسلامية ، العدد ٢٩ ، ٣١ ، ٣٧ .

(٣) ط : لا تدعوا أولاد السفلى .

(٤) ط : أن يقفوا .

(٥) ط : واطردوهم .

لأنهم متى ما تعلموا الجدال قدحوا في الدين، ومتى ما تمكنوا من أعمال السلطان عملوا في بوار^(١) أهل البيوتات فقال [فيه]^(٢): [من البسيط]

لله در أنوشروان من ملك
ما كان أعرفه بالدون والسفل
نهامهم أن يمسوا بعده قلماً
وأن يروموا^(٣) ركوب الخيل والإبل^(٤)

وإذا حمد سعي صاحب في ولايته أقره على عمله؛ فإنه وإن حُسن أن ينقل الحمد من مدينة إلى أخرى وهو الأولى، حتى لا يستقر بهم وطن يأسون إلى فراقه، ولا يفتنون فيه ما يطيبون نفساً بتركه؛ فليس بصواب أن يُنقل والي المدينة، ولا صاحب الخراج، بل يكون على ولايته ما بقي على حميد سيرته. (٥٤ب) فإن أتى بمعصية، أو خيانة، صرف صرفاً لا ولاية بعده، إلا عن توبة وإقلاع، وكذلك في الحواشي والحكام.

والعلة في ذلك: أنه متى عرف من السلطان أنه يرى الصُرف والاستبدال، اعتقد كل وال أن أيامه قصيرة، فعمل لسوق يومه، ولم يلتفت إلى صلاح غده، واحتجن الأموال في صدر ولايته، وتأهب عليها لزمان عطلته، فإذا صرف عنها خلف البلاد على من بعده مختلة، وزاده الثاني اختلالاً على مثل حاله، ولا يلبث الإهمال حتى تخرب بمناهضة العمال.

وإذا سكنت نفس الناظر إلى أن أعماله مقبرة عليه ما أقام على

(١) ط: في بوار أبواب البيوتات.

(٢) الزيادة من ط.

(٣) ط: وأن يديموا.

(٤) قوله: «حكي أن أنوشروان وقع إلى ولاية الحسبة...» إلى آخر القصة مع البيتين، أورد الشعالي هذه الحكاية مع البيتين باختلاف، ونصها عنده كما يلي: «وكان يمنع أبناء العامة من التادب ويقول: إن أبناء السفلى إذا تادبوا طلبوا معالي الأمور وإذا نالوها تحكموا في وضع الأشراف، وقد ذكر ذلك من نظمه فقال:

لله در أنوشروان من رجل ما كان أعلمه بالدون والسفل
نهامهم أن يمسوا بعده قلماً كي لا يذلوا بني الأشراف بالعمل
(تاريخ غرر السير المعروف بكتاب غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم، ص ٦٠٨).

نصيحته، وجرى على جميل سيرته، نظر فيها كنظر القنّى في عمارة ضياعهم وتميز خلاتهم، وفكره في صلاح غده قبل فكره في صلاح يومه؛ لعلمه ببقاء العمل عليه، وأن خير العاقبة وشرها عائد عليه، ومنسوب إليه، فتوفر نصحه واجتهاده، وعمّ صلاحه وعفافه، وليكن نزهاً عن أموالهم وإن توفرت، غير طامع فيها وإن كثرت، ما لم تظهر منهم خيانة واحتجاج؛ لأنهم قد يكسبون بجاه أعمالهم من مباحات الوجوه ما لا تبعة فيها عليهم، ولئن يكونوا ذوي أحوال وأموال يستعينون بها على العفة والأمانة أولى من أن يكونوا ذوي فاقة تضطرهم إلى الخيانة، فقد قيل:

لا أمانة لمحتاج^(١).

وليعلم أنه متى طمع منهم في السير أطمعهم في الكثير، وإن أخذ أموالهم جهراً بتأويل أخذوا منه أضعافها سرّاً بغير تأويل، فيظن أنه قد ارتفق بمال غيره، وهو قد أخذ بعض حقه، ويصير معدوداً من الظالمين، وهو مظلوم، ويصيروا معدودين في المظلومين وما منهم إلا ظلم، وإذا كف عنهم استكفهم، فناصف ونوصف.

قال بعض العلماء:

من طمع في أموال عماله، ألجأهم إلى اقتطاع أمواله^(٢).

وقال أنوشروان: (٥٥آ)

من خاف شرك أفسد أمره^(٣).

(١) ط: لا أمانة لمحتاج وقيل: «من طمع في أموال عماله» أي بسقوط الكلام الذي بين القولين.

(٢) قوله: «قال بعض العلماء: من طمع في أموال عماله، إلخ»، أورده الأمير أسامة بن منقذ ضمن قول أبرويز الذي مرّ وهو قوله: «من اعتمد على كفاة السوء...» وبلغه فليظن في (لباب الآداب ٥٦)، وفي التمثيل والمحاضرة: «السلطان إذا قال لعماله: هاتوا فقد قال لهم خذوا» (ص ١٣١).

(٣) قول أنوشروان: «من خاف شرك أفسد أمره»، أورده الرخجي منسوباً إليه بزيادة هي «فلا ترجو من لا يرجو خيرك، ولا تأمن من لا يأمن شرك»، وهو قول أردشير الذي سيأتي (انظر أحاسن المحاسن ١٤٧)، وسيأتي في معناه قولهم «من خاف إساءتك اعتقد مساءتك».

وقال أردشير:

لا ترجو^(١) خير من لا يرجو خيرك، ولا تأمن جانب من لا يأمن جانبك^(٢).

فإن ظهر منهم على مال قد احتجونه، وحق قد خانوه، طالبهم به مطالبة المدين المنصف، واستوفاه منهم استيفاء المحق المسعف، بعد إقامة حججه، وإظهار شواهد، ولا يستغنى بالقدرة عن إظهار الحجة ليكون معذوراً وهم مذمومين، ومنصفاً وهم خائنين.

فلذا استوفى حقه، واسترجع ماله كان من وراء تأديبهم؛ تقويماً لهم واستصلاحاً لغيرهم.

وعلى حسب أقدارهم يكون التقويم.

وإذا وجد من بعض خدمه هفوة أو تقصيراً لم يأنه عمداً، لم يأخذه بذنب الدهر وعوائق الزمان، مع حسن الثقة، وجميل الظن فيه؛ فليس من الزلل أمان، ولا إلى العصمة سبيل وقد قيل:

أي عالم لا يهفو، وصارم لا ينيو، وجواد لا يكبو^(٣).

(١) لا ترجو كذا بالواو على النفي لا على النهي.

(٢) قول أردشير: «لا ترجو خير من لا يرجو خيرك»، أورده الرخمي بعد القول الذي سبقه منسوباً إلى أنوشروان بلفظ «فلا ترجو من لا يرجو خيرك، ولا تأمن من لا يأمن شرك، فاجعل الناس بالزمان وأهله من اعتمد في أموره على من لا يأمل خيره ولا يأمن شره»، (أحاسن المحاسن ١٤٧)، وأورده في سراج الملوك (١٩٩-٢٠٠)، بلفظه دون عزو إلى قائل.

(٣) قولهم: «أي عالم لا يهفو، وصارم لا ينيو، وجواد لا يكبو»، نسبة للموردي في أدب الدنيا والدين (١٦٣) إلى الحكماء وقد استشهد به ابن مسكويه ضمن حكم العرب وأمثالها السائرة بلفظ: «لا بد للجواد من كبوة، ولل سيف من نبوة، وللحليم من هفوة» (الحكمة الخالدة ١٩٧)، وانظر أمثال أبي عبيد (ص ٣)، بلفظ «إن الجواد قد يعثر»، والتمثيل والمحاضرة ٣٣٩، وعيون الأخبار ١/ ١٠٢. ولفظ «لكل جواد كبوة، ولكل صارم نبوة ولكل عالم هفوة»، في أمثال أبي عبيد، ص ١٣، وجميع الأمثال ١٨٧ / ٢، رقم ٣٢٩٨، ونهاية الأرب ٨ / ١٧٦، ١٨١ من كلام علي، وهو في معنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «لا حليم إلا ذو عثرة، ولا حكيم إلا ذو تجربة»، الذي سيأتي بعد قليل.

قال بعض العقلاء:

من كثر صوابه لم يطرح لقليل الخطأ^(١).

قال الشاعر^(٢) [من الطويل]

ولست بمستبِقٍ أخاً لا تلمّه

على شعث أي الرجال المهذب^(٣)

قال النبي عليه السلام:

«لا حلِيم إلا ذو عثرة، ولا حكيم إلا ذو تجربة»^(٤).

(١) قوله: «من كثر صوابه لم يطرح لقليل الخطأ»، أتى به المؤلف من منشور الحكم، ولم ينسبه لقائل في أدب الوزير ٥٢، والأمثال والحكم، الورقة ٦٤ب، ونقله النويري عنه في نهاية الأرب ١٣٧/٦، وقد أورد ابن المقفع معنى هذا القول بلفظ «لا يمنعك صغر شأن امرئ من اجتهاد ما رأيت من رأيه صواباً واصطفاء ما رأيت من أخلاقه كرياً؛ فإن اللؤلؤة الفائقة لا تهان لهوان غائصها الذي استخرجها»، (الأدب الصغير ٦٣).

(٢) قوله: «قال الشاعر...»، قلت هو النابغة الذبياني الشاعر المشهور بالاعتداليات وديوانه طبع كثيراً. وفي ط: قال بعض الشعراء.

(٣) قول الشاعر: «ولست بمستبِقٍ أخاً لا تلمّه...»، أوردته المؤلف في أدب الدنيا والدين ١٥٨، منسوباً إلى النابغة الذبياني وهو في ديوانه - باريس - ٨٤-، وصادر ٢٥، وضمن مجموع يشتمل على خمسة دواوين - المطبعة الوهية - ١٤ والتشيل والمحاضرة ٤٨، وعيون الأخبار ٣/١٦، ونهاية الأرب ٣/٦٣، ٢٦٢، ٨/١٧٦، أخبار النوايح وآثارهم ٣٨٦، الإيجاز والإعجاز ٣٨، وخاصّ الخاص ٩٧، حاسة البحري ٩٩، جهرة أشعار العرب ٥٦، ٦١، لباب الأدب ٣٨٠، ٤٢٦، الفاخر ٣٨٦، رقم ٤٥٠، والعقد الفريد - المرين - ٢/٣٦٥، المثل المقارن ١٤٧، الممددة ١/٩٧، كنز الحفاظ في كتاب تهذيب الألفاظ لابن السكيت بهتذيب الخطيب التبريزي ٥٠٩، ديوان المعاني ٢/١٩٦، شرح نهج البلاغة ٣/٢٣، ٤/٤٩٩، الموشح ٣٣، وقانون البلاغة لأبي طاهر محمد بن حيدر بغدادي منسوباً إليه - ضمن رسائل البلقاء - ٤٥٩، والتقنية للبندنجي بتحقيق زميلنا الدكتور العطية - مطبوعة على الرونيو ص ٥٣٥، وفيها تحريج. وقد أخذه زين الدين أبو حفص عمر بن مظفر بن عمر الوردي الشافعي فقال:

فمن ذا سواه في السورى لا تلمّه

على شعث أي الرجال المهذب

(ديوان ابن الوردي، مطبعة الجوانب - القسطنطينية ١٣٠٠هـ، ص ١٧٠)، وقوله «أي الرجال المهذب»، عنه ابن سلام في الأمثال، (أمثال أبي عبيد، ص ٢)، وجمع الأمثال ١/٢٣، رقم المثل ٦٥).

(٤) حديث: «لا حلِيم إلا ذو عثرة، ولا حكيم إلا ذو تجربة»، رواه الترمذي عن أبي سعيد =

وفي^(١) تأويله وجهان:

أحدهما: أن معناه أنه لا يخلو حليم من عثرة، ولا حكيم أن يحتاج إلى تجربة.

والثاني: أن [لا] يكون حليماً، ولا حكيماً حتى تكثر عثراته وتجربته، فيصير - بعد كثرة التجارب والعثرات - حليماً حكيماً.

وإذا قطعت بعضهم عن الخدمة قواطع قطع، وظهرت بأعدادها، ووضح برهانها لم يكفله فعل ما ليس في وسعه وطاقته؛ فقد رفع الله الحرج عن المعذور في حقه، وقد تقطع الملوك القواطع عن حقوق أنفسهم، وهم أقدر، فكيف بأوليائهم وخدمهم، وهم أعجز، وقد قال الشاعر^(٢): [من

البيسط]

ما كلف الله نفساً فوق طاقتها

ولا تجود يد إلا بما تجد^(٣)

= الحذري من حديث حسن، (سنن الترمذي، كتاب البر، ج ٣، ص ٢٥٥، رقم ٢١٠٢)، والإمام أحمد عنه (مسند الإمام أحمد ٨ / ٣، ٦٩)، والحاكم (المستدرک علی الصحیحین ٤ / ٢٩٣)، وابن حبان في صحيحه، (الجامع الصغير ٢ / ٢٠٣)، وإسناده صحيح (التيسير بشرح الجامع الصغير ٢ / ٤٩٩)، وربما روي بلفظ «لا حليم إلا ذو عزة» كشف الخفاء ٥٠٤ / ٢ رقم ٣٠٦٠ وبلفظ «لا حكيم إلا ذو تمهيرة ولا حليم إلا ذو عثرة»، كشف الخفاء ٤٩٤ / ٢، رقم ٣٠١٧، و(المقاصد الحسنة ٤٩٥، رقم ١٣٠٣).

(١) ط: قال أقضى القضية، وفي تأويله..

(٢) قوله: «قال الشاعر»، ذكر الماوردي أنه العقيقي (الأمثال والحكم، الورقة ١٤٤).

(٣) قول الشاعر: «ما كلف الله نفساً..»، ذكر الماوردي أن عمرو بن العلاء قال: «ثلاثة أبيات قالها أصحابها لم يعلموا ما خرج من رؤوسهم، منها قول العقيقي، وذكر البيت. وقال الفرزي.

ومن يلق خيراً يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغي لائماً وقول الآخر:

أنسا عائداً بالله من عدم الغي ومن رغبة يوماً إلى غير مرغب

(الأمثال والحكم ١٤٤). وقد أورده ابن عبد ربه في قصة، قال: قال أبو هريرة ما وددت أن أحداً ولدني أمه إلا جعفر بن أبي طالب عليه السلام، تبعته ذات يوم وأنا جائع، فلما بلغ الباب التفت فرأني، فقال لي: ادخل، فدخلت ففكر حيناً فما وجد في بيته شيئاً إلا نخب - أي زقاً خاصاً بالسمن - كان فيه سمن مرّ، فأنزله من رف لهم، فشقه بين أيدينا، فجعلنا نلحق ما كان فيه من السمن والرّب - أي ثقله الأسود - وهو يقول: ما كلف الله =

[٢ - استخبار الملك عن رعيته وحاشيته والنائبين عنه]:

وإن الملك لجدير أن لا يذهب عليه صغير ولا كبير من أخبار رعيته، وأمور حاشيته، وسير خلفائه، والنائبين عنه في أعماله، بمداومة الاستخبار عنهم، وبث أصحاب الأخبار فيهم سرّاً وجهراً، ويندب لذلك أميناً يوثق بخبره، وينصح الملك في مغيبه ومشهده، غير شره فيرتشي، ولا ذي هوى فيوري أو يعتدي، لتكون النفس إلى خبره ساكنة وإلى كشفه عن حقائق الأمور راكنة؛ فإنه لا يقدر على رعاية قوم تخفى عليه^(١) أخبارهم، وتنطوي عنه آثارهم، فربما ظنّ استقامة الأمور بتمويه الخونة، فأفضى به حسن الظن إلى فساد مملكته، وهلاك رعيته، وأن ينتهز العدو فرصة غفلته، فيستثير عن غوائل ضرره ما عساه يصعب، بعد أن كان سهل المرام، ويقوى بعد أن كان ضعيف القوام، فإن كبار الأمور تبدأ^(٢) صفاراً.

قال بهرام جور^(٣):

لا شيء أضّر على الملك من استكفاء من لا ينصح إذا دبّر،
واستخبار من لا يصدق إذا خبر^(٤).

= نفساً.. البيت، العقد الفريد ١/ ٢٧٤، ٣/ ١٠٦، ٣/ ١٣٧، وانظره أيضاً في التمثيل والمحاضرة (ص ١٠)، وفي المستطرف بلفظ: لا كلف الله، مع بيت آخر هو قوله:
فلا تعد عدّة إلا وفيت بها واحسّر خلاف مقالٍ للذي تعدّ
(١) غ: عليهم.

(٢) غ: تبلو.

(٣) بهرام جور: هو بهرام جور بن يزجرد بن بهرام بن سابور، أحد ملوك الفرس. ولي بعد أبيه يزجرد، بعد خلاف على توليته، وحكم ثلاثاً وعشرين سنة، انظر نبذة من سيرته وأخباره في غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم ٥٣٩-٥٦٩، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، ٤٩، ومروج الذهب ١/ ١٧٢، وذكر أن للفرس كتاباً مفرداً في أخبار بهرام جور، وحول ضبط حركات حروفه، انظر تثقيب اللسان ١٤١.

(٤) قول بهرام جور: «لا شيء أضّر على الملك من استكفاء من لا ينصح..» قد ورد في لباب الآداب ٥٦، منسوباً إليه بلفظ، «لا شيء أضّر بالملك من استخبار من لا يصدق إذا خبر، واستكفاء من لا ينصح إذا دبّر»، وهذا اللفظ الأخير ورد في أحاسن المحاسن منسوباً إليه وفيه «ما شيء..»، وقد أورد المؤلف قولاً قريباً منه في المعنى المنسوب إلى بعض البلغاء بلفظ «لا تصطنع من خاتنه الأصل، ولا تستصحب من فاته العقل؛ لأن من لا أصل له يغش من حيث ينصح، ومن لا عقل له يفسد من حيث يصلح، وذلك مما يعسر توقيه ويفوت تداركه وتلافيه»، (أدب الوزير، ص ٦).

ولم يكن في طلب الأجناد أشدَّ بحثاً عنها من أردشير بن بابك في آل ساسان، ومن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلفاء الإسلام؛ فإنه كان علمهما بأحوال العامة كعلمهما بأحوال الخاصة، وعلمهما بمن بعد عنهما كعلمهما بمن قرب منهما. وبه استقامت سيرتهما، وظهرت حرمتهما.

وإذا كان باحثاً على الأخبار، مطلعاً على غوامض الأسرار، جمع في الاستخبار بين معروف مجاهر يكون به في الناس محلوراً، وبين مجهول مسائر يصير به واثقاً خبيراً، لا يتعارفان فيتواطآن، انكشف له غطاء الغفلة، وانجلت شبه الحيرة، فساس الأمور (١٥٦) بثقته وبصيرته، وحرس الرعية بيقظته وصدق عزيمته، وتهيب أعوانه فعل الخير فاستقاموا، وتجنبوا (١) قبح المكاسب فأنصفوا (٢)، ووثقت الرعية بكف العوادي (٣) عنهم فأمنوا.

وإذا أنس بمطالعة الأخبار، استلذ غرائبها واستمد فوائدها.

وقد قال المنصور رضي الله عنه:

عجبت للسلطان الذي لا يتخذ بقراءة الأخبار لهواً بماذا يلهو؟
وللمدبر الذي لا يعلم ما حدث في عمله كيف يمضي تدبيره؟

قال بعض العلماء:

إذا لها السلطان عن الأخبار، ولم يله بها، وانصرف عنها،
ولم ينصرف إليها، فاسم العجز أولى به من اسم الحزم، والتقصير عليه
أغلب من الاستيفاء (٤)، وجهل الواجب أيّن فيه من علم الصواب.

ويجب أن تكون عنايته بأخبار من بعد عن حضرته كعنايته بأخبار من
قرب منها، بل ربما كان أهم؛ لأن بعد الدار يسط أيدي الظلمة، فإذا وافق
بعد دارهم قلة الاستخبار عن أحوالهم أمنوا في اتباع أهوائهم، وسكنوا إلى

(١) غ: تحببوا.

(٢) غ: فأنصافوا.

(٣) غ: الغوادي.

(٤) غ: الاستقاء.

الغفلة عن مذموم أفعالهم، فكانت أيديهم مبسوطة في الرعايا، وأهواؤهم مخلة في القضايا، وربما أفضى ذلك إلى فسادهم في الطاعة لقبح آثارهم ومذموم أفعالهم؛ فإن المسيء مستوحش، والمهمل مسترسل، فكم من عصيان كان هذا بداه، وانقراض ملك كان هذا بدره، وقد قيل:

ليس بين الملك وبين أن يملك رعيته أو تملكه إلا الحزم
[والتواني]^(١).

ولا يغتر بمن سداه في حسن الثقة به، ويترك الاستخبار عن حاله؛ تعويلاً على من يقدر من سداه، فربما يصنع في الأول، ويغتر في الآخر؛ فإن تقلب الزمان يغير أهله، فربما أفسد الصالح، وأصلح الطالح. فما تبقى الدنيا على حالة، ولا تمنع من استحالة.

وإذا أخبر بمنكر لم يستعجل المؤاخذه والإنكار^(٢)، ويثبت لكشفه حتى يقف على حقه من باطله، فما كل مخبر يصدق في (٥٦ب) خبره.
وإذا عرف بالأناة للكشف، لم يخبر إلا بالصدق، ولم يعاقب إلا المستحق.

قال الشاعر: [من الطويل]

(١) الزيادة من مصادر التخريج وليست من غ، ولا من ط، وقوله: «ليس بين الملك وبين أن يملك رعيته...» نسبة الأمير أسامة بن منقذ إلى معاوية بلفظ «قال معاوية رحمه الله لعمر بن سعيد: ما بين أن تملك الملك رعيته وبين أن يملكها إلا الحزم والتواني». (لباب الآداب ٣٥)، ونسبه الطرطوشي إلى معاوية أيضاً وجاء به بلفظ: «ليس بين أن يملك السلطان رعيته أو تملكه إلا الحزم والتواني»، قال: «وكماله أمران: شدة من غير إفراط، ولين من غير امتناع» (سراج الملوك ٥٧)، ولفظ لباب الآداب نفسه في السعادة والإسعاد ٢٩٤، منسوباً إلى معاوية أيضاً. وفي نهاية الأرب (٦ / ٤٥)، من أقوال عبد الملك إلى ابنه الوليد بلفظ «يا بني اعلم أنه ليس بين السلطان وبين... إلا حزم أو تواني»، والقول بلفظه من عيون الأحبار ١ / ٣٣، غير منسوب لقائل وهو فيه بلفظ «... إلا حزم أو تواني».

(٢) قوله: «لم يستعجل المؤاخذه والإنكار...» في هذا المعنى قال بطليموس. «ينبغي لذي السلطان العالم إذا رأى الذنب من أصحابه أن لا يعجل عليهم»، (مختار الحكم)

تَأَنَّ وَلَا تَعْجَلْ بِلَوْمِكَ صَاحِباً
لَعَلَّ لَهُ عِذْراً وَأَنْتَ تَلُومُ^(١)

[٣ - مراعاة أخبار البلاد المتاخمة وملوكها]:

ولئن كان من حقوق ما استرعى من بلاده أن يتعرف أخبار أعماله وعماله، فمن حقوق السياسة أن يراعى أخبار ما تآخمتها من بلاد وملوك يتصل به خيرهم وشرهم، ويعود عليه نفعه وضرهم؛ لأن الصلاح والفساد يسريان فيما جاوراه، وربما روصد فاعتقل بالاهمال، وعوجل بالاسترسال، فيحم عليه الأعداء، ويحجم^(٢) عنه الأولياء؛ لأن للغفلات^(٣) فرصاً ينتهزها المستيقظ من اللاهي، ويدركها المتحفظ من الساهي؛ لأن الفرصة لمن واثبها بحزمه، وسابقها بعزمه، فليستدفع بواخر الغفلة بالاستخبار، ويتحذر منها بالاستظهار، ولا يغفل فيستغفل، ويهمل فيستعذر؛ ليحرس ملكه، ويحوط رعيته؛ فإنه لم تطل مدة الملك إلا لمن يتيقظ^(٤) ويتحفظ.

(١) قول الشاعر: «تأَنَّ وَلَا تَعْجَلْ بِلَوْمِكَ صَاحِباً»، ورد غير منسوب في الأمثال والحكم (الورقة ٥٢ب)، وجمع الأمثال ١٩٢/٢، رقم ٣٣٣٥ وقد ورد شطره الثاني مضمناً في قول الشاعر:

إذا ما رأيت الماء يشربه صد عليل ويستمره وهو وخيم
فدعه ولا تحزن بلومك قلبه لعلَّ له عِذْراً وَأَنْتَ تَلُومُ
(انظر زهر الربيع في المثل البديع ١٠٢).

وقد ورد هذا الشطر أيضاً في بيت آخر لنصور بن الزبرقان النمرى بلفظ:
لعلَّ له عِذْراً وَأَنْتَ تَلُومُ وكم لائم قد لام وهو سليم
فنظره في التمثيل والمحاضرة ٨٣، والزهرة النصف الأول ١٤٩، وطبقات الشعراء لابن سلام ٢٤٧، بلفظ «لعلَّ لها عِذْراً»، وفي نهاية الأرب ٨٦/٣، والبيان والتبيين ٢/٣٦٣، وأنه لمسلم بن الوليد. وأورد ابن مكي هذا الشطر وأنه مما تلحن فيه العامة فيقرأ «عِذْراً» بالرفع (تنقيف اللسان ١٠١)، وفيها تحريك، ونقل محقق عن ابن هشام اللحمي من المدخل، أن البيت لدعبل الخزاعي (حاشية ص ١٠١، من تنقيف اللسان)، وهذا الشطر من المحاسن والمساوي ٥٣٦/٢ غير منسوب لأحد.

(٢) غ: واحجم.

(٣) غ: الغفلات.

(٤) غ: تيقظ.

وقد ذكر الأوائل في مواظ المملوك: أن الملك تطول مدته إذا كان فيه أربع خصال:

إحداها^(١): أن لا يرضى لرعيته ما يرضاه لنفسه.

والثانية: أن لا يسوف عملاً يخاف عاقبته.

والثالثة: أن يجعل ولي عهده من ترضاه رعاياه لا من تهواه نفسه.

والرابعة: أن يفحص عن أحوال رعيته^(٢) فحصى المرضعة عن منام رضيعها.

[٤ - حذر الملك قبول السعاية في أصحابه]:

وما ينبغي للملك أن يحذره قبول السعاية في أصحابه، فذلك يوحش الناصح، ويؤمن الخائن، ويفتح للسعادة أبواب الرشا.

وليعلم أن الساعي لم يحمله على سعيه إفراط نصحه لسلطانه، وإنما يفعله إما حسداً لمن سعى به وطلباً للتشفي به، وإما تعرضاً للكسب به، وإما^(١٥٧) التماساً للحظوة عند السلطان.

فإذا شرع في السعاية أعطى الملك الرشوة، فأدخل عليه الشبهة، حتى يتصور الأمين بصورة الخائن، والمحسن بصورة المسيء، فتقل^(٣) ثقته بأصحابه، وإذا قلت ثقته بهم أوحشهم، وإذا أوحشهم خافهم، فيكون إضراره بمن سعى إليه أكثر [من] إضراره بمن سعى به.

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

«إياك ومهلك الثلاثة».

قيل: وما مهلك الثلاثة؟

(١) غ: أحدها.

(٢) غ: عن رعيته.

(٣) غ: يقل.

قال:

«الذي يسعى بأخيه إلى سلطانه فيهلك نفسه، وسلطانه، وأخاه»^(١).

[وروي عن النبي عليه السلام انه قال:

«شر الناس المثلث» يعني الساعي]^(٢).

قال بعض البلغاء:

الساعي كاذب لمن سعى إليه وخائن لمن سعى عليه^(٣).

ووقع المنصور في رقعة متصح^(٤):

تقربت إلينا بما باعدك^(٥) من الله عز وجل، ولا ثواب عندنا لمن آثرنا عليه.

وإذا حسم قبول السعاية في أصحابه أكذب السعاة وأخلص نيات الولاة، وتصفع أحوالهم بدلاً من قبول السعاية فيهم. وليوقظ عزمه في قلة الغفلة فيهم، فإذا علموا أنه ليس يخفي عليه من أفعالهم خافية، أقلع الخائن عن خيائته، وازداد الناصح نعمًا في ولايته، وعدل [عن]^(٦) التكسب بها إلى ما تستطاب جدواه، وتحمد عقباه، وصلح به الفريقان، مع استقامة الملك، وإخماد السعاية.

(١) حديث: «إياك ومهلك الثلاثة...» رواه المبرد بلفظ «لكن الله المثلث، قيل وما المثلث؟ قال: الذي يسعى بجاره إلى سلطانه فقد أهلك نفسه وجاره وسلطانه» (الفاضل ص ١٧).

(٢) الزيادة من ط وحديث «شر الناس المثلث» مر الآن.

(٣) قول بعض البلغاء: «الساعي كاذب...» ورد في مختار الحكم (ص ١٩) منسوباً إلى هرمس وهو فيه بلفظه إلا أن فيه «كاذب إلى من... وخائن لمن سعى فيه» وفي غ: وخائن لمن سعى إليه والصواب من ط.

(٤) ط: مستصح.

(٥) غ: أبعدك.

(٦) الزيادة من السابق وليست في غ وقد سقطت الفقرة كلها من ط من قوله: وإذا حسم قول السعاية... إلى قوله قيل في متور الحكم: من فرطت العجز... إلخ. في الصفحة التالية.

وقيل:

انظر إلى المتصحح إليك، فإن دخل من جهته مضار الناس، فلا تقبل نصيحته، وتحرز منه، وإن دخل من جهته العدل والصلاح فاقبلها واستشره.
[٥ - مراقبة أحوال النقود وأمر جبايتها]:

وليعلم الملك أن الأمور التي يعم نفعها إذا صلحت، ويعم ضررها إذا فسدت أمر النقود من الدرهم والدينار، فإن ما يعود على الملك من نفع صلاحها لسعة دخله وقلة خرجه أضعاف (٥٧ب) ما يعود من نفعها على رعيته.

قيل في منشور الحكم:

من فرطات العجز ترك الأفضل وهو مباح^(١).

فإن سامح في غشها وأرخص في مزج الفضة بغيرها، لم يف نفع صلاحها بضرر فسادها؛ لأنه إذا خلط الفضة بمثلها، وجعل في كل عشرة خمسة خرقاً وخمسة غشاً، وأمر أن تؤخذ بقيمة الفضة، كان محالاً كما لو رام أخذ النحاس بالذهب.

وإن رام أن تؤخذ بقيمتها لم يجد في ذلك نفعاً، وكأنه غير مكياًلاً ووزناً مع فساد الفضة وخسران العمل، ثم إذا طال مكثها وكثر لمسها قبحت عند الناس، وتجنبوا قبض قبيحها، ورغبوا في طريها ومليحها، وبهرج أصحاب اللبس عليها بضرب كثير الرش، ربما كان أحسن من عتيق تلك، فتفسد النقود، ويتجنب الناس قبض الدراهم، ويمنعون من بيع الأمتعة إلا بالعين وإن كان سليماً.

وإن كان كالورق في الغش، عدل الناس عن مطبوعها إلى الفضة الخرق، والذهب الخلاص، وصار أدخال الناس أصول أموالهم، واستحدثوا

(١) قوهم: «من فرطات العجز ترك الأفضل وهو مباح» ذكره الماوردي في كتابه الامثال والحكم (الورقة ٥٨ب) بلفظه غير منسوب لقائل فيه.

لمعاملات^(١) المهن نوعاً من غير النقود المألوفة يدفعون به الأقوات، وينالون به الحاجات، وبطلت معاملات الناس، فانتهدك المستور المرق، ولم تصل الأمتعة والأقوات إلى أهل القدرة، وأرباب الأموال الجمّة، فعند ذلك تدعوه الحاجة إلى تغيير الضرب.

فإن غير بمثله كانت حالهما واحدة، وكان حكمه في المستقبل حكمه في الأول.

وإذا عرف من السلطان تغيير ضربه في كل عام، عدل الناس عن ضربه إلى ضرب غيره حذراً من الوضيعة والخسران، وكان عدوهم إلى ضرب غيره موهناً لسلطانه.

[وإن] كان النقد سليماً من غش، ومأموناً (١٥٨) من تغيير، صار هو المال المدخور، فدارت به المعاملات نقداً ونساءً، فعمّ النفع، وتم الصلاح.

وقد كان المتقدمون يجعلون ذلك دعامة من دعائم الملك.

ولعمري إن ذلك كذلك؛ لأنه القانون الذي يدور عليه الأخذ والعطاء، ولست تجد فساداً في العرف إلا مقترناً بفساد الملك؛ فلذلك صار من دعائم الملك.

وليعلم الملك أن من أموال السلطنة شرعية، قد قدر الشرع مقاديرها، وبين وجوه مصرفها، وجعلها وفق الكفاية، وأغنى عما دعا إلى استزادة.

قال^(٢) النبي عليه السلام:

«نزلت المعونة على قدر المؤونة»^(٣).

(١) غ: المعاملات.

(٢) ط: روى عبد الله بن دينار عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «نزلت المعونة...».

(٣) حديث: «نزلت المعونة على قدر المؤونة» أورده الماوردي في كتابه الأمثال والحكم (الورقة ٣ب- ٤أ) بلفظ: روى قتادة عن عبد الله بن مسعود عن ابن عمر قال قال رسول الله (ص). نزلت المعونة على قدر المؤونة» وقد رواه الحكيم والبيهقي في الكني والبيهقي =

فليكن الملك عليها مقتصرًا، ولأمر الله تعالى فيها ممتثلًا؛ فإنه نائب عن الكفاية فيها، زعيم بتولي مصالحهم بها.

فإن اتبع أمره في أخذها وعطائها، أجابت النفوس إلى بذلها طوعاً، ولم يلتمسها إلا مستحق، وكفى أن لا يطالب بالمحال، كما لم يطلبه، فسلم دينه، واستقام ملكه، ورضي جنده، وصلحت رعيته.

وإن تجاوز حكم الشرع في طلب ما لا يستحق، نفرت منه النفوس، فلم يجب إلى بذله إلا بالعنف الخارج عن قوانين السياسة، وعاد بالنقص بالحقوق الواجبة، وانفتحت عليه المطامع في المطالبة بما لا يجب، كما طالب به؛ لأن من جازف في الأخذ جوزف في الطلب، ومن ناصف نوصف، فلا يفي بزيادة أخذه بزيادة جزفه.

ثم هو بين نفور رعيته واشتطاط أعوانه، وليس مع هذين ملك يستقر.

فليحذر الملك عما حذره الله من تحيف عباده، وليمثل أمره في مصالح بلاده، وليقم رعيته مقام عباده وحشمه اللائذين به ويكنفه، والداخلين في كفالته، في ارتياد موادهم، وانتظام اكتسابهم وكف الأذى عنهم، فهم من أمانات الله (٥٨ب) التي استودعه حفظها، وكفله القيام بها، فلا يهمل مراعاة أمانته، ولا يغفل عن القيام بحقه، فيصيروا رعية قهر، وفرية دهر، يستنفد أحوالهم تحيف السلطان، وجوائح الزمان، فسيؤاخذ بهم مع فساد ملكه.

= في شعب الإيمان عن أبي هريرة في حديث صحيح (الجامع الصغير ١ / ٨٥) بلفظ: «إن المعونة تأتي من الله للعبد على قدر المؤونة، وإن الصبر يأتي من الله على قدر المصيبة، وانظر النيسير ٣٠١/١، وله ألفاظ أخرى، انظر المقاصد الحسنة ١٢٨ رقم ٢٥٣ وكشف الخفاء ٢٩٦ / ٢ رقم ٧٨٢ وروى موقوفاً على علي (غرر الحكم ٤١) بلفظ: المعونة تنزل من الله على قدر المؤونة» وأخرى بلفظ «تنزل من الله المعونة...» (ص ١٥٣) ولفظ «على قدر المؤونة تكون من الله المعونة (٢١٥) وفي شرح نهج البلاغة (٤ / ٣٠٩) بلفظ «تنزل المعونة على قدر المؤونة» وانظر كتاب ألفي كلمة للإمام علي ص ٢٠ رقم ٣٩٣، (ص ٤٠ رقم ٨٨٨، ص ٧٣ رقم ١٧٠٥) وعيون الأخبار (٣ / ١٨١) وروى موقوفاً على عمر بلفظ «فإن المعونة تأتي من الله على قدر النية...» كتاب ألف كلمة لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب (ص ٦٦ رقم ٦٥١).

قال النبي عليه السلام:

«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»^(١).

وكتب أمير المؤمنين عمر [بن الخطاب] رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري^(٢) رحمه الله:

إن أسعد الرعاة من سعدت به رعيته، وأشقاهم من شقوا به، وإنك إن ترتع يرتع عمالك، فيكون مثلك مثل البهيمة رأت أرضاً خضرة ونباتاً حسناً، فترتعت تلتمس، و[[إنما]]^(٣) حتفها في سمنها^(٤).

(١) حديث «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» قطعة من حديث ابن عمر الذي رواه البخاري عنه في باب الجمعة من صحيحه (انظر صحيح البخاري ١١٠ / ١) وفي باب الجنائز (١٥٣ / ١) وفي باب الاستقراض (٤٠ / ٢) وفي العتق (٥٦ / ٢) وفي النكاح (١٧١، ١٦٨ / ٣) والأحكام ١٥٨ / ٤ ورواه في باب الوصايا (٨٥ / ٢) عن عمر ورواه مسلم في باب الإمارة من صحيحه (انظر صحيح مسلم بشرح النووي ٢١٣ / ١٢) عن ابن عمر وكذا رواه الترمذي في الجهاد من سننه (١٢٤ / ٣) رقم ١٧٥٧ وأبو داود عنه في الإمارة من سننه (٣ / ١٣٠) رقم ٢٩٢٨ ورواه الإمام أحمد في مسنده (مسند أحمد ٥ / ٢، ٥٤، ٥٥، ١٠٨، ١١١، ١٢١).

(٢) أبو موسى الأشعري واسمه عبد الله بن قيس الصحابي المشهور، هاجر ثلاث هجرات، واستعمله الرسول (ص) على زيد وعدن وساحل اليمن، واستعمله عمر على الكوفة والبصرة وعهد إليه بعهد المشهور (الدارقطني ٤ / ٢٠٦) توفي سنة ٥٠ هـ. انظر ترجمته ومناقبه في تهذيب الأسماء واللغات ٢ / ١، ٢٦٨، ابن سعد ٢ / ٢، ١٠٥ / ٦، ٩، الإصابة رقم ٤٨٩٩، تذكرة الحفاظ رقم ١٠ ومناقبه في السنن والصحاح. وفي المعبر ١ / ٥٢ أنه توفي سنة ٤٤ هـ.

(٣) الزيادة من ط ومصادر التخريج.

(٤) كتاب عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه وإن أسعد الرعاة... قد ورد بطوله وفيه تقديم وتأخير، وجاء قسمه الأخير في الوصايا الخالدة جمع وتحقيق عبد البديع صقر ومصطفى جبر (ط) مطابع العروبة ١٣٨٦ ص ٤٩) بلفظ: «... وقد بلغ أمير المؤمنين أنه قد فشئت لك ولأهل بيتك هيبة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها، فإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة التي هربت بواد خصيب فلم يكن لها همة إلا السمن وإنما حتفها في السمن، واعلم أن للعامل مرداً إلى الله، فإذا زاع العامل زاعت رعيته، وإن أشقى الناس من شقيت به رعيته والسلام، وانظرها في عيون الأخيار ١ / ١٩، البيان والتبيين ٢ / ١٥٥، العقد الفريد ١ / ١٠٣ جمهرة رسائل العرب ١ / ٢٤٨-٢٥٠ وقد وردت تلك الرسالة بلفظ أقرب إلى ما هو مكتوب في المتن بلفظ «أما بعد فإن أسعد الرعاة =

وكتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان أن يحمله على أخذ أموال السواد، فكتب إليه:

لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك، وأبق لهم لحوماً يعقدوا^(١) بها شحوماً^(٢).
قال وهب بن منبه:

أحسن الناس عيشاً من حسن عيش الناس في عيشه^(٣).

[٦ - الاهتمام بأمن السبل والمسالك]

وليهتم الملك كل الاهتمام بأمن السبل والمسالك، وتهذيب الطرق والمفاوز، ليتشر الناس في مسالكهم آمين، ويكونوا على أنفسهم وأموالهم مطمئنين.

ولا يقتصر على حماية ما يستمد من بلاده وسواده؛ فلم يستقم أمر بلاد كانت المسالك إليها مخوفة، لأنها تفتقر إلى مجلوب إليها، ومجتلب منها؛ ليكثر جلبهم فيها ليس لهم، وتخصب بلادهم بما ليس عندهم، فيكون نفعهم عاماً،

عند الله من سعدت به رعيته وإن أشقى الرعاة من شقيت به رعيته، وإياك أن تزيع فيزيغ بملكك فيكون مثلك مثل البهيمة نظرت إلى خضرة من الأرض فرمت فيها تبتغي بذلك السمن وإنما حثفها في سمنها انظر جبهة رسائل العرب ١ / ٢٥٠، الخراج ص ١٧، شرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة ٣ / ١١٩ وفيه «فتزيغ رعيته» محل «فيزيغ بملك» وقد وردت فقرات من الكتاب بصورة متفرقة من الإيجاز والإعجاز ص ٨.

(١) يعقدوا كذا يحذف النون من ط ومن غ يعقدوها يحذف النون أيضاً، وكذا في مصدر التخريج.

(٢) كتاب الحجاج إلى عبد الملك نجده قد أورد الثعالبي بعضاً منه بلفظ: «ووقع إليه في أصل السواد: أبق لهم لحوماً يعقدوا بها شحوماً» (خاص الخاص ٨٧) وجاء في ط هنا: وقال زياد: أحسنوا إلى المزارعين فإنكم لا تزالون سماناً [ما سمنوا] وقال وهب بن منبه: «أي بذكر قول زياد الذي مر في عمارة المزارع.

(٣) قول وهب: «أحسن الناس عيشاً...» نجده عند المؤلف في كتابيه أدب الوزير ص ١٧ والأمثال والحكم الورقة ٤٣ ب بلفظ «إن أحسن...» وهو بهذا اللفظ من أقوال علي (غور الحكم ١١٣) ولفظ: «أحسن الناس عيشاً من عاش الناس في فضله» (ص ٩٠) ولفظ: «أحسن الملوك حالاً من حسن عيش الناس في رعيته وعم رعيته يعلله» (ص ٩٦). وذكر الميداني أنه «قليل للمغيرة: من أحسن الناس؟ قال: من حسن في عيشه عيش غيره» (مجمع الأمثال ٢ / ٤٥٩) وعبرة ط: من حسن الناس في عيشه.

وخصبهم داراً، ويصير رفق السلطان به أعظم من رفق رعيته، وعقباه أنفع من مملكته؛ لأنه ليس يعم صلاح إلا ونصيبه منه أكثر، لأن عوام الأموال صادرة إليه، وصلاح الجمهور عائد عليه (١٥٩).

[٧ - مداينة الأعداء]:

ليستعمل الملك مداينة الأعداء قبل مكاشفتهم، وليجعل محاربتهم آخر مكايدهم، فإنه ينفق في المكاييد من الأموال، وينفق في المحاربة من النفوس^(١). ولذلك قيل: **أوهن الأعداء كيداً أظهرهم لعداوتهم^(٢)**:

قال الشاعر^(٣): [من البسيط]

**والسَّلمُ تأخذُ منها ما رضىت به
والحربُ يكفيكَ من أنفاسِها جُرْعُ^(٤)**

(١) قوله: «ليستعمل الملك مداينة الأعداء...» قال الجاحظ: «ومن أخلاق الملوك المكايدة في حروبها، ولذلك كان يقال: ينبغي للملك السعيد أن يجعل المحاربة آخر حيلة؛ فإن النفقة في كل شيء إنما هي من الأموال، والنفقة في الحروب إنما هي من الأنفس «التاج في أخلاق الملوك» (١٧٧) وقد وردت عبارة ط على الصورة التالية: وقال وهب بن منبه: أحسن الناس عيشاً من حسن الناس في عيشه، قال أفضى القضاة في أثناء كلامه: ويستعمل الملك مداينة الأعداء قبل مكاشفتهم وليجعل محاربتهم آخر مكايدهم فقد قيل: أوهن الأعداء كيداً... أي بسقوط موضوع أمن السبل والمسالك كله.

(٢) قولهم: «أوهن الأعداء كيداً أظهرهم لعداوتهم» ورد في غ بلفظ بعداوتهم، وفي ط بعد عداوتهم والتصحيح من مصادر التخريج. وقد استشهد المؤلف بهذا القول في أدب الوزير ١٥ والأمثال والحكم والورقة ١٢ب، وهو في الآداب لابن المعتز ص ١٠٠ وفي نثر الدرر له أيضاً (الورقة ٣) ونهاية الأرب ١٠٢/٦ ومواسم الأدب ٩٠/١ وشرح نهج البلاغة ٢٠/٢٤٣ وفيه أهون الأعداء... ونسبه إلى علي وكذا في غرر الحكم ٩٥-٩٦ بلفظ «من أظهر عداوتهم»، ولفظ «من أظهر عداوتهم قل كيدهم» من ص ٢٦٦ وأورده الثعالبي ضمن أقوال قسطنطين الرومي الوجيزة البليغة بلفظ «أوهن الأعداء أكثرهم إظهاراً للعداوة» (الإيجاز والإعجاز ص ١١).

(٣) قوله: «قال الشاعر» قلت قد اختلف في نسبة هذا البيت فقد عزاه بعضهم إلى عمرو بن معدي كرب، وآخرون إلى العباس بن مرداس وآخرون إلى غيرهما فانظر مصادر التخريج.

(٤) قول الشاعر: «والسَّلمُ تأخذُ منها ما رضىت به...» نسبة الماوردي في الأمثال والحكم (الورقة ٣٢٢) إلى عمرو بن معدي كرب، وقد خطأ جامع ديوان عمرو بن معدي كرب هذه =

وليعلم أنهم منه على ثلاث مراتب، لكل واحدة منهم حكم، فليكن مع من علا منهم وتقدم على الملائكة والملائنة، ومع من دنا منهم وتأخر على التطاول والمباشرة، ومع من كافأ منهم ومايل على المقابلة والمسالمة؛ ليدوم السكون والدعة، وتتم له السلامة والاستقامة؛ فقد قال [أبو] عمرو بن العلاء^(١):

من عرف فضل من فوقه عرف فضل من دونه؛ فإن جحد جحد^(٢).

= النسبة، ونسبه إلى العباس بن مرداس (مستدرك ديوان عمرو بن معدى كرب - مطبوع في آخر الديوان - ص ١٩١ رقم القطعة ١) والبيت من ديوان العباس بن مرداس الذي جمعه الدكتور يحيى الجبوري (ص ٨٦ رقم القطعة ٢٦) وفي هامشها مظان أخرى للبيت. وقد استشهد به الحسن بن علي في خطبة له بلفظ: «والصلح تأخذ منه ما رضى به...» (شرح نهج البلاغة ١/ ٢٨٣) وقد أورده الشيخ محمود محمد شاكر مع بيت آخر قبله ونسبها إلى العباس بن مرداس (تفسير الطبري ج ٣ حاشية ص ٢٢٥). وقد أورد العبدلكاني البيت مع بيتين آخرين من حاشية الظرفاء (١/ ٤٤) وذاتك البيتان نسبا إلى خفاف بن ندبة (شعر خفاف بن ندبة السلمي ص ١٣٢، ١٣٥). وورد في اللسان وقبله بيت آخر على أنه من قول العباس بن مرداس يخاطب خفاف بن ندبة (مادة أبس ج ٦ ص ٣ - دار صادر) والبيت غير منسوب في تفسير الكشاف ١/ ١٢٧، وهو في كل هذه الإحالات بلفظ: «السلم» بدون واو.

(١) غ عمرو بن العلاء، والزيادة من ط ومصادر الترجمة.

وأبو عمرو بن العلاء بن عمار بن عبد الله المازني التحوي القرني أحد القراء السبعة المشهورين، وقد اختلف في اسمه على أحد وعشرين قولاً. ولد سنة ٧٠هـ وتوفي سنة أربع وقيل تسع وخمسين ومائة وقيل غير ذلك انظر نبذة من أخباره في بغية السوعة ٢/ ٢٣١-٢٣٢ رقم ١٨٦٤ البيان والنبين ١/ ٣٢٠-٣٢١، معجم الأدباء ١١/ ١٥٧، المعبر ١/ ٢٢٣ الفهرست ٤٨، تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (الترجمة العربية) ٢/ ١٢٩ وفيه مصادر.

(٢) قول أبي عمرو بن العلاء: «من عرف فضل من فوقه... الخ» تجده في الأمثال والحكم (الورقة ٤٥) بلفظه منسوباً إلى أبي عمرو بن العلاء. وقد وددت أقوال قريبة من هذا المعنى منها قول أبرويز: «أطع من فوقك» (أدب الدنيا والدين ١٢٠) والإيجاز والإعجاز منسوباً إليه بلفظ «أطع من فوقك يطعك من دونك» (ص ١٤) وعند ابن المقفع: «وقر من فوقك ولز لمن دونك» (الأدب الصغير ٧٤) ومن حكم القرس «هب من فوقك يهلك من دونك» (التمثيل والمجاضرة ٤٣) وفي غرر الحكم من كلام علي «أطع من فوقك يطعك من دونك» (ص ٤٥) وبلفظ «من الحكمة أن لا تنازع من فوقك ولا تستذل من دونك» (ص ٣٠٧) وفي خاص الخاص (ص ٨) بلفظ «عجبت لمن يرجو من فوقه كيف يحرم من دونه» وهو فيه =

ولا يتندي بالمنافرة ما وجد منها بدءاً، وإذا ظفر بفرصة انتهزها، ما لم ينقض بينه وبينهم عهداً، فقد قيل في مثور الحكم:

غافص^(١) الفرص عند إمكانها، وكل الأمور إلى أوليائها ولا تحمل نفسك^(٢) ما لم يأتك، ولا تحزن على ما فاتك، ولا تعدن وعداً^(٣) ليس في يدك وفاؤه، ولا تجهد في^(٤) الحرص [تعش]^(٥) ذا سرور^(٥).

وإذا كاشفه العدو بعد المساترة، ونافره بعد المسالمة، وتكافأت قوتاهما كان الحال معتبراً بسيرتهما، وهما فيه على ثلاث أحوال:

= منسوب للحسن بن سهل. وأورده الثعالبي من كلام أبريز بلفظ «من لم يطع من فوقه لم يطعه من دونه» (غرر أخبار ملوك القرس ٦٩٠).

(١) غافص: المفاضة: المفاجأة والأخذ على غرة.

(٢) ط: وعدا ما ليس.

(٣) غ: من الحرص.

(٤) الزيادة من ط ومن الأمثال والحكم.

(٥) قوهم «غافص الفرص عند إمكانها... إلخ» أورده المؤلف في كتابه الأمثال والحكم (الورقة ٥٠ أ) بنفس لفظه ويطوله. وقد ورد هذا القول في السعادة والإسعاد بلفظ «مكتوب على باب الإسكندرية: يا ابن آدم فعن الفرصة عند إمكانها، وكل الأمور إلى وليها، ولا يحمئك إفراط الشرة على ركوب مآثم، ولا تحمل على نفسك هم يوم لا تدري أنه من عمرك، ولا تكن أسوة المغرورين بجمع المال، فكم قد رأينا جامعاً مالاً ليعمل زوجته، واعلم أن تقصيرك على نفسك توفير لخزائنه غيرك، اندم على الذنب، وإن لا ذنب لك» (ص ١٧٢) وأورده الطرطوشي بلفظ «وجد مكتوباً على حجر: انتهز الفرص عند إمكانها ولا تحمل على نفسك هم ما لم يأتك، واعلم أن تقصيرك على نفسك توفير لخزائنه غيرك، فكم من جامع ليعمل حليته» (سراج الملوك ٩١) وحول اغتنام الفرصة وردت أقوال عديدة منها: «قال أرسطوطاليس: افترص من عدوك الفرصة، واعمل على أن الدهر دول، ولا تصادم من كان على الحق، ولا تجارب من كان متمسكاً بالدين. صير الدين موضع ملكك، فمن خالفه فهو عدو لملكك، ومن تمسك بالمسنة فحرام عليك فمه، وإدخال المذمة عليه، واعتز بمن مضى، ولا تكن عيرة لمن بعده» (مختار الحكم ١٩٣) و«الإمتاع والمؤانسة ٢ / ٦٢» وقال أوشهنيج: «الحزم انتهز الفرصة» (الحكمة الخالدة ٨) وقوهم: «تخرج من عدوك الغصة إلى أن تجد منه الفرصة، فإذا وجدت فانتهازها قبل أن يفوتك الدرك، أو يعينه الهلك، فإن الدول تشبه الأقدار وصلحها الليل والنهار» (لباب الأدب ٦٣)، قال ابن قتية: «قرأت في كتاب أبريز إلى ابنه شيرويه: عليك بالمشاورة... ولا تدع لك في عدوك فرصة إلا انتهزها، ولا لعدوك فيك فرصة إلا حصنها...» في كلام طويل (عيون الأخبار ٣٠ / ١) ومن كلام ابن المعتز: «تناول الفرصة الممكنة» ولا تنتظر غداً، فمن لغد عن =

أحداها:

أن يكون الملك أعدل من عدوه، وأحسن سيرة في رعيته، فليثق الملك بعدله أنه عون، ورعيته أنهم أنصاره، وليستعن على عدوه بجوره؛ فإنه موته، ويرعيته، فإنهم خاذلوه، ويكونون^(١) أعوان الملك عليه، ويقدم على مقارعته، فإن الرجاء في ظفره أقوى، ما لم يغلب قدر، فقد قيل في منشور الحكم:

العدل أقوى جيش (٥٩ ب) والأمن أنها عيش^(٢).

والحال الثانية:

أن يكون العدو أعدل من الملك، وأحسن سيرة في رعيته، فليخش على نفسه من عدل عدوه أنه عون، ومن رعيته أنهم أنصاره، وليحذر جور نفسه؛ فإنه موته، ومن تنكر رعيته، فإنهم خاذلوه، ويحجم عن مقارعته، فالرجاء في ظفر عدوه أقوى ما لم يغلب قدر، ويدفعه بالمقاربة والحد، وقد قيل:

== حدث بكفيل؟ (كتاب الأدب ١٨٨ رقم القول ٣٣١) وفي (ص ٢١١ منه) كلام بمعناه. ومن كلام الحارث بن أبي شمر الغساني ملك عرب الشام: «الفرصة سريعة الفوت بطيئة العودة» (الإيجاز والإعجاز ١٥) وفي شرح نهج البلاغة (٤ / ٣٦) من أقوال علي بلفظ: «بادر الفرصة قبل أن تكون غصة» ومن أقواله أيضاً «انتهزوا هذه الفرص فإنها تمر مر السحاب» (أدب الوزير ٥٣) و(شرح نهج البلاغة ٤ / ٢٥٢) ولفظ «إضاعة الفرصة غصة» (شرح نهج البلاغة ٤ / ٢٩١) والمقدد الفريد (١ / ١٩٥) وفيه زيادة: «ولا تطلبوا أثراً بعد عين»، وفي موضع آخر نجد من أقوال الحكماء: «رأس العقل مغالصة الفرصة عند إمكانها والانصراف عما لا سبيل إليه» (المقدد الفريد ١ / ٢٥٠).

(١) غ: ويكونوا.

(٢) قولهم: «العدل أقوى جيش، والأمن أنها عيش» نسبة الثعالي إلى أبي الحسن الأهوازي ورير صاحب الصاغالبان بنفس هذا اللفظ (منتخبات سحر البلاغة ص ٨٧)، وأورده في موضع آخر منسوباً إليه بلفظ «العدل أقوى جيش وأنها عيش» (الإيجاز والإعجاز ص ٢٩) وورد هذا القول غير منسوب في (أحسن المحاسن ١٦١) بلفظ «... والعافية أنها عيش» وأورد الطرطوشي قولهم في الأمثال: «إصلاح الرعية خير من كثرة الجنود» (سراج الملوك ١١٤). وقد أخرجه ابن الجوزي غير منسوب وذلك بنفس لفظه وبزيادة هي قوله: «والولاية إذا لم يعم جوانبها عدل عزل» (المصباح المضيء في خلافة المستضيء ٢ / ٤٥٢).

من أعرض عن الخذر والاحتراس، وبنى أمره على غير أساس، زال عنه العز، واستولى عليه العجز، فصار من يومه في نحس، ومن غده في لبس^(١).

والحال الثالثة:

أن يكون الملك وعدوه متكافئين في العدل والسياسة، فيعتبر أمرهما بحال الزمان والأعوان، فإن كان الزمان صالحاً، فأصلحهما أعواناً أقوى رجاء للظفر؛ لأن صلاح زمانهم مناسب لصلاحهم، فكان عوناً ما لم يغلب قدر.

وإن كان الزمان فاسداً فأفسدهما أعواناً أقوى رجاء للظفر؛ لأن فساد زمانهم مناسب لفسادهم، فكان عوناً لهم ما لم يغلب قدر، فيكون الإقدام من الراجي والخذر من الخائف.

فإن استوى الفريقان في الصلاح والفساد، اعتبر بالجد والهزل في الزمان والأعوان؛ فإن كان زمان جد فالرجاء لأهل الجدد أقوى، وإن كان زمان هزل فالرجاء لأهل الهزل أقوى، اعتباراً بمناسبة الزمان لأهله، ما لم يغلب قدر.

فإن استوى الفريقان في الجد والهزل فالبادي بالمنافرة بارع، والباغي مصروع ما لم يغلب قدر.

قيل في منشور الحكم:

من سل سيف البغي أغمده في رأسه، ومن أسس أساس السوء أسسه على (٦٠أ) نفسه^(٢).

(١) قولهم: «من أعرض عن الخذر والاحتراس، وبنى أمره على غير أساس...» مر هذا القول وذكرنا تحريجه في تعليقات موضوع الرهبة من الفصل المسمى (أصل ما تبني عليه السياسة العادلة).

(٢) قولهم: «من سل سيف البغي أغمده في رأسه...» تجلده في كتب الماوردي بلفظه غير منسوب لقائل فنظروا أدب الوزير ١٤ والأمثال والحكم الورقة ٥٥-١٦، وأدب الدنيا والدين ٣١٤ وكذا سجله في المستطرف ١ / ٢٦ وعده ابن مسكويه من حكم العرب وأمثالهم السائرة بلفظ «من سل سيف البغي قتل» (الحكمة الخالدة ١٩٨) وهو في مجمع الأمثال ٢ / ٣٢٧، وفي التمثيل والمحاضرة ٤٥٠ بلفظ «من سل سيف البغي قتل به»، وفي خاص الخاص ٢٦، وأورده ابن الجوزي بلفظه (المصباح المضيء ١ / ٤٦١ وفيه تحريج، وكل أولئك غير منسوب =

قال الشاعر^(١): [من الكامل]

والبغِيَّ يَصْرُعُ أَهْلَهُ
والظَلْمُ مَرْتَعُهُ وَخَيْمُ^(٢)

= لديهم إلى قاتل وقد نسب إلى الإمام علي بلفظ «من أسس أساس الشر أسسه على نفسه ومن سل سيف البغي أعمد في رأسه» غرر الحكم ٢٨٤ ويلفظ «من عامل بالبغي كوفء به» ومن سل سيف العدوان قتل به» ص ٢٧٩، ويلفظ «من سل سيف العدوان سلب عز السلطان» ص ٢٨٨ ويلفظ «من سل سيف البغي قتل به» (شرح نهج البلاغة ٤ / ٣٩٨ وكتاب ٢٠٠٠ كلمة ص ٤٧ رقم ١٠٦٦ وسراج الملوك ص ٢٨ ونهاية الأرب ٨ / ١٨٦ ونسبه الثعالبي إلى فيروز بن يزدجرد وقال: «وكان آخر ما تكلم به لما أشرف على الهلاك في حرب خشنوار ملك الهباطلة: من سل سيف البغي قتل به» ومن أوقد نار الفتنة كان وقوداً لها» (الإيجاز والإعجاز ص ١٤) وأورده الأمير أسامة بن منقذ منسوباً إلى الحكيم أي أرسطوطاليس بلفظ: «ومن سل سيف العدوان سلب عز السلطان...» ضمن كلام طويل (لباب الآداب ٥٦).

(١) قوله: «قال الشاعر» قلت هو يزيد بن الحكم الثقفى، وهو يزيد بن الحكم بن عثمان بن أبي العاص الثقفى أحد شعراء الدولة الأموية. شهد له الفرزدق بالمقدرة على الشعر، مدح سليمان بن عبد الملك بعد أن نفس عليه الحجاج حين فخر بأبيه، انظر الأغاني ١١ / ٩٦-١٠١ خزائن الأدب ١ / ١١١، شرح ديوان الحماسة ٣ / ١١٩٠-١١٩٨.

(٢) قول الشاعر: «والبغي يصرع أهله...» ذكره الماوردي في كتابه الأمثال والحكم ونسبه إلى يزيد بن الحكم الثقفى (الورقة ٥٣ أ)، وقد ورد البيت منسوباً إلى يزيد أيضاً في شرح ديوان الحماسة في الحماسية رقم ٤٤٥ جـ ٣ ص ١١٩٢ ضمن ٢٣ بيتاً والتذكرة السعدية ١ / ٢٩٣ وفيه تخريج وديوان المعاني ٢ / ٢٤٩ وشطراؤه من الأمثال السائرة (كتاب الأمثال لأبي الوفاء محمد بن أحمد البساک ص ٤٠) والتمثيل والمحاضرة ٤٥٠ وجمع الأمثال ١ / ٤٤٤ رقم المثل ٢٣٥٣ وفي أمثال أبي عبيد ص ٤ ونسب شطره الثاني إلى حنين بن خشرم السعدي وجاء بنفس لفظه وجاء به مرة أخرى بلفظ «مرتع البغي وخيم» ص ١٥. وقد ضمن الشطر الثاني الشاعر قيس بن زهير بقوله حين رعى حمل بن بدر بعد أن قتله الربيع بن زياد:

ولكن الفقى حمل بسن بدر بغى والبغى مرتعه وخيم

جمع الأمثال ٢ / ١١٦ رقم المثل ٢٩٢٥ وقول قيس هذا في حماسة الحنري ص ١٦٦ وشرح ديوان الحماسة ١ / ٤٢٩، والعقد الفريد - العريان - ٦ / ٢٣ وفي العقد.

فلا تسمى على أحد ببغى فإن البغى مصرعه وخيم

٢ / ١٦٢، وقد نظمه محمد بن عيسى بن طلحة بن عبد الله التيمي وقيل مهلهل بن مالك الكناني بلفظ:

ولا تعجل على أحد بظلم فإن الظلم مرتعه وخيم =

[٨ - مساواة الملك نفسه مع الرعية]:

وينبغي للملك، وإن كان بالملك مفضلاً، معظماً وبالسُلطان مطاعاً مقدماً، أن يساوي بين نفسه ورعيته، في الحق لهم وعليهم، ولا يقدم شريفاً على مشروف، ولا يميل فيه قوياً على ضعيف، ويعدل بين جمعهم في القضاء، ويجري الحكم على الخاصة والعامة بالسواء؛ فإن الله تعالى قد سوى بين عباده من غير تفضيل، ومائل فيه بين العزيز والذليل.

فإذا اقتدى فيه بأمره، وقام فيه بحقه، وأنصف فيه من نفسه، وحسم مواد الظلم وكف عوادي الغلبة، وتناصف الناس إذا أنصفوا رغماً ورهباً.

وقد قيل في منشور الحكم:

من جارت قضيته، ضاعت رعيته^(١).

وسأل ملك ناسكاً عن الإخلاص^(٢)، فقال الناسك: ثلاث:

أعدل في القضية^(٣).

واقسم^(٤) بالسوية.

وأعد نفسك واحداً من الرعية.

= الحماسة الشجرية ١ / ٤٧٠، ونهاية الأرب ٣ / ٢٨٩، والحماسة البصرية ٢ / ٤١٤. وفي المستطرف غير منسوب بلفظ:

وحق الله إن الظلم لؤم وإن الظلم مرتمة وخيم
إلى ديان يوم الدين غضي وعند الله تجتمع الخصوم

(المستطرف ١ / ١٠٥).

(١) سقط هذا الفصل من نسخة ط وبدأ بعد ذكر البيت بقوله: وسأل ملك ناسكاً.

(٢) غ: الخلاص، والصواب ما أثبتناه عن ط.

(٣) غ: أعدل في الرعية. وما أثبتناه عن ط.

(٤) ط: وأعدل بالسوية.

وقال الوليد بن عبد الملك لأبيه:
يا أبه ما السياسة؟

قال: هية الخاصة مع صدق محبتها، واستمالة قلوب العامة بالإنصاف
لها، واحتمال هفوات الصنائع؛ فإن شكرها لأقرب الأيدي لها^(١).

ويتعهد^(٢) حال الفقير منهم بالبر والصدقة، ويراعي خلة^(٣) الكريم
منهم بالرفد والصلة؛ فإن إحسانه إلى الفقير^(٤) يشكره عليه الأغنياء، فللقل
شكرٌ وقف على الشاكر إلا تعدّاه، ولقل برٌ اختص بالمبرور إلا تخطّاه.

كان المويذان^(٥) إذا دخل على أنوشروان يقول^(٦):
يا ملك استدم النعم بالعطف^(٧) على الرعية، وأهن طعامك بإشباع

(١) قول الوليد لأبيه: «يا أبه ما السياسة؟» رواه ابن قتيبة وهو فيه بلفظه غير أن فيه «يا
أبت... واقتياد قلوب العامة...» (عيون الأخبار ١ / ١٠) وأورده النويري بلفظ ابن قتيبة
وفيه: «مع صدق مودتها» وسقوط العبارة «فإن شكرها...» (نهاية الأرب ٦ / ٤٣) وقد
رواه الأمير أسامة بن منقذ عن المدائني وهو فيه بلفظ «... واقتياد قلوب العامة...» فإن
شكرها أقرب للأيدي منها (كتاب الآداب ٣٥) وأورده ابن عبد ربه بلفظ «... مع صدق
مودتها» وسقوط العبارة «فإن شكرها...» ولعل النويري قد نقلها منه (أنظر العقد
الفريد ١ / ٢٨).

(٢) ط: قال أفضى القضية في أثناء كلامه في سياسة الملك ويتعهد حال الفقير... .

(٣) ط: ويراعي حال الكريم.

(٤) ط: إلى الفقراء.

(٥) ط: المويذ، وما أثبتته عن غ قال ابن الأثير: المويذان للمجوس كقاضي القضاة للمسلمين
والمويذ كالقاضي (نهاية الأرب ٤ / ٣٦٩) والمويذ بضم الميم وفتح الباء كلمة مؤلفة من قسمين
(مو) بمعنى الدين و(يذ) بمعنى الحافظ والقيم والفقير. والألف والنون في آخره علامة الجمع
وقد وردت أقوال للمويذ أو المويذان في عيون الأخبار ١ / ٤٧، ٢ / ١٢٩، البيان والتبيين
٣ / ١٣ والعقد الفريد ١ / ٢٨٣ ومويذان مويذ هو رئيس الموازنة (التاج ١٥، ٢٥، ٧٧)
و(الترجمة والنقل ٢٦٥).

(٦) ط: يا ملك الملوك.

(٧) ط: بالتعطف.

(٦٠ ب) الجائع وراء بابك^(١)، وأنصف الناس من نفسك، وأعط^(٢) الحق منك يتعاطاه الناس وراء بابك، واحذر^(٣) النساء، ولا تفتح للسعاة طريقاً^(٤).

[وقيل في مشور الحكم]^(٥)

بالراعي تصلح الرعية وبالعذل تملك البرية.
وينبغي للملك أن يميز أخبار رعيته، فيخصهم^(٦) بالإكرام والتقريب، ويقمع أشرارهم بالإبعاد والتأديب، ليرغبوا في منازل الأخيار، ويقلعوا^(٧) عن أخلاق الفاقة^(٨) الأشرار؛ فإن لم يكونوا على الخير مطبوعين صاروا به متطبعين؛ فقد يضعف الطبع بالطبع^(٩)، وإن لم يزل، وتتغير الأخلاق بالتصنع، وإن لم تحد؛ فقد قيل:

ليس في الطبع أن يكون ما ليس في التطيع.

وفرق^(١٠) ما بينهما: إن الطبع جاذب متفاعل^(١١)، والتطيع مجذوب مفتعل، تتفق نتائجها مع التكلف، ويفترق^(١٢) تأثيرها مع الاسترسال، فيظهر^(١٣) الطبع ويزول التطيع.

(١) ط: وراء بابك والتحف بالأمن يتنصاف الناس.

(٢) ط: يا ملك أعط الحق من نفسك معاطاة الناس.

(٣) ط: يا ملك واحذر النساء. وقد سقطت العبارة (ولا تفتح للسعاة طريقاً) من نسخة ط.

(٤) يمثل هذه الوصية نجد الفضل بن سهل يوصي المأمون في سراج الملوك ١٤٤.

(٥) الزيادة من ط.

(٦) ط: فيستحسنهم.

(٧) ط: وتقلعوا.

(٨) الفاقة: الجمع الكثير المختلط من الناس، يقال تغافى عليه الغوغاء ركبه بالشر. (معجم من اللغة

٣٤١/٤) والغوغاء من الناس الذين لا نظام لهم معروف، وأخذ من غوغاء الذباب وهو إذا مازج بعضه بعضاً قبل أن يطير (جمهرة اللغة ١/١٨٥).

(٩) ط: فقد يضعف الطبع وتغير الأخلاق بالتصنع وإن قيل: ليس في الطبع...

(١٠) ط: قال: وفرق.

(١١) غ: جاذب منفعيل.

(١٢) غ: ويفرق بتأثيرهما.

(١٣) ط: فيستقر الطبع.

وتعليل هذا الفرق يقتضي^(١) أن يأمن أهل الورع^(٢) والسلامة خوف عقوبته اكتفاء بزواج طباعه^(٣) في الخير، ويخاف أهل البذاء^(٤) والزعارة^(٥) بادرة سطوته؛ ليكون الخوف زاجراً لطباعهم عن الشر فيشاكل^(٦) الفريقين في طلب الخير، وتوقى الشر طبعاً وتطبعاً؛ فإنه مندوب إلى صلاح^(٧) المهج وتقويم العوج.

قال بعض الحكماء:

انقياد الأخيار بحسن الرغبة، وانقياد الأشرار بطول الرهبة^(٨).

(١) غ: ينبغي أن.

(٢) غ: أهله الوري.

(٣) ط: طباعهم في الخيرات.

(٤) غ: النداء، والبذاء بالمد: الفحش.

(٥) الزعارة بتشديد الراء: شراسة الخلق.

(٦) ط: فتشاكل الفريقان.

(٧) ط: إلى إيضاح المنهج.

(٨) قولهم: «انقياد الأخيار بحسن الرغبة، وانقياد الأشرار بطول الرهبة» نجده في أحاسن المحاسن ١٦٤ بلفظ «... بقوة الرهبة» غير منسوب وفي مختار الحكم: «قال أقليمون لأصحابه: عاملوا الأحرار بمحض المودة والرغبة والرهبة، والسفلة بالخافة والصغار» ص ٢٩٩، وفي غرر السير ٤٨٣ بلفظ: «الملك يؤدبون بالمهجران ولا يعاقبون بالحرمان» وانظر أقوالاً لأردشير ملحقة بكتاب عهد أردشير ص ١٠٠ الفقرة ٢٢، وورد بلفظ «إن الملك يؤدبون...» منسوباً إلى ناصر الدولة أبي محمد الحسن بن عبد الله الحمداني في الإنجاز والإعجاز ص ٢٣ وخصائص الخاص ص ٥٢، وكان أنوشروان يكتب على عهد العمال: «سب خيار الناس بالمحبة وامزج للعامة الرغبة بالرهبة، وسب سفلة الناس بالإخافة» سراج الملوك ١٤٢-١٤٣ وهو من توقيعاته في السعادة والإسعاد ٣٠٢ ونهاية الأرب ٦ / ٤٤، وربما نسب إلى بزرجمهر بلفظ «عاملوا أحرار الناس بصفو المودة وعاملوا العامة بالرغبة والرهبة وعاملوا السفلة بالخافة صراحاً» (لباب الآداب ص ٣٩) وانظر الترجمة والنقل عن الفارسية ١ / ١٠٨ و ١١٥ وعيون الأخبار ٨ / ٨ وسراج الملوك ٦١ وديوان العاني ٢ / ٩٠ ومن أقوال المنصور: «عقوبة الأحرار بالتعريض، وعقوبة الأشرار بالتصريح» سراج الملوك ٧٦ وفي لباب الآداب أنه «غضب كسرى على رجل من أصحابه فلم يجسه وقطع ما كان جارياً عليه فقال له بزرجمهر: إن الملك تؤدب بالمهجران ولا تعاقب بالحرمان» (ص ٣٧)، ونقل المؤلف من كلام أردشير: «عاملوا أحرار الناس بالمودة محضاً، فإنهم لا يحتملون الموان، وعاملوا العامة بالرغبة والرهبة، وعاملوا السفلة بالرغبة صراحاً» (نصيحة الملك للماوردي - مخطوط الورقة ٦٢ ب).

ووقع أنوشروان إلى عماله:
تَفَقَّدُوا أُمُورَ الرِّعْيَةِ فَسَدُوا فَاقَةً أَحْرَارَهَا^(١)، وَاَمْنَعُوا^(٢) بِطَرِ أَسْرَارَهَا؛
فَإِنَّمَا يَصُولُ الْكَرِيمُ إِذَا جَاعَ، وَاللَّثِيمُ إِذَا شَبِعَ^(٣).
وقيل^(٤):
من أَبْطَرْتَهُ النِّعْمَةَ وَقَرَهُ زَوَالَهَا^(٥).

قال الشاعر: (٦١١ آ) [من الطويل]
إِذَا كُنْتُمْ لِلنَّاسِ^(٦) فِي الْأَرْضِ سَادَةً
فَسُوسُوا كِرَامَ النَّاسِ بِالْحِلْمِ وَالْبَذْلِ
وَسُوسُوا لثَامَ النَّاسِ بِالذَّلِّ وَحِدَّةً
جَمِيعاً فَإِنَّ الذَّلَّ يَصْلُحُ لِلذَّلِّ^(٧)

- (١) ط: إفاقة أخيارها.
(٢) ط: وامنعوا من نظر لثامها.
(٣) قوله: «ووقع أنوشروان إلى عماله: تفقدوا أمور الرعية...» أورده ابن المقفع بدون أن ينسبه لقائل، وهو عنده بلفظ: «ليتفقد الوالي فيما يتفقد من أمور الرعية فاقة الأحرار منهم فليعمل في سداها، وطغيان السفلة منهم فليقمعه، وليستوحش من الكريم الجائع واللثيم الشبعان، فإنما يصول الكريم إذا جاع، واللثيم إذا شبع» (الأدب الكبير ١١٦ وضمن رسائل البلغاء ٥٢-٥٣) وقد وردت مقاطع منه متفرقة: قال أفلاطون: «اتقوا صولة الكريم إذا جاع ويطر اللثيم إذا شبع» (مختار الحكم ١٣٩) وفيه من أقوالهم: «استوحش من الكريم المهان ومن اللثيم المكرم، فإن الكريم يصول عند الجوع، وإن اللثيم يطر عند الشبع» ص ٣٥٥ وقد أورد المؤلف قولاً منسوباً إلى أردشير بن بابك بلفظ «احذروا صولة الكريم إذا جاع واللثيم إذا شبع» (أدب الوزير ١٧) وهو من أقوال علي في غرر الحكم ٧٣ وشرح نهج البلاغة ٤ / ٢٦٥ وكتاب ألفي كلمة ص ٧ رقم ٨٦ وهو من أمثال العرب في ثمار القلوب ٦٨١، وديوان المعاني ٢ / ٩٠ ونهاية الأرب ٦ / ١٠٤، وهو من أمثال الفرس في التمثيل والمحاضرة ٤٣٤.

- (٤) ط: وقال بعض الحكماء.
(٥) قولهم: «من أبطرتة النعمة وقره زوالها» أورده المؤلف بلفظه غير منسوب لقائل في أدب الوزير ص ٨ ومن كلام علي: «من لم يشكر النعمة عوقب بزوالها» (غرر الحكم ٢٧٤).
(٦) ط: في الأرض للناس.
(٧) قول الشاعر: «إذا كنتم للناس في الأرض سادة...» استشهد الماوردي بهذين البيتين مع بيتين آخرين وإن معناها مأخوذ من قول أردشير وإليك نص ما قال: «قالوا: وقد قال أردشير: عاملوا أحرار الناس بالمودعة محضاً، فإنهم لا يحتملون المهوان، وعاملوا العامة بالرغبة =

ويراعي أهل النسك والصلاح^(١)، يؤدي حق الله تعالى فيهم وحق نفسه في موافقتهم، يجعل أقدارهم، ويعظم أخطارهم؛ لأنهم أهل الآخرة التي هي أشرف من الدنيا داراً، وأعز منها جواراً، ليعترف لله بحقوق أوليائه، وللدين بحقوق زعمائه، فإن من الديانة إعظام أهل الدين، وأن يرجع إليهم في ما أمروا به ونهوا عنه.

وليصلح من دينه ما اختل، ومن دنياه ما اعتل؛ فإنهم لا يأمرن إلا بطاعة، ولا ينهاون إلا عن معصية.

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:
«استرشدوا العاقل ترشدوا، ولا تعصوه فتندموا»^(٢).

= والرغبة، وعاملوا السفلة بالرغبة صراحاً، فأخذ هذا المعنى بعض المحدثين فجعله شعراً فقال:

إذا كتتم للناس أهل سياسة	فسوسوا كرام الناس بالرفق والبذل
وسوسوا لثام الناس بالذل يصلحوا	على البذل إن البذل يصلح للنذل
وكونوا لأوساط الرجال كمازج	ذعافاً وماذياً كأحلي جنى النحل
ولينوا لهم طوراً ببسط كرامة	وخلوهم طوراً قياماً على رجل

انظر نصيحة الملوك للماوردي - مخطوط - الورقة ٦٢ ب.

(١) لخصت نسخة ط هذا القول ولفظها كما يلي: قال أفضى القضية: ويراعي أهل النسك والصلاح بخصال ثلاث يؤدي بين حق الله تعالى فيهم وحق نفسه في موافقتهم: أحدها: أن يجعل أقدارهم ويعظم أخطارهم؛ لأنهم من أهل الآخرة التي هي أشرف من الدنيا داراً وأعز منها جواراً، ليعترف لله بحقوق أوليائه وللدين بحقوق زعمائه، فإن من الديانة إعظام أهل الديانة.

والخصلة الثانية: أن يرجع إليهم في ما أمروا به ونهوا عنه ليصلح بهم من دينه ما اختل ومن دنياه ما اعتل، فإنهم لا يأمرن إلا بالطاعة، ولا ينهاون إلا عن معصية.

والخصلة الثالثة: أن يتقرب إليهم بطاعة الله في خلقه، والقيام فيهم بحقه ليكونوا له حزباً وعمل أعدائه إلباً، يملك بهم القلوب ويستدفع بهم الخطوب فقد قيل لرسول الله عليه الصلاة والسلام: «إن الرجل ليعمل لله ويحب الناس قال تلك عاجل البشرى - كذا - إذا أردتم أن تعلموا ما للعبد عند الله فانظروا ما يتبعه من ثناء الناس ومن يبتدع ما ليس من خيم نفسه... إلخ.

(٢) حديث: «استرشدوا العاقل ترشدوا، ولا تعصوه فتندموا» رواه الخطيب في رواية مالك عن أبي هريرة في حديث ضعيف (الجامع الصغير ١ / ٤٠) وانظر شرحه في التيسير ١ / ١٤٦، والحديث في أدب الوزير ٥٢.

وأن يتقرب إليهم بطاعة الله في خلقه، والقيام فيهم بحقه؛ ليكونوا له حزباً، وعلى أعدائه إلباً^(١)، يملك بهم القلوب، ويستدفع بهم الخطوب، فقد قيل لرسول الله [صلى الله عليه وسلم]: إن الرجل يعمل العمل لله تعالى ويحبه الناس؟

فقال:

«تلك عاجل البشرى إذا أردتم أن تعلموا ما للعبد عند الله تعالى فانظروا ما يتبعه من ثناء الناس»^(٢).

ولا ينبغي أن يتصور في قوم منهم رياء أو سمعة، فيسقطه بها فيسري ذلك إلى جميعهم، فإن التظاهر بالصلاح أجل من التظاهر بالطلاح، وقد أعطى من الأحامد بمظاهرتة شطراً، واستبقى منه في الباطن شطراً، وهما يتنافران كتنافر الطبع والتطبع، حتى يغلب أحدهما على الآخر، فتصح سريرته فيسلم، أو تفتضح علانيته فيسقم؛ فإن تدليس الرياء لا يستمر، حتى ينتهي إلى غاية من صلاح أو افتضاح، كالمريض الذي يفضي مرضه إلى سلامة أو عطب فقد قيل:

قيل:

من طمع أن يذهب على (٦١ب) الناس عيبه فقد جهل^(٣).

(١) إلب - بفتح الهمزة وبكسرهما - أي مجتمعون «يقال: هم عليه ألب وألب واحد، مجتمعون» (قاموس مادة ألب ١ / ٣٨).

(٢) حديث «تلك عاجل البشرى»... رواه مسلم عن أبي ذر بلفظ «قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أرايت الرجل يعمل من الخير ويحمله الناس عليه وفي رواية يحبه الناس عليه قال: تلك عاجل بشرى المؤمن» انظر مشكاة المصابيح ٢ / ٦٨٣ رقم ٥٣١٧ قال الشيخ عبد الغني النابلسي: «حديث الرجل يحب قوماً وفي رواية الرجل يعمل العمل من الخير وتحبه الناس»... إلخ أخرجه مسلم في البر والصلة عن يحيى بن يحيى وأبي الربيع وأبي كامل وأبو داود في الأدب عن موسى بن اسماعيل وابن ماجه في الزهد عن عماد بن بشارة (ذخائر المواريث في الدلالة على مواضع الحديث ٣ / ١٦٥ رقم ٦٩٣٩) وهو فيه من أحاديث أبي ذر الغفاري. وانظر رسالة الأخلاق لابن حزم ص ١٣.

(٣) قرحم: «من طمع أن يذهب على الناس عيبه فقد جهل»، ورد هذا القول في ط بعد البيت التالي وهو قوله «ومن يتدع ماله...» وقد جاء من أقوال بزرجمهر لكسرى في كتابه له، =

قال الشاعر^(١): [من الطويل]

ومن يتدع ما ليس من خيم نفسه

يدعه ويغلبه على النفس خيمها^(٢)

فليعمل على الظاهر لمن تظاهر بالصلاح؛ فليس للناس من الناس إلا
ظواهرهم، ويتولى الله سرائرهم.

في هذا المعنى قوله: «وينبغي لذوي السلطان أن يعلموا أنهم لا يقدرّون على ألا تنطق العامة
بميوهم وألا يتعنّوا - أي يتجشّموا - من ألا يبصر الناس ما فيهم، وليكن اجتهدهم في ألا
يكون لهم عيب ولا سبيل للمقالة عليهم»، (الحكمة الخالدة ٤٦)، وسئل أنوشروان: «أي
علم الوالي أنفع له؟ قال: أن يعلم أنه لا قدرة له على سد أفواه الناس عن عيوبه ومساوئه،
فعند ذلك لا يلتبس إسكاتهم بالوعد والغلبة، ولا يلتبس رضاهم وانتقامهم عن ذكر
مساوئه وعيوبه إلا بإصلاح تلك العيوب عن نفسه ورأيه وأخلاقه» (الحكمة الخالدة ٥٥)،
ومن كلام أردشير: «اعلموا أنكم لستم على ختم أفواه الناس قادرين ولا قدرة لكم على أن
تعملوا القبيح حسناً»، (عهد أردشير ٧٠).

(١) قوله: «قال الشاعر» قلت نسب هذا البيت لأكثر من شاعر فهو تارة لكثير وأخرى لسليمان
بن مهاجر وثالثة لخالد بن عبد الله الطائي ورابعة لحاتم الطائي وخامسة للأعور الشني،
انظر التخرّيج.

(٢) قول الشاعر: «ومن يتدع ما ليس من خيم نفسه...»، نسبة الماوردي في الأمثال والحكم،
الورقة ٥٤ ب، إلى كثير، وقد ورد منسوباً إليه في عيون الأخبار جـ ٢، ص ٥، وهو عنده
بلفظ «ومن يتدع ما ليس من سوس نفسه»، والسوس والخيم بمعنى الطبيعة، وقد ورد في
اللسان (مادة خيم)، والحماسة البصرية (٢ / ١٧٣)، وفيها تخرّيج، ونسبه إلى كثير بن أبي
جمعة، وقد نسب البحتري إلى سليمان بن المهاجر وأورده بلفظ «ومن يتدع ما ليس فيه
سجية»، ونسبه المبرد إلى خالد بن عبد الله الطائي وأورده مع ثلاثة أبيات أخرى،
وهو عنده بلفظ «ومن يتدع خيماً سوى خيم نفسه»، قال ويقال لحاتم الطائي، انظر
الفاضل ص ٤٠، وهو في الحماسة لحاتم ٤ / ١١٧ / ولم يوجد في ديوانه وفي الكامل ١ / ١١
عن أم الهيثم، وأورده صاحب الوساطة منسوباً إلى الأعور الشني (ص ١٥٦). وقد روى
جامع أشعار الأعور الشني، بشر بن منقذ بيتين بهذا المعنى بلفظ:

ومن يقترف خلقاً سوى خلق نفسه يدعه وتغلب عليه السطباتع

وأدوم أخلاق الفقى ما نَسَا بِهِ وأقصر أفعال الرجال البدائع

انظر بشر بن منقذ الشني أخباره وما تيسر من شعره لضياء الدين الحليدي مجلة البلاغ،
العدد الأول، السنة الخامسة ١٣٩٤-١٩٧٤، ص ٣١، وفيه تخرّيج. وقد ورد غير منسوب في
العقد الفريد، ج ٢، ص ٢٤، وج ٣، ص ٣، والكامل ١ / ١٧، وهو فيه بلفظ «ومن
يتخذ».

وقد روي^(١) عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:
«الناسُ كأسنانِ المشطِ، وإنما يتفاضلون بالعلانية»^(٢).
فليعظم^(٣) حق علانيتهم، وليكل ضمائرهم إلى عواقبها فيستجلي^(٤)
عن أحد الأمرين، فقد روى عن النبي عليه السلام أنه قال:
«المتشبع بما لا يملك كلابس ثوبي زور»^(٥).
يعني [بالمتشبع بما لا يملك]^(٦) المتظاهر بما ليس فيه، [وقوله:]^(٧)
«كلابس ثوبي زور» هو الذي يلبس ثياب^(٨) الصلحاء ويفعل أفعال الطلحاء.
روى أبو هريرة قال:

- (١) ط: وروي سهل بن سعد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم..
(٢) حديث «الناس كأسنان المشط، وإنما يتفاضلون بالعلانية»، أخرجه الديلمي عن سهل بن سعد وفيه «وإنما يتفاضلون بالعافية»، وفيه زيادة «انظر كشف الخفاء ٢ / ٤٥١، رقم ٢٨٤٧»، وكنوز الخلائق من حديث خير الخلائق ٢ / ١٣٣. وفي نسخة ط: الناس سواء كأسنان المشط. قال أبو الوفاء محمد بن أحمد البساک في معناه «أي متساوون في النسب». وهو عنده مثل من الأمثال (كتاب الأمثال ٤٢)، وفي التمثيل والمحاضرة بلفظ «وإنما يتفاضلون بالتقوى» (ص ٢٣، وص ٣٠١)، وانظر مجمع الأمثال ١ / ٣٢٩، رقم ١٧٧١.
(٣) ط: قال أفضى القضية في أثناء كلامه.
(٤) غ: فسينجلي عن أحد أمرين.
(٥) حديث: «المتشبع بما لا يملك كلابس ثوبي زور»، متفق عليه من حديث أسماء بنت أبي بكر، بلفظ «بما لم يعط»، انظر صحيح البخاري ٣ / ١٧٣، وصحيح مسلم بشرح النووي ١٤ / ١١١، وأخرجه مسلم أيضاً عن عائشة ١٤ / ١١٠، وقد رواه أبو داود عن أسماء (سنن ٤ / ٢٩٩-٣٠٠)، والترمذي عن جابر (سنن ٣ / ٢٥٥-٢٥٦)، وهو فيه بلفظ «ومن تحمل بما لم يعطه كان كلابس ثوبي زور»، ورواه الطبراني في الكبير والأوسط والبخاري عن سفيان بن عبد الله الثقفي عن أبيه أن النبي (ص) قال: «المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور»، مجمع الزوائد ٨ / ٩٨، ورواه غيرهم عن جابر وأبي هريرة مرفوعاً بلفظ «من تحمل بباطل كان كلابس ثوبي زور»، وعن عائشة والثوري، انظر كشف الخفاء ٢ / ٣٣٢، رقم ٢٤٣٥، والمقاصد الحسنة ٤٠٧، رقم ١١٠٠، ورواه أحمد (الجامع الصغير ٢ / ١٨٥، والتيسير ٢ / ٤٥٤، وذخائر المواثيق ٤ / ١٧٩) وهو في أدب الدنيا والدين ٩٤، ومجمع الأمثال ٢ / ١٥٠، رقم ٣٠٧٢، والتمثيل والمحاضرة ٢٣.
(٦) الزيادة من ط.
(٧) الزيادة من ط.
(٨) ط: لباس الصلحاء ويعمل عمل.

مرّ النبي عليه السلام على ناس وهم جلوس فقال:

«ألا أخبركم بخيركم من شركم؟».

فسكتوا.

فقال ذلك ثلاث مرات.

فقال له رجل: بلى يا رسول الله.

فقال:

«خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره، وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره»^(١).

[٩ - رعاية العلم ومراعاة العلماء]:

وأما العلم فينبغي للملك أن يعرف فضله، ويستبطن أهله؛ لأنهم للدين أركان، وللشرع أعوان، والدين أس الملك ونظامه، وقد قاموا فيه بحقه، ونابوا عن الملك في حفظه، ولولاهم لما عرف حق أمر من باطله، ولا صحة حكم من فاسده، فليحفظ الملك نظام ملكه بمراعاتهم، وليستظهر لدينه وملكه باستبطنهم؛ ليكون بالعلم موسوماً، وإليه منسوباً؛ فإن الإنسان موسوم بسيماء من قارب، ومنسوب إليه أفاعيل من صاحب؛ ولذلك قال النبي عليه السلام:

[«المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»]^(٢).

وقال عليه السلام: [«^(٣)

المرء مع من أحب»]^(٤).

(١) حديث «مر النبي عليه السلام على ناس وهم جلوس...»، لم يرد في ط، وقد رواه أبو يعلى عن أنس، (كشف الخفاء ١ / ٤٧٢، رقم ١٢٥٢)، ورواه أحمد والترمذي عن أبي هريرة، (الجامع الصغير ٢ / ١٢)، وانظر التيسير ١ / ٥٣٤.

(٢) حديث «المرء على دين خليله...» مرّ تخريجه سابقاً.

(٣) الزيادة من حاشية الأصل غ، ومن ط.

(٤) حديث «المرء مع من أحب» متفق عليه من حديث أنس وأبي موسى الأشعري وابن مسعود، (كشف الخفاء ٢ / ٢٨٣، رقم ٢٢٨٤)، والمقاصد الحسنة ٣٧٩، رقم ١٠١١، ورواه كثيرون (الجامع الصغير ٢ / ١٨٥).

وقالت الحكماء:

يظن بالمرء ما ظن بقرينه^(١).

وقد يخص الملوك من هذا بما يباينون (٦٢٢) به من سواهم؛ لخفاء أحوالهم عن الرعية، فيقضون عليهم بما علموه من أحوال بطائنهم:

فإن استبطنوا العلماء قضوا عليهم بالعلم، وإن جهلوا.

وإن استبطنوا الجهال قضوا عليهم بالجهل، وإن علموا.

وليصر بمكانرتهم مستظهرأ، وبمذاكرتهم مستبصرأ، وهم أنفع له في دينه ودنياه؛ لأنهم في الدين دعاة، وفي الدنيا هداة، مع ما ينشر من الفساد بإهمال العلماء، وترك مراعاتهم، وذلك أنهم ربما بعث بعضهم قلة المادة، وضعف الحال على مسامحة النفس والتبذل، وارتكاب الشبهة.

فإذا وافق ذلك إعراض السلطان عنهم فتحت آثارهم عند العامة، وتقاصرت رتبهم عند الخاصة، فهجروا هجر الأعداء، وزجروا زجر السفهاء، ثم سرى ذلك في خواصهم ومتصونيهم، وعم في خيارهم ومتدنييهم؛ لأن نقص الجنس يسري فيه، فذهبت بهجة العلم وبهاؤه، وقل طلابه وعلمأؤه، وصار ذريعة إلى انقراضه ودراسته.

ثم لا يبعد أن يظهر أهل نحل مبتدعة، ومذاهب مخترعة، يزوقون كلامهم مموهاً، ويزخرفون مذهباً مشوهاً؛ لأن ما صحَّ من المذاهب قد اعتقد، وما سلم منها قد استقر، ولذلك قال النبي عليه السلام:

«خير الأمور عوازمها، وشر الأمور محدثاتها»^(٢).

فهم لا يستحدثون إلّا ما ابتدعوه، ولا ينصرونه إلّا بما اخترعوه،

(١) قولهم: «يظن بالمرء ما ظن بقرينه»، ورد في أدب الدنيا والدين ١٥١، وهو من أمثال المولدين (مجمع الأمثال ٢ / ٤٢٩)، وهو فيه بلفظ «ما يظن بقرينه».

(٢) في الأصل غ: خير الأمور عوامها.. وقد سقط من ط. وحديث «خير الأمور عوازمها، وشر الأمور محدثاتها»، رواه الديلمي (كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق ١ / ١٢٥).

يعدلون به عن ظاهر جلي إلى باطن خفي، يجلبون به قلوب الأعوام، ويعتضدون على نصرته بالغاغة الأشرار، فيشعرهم أنهم أظهروا لهم الحق بعد كمونه، وأوصلوهم إلى ما استأثر الله به دينه، فيصبوا إليهم الغر المختدع، ويميل معهم الجاهل المتبع، إلى أن يتكاثر جمعهم بخلاصة كلامهم^(١)، ولطف بيانهم (٦٢ب) مع أن لكل جديد لذة، ولكل مستحدث صبوة، وقد قال النبي عليه السلام: «إن من البيان لسحراً»^(٢).

و[قال]^(٣):

«إن أخوف ما أخاف على أمتي منافق عليم اللسان»^(٤).

فتصير البدع حينئذ فاشية، ومذاهب الحق واهية، ثم يفضي بهم الأمر إلى التحزب، ويؤول إلى التعصب؛ لأن لكل مذهب شعاراً، ولكل شعار أنصاراً، ولكل أنصار صولة، ولكل صولة دولة، فإذا رأوا ظهور شعارهم وكثرة أنصارهم، داخلهم عزة القوة، ونخوة الكثرة، فتضافر جهال نساكهم، وفسقة علمائهم بالميل إلى مخالفتهم.

فإذا استتب ذلك لهم، رابحوا^(٥) السلطان في رياسته، وقبحوا عند العامة جميل سيرته؛ فربما انفتق منه ما لا يرتق؛ فإن كبار الأمور تبدو صفاراً، وقد روي عن النبي عليه السلام أنه قال: «أهلك أمتي رجلان: عالم متهتك، وجاهل متنسك».

(١) غ: كما لهم.

(٢) حديث «إن من البيان لسحراً»، رواه مالك وأحمد والبخاري وأبو داود والترمذي بحديث صحيح (الجامع الصغير ١/ ٩٨)، وكشف الخفاء ١/ ٢٩٦، رقم ٧٨٠، والمقاصد الحسنة ١٢٩، رقم ٢٥٥، وهو لديهم عن ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما، وانظر سنن أبي داود ٤/ ٣٠٢، ٣٠٣، رقم ٥٠٠٧ و٥٠١١.

(٣) الزيادة ليست في غ، ولا في ط.

(٤) حديث «إن أخوف ما أخاف على أمتي منافق عليم اللسان»، رواه الإمام أحمد بحديث صحيح (الجامع الصغير ١/ ٨٧)، وكنوز الخلاق ١/ ١٠، عن عمر رضي الله عنه.

(٥) غ: راحوا.

وسئل عن شرار الأشرار فقال:

«شرار العلماء»^(١).

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه:
قصم ظهري رجلاً: ناسك جاهل يدعو إلى الجهل بنسكه، وعالم
فاسق يدعو إلى الفسق بعلمه^(٢).

وقد قال المنصور في عهده إلى ابنه^(٣):
وكل همومك بأمورك، وتفقد الصغير بعد الكبير، وخذ أهبة الأمر قبل
حلوله؛ فإن ثمرة التواني الإضاعة، وكن عند رأس أمرك لا عند ذنبه؛ فإن
المستقبل لأمره سابق، والمستدبر له مسبوق.

(١) حديث وأهلك أمي رجلاً.. نجاه في إحياء علوم الدين ١ / ٦٣، بلفظ «هلك أمي عالم
فاجر وعابد جاهل وشرّ الشرار، شرار العلماء وخير الخيار خيار العلماء»، قال زين الدين أبو
الفضل عبد الرحيم العراقي: «أخرجه الدارمي من رواية الأحوص بن حكيم عن أبيه
مرسلًا، (المغني عن حمل الأسفار في الأسفار ١ / ٦٣).

(٢) قول الإمام علي: «قصم ظهري رجلاً.. إلخ»، أورده ابن أبي الحديد في مستدركه على
نهج البلاغة بلفظ «قصم ظهري رجلاً: جاهل متنسك وعالم متهتك»، (شرح نهج البلاغة
٤ / ٥٤٤)، وأورده عبد الواحد الأمدي ضمن كلماته بلفظ «ما قصم ظهري إلا رجلاً:
عالم متهتك وجاهل متنسك، هذا ينفر حقه بهتك، وهذا يدعو إلى باطله بنسكه»، (غرر
الحكم ٣١٢)، ونسبه الطرطوشي في سراج الملوك إلى جعفر الصادق وهو عنده بلفظ «قطع
ظهري وأفسد الدين رجلاً: جاهل ناسك، وعالم فاجر، هذا يدعو الناس إلى جهله بنسكه
وهذا ينفر الناس عن علمه بفسقه»، ونجد معنى هذا الكلام في كلام طويل للإمام عي، في
نهج البلاغة (شرح نهج البلاغة ١ / ٩٤).

(٣) قوله: «وقد قال المنصور في عهده إلى ابنه..» هو عهد أبي جعفر المنصور إلى ابنه محمد
المهدي الذي قال فيه: «هذا ما عهد به عبد الله أمير المؤمنين إلى المهدي محمد بن أمير
المؤمنين ولي عهد المؤمنين حين أسند وصيته إليه بعده، واستخلفه على الرعية من المسلمين
وأهل الذمة، وحرم الله خزائنه وأرضه التي يورثها الله من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.
إن أمير المؤمنين يوصيك بتقوى الله في البلاد والعمل بطاعته في العباد.. في كلام طويل،
انظر تاريخ اليعقوبي ج ٢، ص ٤٧٢-٤٧٤، وقد نقله عن الدكتور حسن إبراهيم حسن في
تاريخ الإسلام السياسي (ط ٥، ج ٢، ص ٤٣٧-٤٣٨)، ومن هذا العهد نجد نقولاً،
انظر المصباح المضيء في خلافة المستضيء، ص ٤٠٢، وتاريخ الطبري ق ٣ / ١٠ / ٤٠٣،
والوزراء والكتاب ١٢٦، وسراج الملوك ٢٠٠

قال الشاعر: (١) [من الخفيف]

إِنَّ لِلدَّهْرِ صَوْلَةً فَاحْذَرْنَهَا
لَا تَبِمَتَنَّ قَدْ أَمِنْتَ الدَّهَوَا
شَطٌّ وَضَلُّ الَّذِي تَرِيدِينَ مِنِّي
وَصَغِيرُ الْأُمُورِ يَجْنِي الْكَبِيرَا (٢)

وهذا أمر يجب على الملك مراعاته، لما فيه من حراسة الدين وحفظ المملكة.

وحسم ذلك: أن يراعي العلم وأهله، ويصرف إليهم حظاً من عنايته (٦٣آ) ويعتمد أهل الكفاية منهم بالتقريب والصيانة، وأهل الخلعة منهم بالبر والمعونة؛ ليكون العلم به أنشر، والتوفر عليه أكثر، والناس له أشكر؛ ففي ذلك بهاء الملك وإعزاز الدين وخلود الذكر.

(١) قوله: «قال الشاعر» قلت هو عدي بن زيد العبادي التميمي، من دهاة الجاهلية وشعرائها قتله النعمان بن المنذر في سجنه بالحيرة وعده القرشي من أصحاب المجمرات، انظر ترجمته وأخباره في الأغاني ٩٧/٢، خزانة الأدب ١/١٨٤، الشعر والشعراء ١١١، طبقات فحول الشعراء ١١٥، ١١٧، ١١٨، شعراء النصرانية ٤٣٩، معجم الشعراء ٨٠، جبهة أشعار العرب ١٧٨، وديوانه قد طبع بعناية زميلنا الأستاذ محمد جبار المعيد في بغداد ١٩٦٥، وربما نسب لابنه.

(٢) قول الشاعر: «إن للدهر صولة..» إلى آخر البيتين، ذكرهما الماوردي في كتابه الأمثال والحكم (الورقة ٢٥ب)، ونسب الأول إلى سويد بن عدي بن زيد ولم يذكر القائل للثاني، وجاءت قافية الثاني فيه بلفظ (الكبارا) واستشهد بالأول في كتابه أدب الوزير، ص ٢١ دون أن يعزوه إلى قائل، والبيتان في ديوان عدي بن زيد، ص ٦٤، ضمن القصيدة التي قالها عدي في سجنه يذكر النعمان به، وفيه تخريج (ص ٢١٢).
وقد ورد الأول في شرح نهج البلاغة وقد أتى به بلفظ: «إن للدهر صرعة.» مع بيت آخر بعده هو قوله:

قد يبيت الفنى مماتى فيسر دي وقد كان آمناً مسروراً
في قصة بين سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه والحرقة بنت النعمان، أو الخرقاء، عبد المسعودي، ونسب البيتين إلى عدي (٣١٧/٤)، وفي المستطرف بلفظ «إن للدهر صرعة..» قد أمنت السروراء، (٥٩/٢) والأول مع ثلاثة أبيات في الزهرة (النصف الأول ١٠٩)، منسوبة إلى عدي بن زيد، والأول في خزانة الأدب (بولاق ١٢٩٩، ج ١، ص ٣٤٣)، منسوباً إلى سودة بن عدي بن زيد، وانظر مروج الذهب ١/٢٩٦.

وقد قيل:

إن من إجلال الشريعة أن يجعل أهل الشريعة^(١)، ليكون المعروف من شيمه، والمألوف من أخلاقه أنه يكافيء المحسن بالإحسان إليه؛ ليألف الناس الإحسان رغبة في الجزاء من غير أن يجعل لجائزته حداً، ولصلته قدراً؛ فإن ذلك أبسط للأمل فيه، ولا يعرف منه في المسيء شيمة مألوفة في عفو ولا عقوبة؛ لأن المسيء إن عرف منه العفو اجتراً، وإن عرف منه العقوبة قنط، وإن لم يعرف منه واحداً منهما كان على رجاء من عفو وخوف من عقوبته، فإن ذلك^(٢) أبلغ في تأديبه ومصلحته.

فإن رآه للعفو أهلاً عفا عنه.

قال النبي عليه السلام:

«عفو الملك بقاء الملك»^(٣).

وإن رآه للعقوبة أهلاً مستحقاً عاقبه أدباً له لا غضباً عليه.

قال أنوشروان:

إنني بلغت هذه الرتبة بثمانى خصال:

وذلك:

(١) قوله: «إن من إجلال الشريعة أن يجعل أهل الشريعة»، أورده الإمام أبو الحسن بن الحسين الرخجي غير منسوب بلفظ: «من الشريعة أن تجعل أهل الشريعة، ومن الصنعة أن لا تحل مالك من صنعة»، (أحسن المحاسن ١٥٩)، وقال أبو الوليد الطرطوشي: «وقال الحكيم: لا يزال السلطان مهملًا حتى يتخطى إلى أركان العمارة ومباني الشريعة، فحينئذ يريح الله منه»، (سراج الملوك ٥٣).

(٢) غ: فإن كان أبلغ.

(٣) حديث «عفو الملك بقاء الملك»، رواه الرافعي عن علي في حديث حسن (الجامع الصغير ٦٠ / ٢)، وهو فيه بلفظ «عفو الملوك أبقى للملك»، وانظر التيسير ١٣٢ / ٢، كنوز الحقائق ١٢ / ٢. وقد جرى هذا الحديث مجرى الأمثال السائرة فقد ورد في التمثيل والمحاضرة وهو فيه بلفظ: «عفو الملك أبقى للملك»، (ص ١٣٩ و ٤١٩)، وقد أورده الثعالبي ضمن كلام منوهر أحد ملوك العجم بلفظ «عفو الملك أبقى للملك» (الإيجاز والإعجاز ٩)، وأورده مرة أخرى على أنه من أمثال العجم بلفظ «عفو الملك أبقى للملك»، (خاص الخاص ١٧).

أني لم أهزل في أمر ولا نهى قط.
ولم أخلف في وعد ولا وعيد قط.
ووليت [للكفاية
وأثبت^(١) للعناء لا للهوى،
وعاقبت للأدب لا للغضب،

وأودعت في قلوب الرعية شدة المحبة من غير جراءة، وقوة الهيبة من غير ضغينة.

وعملت بالقوت^(٢).

وحذفت الفضول^(٣).

وهذا^(٤) أصبح سيرة سار بها ملك في سياسة ملكه وتهذيب^(٥) دولته.

(١) الزيادة من مصادر التخريج وليست في غ، ولا في ط.

(٢) ط: بالقرب وفي سراج الملوك والعقد ولباب الآداب: بالقوت. وفي موضع آخر من اللباب: وعملت بالعدل.

(٣) قول أنوشروان: «إني بلغت هذه الرتبة بشماني خصال...»، رواه ابن قتيبة بلفظ: «وصف بعض الملوك سياسته فقال: «لم أهزل في وعد ولا وعيد، ولا أمر ولا نهى، ولا عاقبت للغضب، واستكفيت على الجزاء وأثبت على العناء لا للهوى، وأودعت القلوب هيبة لم يشبها مقت ووداً لم تشبه جراءة، وعملت بالقوت ومنعت الفضول» (عيون الأخبار ١ / ١٠)، ونسبه الأمير أسامة بن منقذ إلى كسرى بلفظين قريبين من ذلك (لباب الآداب ٣٧، ٥١-٥٢)، ونهاية الأرب ٦ / ٤٤، ونسبه الطرطوشي إلى سابور ذي الأكتاف بلفظ: «ولما غزا سابور ذو الأكتاف ملك الروم وأخرب بلاده، وقتل جنده وأغنى بطارقه، قال له ملك الروم: إنك قد قتلت وأخربت، فأخبرني ما الأمر الذي تشيئت به حتى قويت على ما أرى وبلغت في السياسة ما لم يبلغه ملك، فإن كان مما يضبط الأمر بمثله، أديت إليك الخراج وصرت كبعض الرعية في الطاعة لك، فقال له سابور: إني لم أزد في السياسة على شماني خصال... وذكرها قال: فأذن له وأدى الخراج»، (سراج الملوك ٥٩-٦٠)، والقول في العقد الفريد ١ / ٢٨ بنفس لفظ ابن قتيبة. وفي نهاية الأرب: قال أنوشروان: ثمانية أشياء هي أساس الملك... (١٦ / ٦)، وقد نسب المسعودي القول إلى سابور بن أردشير (مروج الذهب ١ / ١٥٤-١٥٥).

(٤) ط: قال أقصى القضاة وهذا أصبح سيرة.

(٥) ط: وحراسة دولته.

قال النعمان بن المنذر^(١) وهو ملك العرب: [من الكامل]
 تعفو المملوك عن العظيم..
 من الذنوب لفضلها
 ولقد تعاقب في اليسير..
 وليس ذاك لجهلها
 إلا ليعرف فضلها
 ويخاف شدة نكلها^(٢)

(٦٣ب)

ولا يعلن عقوبة من لم يعلن بذنبه، ويجعل للذنب السر عقوبة السر،
 وللذنب العلانية عقوبة العلانية؛ لأن عقوبة الذنب بحسبها، والمقابلة في
 الجزاء معتبرة؛ لتكون أشباهاً لها.

ولا يعاقب بالظن حتى يستيقن الذنب؛ فإن أكثر الظنون كاذبة.
 فإن عاجل بالعقوبة وضعها في غير حق^(٣)، وجنى على غير مستحق،
 فصار الذنب متوجهاً لله، واللوم عائداً عليه.

(١) ط: قال الشاعر، وما أثبتته عن غ، والنعمان بن المنذر اللخمي أبو قابوس ملك الحيرة
 والمعروف بيوميه، قتل عبيد بن الأبرص في يوم يؤسه، وقاتل عدي بن زيد وصاحبه النابغة
 الذبياني. كان ملكه بعد أبيه طيلة اثنتين وعشرين سنة وقتله كسرى أبرويز بن هرمز فانقطع
 الملك عن لحم، وبسبب قتله وقعت حرب ذي قار، انظر بعضاً من أخباره في تاريخ سنن
 ملوك الأرض والأنبياء ٩٤-٩٥، مروج الذهب ١ / ٢٩٣-٢٩٦، ونجد بعضاً من أقواله في
 البيان والنبين ١ / ١٧١، ٢٢٢، ٢٣٧، ٢٦٥، ٢٦٦، ٣٠٣، ٣٤٩، ٣٦٠، ٢ / ٢٧٦،
 ٣٢٥، ٣ / ٢٤٦، ٤ / ٤٣، ٧٣، وفي العقد الفريد ١ / ٣٨، وفي عيون الأخبار:
 ١ / ١٣٨، ١٨٣، ١٨٤، ٢ / ٢٢٧، ٢٣ / ٢٤، ٧٧، ١٨٩، ٣٠٤، ٤ / ٦٥، المعارف
 - عكاشة - ٦٤٩ - ٦٥٠.

(٢) قول النعمان بن المنذر: تعفو المملوك عن العظيم... إلخ، الأبيات في حماسة الظرفاء
 ١ / ١٧٨ - وفيها تحريج - وهي منسوبة إليه وكذا في نهاية الأرب، ج٦، ص٧، وقد جاء
 الثالث بلفظ لكن ليرجى عفوها. والبيتان الأول والثاني في التمثيل والمحاضرة ١٣٤، ومما
 بلفظ «يعفو المملوك عن الكثير..» وقد نسبها إليه. لكن ابن قتيبة قد نسب الأبيات الثلاثة
 إلى أعرابي، قالها بحضرة النعمان في قصة طويلة فلتراجع في عيون الأخبار ١ / ١٠٠

(٣) قوله: «فإن عاجل بالعقوبة وضعها في غير حق..»، قال ابن المعتز: «لا تعاجل الذنب =

قال الشاعر^(١): [من الطويل]

إذا أنت لم تبرح تظن وتقتضي
على الظن أردتكَ الظنون الكواذب^(٢)

وليعلم الملك أن الذم في الظلم بقدر الحمد في العدل، والزهد في ولاية الظالم بقدر الرغبة في ولاية العادل.

وكل مذموم ممقوت،

وكل محمود محبوب،

والممقوت مباعد،

والمحمود مساعد،

وناهيك بطرفيهما خيراً أو شراً، ويعقباهما نفعاً وضراً.

وقد روي عن النبي عليه السلام أنه قال:

== بالعقوبة (الأدب ١٢٥)، وقال هرمس: «لا تعاجل الذنب بالعقوبة واجعل بينها للاعتدال طريقاً» (مختار الحكم ٢٥)، وقال بطليموس: «ينبغي لذي السلطان العالم إذا رأى الذنب من أصحابه أن لا يعجل عليهم» (مختار الحكم ٢٥٧)، وقال ابن المقفع: «ليعرف الناس - فيما يعرفون من أخلاقك - أنك لا تعاجل بالثواب ولا بالعقاب؛ فإن ذلك أدوم لخوف الخائف ورجاء الراجي» (الأدب الكبير ١٠٨)، وفي غرر الحكم: «إياك والتسرع إلى العقوبة فإنه ممقوت عند الله ومقرب من الغير» (ص ٧٦)، ومن كلام يزدجرد: «الملك الحازم من يؤخر العقوبة في سلطان الغضب، ويعجل مكافأة المحسن» (الإيجاز والإعجاز ص ١٣).

(١) قوله: «قال الشاعر» ذكر الماوردي أنه الربيع بن أبي الحقيق اليهودي، (انظر الأمثال والحكم، الورقة ٨ب)، وهو من يهود بني النضير كما ذكر الجاحظ في البيان والتبيين ١ / ٢١٣، وابن سلام في طبقات الشعراء ١١٠، وابن هشام في السيرة ٢ / ٥١٥، ٥٥٠ إذ ذكر ابنه الربيع وكتاتبه، وذهب الأصفهاني إلى أنه من بني قريظة، في الأغاني ٢١ / ٦١. وأنه كان أحد الرؤساء يوم بعث، وهو آخر الحروب المشهورة بين الأوس والخزرج قبل الإسلام. له شعر في المصادر السابقة وفي ديوان المعاني ٢ / ٣٩، والبيان والتبيين ٢ / ١٤، والأمثال والحكم، الورقة ٦٥، ومصادر التخريج.

(٢) قول الشاعر: «إذا أنت لم تبرح تظن...» ذكره الماوردي في الأمثال والحكم منسوباً إلى الربيع بن أبي الحقيق اليهودي (الورقة ٨ب)، وذكره في أدب الوزير ص ٥١، ولم ينسبه، وورد في نهاية الأرب ٦ / ١٣٥ دون نسبة، وهو غير منسوب أيضاً في التذكرة السعدية ١ / ٣٥٠، بلفظ «لم تبرح بظن...» الظنون الحوادث.

«إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من نفسه»^(١).

فينبغي للملك أن يختار لنفسه الرغبة في أيامه، والحمد لسيرته، بتسليط العدل^(٢) على ملكه، وتحكيم الدين على سلطانه.

قال الشاعر^(٣): [من الطويل]

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه

ففي صالح الأخلاق نفسك فاجعل^(٤)

[١٠ - الإحسان إلى الرعية]:

وليحسن إلى رعيته إحسان من يؤدي حق الله فيهم، ويملك به خالصة قلوبهم؛ فإنه إن قدر على ملكة أجسادهم بسلطانه، فليس يقدر على ملكة قلوبهم إلا بإحسانه^(٥).

(١) حديث: «إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من نفسه»، مرّ تخريج هذا الحديث من تعليقات موضوع (أسباب الكبر)، وقد سقط هذا الحديث هو والكلام الذي جاء بعد بيت الشعر السابق - من نسخة ط.

(٢) غ: بتليط الحمد وما أثبتناه عن ط التي جاء فيها: قال أفضى القضاة في أثناء كلامه: فينبغي للملك أن يختار لنفسه الرغبة في أيامه...

(٣) قوله: «قال الشاعر» نسب هذا البيت إلى شعراء كثيرين فقد نسب إلى حزن بن جناب التميمي مرة وإلى المقنع الكندي مرة ثانية، وإلى أبي المياح العبدي مرة ثالثة، وإلى منفر بن فروة المنقري وغيرهم، انظر مصادر التخرّيج.

(٤) قول الشاعر: «وما المرء إلا حيث يجعل نفسه...»، البيت ذكره الماوردي في الأمثال والحكم، الورقة ٤٦ب، دون أن ينسبه لقائل وهو فيه بلفظ «...ففي صالح الأعمال...»، وهو في البيان والتبيين ١٠٣/٢، دون نسبة وينفس ما ورد هنا وقد نسب في الجزء الثالث، ص ٢٢٨ منه مع بيت آخر قبله هو:

وإن خفت من أمر فواتنا فوله سواك وعن دار الأذى فتحول

إلى منفر بن فروة المنقري، وقد مرّ هذا البيت بلفظ (واترك محل السوء...)، وقد استشهد الأوزاعي بالبيت بلفظه في المستطرف ٥٥/٢، وهو من شعر حزن بن جناب التميمي الشاعر الجاهلي في التذكرة السعدية ١/٣٢٢، بلفظ (صالح الأعمال)، منسوباً إليه بعد خمسة أبيات أخرى، وهو بلفظ «صالح الأعمال» أيضاً في الحماسة البصرية من شعر المقنع الكندي ج٢، هامش ص٣، مع بيتين آخرين وفي ج٢، ص٢٣، منها من شعر أبي المياح العبدي

(٥) قوله: «وليحسن إلى رعيته... إلى قوله إلا بإحسانه»، هذا القول هو معنى ما أثر عن =

وقيل:

قلوب الرعية خزائن ملكها، فإن أودعها من شيء فليعلم أنه فيها^(١).
(١٦٤)

وقيل:

من خاف إساءتك اعتقد مساءتك^(٢).

فإن استقامت له ظواهر رعيته، وأقاموا على أحكام طاعته، لم يفتش سرايرهم، ولم يؤاخذهم بما يخفونه في ضمائرهم؛ فإن ضمائر القلوب لا يؤاخذ بها إلا علام الغيوب.

ومتى تكلف ذلك كثر ارتياحه، وقلت ثقته، ولم يقف على صحيحه من فاسده، والتمس من العناء المضاع ما هو غنى عنه، واستفسد من قلوب الأعوان ما هو حذر منه، وعدل عما يستصلح به السرائر من الإحسان إلى ما يستفسد الظواهر من المكاشفة.

= أرسطوطاليس فيما كتبه إلى الإسكندر: «أملك الرعية بالإحسان تنظر منهم بالمحبة؛ فإن طلب ذلك منهم بالإحسان هو أدم بقاء منهم بالاعتساف، وأعلم أنك إنما تملك الأبدان، فتخطاها إلى القلوب بالمعروف»، سراج الملوك ١١٨، والمقد الفريد ١ / ٢٥ باختلاف.

(١) قولهم: قلوب الرعية خزائن ملكها، فإن أودعها من شيء فليعلم أنه فيها، ورد هذا القول في ط بلفظ: وجد في حكم الفرس مكتوب: قلوب الرعية خزائن ملكها، من أودعها من شيء فليعلم أنه فيها، وقد أورده الثعالبي منسوباً إلى خسرو بن فيروز بلفظ «قلوب الرعية خزائن ملكها فما أودعه إياها وجده فيها»، الإيجاز والإعجاز ١٢، ومن الكلام المنسوب إلى علي قوله: «قلوب الرعية خزائن راعيها، فما أودعها من عدل أو جور وجده» (غرر الحكم ٢٣٧)، وفي لباب الآداب غير منسوب وهو فيه بلفظ: «وقالوا: قلوب الرعية خزائن ملكها، فما استودعها من شيء فليعلم أنه فيها» (ص ٧٢)، وفي سير المتقدمين هذا الكلام بلفظ «فليعلموا» (سراج الملوك ١١٨)، وفي عيون الأخبار ١ / ١٠ بلفظ «فما أودعته».

(٢) ط: اعتمد مساءتك، وقولهم «من خاف إساءتك اعتقد مساءتك» ذكره الماوردي بلفظه في أدب الوزير ص ١٧ وفي أدب الدنيا والسدين (٣١٠) بلفظ: «من نالته إساءتك همته مساءتك» وقد ذكره ابن مسكويه ونسبه إلى قيس بن عاصم بلفظ «من خاف إساءتك اعتقد مساءتك»، ومن خاف صولتك ناصب دولتك» (الحكمة الخالدة ١٤١) وأبي الرخجي يقول قيس بن عاصم بلفظ «من خاف صولتك ناصب دولتك» (أحاسن المحاسن ١٤٧) ولورد القول نفسه ونسبه إلى معاوية وهو عنده بلفظ «إن من خاف إساءتك اعتقد مساءتك» (أحاسن المحاسن ١٤٧).

وحكى اليزيدي^(١) أن كسرى قباد^(٢) رفع إليه رجل من أصحابه: أن
في بطانة الملك جماعة قد فسدت نياتهم، ونجست ضمائرهم، وقد هموا بما
[لم]^(٣) يفعلوا، وهم غير مأمونين على الملك، فوقع:

أنا ملك الأجساد لا النيات، وأحكم بالعدل لا بالرضى، وأفحص عن
الأعمال لا عن السرائر^(٤).

قال سليمان بن داود عليه السلام:
كما أن الوجوه لا تشبه بعضها بعضاً، كذلك القلوب لا يشبه بعضها
بعضاً.

ليكن الملك بالظالم عسوفاً، وبالمظلوم رؤوفاً، لا يغلق عن
المتظلمين باباً، ولا يضيق عليهم حجاباً؛ فإن في عوادي النفوس سرّاً لا

(١) غ: البريدي، وما أثبتناه عن ط.

(٢) كسرى قباد بن فيروز وقد ملك بعد أخيه بلاس بن فيروز. وفي زمنه ظهرت فتنة مزدك الدينية. وقد
استمر حكمه ثلاثاً وأربعين سنة. انظر مروج الذهب ١ / ١٦٤، تاريخ سني ملوك الأرض
والأنبياء ص ٥٠.

(٣) الزيادة من لباب الآداب ٣٧ وفي ط بما لا، ولا يصح لأن الفعل بعدها قد ورد بحذف نونه.

(٤) قوله: وحكى اليزيدي أن كسرى قباد رفع إليه رجل... ذكر ابن قتيبة أن ذلك قد قرأه
في كتاب الآيين لبعض ملوك العجم، وأورده بلفظه (عيون الأخبار ١ / ٨) وانظر كتاب الترجمة
والنقل عن الفارسية ص ٢٥٩، وقد ورد في لباب الآداب بلفظ «وقع بعض العمال إلى
كسرى قباد في إنطاكية: للملك جماعة قد فسدت نياتهم... وهم غير مأمونين على المملكة
وهم فلان وفلان وفلان، فإن رأى الملك أن يعاجلهم فعل. فوقع في رقعة: إنما أملك
الأجساد... إلخ» (ص ٣٧-٣٨) وفي موضع آخر غير منسوب بلفظ «إنما سلطان الملك على
الأجساد دون القلوب» (ص ٧٢) وثالثة منسوبة إلى الحكيم (٧٢-٧٣) وقد أورده أبو حيان
التوحيدي بلفظ مقارب لما في المتن (البصائر والذخائر ٤٨٧) وقد ورد القول في أدب الوزير
ص ٢٦ وفي سراج الملوك ١١٨ و ٢٠٠ وتفسير روح البیان ١ / ٣٩٢ ونهاية الأرب ٦ / ١٦،
١٢٣، ونسبه الثعالبي إلى أنو شروان (نحاص الخاص ٨٥)، وفي عهد أردشير ص ٥٦ من
كلام أردشير، وفي الإيجاز والإعجاز ١٣ من كلام هرمز بن سابور وفي الحكمة الخالدة ٤٧ من
كلام بزرجمهر الذي كتب به إلى كسرى قباد، وفي عيون الأخبار ٢ / ٢٣٩ من خطبة
لعتبة بن أبي سفيان في أهل مصر، وانظر القول في العقد الفريد ١ / ٢٩، وعرر
الخصائص ٦٢ ومحاضرات الراغب الأصفهاني ١ / ١٦٧.

يكفه إلا الحنر، ولا خير في ملك لا يتناصف أهله، فإن أهملوا ارتبعوا^(١)، وإن خافوا ارتدعوا.

فليوقظ عزمه في تصفح المظالم، وإنصاف المظلوم من الظالم؛ ليكون أمراً بالعدل كما كان به مأموراً، وزاجراً عن الظلم كما كان عنه مزجوراً؛ فإن مراعاة المظالم من قواعد السياسة (٦٤ب) في انتظام الملك ومصالح الرعايا.

حكى^(٢) أن بعض الملوك ذهب سمعه فبكى، وقال: لم أبك من ذهابه إلا لأنني كنت أسمع ظلامة المتظلم فأنصفه، وقد صرت لا أسمعها وأنا أعتاض عن^(٣) ذلك ببصري، وقد حرمت لباس الحمرة إلا على متظلم لأعلم بحاله^(٤) إذا رأيت لباسه فأنصفه^(٥).

فلا خير في ملك لا ينصف الرعية، ولا تنتصف به الرعية.

وسنّ أردشير بن بابك في ملكه، وعمل به أكثر ولده من بعده، أن يجلس في يوم النيروز جلوساً عاماً للمخاصة والعامة؛ ليتقدم الخاصة للتهنئة، ويعقبهم العامة للمظالم، فإذا وصلت إليه رقاعهم جمعها وميزها؛ فإن كان التظلم فيها من غيره نظر فيه بنفسه، وأوصل المتظلم إلى حقه، وإن كان التظلم منه قام مع خصمه، وجثا بين يدي الموبذ وقال:

أيها الموبذ: ما من ذنب أعظم عند الله من ذنب الملوك، وإنما خولكها الله تعالى برعاياها، لتدفع عنها الظلم، وتذب عن بيضة الملك جور

(١) غ: ارتبعوا، وارتبعوا أي أقاموا.

(٢) ط: ذكر أن...

(٣) ط: عنه.

(٤) ط: إلا على المتظلم لا علم بتظلمه إذا رأته.

(٥) قوله: «حكى أن بعض الملوك ذهب سمعه...» روى هذا القول ابن قتيبة في قصة طويلة بين المصور ورجل، فانتظر في عيون الأخبار ٢ / ٣٣٥، قال الطوطوشي: ولقد بلغنا أن ملكاً من ملوك الهند نزل به صمم فأصبح متوجعاً مهتماً بأمور المظلومين... (سراج الملوك ٥٤) وأورد الغزالي شيئاً يشبه ذلك (نصيحة الملوك للغزالي ٦٨).

الجائرين، وظلم الظالمين، فإذا كانت هي الظالمة الجائرة، فحق لمن دونها أن يجور ويظلم، ومجلسي هذا منك وأنا عبد ذليل يشبه مجلسك من الله تعالى غداً، فإن آثرت الله تعالى آثرك، وإن آثرت الملك عذبك.

فيقول له الموبد: إن الله تعالى إذا أراد سعادة عباده اختار لهم خير أهل أرضه، وأجرى على لسانه ما أجرى على لسانك؛ ثم ينظر في أمره مع خصومه بالحق والعدل.

فإن صح على الملك شيء أخذه بأدائه^(١)، وإلا وكل بمن ادعى عليه باطلاً، ونادى عليه: هذا جزاء من أراد شين (٦٥) الملك والمملكة، والقدر فيهما بالباطل.

ثم يقوم أردشير، فيحمد الله تعالى، ويضع التاج على رأسه، ويقول لأهل بيته وخاصته:

(١) في تاريخنا نماذج رائعة لعدولهم، لا سيما في القضاء، فكانوا مثلاً يحتذى في العدالة والمساواة: فقد تحاكم عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته مع أبي بن كعب فانياً زيد بن ثابت في بيته ففُض بينهما وقال لعمر: لو أمرتني لجئت، فقال عمر: في بيته يؤق الحكم (انظر أدب القاضي للماوردي بتحقيقنا ١/ ١٩٨، ٢/ ٢٥٢، ٣٧٩) وانظر (سنن البيهقي ١٠/ ١٤٤). واختصم علي رضي الله عنه في خلافته مع يهودي وجد معه درعاً ضاعت منه يوم الحمل إلى شريح القاضي (سنن البيهقي ١٠/ ١٣٦) وانظر (أخبار القضاة لسويع ٣/ ١٩٤- ١٩٥ و ٢٠٠) وانظر (أدب القاضي للماوردي ٢/ ٢٥٠-٢٥١، ٤١٦).

وتحاكم المهدي وهو خليفة مع خصوم له بالبصرة إلى قاضيه عبيد الله بن الحسن العنبري، فلما رآه القاضي مقبلاً أطرق إلى الأرض حتى جلس مع خصومه مجلس المتحاكمين، فلما انقضت الحكومة قام القاضي فوقف بين يديه، فقال المهدي: والله لو قمت حين دخلت إليك لعزلتك، ولو لم تقم حين انقضى الحكم لعزلتك، ... (أدب القاضي للماوردي ١/ ٢٤٨- ٢٤٩).

وتقاضى المأمون بين يدي يحيى بن أكثم كما تحاكم كثير من الخلفاء مع خصومهم أمام القضاة (انظر التاج في أخلاق الملوك حاشية ١٦١ وحاشية ص ٢٠٨).

وقد صنف أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري كتاباً خاصاً في هذا الموضوع سماه: كتاب من احتكم من الخلفاء إلى القضاة؛ ذكره ياقوت الحموي ص ١٣٧ من القسم الأول من الجزء الثالث من معجم الأدباء.

ولئن سر هؤلاء الملوك يوماً واحداً في السنة، فإن السنة كلها في التشريع الإسلامي وقت ملائم لمحاكمة رئيس الدولة في ظل هذا التشريع الحكيم.

إني لم أبدأ بنفسي فأنصفت منها إلا لئلا يطمع أحد في حيف، فمن كان قبله حق فليخرج إلى خصمه منه^(١).

فهذه السيرة أبقى فيها للعقل، وتفرد فيها بالسياسة من كان الله تعالى أمره والوعيد زاجره.

(١) هذه القصة وردت في كتاب التاج في أخلاق الملوك المنسوب للجاحظ ببعض الاختلاف (ص ١٥٩-١٦٣) وعبارة المؤلف في نصيحة الملوك على الوجه التالي:

«وكذلك لم تنزل الملوك الحزمة يتواصون به -أي العدل- ويأمرون به في عهدهم، ويحشون [به] كتبهم، ويرسلونه آثاراً على وجه الزمان لهم في سيرهم، فقد كان ملوك [آل] ساسان الذين بقيت آثارهم على وجه الزمان لهم في السنة يومان في النيروز والمهرجان يظهران فيها للخاصة والعامة فلا يحجب عنهم في هذين اليومين أحد من صغير ولا كبير، ولا شريف ولا ضيع. وكان يأمر الملك منهم بالتداء في مملكته قبل قعوده بأيام؛ ليتأهب الناس ليوم المحفل، فيعد المظلومون حججهم، ويكتبون قصصهم، ويحضرون خصومهم. وربما اصططح كثير من أهل المظالم قبل ذلك اليوم؛ خوفاً من الفضيحة والتكيل والعقاب الشديد، وأصلحوا تبعاتهم، فلما كان ذلك اليوم أمر المويزان -وهو قاضي قضائهم- أن يوكل رجلاً من ثقات أصحابه، فيقف بباب العامة، فلا يمنع أحداً من الدخول على الملك، وينادي مناديه: من حبس أحداً عن رفع مظلمة فقد عصى الله، وخالف سنة الملك، ومن عصى الملك فقد أذن بخزي منه ومن الملك، وأمر الملك أن يؤذن للناس ويأخذ رقايعهم ويتأمل فإن كان فيها مظلم من الملك بدى به أولاً، وقدمت على كل مظلمة، ويحضر الملك المويزان الكبير والديريز ورأس سدة بيوت النيران ثم يقوم مناد فينادي: ليعتزل المتظلمون من الملك، فيعتزلون، ويقوم الملك مع خصومه حتى يجثو بين يدي المويزان فيقول: أيها المويزان إنه لا ذنب عند الله أعظم من ذنب الملك، وإنما خولها رعاياه ليدفع عنها الظلم ويذب عن بيضة الملك الظالمين وجور الجائرين. فإذا كانت هي الظلمة الجائرة فيحق لمن دونها هدم بيوت النيران وسلب ما في النواويس من الأكفان، ويجلسي هذا منك وأنا عبد ذليل شبيه مجلسك من الله غداً، فإن آثرت [الله أثرك، وآثرت] الملك عذبك. فيثني عليه المويزان خيراً ويقول له جيلاً. وربما قال: إن الله إذا أراد سعادة عباده اختار لهم خير أهل الأرض، وإذا أراد أن يعرفهم قدره أجرى على لسانه ما أجرى على لسانك. ثم ينظر في أمره وأمر خصمائه بالحق والعدل، فإن صح على الملك شيء أخذ به، وإلا حبس من ادعى عليه باطلاً ونكل به، ونادى عليه: هذا جزء من أراد شين المملكة والقدر فيها بالباطل.

إذا فرغ من مظالم الملك قام فسجد لله طويلاً، وحمد الله كثيراً على ما رفع عنه من المظالم، وحط عنه من الأوزار، ثم وضع التاج على رأسه، وجلس على سرير الملك والتفت إلى قرنته وخاصته وحامته فقال: إني لم أبدأ بنفسي فأنصفت منها إلا لئلا يطمع طامع في حيمي، فمن كان قبله حق فليرد إلى خصمه منه إما بصلح وإما بغيره.

[١١ - فعله للخير دائماً]:

وليكن^(١) من دأبه فعل الخير، إما ابتداء من نفسه أو اقتداء بالأخيار^(٢)؛ ليكون في الخير تابعاً ومتبوعاً، وفي العمل به حامداً ومحموداً.

فقد قيل:

الناس في الخير على أربعة أقسام:

منهم من يفعله^(٣) ابتداء.

ومنهم من يفعله اقتداء.

ومنهم من يتركه حرماناً.

ومنهم من يتركه استحساناً^(٤).

فمن يفعله ابتداء فهو كريم.

ومن يفعله اقتداء فهو حكيم.

ومن يتركه حرماناً فهو شقي.

ومن يتركه استحساناً فهو ردي^(٥).

ليكن ما يخلفه الملك من جميل الذكر وحسن السيرة، إماماً يقتدي به

== ثم كان أقرب الناس إلى الملك في الحق كأبعدهم، وأقوامهم كضعيفهم قالوا: فلم تزل الناس على هذا من لدن عهد أردشير إلى أن ساسهم يزجرد الأئيم، ثم غير هذه السيرة العادلة، وقتل أباه وكان من أمره ما كان...» (نصيحة الملوك للماوردي الورقة ٦٣-٦٣ب).

ووردت هذه القصة في كتاب السعادة والإسماء ص ٢٨٦-٢٨٧ وفيها زيادة «وكان أمرهم على هذا إلى أن ملك يزجرد فامتنع من التحاكم وقال: ليس للرعية أن تتصف من الملوك، فبينما هو في إيوان له إذ دخل فرس ملجم مسرج فرعه وقتله».

وتجد هذه القصة في نصيحة الملوك للغزالي، ص ٨٤.

(١) ط: قال أفضى القضية في آخر هذا الكتاب: وليكن من دأبه فعل الخيرات.

(٢) ط: بالأخيار من سلفه فقد قيل الناس في الخير أربعة أقسام...

(٣) ط: ومنهم يفعله.

(٤) قوله: «ومنهم من يتركه استحساناً» غير واضحة في نسخة ط.

(٥) قوله: «ومن يتركه استحساناً فهو ردي» غير واضحة في نسخة ط.

وكذا ما بعدها بمقدار سطر واحد ثم قال والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه محمد وآله أجمعين.

وقولهم: «الناس في الخير على أربعة أقسام... إلخ» انظره في أدب الدنيا والدين ==

الأخيار، ومثالاً يزدجر به الأشرار، فيكون بالحمد مذكوراً، وعلى الخير مشكوراً، قد أرشد بعد رشاده، وسدد بعد سداذه، فسعد بعمله حياً ومفقوداً، وصار بعمل غيره مأجوراً ومحموداً، فإن ذلك أنفس ذخائره يوم معاده، وأنفع ما يخلفه لمن اقتدى به؛ فخير الناس أنفعهم للناس. أمده الله عز وجل بتوفيقه وتسديده، وتكفل بمعونته وتأيدته، وكان له على الخير ظهيراً مرشداً، وعلى العدل معيناً مسعداً (٦٥ب) وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم^(١).



= ص ٩٦-٩٧ بتقديم وتأخير، وفي أحاسن المحاسن غير منسوب وفيه ... ومن يتركه استحساناً فهو غيبي (ص ١٦٢) وفي المستطرف بلفظ: «ومن تركه استحساناً فهو غيبي» ولم ينسبه لقاتل (١/ ٢٦).

(١) جاء في نهاية نسخة غ ما نصه:

تم الكتاب، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله وسلامه. وكان الفراغ في ليلة الاثنين حادي عشر رجب الفرد الحرام، المنتظم في شهر سنة ١٠٥٢ هـ على يد أفقر العباد، وأحوجهم إلى رحمة ربه الفقير عبد الرحمن المكي بآبي هادي بن محمد بن أحمد بن الجبواني الوقاد الشافعي، أحد العدول بمحكمة مصر القديمة، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين.

محتويات الكتاب

٣ مقدمة
	الباب الأول - في أخلاق المُلْك
٥ شهيد:
٦	الفصل الأول - أخلاق الذات:
٧ من هو الفاضل؟
٧ إلى أي شيء تعود الأخلاق
٨ لأي شيء تراد فضائل الذات؟
٨ إلى أي شيء تتوجه السعادة؟
٨ وجوب اهتمام ذي الإمرة بمراعاة أخلاقه
٩ أنواع الأخلاق
١٠ تفاضل الأخلاق
١٢	الفصل الثاني - أوائل الفضائل وأواخرها:
١٢ مبادئ الفضائل
١٣ أوائل الرذائل وأواخرها
١٧ ما هي الفضائل؟
١٨ تركيب الفضائل مع غيرها
١٩ نتائج كثير من الأخلاق تؤول إلى رذائل
٢١ أقسام الخلق الذاتي
٢٣	الفصل الثالث - أفعال الإرادة:
٢٣ أسبابها
٢٣ الفرق بين العقل والرأي
٢٦ الهوى
٢٨	الفصل الرابع - الكرم والمروءة:
٢٨ بين الكرم والمروءة

٣٠	انقسام الفضائل مع الكرم والمروعة
٣٢	الفصل الخامس - السجايا والأخلاق:
٣٢	الفرق بين السجايا والأخلاق:
٣٣	أحوال الإنسان في أخلاقه
٤٤	الفصل السادس - الأفعال الشريفة بالأخلاق الشريفة:
٤٤	شريف الأفعال وشريف الأخلاق
٤٦	أول ما يبدأ به الملك سياسة نفسه وتقويها
٤٨	إساءة الظن بالنفس
٤٩	أسباب حسن الظن بالنفس
٥٠	الكبر والإعجاب
٥٢	من أسباب الكبر والإعجاب
٥٨	الفصل السابع - شواهد الفضل:
٥٨	الوقار
٥٨	الثبت والصمت
٦٧	الفصل الثامن - الصدق:
٦٧	اعتماد الصدق
٦٧	الحذر من الكذب
٧٠	الترغيب والترهيب
٧٢	الفصل التاسع - توقي الغضب:
٧٢	الحذر من الغضب
٧٥	الحذر من المحل واللجاج
٨١	الفصل العاشر - الصبر:
٨١	الصبر والامثال
٨٢	أقسام الصبر
٨٩	الفصل الحادي عشر - كتمان السر:
٨٩	الكتمان والإفشاء
٩٣	من يستودع السر
٩٤	التحفظ في إيداع السر
٩٩	الفصل الثاني عشر - المشورة:
٩٩	فوائد المشورة
١٠٥	مباحثة ذوي الرأي

١٠٩	الفصل الثالث عشر - الأخلاق المتقابلة في الملوك :
١٠٩	الركة والركة
١٠٩	القسوة والقلظة
١١٠	السماحة والعطاء
١١٢	البخل والإسك
١١٦	الفصل الرابع عشر - الوفاء بالعهد :
١١٦	مزايا الوفاء بالعهد
١١٧	مساويء الغدر
١١٩	الفصل الخامس عشر - الحسد :
١١٩	تجنب الحسد
١٢٠	المنافسة
١٢٢	الامتنان
١٢٤	الفصل السادس عشر - تصفح لأعمال :
١٢٤	اعتقاد تصفح الأعمال
١٢٧	الحذر والاحتراس
١٢٩	الوعد والوعد
١٣١	الفصل السابع عشر - الطيرة والقأل :
١٣١	اعتقاد الطيرة
١٣٢	التفائل
١٣٥	الفصل الثامن عشر - الملوك قدوة للناس :
١٣٥	البعد بالنفس
١٣٧	الرجوع إلى الحق
١٣٩	الاعتدال
١٤٠	السواسية
١٤١	محاسبة النفس

الباب الثاني - في سياسة الملك

١٤٣	تمهيد
١٤٣	الفصل التاسع عشر - أن يكون الملك أفضل الناس ديناً :
١٤٨	الدين والملك
١٥٠	الدفع عن الدين بالملك
١٥٢	الفصل العشرون - قواعد الملك :

١٥٢	تأسيس الملك وأقسامه
١٥٢	تأسيس الملك على الدين
١٥٤	تأسيس الملك على القوة
١٥٥	تأسيس الملك على المال والثروة
١٥٨	الفصل الحادي والعشرون - سياسة الملك :
١٥٨	قواعد سياسة الملك
١٥٨	عمارة البلدان
١٦٧	حراسة الرعية
١٧٠	تدبير الجند
١٧٦	تقدير الأموال
١٧٩	مقابلة الدخل بالخرج
١٨١	الفصل الثاني والعشرون - أصل ما تبني عليه السياسة العادلة :
١٨١	الرجبة
١٨١	الرهبة
١٨٢	الإنصاف
١٨٧	الانتصاف
١٩٢	الفصل الثالث والعشرون - تهذيب الأعوان والحاشية :
١٩٢	سياسة الملك بالأعوان والحاشية
١٩٤	أصل ما يبني عليه قاعدة أمره في اختيارهم
٢٠٢	من يتفقدهم الملك من أعوانه؟
٢٠٨	تفقدته لمن سوى هؤلاء
٢١٠	من يحذر الملك أن يجعلهم في بطائنه؟
٢١٤	الفصل الرابع والعشرون - أشد ما يبنى به الملك في سياسة ملكه :
٢١٤	فساد الزمان
٢١٨	تغير الأعوان
٢٢٢	الفصل الخامس والعشرون - سياسة الملك وأحواله :
٢٢٢	بم يساس الملك؟
٢٢٢	أحوال الملك
٢٢٢	تثبيت قواعد الملك
٢٢٣	تدبير الرعية
٢٢٣	أحوال الملوك مع رعيته

٢٢٥	استقامة الأعوان
٢٣٣	استعمال الحزم وبسط العدل
٢٣٤	نصفح أحوال الخاشية في زمان السلم
٢٣٦	حسم مواد الفساد
٢٣٧	الفصل السادس والعشرون - دوام تفقد الملك الأحوال العامة :
٢٣٧	تفقد الملك سيرة حماة البلاد وولاية الأطراف
٢٤٨	استخبار الملك عن رعيته وحاشيته والنائبين عنه
٢٥١	مراعاة أخبار البلاد المتاخمة وملوكها
٢٥٢	حذر الملك قبول السعاية في أصحابه
٢٥٤	مراقبة أحوال التقود وأمر جبايتها
٢٥٨	الاهتمام بأمن السبل والمسالك
٢٥٩	مداينة الأعداء
٢٦٥	مساواة الملك نفسه مع الرعية
٢٧٤	رعاية العلم ومراعاة العلماء
٢٨٣	الإحسان إلى الرعية
٢٨٩	فعله للخير دائما

